

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السكينة الشامية
المكّة الأولى

جمادى الآخرة ١٣٧٥ هـ
يناير ١٩٥٦ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن كريم“



رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدي لنشرها

مجمع البحوث الإسلامية للآستانة الرضوية المقدسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٤١١هـ / ١٩٩١م

الأموال الفنية والطبع

مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة التحرير

بسم الله القوى العزيز وعلى بركته ، وبحمده تعالى وفي ظل نعمته ، وبالصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وصفوته ، وعترته الطاهرة وصحابته ؛ نبدأ العام الثامن لهذه المجلة المباركة التي أخلصناها حبنا ، وأصفيناها مجهداً ، وابتغيها بها مرضاة ربنا ، ورجوناها منبراً عالياً في العالمين ، تسمع من فوقه دعوة الوحدة على دين للتوحيد ، إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون .

اللهم إنا نَضْرَعُ إليك في مستهل عامنا الجديد ، أن تتولانا في حاضرتنا ومستقبلنا بما توليتنا به في ماضينا من عون وتوفيق ، فإنه لا عونَ إلا عونك ، ولا توفيقَ إلا بك . . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم .

أما بعد . فإن رسالة الإسلام ، فمكرة ودعوة ، بدأت منذ سبع سنين بدءاً على غير طراز سَبَقَ : لا نتحدث باسم طائفة دون طائفة ، ولكن باسم الإسلام ، ولا تسير في ركاب مخلوق ، ولكن توجه وجهها للذي فطر السموات والأرض ، ولا تنكص عن حق ، ولا تسكت على باطل ، ولا تدلس في حجاج ، ولا تجاري في لجاج .

وقد ضربتُ بنجاحها المستمد من تأييد الله وتأييده مثلاً للذين يظنون أن مجلة من المجلات لا يمكن أن تنجح إلا إذا جاملت هذا أو ذاك ، فشهرت اسمه ، ونشرت رسمه ، ورصدت حركاته ، وبجحت كلماته ، كما ضربت مثلاً للذين يحسبون

أن الحزبية أو الطائفية شرط في الإسماع والإبلاغ ، وأن الناس لا يقبلون إلا ما يرضيهم ، فكانت لهؤلاء وأولئك أسوة حسنة شرح الله بها صدور المؤمنين ، وجمع على كلمتها قلوب المختلفين ، ووقاهم بها شر المفسدين .

* * *

إن الله سبحانه وتعالى علم المؤمنين فيما عليهم من دعاء أن يقولوا : « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، والمؤمن يكون فتنة لغيره إذا كان على نوع من الحياة أو السلوك فيها يُتَّخَذَ دليلاً على أنه لم يُفَسِد من إيمانه ، ولم تنعكس به أضواء ساطعة على قلبه ، ولا أعمال نافعة على جوارحه ، فيقول الكافر : ما بال هذا لم يصلحه إيمانه ، ولم تنفعه عقيدته وشريعته ؟ وقد أتى على المسلمين حين من الدهر كانوا فتنة للذين كفروا : رأوهم ضعفاء فقالوا لم ضعفوا وقد زعموا أن دينهم دين القوة ، ورأوهم أذلة فقالوا لم ذلوا وقد زعموا أن دينهم دين العزة ، ورأوهم متقاطعين متدابرين ، فقالوا هذه حالهم على دينهم ، فكيف يدعوننا به ، ويهدوننا إليه ؟ .

ولقد سرى هذا الروح إلى بعض المسلمين ، فظنوا أن عقائدهم وأحكام دينهم ربما كانت هي السر في شقاوتهم ، فلم يعودوا يتحمسون للإسلام ، أو يغارون على مبادئه وأخلاقه ، بل أصبحوا يجادلون فيها ، ويحاولون زلولة الناس عنها ، وهكذا فتنوا ، ثم افتنوا .

إن « رسالة الإسلام » هي دعوة لإصلاح المسلمين في هذا الشأن وفي أمثاله : تناشدهم ألا يكونوا فتنة للذين كفروا ، بضعفهم وتخاذلهم وانصرافهم عن دينهم وجهلهم تعاليم شريعتهم ، تريد قادة للعالم ، مصلحين فيه ، وتائقين لأن يكونوا مصلحين إلا إذا كانوا في أنفسهم صالحين .

إن عهدنا إلى أمتنا فيما نستقبل من أمرنا هو منهاجنا الذي عرفوه في ماضينا : إيمان لا يعرف الشك ، ودعوة إلى الله لا تعز إلا بالله ، وحرب عوان على التعصب حتى يبرأ منه المسلمون .

محمد عارف

نفس القرآن الحكيم

سورة الأنعام

- ٢ -

الوحى والرسالة - سر إنكارها ودليل ثبوتها - مواضع هذا الدليل فى القرآن الكريم - المناقشة فى الوحى فرع الإيمان بالله - شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد - الاكتفاء بالعقل - الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين - الرد عليها - الشبهة الثانية بلسان المتكرين المعاصرين - الرد عليها - القرآن يثبت نبوة محمد والانبيا قبله - سر الاكتفاء بدليل إجمالى - أسلوب السورة مع المنكرين تلقينى إنذارى - سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول - مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار - إنعما يستجيب الذين يسمعون - إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين - تسليمة الرسول .

الوحى والرسالة :

كما تحدثت سورة د الأنعام ، عن الألوهية والربوبية ، ولفتت الناس إلى مظاهرها فى الخلق والتصرف والتدبير المحكم ؛ تحدثت عن حقيقة ثانية تنبئ على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى : ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدى عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم ، وتقوم عليه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم ، فإن ربوبيته - جل شأنه - ليست قاصرة على ما هياً لهم من أسباب الحياة المادية ، وإنعما هى ربوبية ذات آثار معنوية روحية كذلك ، ولعل هذا هو المعنى المراد

في قوله تعالى : « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، فأعطاؤه الخلق كل شيء هو مظهر النعم المادية التي أنعم بها عليهم ، حيث سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وهدايته هي مظهر النعم الروحية التي تفضل بها عليهم حيث وهبهم العقل وأسباب العلم ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وسن لهم الشرائع .

عُنيت سورة الأنعام ، بهذه الحقيقة كما عُنيت بالحقيقة الأولى ، فتحدثت في كثير من آياتها عن الوحي والرسالة من جوانب شتى ، بعضها يتصل بإثبات الوحي وبيان حكمته والرد على منكريه ، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفة الرسول وما ليس من وظيفته ، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسائل الإلهية ، وبعضها يتعلق بالآداب التي رسمها الله للرسول وما ينبغى أن يكون عليه سلوكه مع مخالفه وموافقه .

ومن الخير أن نعرض لهذه الجوانب التي عرضت لها هذه السورة الكريمة ، متعرفين إلى أسلوبها الذي عالجتها به ، منتفعين بهديها فيه .

سر إنكارها ودليل ثبوتها :

فن ذلك أنها تخصصت قضية الوحي والرسالة في صدر آية من آياتها ، هي الآية الحادية والتسعون ، يقول جل شأنه : « وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » ، فهذه الجملة على وجازتها تشتمل على ما يأتي :

(١) تسجيل كفر الكافرين بهذا الشأن الإلهي الذي هو إنزال الوحي على البشر .

(٢) الإشارة إلى شبهتهم الأساسية التي يتوارثونها خلفاً عن سلف في إنكار هذه الحقيقة ، وهي استبعادهم حصول ذلك ، أو زعمهم إغناء العقل عنه .

(٣) إجمال الدليل الذي يُردّ به عليهم ، وهو دليل صالح لكل عصر ، واسكل ثقافة ، لأنه دليل عقلي فطري فيه ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

مواضع هذا الدليل في القرآن الكريم :

ولعل من المفيد أن نذكر في هذا المقام أن هذه العبارة : د ما قدروا الله حق قدره ، جاءت في ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم :

الموضع الأول : هذا الموضع من سورة الانعام ، وقد أثبتت بقوله تعالى : د قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، وهو مقابلة لسلمهم العام حيث قالوا : د ما أنزل الله على بشر من شيء ، بالإثبات الجزئي لرسالة مشهورة معروفة ، وفيه بيان لوجه الحكمة في الإيحاء بهذه الرسالة ، حيث قصد بها أن تكون نوراً وهدى للناس ، ثم أثبت ذلك بالإشارة إلى القرآن الكريم في قوله تعالى : د وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، وهي إشارة إلى حاضر شاهد بين أيديهم ، مصدق لما سبقه ، مع بيان الغاية منه ، والحكمة في إنزاله ، وهي إنذار أم القرى ومن حولها .

والموضع الثاني : هو قوله تعالى في سورة الحج : د ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ، وفي هذا الموضع جاءت العبارة نفسها معقبة بإثبات قوة الله وعزته ، وأن اصطفاه الله الرسل من الملائكة ومن الناس شأن من شئونه .

والموضع الثالث : قوله تعالى في سورة الزمر : د وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، وفي هذا الموضع تفصيل لبعض مظاهر القوة والعزة التي أثبتت لله بحملة في الموضع الثاني ، ثم ينتهي الكلام بذكر المجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بين الناس بالحق .

وهكذا تتلاقى العبارة التي صُدِّرَ بها الكلام في هذه المواضع الثلاثة :
 « وما قدروا الله حق قدره ، مع ما جاء تالياً لها في كل موضع ، ويكون هذا
 التلاقى على معنى واحد مشترك هو إثبات أن الله يوحى ، لأنه قادر قوى ،
 ولأنه حكيم عليم .

المنافسة في الوحي فرع الإيمان بالله :

بعد إجمال القول فيما تفيد هذه الجملة ، ندبمه بشيء من التفصيل فنقول :
 إن قضية الوحي والرسالة من القضايا العويصة التي شغلت الناس قديماً
 وحديثاً ، لما لها من أهمية قصوى في حياة البشر ، إذ يترتب عليها مبدأ الإيمان
 بالاديان ، فيعترف أهل الأرض بتوجيه السماء ، أو مبدأ « اللادينية » ، التي لا تعترف
 بهذه الصلة ولا ترتبط بها وترى أن الإنسان سيد نفسه ، وسيد هذا الكوكب الذي
 يعيش على ظهره ، لا يتلقى في شأن من شئونه وحياً إلا من عقله وتجاربه .

ومن الواضح أن هذه القضية تأتي في الترتيب العقلي بعد الإيمان بالالوهية
 فن آمن بأن للوجود إلهاً مستحقاً للعبادة متصفاً بصفات الكمال والتنزيه ؛ أمكن
 أن يتناقش في الوحي والرسالة ، إذ الرسالة تقتضى وجود المرسل ، والوحي
 يقتضى وجود الموحى ، وإذا انتفى الإيمان بمصدر الوحي والرسالة ، فالكلام
 فيهما عبث لا طائل تحته .

وقد علمنا في الفصل السابق أن الناس في قضية الالوهية صنفان : صنف
 جاء الضلال من أنه أشرك مع الله آلهة أخرى ، فهو معترف بالله ولكنه يرى
 نفسه أقل من أن يتصل به مباشرة ، فهو يعبد الشركاء ليقربوه إلى الله زائفي ،
 وصنف أبعد من هؤلاء في الضلال ، وهم الذين ينكرون الإله ويرعون أن هذا
 الكون وجد بدون موجد ، وأنه يسير بنفسه دون مدبر ولا مصرف .

وعلمنا أن القرآن الكريم يثبت « الالوهية » بإثبات مظاهر الربوبية ،
 وأن هذا الإثبات يصلح للصنفين جميعاً ، فهو يصلح للذين يتخذون مع الله إلهاً آخر
 حيث يفيدهم أن الرب الذي « خلق » و « جعل » - أى أنشأ وصرف - واحد ،

فيجب أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والطاعة ، وهو يصلح أيضا لمنكرى الربوبية إطلاقاً ، من حيث إنه يناشد فطرتهم السكينة ، وعقولهم التي لا يمكن أن تتقبل محض المصادفة التي يزعمونها مع هذا الخلق الكامل ، والتدبير المحكم ، والشواهد الناطقات .

والصنف الثاني مع هذا قلة من الناس في كل عصر ، لا يؤيه لهم ولا يمكن أن ينافسوا أو يُساق لهم دليلٌ غير الدليل السكوني الذي يصرّون على إنكاره ، فلا حيلة فيهم غير تركهم وإهمالهم حتى تفرعهم القوارع التي تهذب نفوسهم وعقولهم فتوجههم إلى تدبر الآيات والبيّنات ، أو حتى تنقض حياتهم فيعودوا إلى ربهم فيعترفوا بما كانوا يمجّدون .

لهذا كله بنيت جميع العقائد الدينية وأدلة إثباتها على الأساس الأول والحقيقة الكبرى ، وهي وجود الله الخالق المتصرف المستحق للعبادة والطاعة ، ومن بين هذه العقائد ، أو هذه الحقائق ، حقيقة الوحي والرسالة ، فالبحث فيها مبنى على الإيمان بالله وبما له من صفات الكمال والتنزيه . وعلى هذا الأساس جادل الناس قديماً وحديثاً في قضية الوحي والرسالة ، وجودها فيها .

شبهتان قديمتان للمنكرين : الاستبعاد :

والقرآن الكريم يبين لنا في كثير من آياته أن هناك شبهتين قديمتين يقوم عليهما دائماً إنكار المنكرين :

إحدهما : أن ذلك مستبعد أو مستحيل ، إذ كيف يتصور العقل في زعمهم أن يتصل الخالق بالخلق فيوحي إليهم بأمره أو كلامه ؟ فالخالق له صفاته التي منها تنزهه عن المسكان والصوت ، والخلقون لهم صفاتهم التي منها أنهم محدودون قاصرون لا يستطيعون أن يتلقوا الكلام والأمر إلا من مثلهم ، وقد جوّهت الرسائل الإلهية بهذه الشبهة منذ العهود الأولى ، فنوح يقول لقومه : « أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون »

وهود يقول لقومه عاد هذه العبارة نفسها : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، والملا الكافرون من قوم صالح يقولون الذين آمنوا به : « أتعلون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، وهكذا كل رسالة حتى ليقول القرآن الكريم في الرسل عامة : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ، ويقول في شأن خاتم النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ... الخ .

وقد جاء هذا الإنكار المبني على الاستبعاد في سور الأنعام حيث تقول : « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلدسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... ، « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ، « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، إلى غير ذلك من الآيات .

الاكتفاء بالعقل :

الشبهة الثانية : أن الله تعالى وهب الإنسان العقل ، فهو كاف لهدايته وإرشاده ، وليس بالناس معه من حاجة إلى وحى أو رسول ، هكذا يزعمون .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الشبهة من شبه المنكرين فيما يبينه من حكمة إرسال الرسل في مثل قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، « ثلثا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، « ألم أعهد

إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم .

ومن ذلك في سورة الانعام قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس ألم يأنكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا . . ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحون ، أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . »

بعد هذا يسهل علينا أن نفهم أن قوله تعالى : « وما قدرُوا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . » فيه بيان لإنكار المنكرين ، وذلك مصرّح به في قولهم : « ما أنزل الله على بشر من شيء . » وفيه بيان لأن سبب هذا الإنكار أنهم لم يقدرُوا الله حق قدره ، حيث كان منهم من استبعدوا هذا على قدرة الله ، مع أنه غير مستحيل بل ممكن ، وكان منهم من نازعوا في أنه أمر تقتضيه الحكمة ، مع أنه هو عين الحكمة والمصلحة والرحمة ، وفيه إجمال للدليل الذى يرد به عليهم ، حيث يفهم منه أنهم لو قدرُوا الله حق قدره - أى عرفوه حق معرفته ، وأدركوا مدى قدرته وحكمته - لما نازعوا في هذه القضية .

الشبهة الأولى بلسان المنكرين المعاصرين :

بعد هذا يحسن بنا أن نتقف وقفة يسيرة مع المنكرين لهذه الحقيقة الإلهية من ملحدى عصرنا ، لنعرف في أى واديهيمون ، وكيف ننتفع بما أرشدنا الله إليه من هذا الدليل الفطرى فى الرد عليهم ، والتحذير من فتنهم وما يشيرون من شكوك .

لأنهم يصورون الوحى تصويراً علمياً كما يزعمون ، فيقولون : إن النبى ما هو إلا إنسان مفكر له عقلية تخالف عادة عقلية أهل عصره ، وهو لا يظهر إلا فى

عصور الفساد والضعف والبغى والطغيان ، فيثور في نفسه على هذه الأوضاع ، ويشد مقتله لها وتأمله في طريقة التخلص منها ثم يُفرض به ذلك التأمل العميق . والتفرغ الطويل ، إلى حالة يُعتقد معها أن العناية الإلهية لا يمكن أن تدع أمور الناس تجري هذا المجرى ، وأنه لا بد للناس من منقذ ، ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى هي مرحلة التطلع إلى أن يكون هو هذا المنقذ ، ثم إلى مرحلة الاعتقاد بأنه اختير فعلاً لهذه الرسالة وتمتلىء نفسه بهذه العقيدة حتى يتصور أنه يسمع فيها وحياً ، وأن ملكاً يغاديه بها ويرأوه ، وهو ليس بكاذب فيما يروى عن هذا الملك ، لأن خياله يحسّم له الأمر ولا يترك عنده ذرة من الشك فيه ، ثم يستغرق في اعتقاد ذلك حتى يثبت في نفسه ، ويوجه إرادته وجميع قواه إلى تحقيق ما اعتقد أنه رسالته التي بعث بها ، ويجد إلى جانبه من يؤمن به ويصدق كل ما يرويه عن عالم الغيب ، ويخضع لأمره ونهيه ، ويزداد هؤلاء المؤمنون يوماً بعد يوم ، وتقوم إلى جانبهم معارضة فتقوهم وتجعلهم يتكاثفون حوله مخلصين غير مترددين ولا شاكين في أنهم على الحق ، فهذا هو ما يسميه الناس وحياً ورسالة ، وهذا هو تصوير العلم له — يريدون علم النفس وماله من قواعد —

الرد عليها :

ومن الواضح أن هذا الذي يذكرونه ما هو إلا ظنون ومزاعم لا تستند إلى دليل عقلي تطمئن إليه القلوب ، ويرضاه المنصفون المحايدون ، وأن الذي حملهم على ذلك هو استبعاد إنزال وحى من الله على من يصطفي من عباده ، فهي نفس الشبهة التي كانت تراود سلفهم من أهل الشك والإنكار في عهود الرسالات وبعدها ، غير أنهم فلسفوها واتمسوا الفروض لها والتعليل لأسبابها ودوافعها كأنها ظاهرة من الظواهر المسادية التي تعودوا أن يطبقوها عليها هذا المنطق الخيالي الفرضي .

وسبيلنا في الرد على هؤلاء وبيان باطلهم أن نحجهم بما حجج الله به المشكرين قبلهم فنقول لهم : على أي أساس بنيت هذا الاستبعاد الذي أفضى بكم إلى التماس

العلل والفروض؟ وأى بُعد في أن يوحى الله إلى أحد من خلقه بوحى؟ وهل كل ما غاب عنا إدراكه وعجزت حواسنا عن تفهمه تنكره عقولنا؟ إننا نكشف كل يوم أسراراً في هذا السكون ما كنا من قبل نتصورها ، ثم تصبح على غرابتها أموراً معروفة مألوفة ، وإننا نرى الهبات الإلهية لا تقف عند الحد الذى تقبله إدراكنا المحدودة ، فكم رأينا من عباقرة أفذاذ لا نظير لهم في بيئاتهم ، ولا وجود التاريخ بعلمهم إلا في الحين بعد الحين ، وكم رأينا من أفراد أوتوا قدرة عجيبة في ناحية من النواحي لا تعرف أسبابها ، وأنا قد رأيت بنفسى غلاماً من إحدى قرى البحيرة ، في مصر كانت له موهبة حسابية عجيبة ، فهو يستطيع — مع أنه عامى جاهل — أن يستخرج حاصل ضرب عدد من كل منهما مؤلف من عشرة أرقام في ثوان معدودة ولا يخطئ في ذلك ، ويقال له إن فلاناً ولد في ساعة كذا من يوم كذا من عام كذا فما عمره بالدقائق فيجيب الإجابة الصحيحة في أقل من دقيقة بينما يعجز الحاسبون عن استخراج هذه الإجابة إلا بعد حساب طويل ، ولست أريد أن أقول إن النبوة والرسالة شيء من ذلك أو يشبه ذلك ، ولكن أضرب هذا مثلاً أودعه الله الإنسان من قوى ، وما يجود به على بعض عباده من مواهب لا يعرف سرها ، ولا يدرك كنهها ، فאלله قادر وهاب ، ولا حد على قدرته ، ولا مانع لما أعطى ، فهل يعجزه سبحانه أن يبيء بشراً أو ملكاً بقوة فوق العادة يستطيع معها أن يتلقى عنه أو عن ملك تلقى عنه ؟ إن الذى يقول باستحالة ذلك أو باستبعاده ينسى أن خلق الإنسان وتكوينه كله عجيب ، ويكفى أن يفكر الإنسان في أنه كيف يفكر ، ليعلم أن تفكيره من أعظم الآيات على قوة خالقه وقدرته وجوده الفياض ، ثم من ذا الذى كان يظن أن في الذرة هذه القوة الكامنة ، وأن في بعض رمال الصحراء التى ظلت ملايين السنين مهملة تذروها الرياح ؟ ما عرف لها من الخواص وما تصلح له مما هدى الله إليه أهل العلم الحديث ، ثم من ذا الذى يعرف مدى ما يصل إليه علم الناس وقدره الناس في المستقبل وهم خلق محدود العلم والقدرة ، وفيهم يقول الله عز وجل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . « وما أتم بمعجزين في الأرض

ولا في السماء ، فهل يجوز أن يصدر من هذا الإنسان المحدود استبعادُ شيء من الممكنات العقلية على الله ، وقد مكنته الله من الأرض ومن الحياة هذا التمكن ؟ وبذلك يجب استبعاد هذا الاستبعاد ، ويجب ألا ينسب للعقل القول به أو الميل إليه .

الشبهة الثانية بإسان المنكرين المعاصرين :

ولننظر بعد ذلك في الجانب الآخر من الشبهة على الوحي ، فإن بعض الناس يقول إن الله تعالى خلق الإنسان وألهمه العقل ليبيّن به الخير من الشر ، والنافع من الضار . وما ينبغي أن يسلكه من السبل وما ينبغي أن يتركه ، وبالعقل ارتفع الإنسان عن مستوى الحيوان ، واستطاع على ما به من الضعف الجسمي أن يسخره ويستخدمه ويوطّعه ، كما استطاع أن يحجب آفاق الدنيا وأن ينفذ بنور بصيرته إلى كل شيء ، وما هوذا قد فرغ أو كاد من الأرض وما عليها واتجه بآماله إلى السماء يتطلع إلى أن يعلم عليها ويدرك أسرارها ، ويقتحم كواكبها ، فماذا بقي له حتى يحتاج إلى الوحي أو يستمد الهدى من كتاب ينزل أو نبي يرسل .

هل الأرض محتاجة إلى هداية السماء وفيها هذا القبس العلوي من نور الله وهو العقل ؛ إن هؤلاء الذين قادوا البشرية في عهود الظلمات وسماهم الناس الأنبياء أو الرسل ما هم إلا عقلاء يمتازون قد صفت جواهر عقولهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم فرأوا بعين بصيرتهم ما لم يره الآخرون ، ووفروا زماناً طويلاً كان على الأجيال أن تقطعه حتى تصل إلى ما وصلوا إليه ، وتعلم ما علموا ، فلا شك أنهم نبغوا من نوابع العقول ، ولا شك أن ما رسموه لأنهم هو ثمرات طيبة من أزكى الثمرات العقلية ولا شك أن ذلك كله هبة من السماء ، ولكن لا على معنى أن ملكاً أوحى ، أو كتاباً نزل أو رسولا بعث ، بل على معنى أن الله وهب العقل لهذا الإنسان وجعله نوراً من نوره ، وما الكتاب إلا سطور من هذا النور ، وما الرسول إلا العقل فهو للناس بشير ونذير .

الرد عليها :

هكذا يقول منكرو الوحي اكتفاء بالعقل ، وبتعبير أدق : هذا ما يمكن أن يقولوه أو ما يُعبَّر به عن شبهتهم ، فهل أصابوا شاكلة الصواب ؟ كلا إنهم أحسنوا الظن بالعقل الإنساني حتى جعلوه رسولا هادياً ، وقبساً منيراً ، وجعلوا أثره كتاباً وافيّاً ، ودستوراً شافياً ، وهذا إيمان بالعقل ، وإن العقل لجدير بأن يكرّم حقاً وبه كان تكريم الإنسان ، ولكننا شهدنا كيف تختلف العقول وتفاوت ، وكيف يرى بعضها الشيء خيراً ويراه بعضها شراً ، وكيف تختلف لديها موازين الفضيلة والرذيلة ، وكيف تتحكم فيها الأهواء والشهوات فتلوّن أحكامها ، وتؤثر في إدراكها للأمور ، وكيف يعميها التعصب فترى الحق باطلاً والباطل حقاً ، وكيف تتخذها العادة المألوفة كما تتخذ الحواس الظاهرة فتخيّل لها الأوهامَ حقائق ، فهل يترك الله خلقه لعقولهم غصب ، أو تقتضى حكمته ورحمته وربوبيته أن يهدى هذه العقول ، ويحكم على اتجاهاتها المختلفة حكمه الفاصل بين ما هو رشد وما هو غيٌّ في ثوب رشد ؟ هل يترك الله الإنسان لعقله غصب فيصطدم الناس بعضهم ببعض في الحقائق والأحكام والنوازل كل يُحكم فيها عقله وما رآه ، ويعتقد أنه المصيب وغيره المخطئ ، وأنه المحقّ وغيره المبطّل ، أو الخير كل الخير ، والحكمة كل الحكمة ، أن يضبط بالوحي والرسالات ما هو حق وما هو باطل ، وأن يلزم الناس حكماً فصلاً يدرأ الخلاف ، ويتقضى على الخصومات ، ويقر الأوضاع السليمة ؟

إن الناس متساوون ، وقد أُلّف المتساوون ألا يخضع بعضهم لبعض خضوعاً قلبياً صادقاً ، فلا بد من قوة عليا يخضعون لها جميعاً ، ويرضون بها جميعاً ، قوة تحسم وتحكم وتقبّل مقاييسها ، ويرجع إليها المختلفون ، ولا بد أن تكون هذه القوة العليا إلهية ، فالإنسان خاضع للإله الذي خلقه ، خاضع له جسماً ومادة وروحاً ، فيجب أن يكون خاضعاً له توجيهاً وتشريعاً ، وبغير ذلك يكون الإنسان متعدداً طوره ، خارجاً على طبيعته ومقتضى خلقته وبشريته . ولو ترك

الناس لعقولهم ولم يُنْهَد هذه العقول بالشرائع لاختلفوا اختلافاً كثيراً ، ولما كادوا يلتقون على مذهب في الحياة يدينون به وينزلون على حكمه ، وهذه هي المذاهب الإنسانية التي ابتكرتها العقول تحير الناس ، وتقيم المشكلات وتعجز عن الحلول ، وتدفع إلى الحروب المدمرة ثمرات البشرية من أرواح وأموال ومنشآت ، فهل أغنى عن الإنسان عقله ، وكلل سعادته البشرية بعد انطلاقتها من دائرة الدين والوحي والرسالات إلى دائرة النازية أو الفاشية أو الشيوعية أو الرأسمالية ؟ .

والخلاصة أن العقل كما يقولون جوهره نورانية ، وهبة إلهية وهبها الله عباده وجعلهم بها أكرم خلقه ، كلُّ ذلك مسلم ولا شك فيه ، ولا ينبغي أن ينكر العقل أو يرفض حكمه ، ولكن العقل مع ذلك محدود لأنه مخلوق وكل مخلوق محدود ، فيجب ألا نتجاوز به حدوده ، وإلا كنا مخالفين له .

وإذن لحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، تقتضيان ألا يترك الإنسان لمجرد العقل وأنه لا بد للأرض من هداية السماء ، ولو قدروا الله حق قدره ، وعرفوه حق معرفته لما أنكروا هذه الحقيقة .

القرآن يثبت نبوة محمد والأنبياء قبله :

وشيء آخر في هذا المقام يجب أن نجليه حتى ينكشف كل ظل من ضلال الشبهة على الوحي والرسالة ، فإني لأعرف أن كثيراً من الناس تحوُّك في صدورهم بعض الشبه ولا يستطيعون أن يفضوا بها ، أو يسألوا عنها ، إما حياء وإما خوفاً ، فن الحير أن نكاشفهم بما في نفوسهم لنجلوهم عنهم ، وتطهر منه قلوبهم ، وباقه التوفيق :

إن بعض الناس يقول : هبنا سلينا أن الوحي ممكن ، وأنه متفق مع الحكمة ، وأن الإنسان لا يستغنى بالعقل ، فهل هذا يدل على صدق الرسل الذين ادعوا أنهم جاءوا بالرسالات ؟ هل هذا يدل على أن موسى وعيسى ومحمد وغيرهم كانوا رسلاً في الواقع كما ادعوا ؟ إن جواز حصول الشيء لا يستلزم أنه وقع فعلاً ، فيبقى أن يقوم الدليل على أن هذه النبوات واقعة .

ونقول لهؤلاء : أما نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد ثبتت بمعجزته القاطعة التي هي هذا القرآن الكريم ، فلا يمكن لعقل من العقول أن يجوّز صدور هذا الكتاب المحكم من شخص نشأ يتيماً فقيراً أماًياً في بيئة مشركة جاهلية لم تُعرف بما عُرفت به الأمم الكبرى في عصرها من العلوم والنظم ، وقد كان العالم في عهد هذا الأُمّيّ اليتيم مضطرباً أشد الاضطراب ، وكان رجال الأديان فيه مختلفين أشد الاختلاف ، فكانت البيئة القريبة لهذا الأُمّيّ بيئة شرك ووثنية ، وكانت البيئة البعيدة منه بيئة خلاف وتنافس على السلطتين : الدينية والزمنية ، فن أين له هذا الكتاب المحكم الذي اشتمل على مبادئ الإصلاح العالمي كلها ، والذي لم يستطع العلم في أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التي جاء بها ، إن القرآن الكريم قد تحدّى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا ، ولكنه أيضاً تحدّى الزمان كله بخلوده وصحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتحدى الناس في كل عصر ، فلم يستطع أحد أن يزعم أنه من وضع البشر ، اللهم إلا الذين لم يتذوقوه ولم يتدبروه ، أو الذين ينكرون الحقائق الواضحة تعصبا عليها

وإذا ثبت بهذا الذي أجملناه أن القرآن الكريم دليل على صدق محمد ، وآية إلهية من الله للناس ، فإن جميع النبوات تثبت به : نبوة محمد ، ونبوة الأنبياء قبل محمد .

هذا إجمال ، أما تفصيل الكلام في دلالة القرآن على صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أنه مرسل من ربه ، فإنه بطول وليس هذا موضعه ، فإنما أردنا هنا أن تثبت الوحي ، وأن نبين أن ذلك يؤخذ من قوله تعالى : « وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » .

سرا لاكتفاء بدليل إجمالي :

وقبل أن نتقل من هذه النقطة ؛ ينبغي أن نتعرف السر الذي جعل القول في دليل الوحي والرسالة يأتي بجملاً مركراً على هذا النحو ، فنقول :

أجملت سورة « الانعام » ، هذه الحقائق في صدر الآية التي تلونهاها ، وكان هذا الإجمال أسلوباً مقصوداً لم يأت عفواً ، وذلك لأن السورة قامت على أساس أنهم قوم جاحدون ، لا تجدى معهم الآيات ، ولا تنفع في إقناعهم الدلائل ، فآله سبحانه وتعالى يقول في أوائلها : « وما تأنيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون .

فالسورة إذن أمام قوم يرفضون الدلائل في إصرار ، ويستجدون في استكبار ولا يعابون بما أصاب القرون من قبلهم ، ويطلبون ما لا يمكن أن يكون ، بينما ينكرون ما هو ممكن وما هو حاصل فعلاً ، يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكاً يؤيده وينذر معه ، بل يطلبون - كما في آيات أخرى - أن ينزل عليهم الملك لا أن ينزل مع الرسول غضب ، بل وصل بهم الأمر إلى أن طلبوا رؤية الرب جل وعلا ، وفي سورة الفرقان تسجيل هذين المطلبين عليهم حيث تقول : وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً .

وهم في هذا متعنون مستهزئون ، لأن الملائكة إذا نزلت كان في نزولها نهايتهم وهلاكهم ، لأنهم لا يطيقون هذه الرؤية ولا يتحملونها بمقتضى تكوينهم البشري ، ولهذا تقول سورة الانعام : « ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون » ، وتقول سورة الفرقان : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » .

هذا مع كونهم يستبعدون على بشر أن يؤتیه الله الوحى والنبوة ، ويعتقدون الشبهة القديمة القائلة : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأنكم إذن لحاسرون ، فهم متناقضون فى تقدير قيمة البشر ، تارة يرفعون أنفسهم إلى درجة يطلبون معها أن تُنزل عليهم الملائكة أو يروا وبيهم ، وتارة يقررون أن البشر أقل من أن يوحى إليهم ويتلقوا عن الله بواسطة الملك ، وإنما جاء تناقضهم من أنهم عابثون مستهزئون مصرون على الإنكار غير عابثين بما يقعون فيه من خلط ، وقد بينت السورة فى هذه الآيات أن الله تعالى لو قضت حكمته بإجابتهم إلى ما يطلبون من إنزال ملك مع الرسول ، أو جعله الرسول ملكاً ، لما أنزله إلا فى صورة رجل لما ذكر من عدم الاستعداد البشرى لرؤية الملك على هيئته ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشراً ، ولا يزالون يكررون طلب إرساله ملكاً .

أسلوب السورة مع المنكرين تلقينى إنذارى :

إن هذا الموقف الذى يقفونه من الرسالة يستدعى ألا يناقشوا أو يجادلوا ، لأن النقاش والجدال مع المعاندين إنما هو جهد ضائع ، وعبت فى غير طائل - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ولهذا نجعل السورة دليل الوحى والرسالة هذا الإجمال الذى تحدثنا عنه ، ونسير معهم سيرة الإنذار والتوعد ، وتلقين الرسول ما يقوله لهم مرة بعد مرة بلفظ : « قل ، ، ولا تتركه يسترسل معهم فى حجاج ، أو يستمع إليهم فى اقتراح أو اشتراط ، أو يحزن لما يقولونه عنه وعن دعوته ، أو لما يؤذونه به ، أو يترقب من الله أن ينزل عليهم الآيات المؤيدة له ، أو أن يعجل لهم ما يستعجلون من العذاب ، تلزم السورة فى كثير من آياتها هذا الأسلوب أسلوب أمر الرسول بلفظ : « قل ، ، حسبنا للأمر ، وتلقينا الرسول ما يجب أن يقول : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، قل لمن ما فى السموات والأرض ، قل لله ، . « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، .

« قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيدٌ بيني وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لا بذركم به ومن بلغ ، أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد ، . . قل أرأيتم إن أناكم عذاب الله ، . . قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، . . قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، . . قل لى نهيّت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت لذن وما أنا من المهتدين ، قل لى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلاّ لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، إلى غير ذلك من الآيات المنذرة الملقية بالقول تلوّ القول فى وجوههم ، والمفضية إليهم بالحقائق والعواقب إرهاباً لهم ، وتخويفاً لكل من سار على خطتهم ، ذلك بأنهم ليسوا أهل حجاج واقناع بالمنطق ، وإنما هم أهل عناد وإصرار ، واستهزاء واستكبار .

فهذا هو السر فى إجمال الحجة ، والاكتفاء بتقريرها موجزة مركزة كما بينا ، مع توجيه الأسلوب على هذا النحو التلقينى الإنذارى الرهيب .

سورة الأنعام وبيان الحقيقة فى شأن الرسول :

وننتقل بعد هذا إلى جانب آخر من الجوانب التى عرضت لها سورة الأنعام ، مما يتصل بالوحى والرسالة ، فنقول .

كما وجد فى الناس من ينكر الوحى والرسالة ويرى أن البشر ليسوا مستعدين لتلقى كلام الله ؛ وجد فيهم أيضاً من يسرف فى تضخيم شخصية النبي ووظيفة الرسول حتى يسكاد بنفسى أنه بشر ، فتراهم ينسبون إليه علم الغيب ، وتراهم يهجون لا كله الطعام ومشيه فى الأسواق ، وتراهم يطلبون فيه أن يكون غنياً عنده من الخزائن ما لا ينفد ، وأحياناً يطلبون منه الإتيان بالمعجزات ، ولعلمهم أيضاً لا يتصورون فيه أن يغضب أو يمرض أو يحزن أو يهزم فى الحرب ، أو يُردّ عن أمل من آماله إلى غير ذلك من العوارض البشرية .

وهكذا يقف هؤلاء من النبوة موقفاً مناقضاً تمام المناقضة للأولين الذين ينكرونها ، فبينما يغالى هؤلاء فى النبى حتى يوشكوا أن يخرجوه عن بشريته ؛ يغالى أولئك فى إنكار ما منحه الله من قوة غير عادية تمكنه من تلقى الوحى منه ووعيه وتبليغه للناس .

والله سبحانه وتعالى يرشد عباده الى واقع الامر وحقيقته ، ولا يرضى منهم أن يتجاوزوا هذا الواقع بالميل الى جانب هؤلاء أو أولئك ، وقد كان لسورة الأنعام عناية واضحة بهذا الامر ، فهى تبين شأن الرسول تارة على سبيل السلب بنفى شيء عنه ، وتارة على سبيل الإيجاب بإثبات شيء له ، وتارة على سبيل الحصر الجامع بين النبى والإثبات ، وأحياناً بتصوير ما ينتاب الرسول من العوارض البشرية كالخزن والالم وضيق الصدر والخرج ومحاولة المجاملة لجذب الأقوياء انتفاعاً بهم ، ووشك الميل الى بعض ما يريدون ، وأحياناً بتعليمه ما يردُّ به على المبتلين ، وارشاده الى السلوك السليم فى معاملة المخالفين والموافقين ، وتسليته واستلال بواعث اليأس الذى يتعرض له بحكم بشريته ، الى غير ذلك مما يريد الله به أن يبين للناس منزلة النبى وواقع أمره ، حتى لا يخرجوا به عن وضعه ، وحتى لا يخططوا كما خطط الذين زعموا رسولهم ابن الإله ، ثم لم يكفهم ذلك حتى كان فيهم من اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

مهمة الرسول تنحصر فى التبشير والإنذار :

تقول سورة الأنعام ، « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب بما كانوا يفسقون ، قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى لى » ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون . »

بينت هذه الآيات مهمة الرسل ، وأنها لا تتمدى التبشير والإنذار : التبشير بأن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الذين يأمنون فلا يصيبهم خوف ،

ويفرحون فلا يصيبهم حزن ، والإنذار بأن الذين كذبوا بآيات الله يصيبهم العذاب بسبب فسقهم وخروجهم عما رسم الله من حدود في العقائد والأحكام ، فالرسول أذن لم يأت بشيء من عنده ، وإنما هو مبلغ عن الله ، معترف به ، لا مثبت ولا منشىء . وليست له قوة وراء هذا الاستعداد للتلقى والتبليغ ، لم يعطه الله خزائنه ، ولم يجعلها عنده يتصرف فيها كما يشاء ، حتى يطمع طامع في الانتفاع المادى عن طريقه ، أو يخاف أحد الحُرمان المادى إن حاد عن هذا الطريق ، فإن خزائن الله لم تزل عند الله ، ولم تزل خاضعة لسنة خاصة من سنن الله ، فالله يعطى من أحب ومن كره ، ويغنى ويفقر لا بسبب الدين والإيمان ولكن بأسباب أخرى ، فليس لأحد أن يتخذ الدين والرسول وسيلة إلى أمر من الدنيا ، وليس لأحد أن ينتظر من الرسول حرمان أعدائه ومخالفه من منافع الدنيا ، ثم هو بعد ذلك بشر لا يعلم الغيب ، ولا يعرف ما يكون غداً ، ولا يقول للناس إنه تخلص بالرسالة من آثار بشريته وأصبح ملكاً ، وإنما هو بشر مثلهم ، وكل ما يمتاز به عليهم أنه يوحى إليه وأنه متبع لهذا الوحي لا يحيد عنه ، فعليم أن يفكروا في ذلك كله بعقولهم ، وأن يتدبروا هذا الوضع تدبر المبصرين المدركين ، وألا يضلوا فيه ضلال العمى المتحيرين .

إنما يستجيب الذين يسمعون :

وتقول السورة « وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » .

تعلمه هذه الآيات — صلوات الله وسلامه عليه — أن الناس ليسوا سواء أمام الهدى الإلهى ، فمنهم الجاحدون الكافرون أو المعاندون الذين ينكرون الحياة الأخرى ، ولا يعترفون إلا بالحياة الدنيا ، فهم يسرون على هذا الأساس ،

ولا يتقبلون إنذاراً ولا يخافون عذاباً ، إن هؤلاء قد سدوا على أنفسهم منافذ الهداية فدعهم ولا تنجهم اليهم ولا تحاول أن تضيق وقتك في ترضيهم أو مجاملتهم أو النظر في شروطهم التي يشترطونها للإيمان بك ، وتصديق الذي جئت به ، ومنهم المصدقون الذين يخافون ربهم ، ويعلمون أن وراهم يوماً ، وأنهم سيحشرون إلى ربهم فيسألهم ويحاسبهم ولا يحول بينه وبينهم أحد بولاية أو شفاعة ، هؤلاء هم الذين يتقبلون الإنذار ، لأنهم فكروا وتدبروا تخافوا ، فلتسكن عنايتك متوجهة إليهم ، وليكن حرصك مقصوراً عليهم .

وهذا المعنى الذي يذكره الله لرسوله في هذه الآية هو إرشاد إلى سنة من سنن الله في الخلق ، أو هو — بتعبير حديث — تعريف بخلق نفسى اهتدى إليه علماء النفس أخيراً ، ذلك أن الناس يختلفون من حيث تقبل الأفكار والتشكر لها ، وأن ذلك يرجع أحياناً في نفس المنكر إلى عقدة خفية تجعله يرفض قبول ما يساق إليه ولو كان بآدى الصحة مؤيداً بالدليل والبرهان ، وقد تكون هذه العقدة استكباراً في النفس لأن غيره تقبله قبله ، أو لأن الذي تقبله أقل منه مركزاً ، أو لأن في قبوله تقيداً بما لا يحب أن يتقيد به ، أو تركاً لما لا يحب أن يتركه ، إلى غير ذلك ، وهذا هو الذى عناه القرآن بمثل قوله « أصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الفى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين ، ، أما الذين يتقبلون فإن نفوسهم خالية من هذه العقد ، أولهم قوة عقلية ، وشخصية مؤثرة تجعلهم يتغلبون على عوامل التردد والهوى الخفى فى أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بمثل قوله « هدى المتقين ، ، إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، وقد جاء فى سورة الانعام من هذا غير الآية التى تحدث عنها قوله تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون ، ، وذو الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ، .

إرشاد الرسول إلى المسلك القويم مع المخالفين والموافقين :

وقوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم ، الخ نهى للرسول صلى الله عليه وسلم عن الاستجابة إلى ما كان يطلبه إليه المستكبرون من إبعاد الفقراء والضعفاء الذين اتبعوه ، فقد جاء في أحاديث السيرة وأسباب النزول أن الملائكة المستكبرين من قريش كانوا يطلبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه ضعفاء المؤمنين من أمثال صهيب وعمار وخباب ، وأنهم كلوا في ذلك مرة عمه أباطال ، وأن عمر أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبوله ، فجاءت هذه السورة وفيها نهى له عن الأخذ بهذا ، فالسكلام في ذلك من أول قوله تعالى : « وأنذر به الذين يخافون » إلى قوله جل شأنه : « فإنه غفور رحيم » ، مراد به إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يسلكه في هذه القضية ، وتعليم له أن صاحب الفكرة والمبدأ يجب ألا يجمال فيه قوياً لقوته ، وألا يجرح ضعيفاً لضعفه ، وإنما العبرة بالإيمان ، والولاية والأولوية لأهل الإيمان .

وقد ذكرت العبارات الواردة في هذه الآيات بما جاء في قصة نوح عليه السلام حيث يقول له قومه : « وما نراك أنبئك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ، وحيث يقول لهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا ، « من ينصرتي من الله إن طردتهم » .

وهكذا نعلم أن الناس هم الناس ، لا فرق بين الذين كانوا في عصر نوح ، والذين كانوا في عصر محمد ، وإنما لئلا يرى خلفاً بيننا لهؤلاء السلف يحاولون احتكار مجالس الحكم والسلطان والتوجيه دائماً ، ويحبون أن تخلو لهم وجوه الحاكمين والمصلحين بحجة أنهم الأشراف والسادة والأقوياء ، وأن الآخرين هم الضعفاء والمسدودون .

وتبين الآيات بعد هذا أن الله تعالى يمتحن عباده ليظهر الذين يرضون عن تقبل الحقائق استكباراً وغروراً وترفعاً عن قبول ما قبله المستضعفون ، أو حسداً لهم على ما آتاهم الله من فضله .

وقد حدثنا التاريخ أن هذا دائماً هو أسلوب المستكبرين ، وأن الحق إذا ظهر من جانب الضعفاء أو أصحاب المراتب الصغيرة أحجم عنه أهل الغرور بأنفسهم والمدلوّن بما لهم من مراتب عليا في مجتمعهم ، فتراهم يقولون بلسان حالهم أو بلسان مقالهم مثل ما قال الأولون : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ .

وفي هذا أيضاً إرشاد لسنة من سنن الله في الناس ، وهي أن أصحاب المواهب وأهل الذكاء والعاملين المخلصين من شأنهم أن يحسدوا وأن تمتلئ قلوب المتخلفين عنهم بغيظهم والحقد عليهم ، وأن على الولاة والرؤساء أن يدركوا ذلك ويحترسوا منه ، ولا يدعوا سبيلاً إلى الحاسدين والحاقدين تمكّنهم من إقصاء العاملين المخلصين شفاء لما في صدورهم من الحقد ، وإطفاء لنيران الحسد التي تأكل منهم القلوب .

وتأمر السورة بعد هذا بإحسان معاملة المؤمنين وتبشيرهم برحمة الله ومغفرته حيث تقول : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » .

وهذا تعليم إلهي من الله لرسوله في مقابل ما كانوا يراودونه به من طرد المؤمنين وإقصائهم ، وإنه لأدب كريم يجب أن يجعله كل مصلح يُصب عينيه ، وأن يطبقه في معاملته لأصحابه ومعتنقي فكرته ، فإن من أحسن ما يملك القلوب اعتراف الكبير بإحسان الصغير ، إن له فعل السحر في النفوس ، إذ يبعثها على المبالغة في التجويد والإتقان والإخلاص ، وعلى العكس من ذلك إذا أنكرت الجهود النافعة ، ونُسيت الأعمال الصالحة ، وتجاهل الرئيس ما يبذله المرموسون من جهود ؛ فإن ذلك يكسر نفوسهم ، ويفتت في عضدهم ، ويبدّلهم بالإخلاص والدأب تماوياً وتراخياً .

وأدب آخر في هذه الآية الكريمة هو التوجيه إلى التبشير ، والابتعاد عن التنفير ، فإن التبشير من شأنه أن يبعث النشاط ، ويزيد الطاقة ، والتنفير من شأنه أن يهد القوي ، ويفسد النفوس .

تسليية الرسول :

وتقول سورة الانعام ، في تسليية الرسول ، واستلال عوامل اليأس والحزن من قلبه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلبا فى السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . »

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحزن ويشهد حزنه لما يقابله به قومه من الإعراض والتكذيب ، ويخشى على دعوته أن يطول عليها أمد تكذيبهم ، وكان حزنه وإشفاقه يصلان إلى مدى بعيد حتى ذكر القرآن الكريم فى بعض الآيات أنه حزن يكاد يؤدي إلى ذهاب نفسه وهلاكها حيث يقول : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، . لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ، « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، وهذا الحزن الشديد مظهر من مظاهر بشرية صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك احتياجه إلى التسليية والتثبيت ، فإن الله سبحانه وتعالى كان يتعهده بذلك فيما ينزل من القرآن ويضرب له أمثال السابقين ، ويقص عليه قصص المرسلين ، فالنبوة لم تخرجه عن مقتضى بشرية من التأثر بدواعى الحزن ، والحاجة إلى التقوية والتثبيت ، وفى هذه الآيات من سورة الانعام يذكر الله له أنه يعلم حزنه ، وأن هذا الحزن لما يقوله أعداؤه عنه وعن دعوته ، ثم سلاه وخفف عنه حزنه بتعريفه أن هذا الإعراض الذى يراه منهم ليس راجعاً إلى أنهم يعتقدون كذبه ، فقد جربوا عليه الصدق طول حياته ولم يعهدوا عليه كذبا ، ولكن هذا الإعراض راجع إلى شأن عام لجميع الظالمين من أعداء الحقائق فى كل زمان ومكان ، فقد جرت عادة الظالمين أن يجحدوا بآيات الله ، والجحود هو نفي ما فى القلب لإثباته ، أو لإثبات ما فى القلب نفيه ، فهم يعلمون أن آيات الله حق ، وأنتك صادق فيما تبلغه عن ربك ،

وهذا كما جاء في موضع آخر حيث يقول الله عز وجل : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، ومصدقه من السيرة ما روى من قول بعض هؤلاء الجاحدين : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجأئنا على الركب وكنا كفرسئ رهان قالوا منا نبئ يأتيه الوحي من السماء فني ندرك هذه ؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه ! » .

ثم ضرب الله تعالى لنبيه مثل الرسل من قبله حيث صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصر الله ، فكان ذلك بشارة قوت بها عينه ، وثلاج لها صدره وعقب ذلك بأن هذه سنة الله في الرسل وكلماته التي لا مبدل لها ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ، وشبهه بهذا قوله تعالى في آيات أخرى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » .

وقد جاء في مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هذه السنة ليست خاصة بالرسل ، وإنما هي عامة في المؤمنين المصلحين ، إذ يقول الله عز وجل : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فكما أن هذا كان تبشيراً للنبي ، واستللاً لبواعث الحزن من نفسه ، ينبغي أن يأخذه كل مصلح مؤمن داع إلى الله ، بشرى يثبت بها فؤاده ، ويقوى بها عزمه ، ويسير بنورها وهداها في طريقه منتظراً النصر من ربه وإن تحالفت عليه الأعداء وكثرت في سبيله العقبات ، فإن الإخلاص يذل الصعاب ، ويفتح الأبواب ، وإن الله مع الصابرين .

ولقد شاء الله تعالى أن يحسم كل أثر من آثار حزنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ينقذه من ترقبه لآية من الآيات التي كانوا يطلبونها ليؤمنوا به ، حيث كانوا يقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه ، فقال له عز وجل : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ... الخ . والمعنى لسنا بمجبي هؤلاء إلى ما يطلبون من الآيات فإن كان إعراضهم قد كبر عليك وأهمك إلى هذا الحد ، فانظر ما ذا تستطيع أن

تفعل ، أتبتغى نفقا في الأرض تتعمق فيه حتى تأتيم بآية أم تبتغى سلما في السماء تصعد به حتى تحقق لهم ذلك ، فإن الله لن يحققه ولن يجيبهم إليه ، ولو أنه أراد منهم إيمان الإرغام والإلجاء لكان جمعهم على الهدى ، وهيامهم على استعداد يجعلهم يتقبلونه خاضعين ، كما خلق أصنافا أخرى من خلقه مثل الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فلا تكونن من الجاهلين ، فتطلب أو ترقب ما لم تقتضه حكمة الله .

كل هذا فيه تسلية للنبي ، وفيه مع ذلك تصوير بليغ لمقتضيات بشرته ، ودليل على أن الله تعالى يعالجه كما يعالج البشر ، ولو شاء لطبعه على طبيعة أخرى يكون معها بعيداً عن التأثير بالعواطف البشرية التي يعالجه منها .



وليس هذا كل ما في سورة « الانعام » من حديث عن الوحي والرسالة ، وإرشاد الرسول وتثيته ، ولكننا نحسب أن ما ذكرناه يفتح الطريق - إن شاء الله - لمن أراد المزيد ، واهه المستعان .

المجتمعُ القرآنيّ

— ٢ —

الأسرة

لغزة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة
وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — إن المجتمع في القرآن يعم كل أنواع الاجتماع ، فهو يبتدى من الأسرة ، فالأمة ، فالمجتمع الإنساني عامة ، وله قوانين ثابتة مستقرة لا تتغير في أى جماعة ، ولا تبدل في طائفة عن طائفة ، وقد أشرنا إلى هذه القواعد الحاكمة التي تقيد المسلم في كل معاملاته وفي كل روابطه ، وحكمها عام ، فالمسلم مقيد بالعدالة في كل معاملاته ، سواء أكان الذي يعامله ولياً أم كان عدواً ، ومقيد بالفضيلة ، سواء أكان الذي يعامله أبيض أم كان أسود ، فالمعاني الإنسانية العالية لا تفرق بين إنسان وإنسان .

ولذلك نذكر هنا أن كل ما قررناه في مقالنا الماضي يطبق على المجتمعات كلها ، فلا فرق بين مجتمع بدائي ، ومجتمع متحضر ، إذ الجميع أمام الحق والعدل والفضيلة سواء ، هذا منطق القرآن ، وهدى الإسلام ، لا يكون ما هو عدل وفضيلة عند المتمدين غيره عند غير المتمدين ، فإن ذلك منطق الأثرة الظالمة ، لا منطق الهداية التي تنزل من السماء ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

٢ — وإنه إذا كانت ثمة مبادئ عامة للمجتمع القرآني ، فإن تحقيق هذه المبادئ يختلف في كل مجتمع باختلاف المجتمعات من حيث الوسائل ، لامن حيث الحقائق ، ومن حيث تقوية الروابط ، وطرق تقويتها ، فتحقيق العدالة وتقوية

الروابط في المجتمع العام للأمة بالمودة والنظم القانونية التي تحدد العلاقات بين الناس فلا يعتدى أحدهم على الآخر ، وحكم القانون هو الأوضح الأظهر ، لأن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، وتحقيق العدالة الدولية بين الأمم بعضها ببعض تكون بالمعاهدات المنظمة ، والوفاء بالعهد فيها هو الدعامة التي يقوم عليها البناء الاجتماعي الإنساني العام بين الدول ، وإلا كانت قوانين الغابات هي الحاكمة ، وتكون علاقة الدول بعضها ببعض كملاقات الآساد في الالجمه ، أو الذئاب في الفلاة ، كل بيت للأخر الاقتراس ما أمكنته الفرصه ، وبمقدار ما تمده به قوته .

ومجتمع الأسرة لا يحكم بقوانين بمقدار ما يحكم بالمودة الرابطة ، والرحمة العاطفة ، والمحبة الواصلة ، وتدخل القوانين قد يفسدها ، وأحكام القضاء قد تقطع أوصالها ، فإن المودة لا تنفذ بحكم ، والرحمة لا تكون بحكم القضاء ، والمحبة لا تكون بزجر القانون .

٣ — وإن الأسرة هي وحدة البناء الاجتماعي ، وهي الرابطة الأولى التي تقوى بها كل الروابط الإنسانية ، فالمجتمع القوى هو الذي يتكون من أسرة قوية إذ الأسرة هي الخلية الأولى التي تنبئ فيها كل العواطف الاجتماعية التي تجعل من الشخص امرأ يألف ويؤلف ، وإن بناء الوطن يتكون من روابط اجتماعية تكونها عواطف الإلف والإحساس الاجتماعي ، والمشاركة الوجدانية التي تجعل المجتمع الواحد كأنه جسم واحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحلى والسهر .

وقديماً توم بعض الفلاسفة أن الأسره تعوق الآحاد عن العمل في البناء الوطنى ، فوضع نظاماً لجمهوريه زعمه نظاماً مثالياً يقوم على أن تحبى الأسرة في المجتمع لتكون كل العواطف الإنسانية للوطن ، فلما حبا الأسرة تحا معها عواطف الإلف والاتلاف التي هي الروابط التي تربط آحاد المجتمع بعضه مع بعض ، وإنه إذا محبت هذه الروابط المكونة من أحاسيس لم تكن آمال وطنية جامعة ،

ولا أهداف نحو غايات إنسانية عالية ، وصار المجتمع آحاداً منتثرة ، لا وحدات مجتمعة . فإن الطفل تنمو عواطفه ، وتستيقظ مشاعره بالغذاء العاطفي الذي يتلقاه من أبويه وإخوته ، وعمومته وخمولته ، فإن ما يمد به من ينابيع العاطفة التي تنبعث من هؤلاء هو البذور الأولى التي تنمو فيكون منها التعاطف الاجتماعي ، وقد لوحظ أن الشذاب في المجتمعات الذين يصلون على الأرواح فيقتلون الأنفس ، أو على الأموال فيسرقونها أو يغتصبونها هم من الذين لم تكن لهم أسر يتربون فيها على روح الائتلاف ، إما لأنهم نشئوا يتامى لم يجدوا من يؤويهم ، أو لأنهم لفظتهم أسرهم ، أو لم يجدوا بين أحضان أمهاتهم العواطف القوية التي تغذي عواطفهم وتنميتها ، وتربى فيهم الإلف الاجتماعي ، فالأسرة لهذا ضرورة لكل إصلاح اجتماعي ، وصلاحها هو صلاح المجتمع إن لم تكن ثمة عوامل فساد أخرى تنخر في عظامه .

٤ — والأسرة لا يحكمها القانون الزاجر ، ولا القضاء الرادع ، ولا الأحكام القانونية ، إنما ينظمها ثلاثة أمور : مودة واصله ، ووجدان قوى يتكون منه ضمير لائمه ونفس لوامه ترجع إلى الحق إن تجانفت لائمه ، وهدي ديني يكون الحكم فيه للديان .

فإنه إذا تكونت هذه الأمور الثلاثة ، وامتثلت نفس كل آحاد الأسرة بها استقامت أمورها ، وما تسامع أحد بأمرها إلا متعاونة متوادة متراحه ، وإن فقد أحد هذه العناصر ، واحتاجت إلى الترافع بين يدي القضاء لا يصح أن يكون القضاء فصلا رادعا من أول الأمر ، بل يستعين بالرحمة يثيرها ، وبالمودة يصل بها المقطوع ، ويستعين على ذلك بأعضاء الأسرة الآخرين الذين لم تنقطع جبال المودة بينهم وبين المتخاصمين ، يفعل ذلك ما وسعه أن يفعل ، فإن يشك كان عدل الله هو الفاصل بين المتخاصمين ، وهو خير الحاكمين .

٥ — وإن القرآن لعنايته بالأسرة نظم الحقوق والواجبات فيها تفصيلا ، فإن المتنبع لنصوص القرآن الكريم ليرى أن القرآن لم يبين الصلاة تفصيلا ، بل دعا

إليها وحث عليها ، ورغب فيها بكل وسائل الترغيب ، ولكن لم يبين أحكامها بالتفصيل ، بل ترك ذلك لنبيه الأمين ، وكذلك كان الأمر في الزكاة ، وكذلك كان الأمر في الحج ، وإن كانت النصوص القرآنية قد خصته من بين الصلاة والزكاة ببعض التفصيل القليل في بعض أجزائه ، وترك بيان سائر أحكامه للنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول : « خذوا عني مناسك دينكم » وهكذا كل العبادات كان التكليف في القرآن فيها إجمالياً ، والتفصيل إلى الرسول الأمين ، كما قال تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » .

أما الأسرة فإن أحكامها مفصلة مأخوذة من القرآن بالنص في أكثرها ، وبالحمل على النص في قليل منها ، وبيان النبي صلى الله عليه وسلم في قليل آخر ، فأحكام الزواج مبينة بالتفصيل ، قد بينت المحرمات تفصيلاً ، حتى ردّ نحر الدين الرازي كل المحرمات إلى النص القرآني ، وأحكام الطلاق مفصلة تفصيلاً دقيقاً ، وأحكام الميراث تولى المولى العليّ القدير بيانها ، وأحكام النفقات بين آحاد الأسرة قد ربطها القرآن الكريم بالميراث ، فقال سبحانه : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف . . . وعلى الوارث مثل ذلك » ، وهكذا .

٦ — وإن هذه العناية الواضحة في النصوص القرآنية تدل على أن الإسلام ينظر إلى الأسرة نظرة خاصة ، ويعتبرها بناء المجتمع ، وأنها إذا صلحت صلح المجتمع ، وأنها إذا فسدت فسد المجتمع ، فإن انهيار الفضيلة في المجتمعات التي انحلت فيها الفضيلة ، إنما أساسها انحلال الأسرة ، فالأسرة رباط الجماعة المقدسة وفيها حاية الفضيلة وحماية الأخلاق وتنشئة الناشئة على حلية من الأخلاق والمودة والرحمة بالناس ، وإن كل طرائق التهذيب قديمها وحديثها لا بد أن يكون بينها وبين الأسرة تناسق وتناسب ، فإن كانت غير متناسقة معها لم تكن قائمة على قواعد ثابتة آمنة من الزوال ، فإن ما تلقىه الأسرة في نفس الناشئ لا يقبل الزوال ، وغيرها ما لم يرتبط بها - أمره إلى زوال .

٧ — وإن القرآن الكريم اتجه أول ما اتجه في تكوين الأسرة إلى الركنين

الذين تقوم عليهما الاسس الاولى ، وهما الزوجان ، فلم يفرض أن الزواج له رباط غير المودة والرحمة ؛ ولذا قال سبحانه وتعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، فالمودة والرحمة هي الصلة التي تربط بين الزوجين ، واعتبر العلاقة الزوجية ارتباط قلبي يكون كل واحد منهما لصاحبه بمنزلة الشعار والدار له ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى في العلاقة الزوجية : « من لباس لكم وأنتم لباس لهن » ، وقد اعتبر القرآن الزوجية قطعة من نفس الزوج بإشارته إلى أن المرأة خلقت من نفس الرجل ، إذ قال سبحانه : « يأيتها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا .

وإذا كانت المودة هي المعنى الأول الذي يربط بين الزوجين ، فإنه لا بد أن تلاحظ عند اختيار الرجل عشيره وأليفه ، فلا يتزوج المرأة لغناها ، ولا لجاء أبيها ، ولا لشرف أسرتها ، ولا لعزة قومها ، بل يتزوجها لما يرجوه من مودة تربط بينهما ، ويجب أن يكون الدين دخل في الاختيار ، فإن الدين من شأنه أن يربي بواعث الرحمة ونوازع المودة ، فإن المؤمن مألوف ، كما ورد بذلك الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تزوج امرأة لمالها زاده الله به فقرا ، ومن تزوج امرأة لحسبها زاده الله به ذلا ، ومن تزوجها لدينها بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه » .

وإن الجمال قد يكون مردياً ، فينبغي عند الاختيار ألا تكون له المنزلة الأولى ، فإن المرأة قد يردبها جمالها إذا لم يكن لها دين ، ولذا ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم وخضراء الدمن » ، قالوا يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت سوء .

وإنه لأجل هذه المودة التي تصل القلوب كان الصحابة لا يحبون الاشتراط عند عقد الزواج ، وكان الإمام مالك يقول : « لا تزوجوا على الشروط ، ولكن تزوجوا على الدين والأخلاق والعقل » .

٨ - ولأنه يبقى الزواج مابقيت هذه المودة الواصلة ، فإذا تقطعت أوصالها وحل محل المودة البغضاء والشحناء ، ولم يمكن إعادة حبال المودة المنصهرة ، لا يقول عاقل إن الزوجية تبقى ، ولذلك يقول بننام في كتابه « أصول الشرائع في العلاقة الزوجية » :

« إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان ، والملائم لحاجته ، والأوفى لأحوال الأسرة ، والأولى بالأخذ لحفظ النوع الإنساني ، ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل ألا تفصل عنه ، وإن حلت في قلوبهما الكراهة محل الحب لكان ذلك أمراً منكراً لا يصدقه أحد من الناس ، على أن هذا الشرط موجود دون أن تطلبه المرأة ، إذ القانون - أي القانون الكنسي - يحكم به ، فيتدخل بين العاقلين حال التعاقد ، ويقول لهما أنتما تقرنان لتكونا سعداء ، فلتعلما أنكما تدخلان سجنًا سيحكم غلق بابه ... وإن أسمع بخروجكما ، وإن تقاثلتما بسلاح العداوة والبغضاء . إن أقبح الأمور وأفظعها عدم انحلال ذلك الاتفاق ، لأن الأمر بعدم الخروج من حالة أمر بعدم الدخول فيها ، لا فرق في ذلك بين زواج وخدمة ، وبلد وصناعة وغيرها ، لو كان الموت وحده هو المخلص من الزواج لتنوعت صنوف القتل ، واتسعت مذاهبه » .

٩ - ولم يفرض الإسلام إن كل علاقة زوجية علاقة مثالية لا يمكن أن يُرثق جوؤها الصافي نزاع أو خصام ، بل فرض النزاع والخصام ، مادام الإنسان هو الإنسان ، وهو الذي نزل إلى الأرض وفي طبيعته السمو والرفعة ، والهوى والشهوة ؛ وإن العداوة قريبة الاحتمال في علاقاته ، ولو كان بساط المودة محدوداً ، وسماء المحبة تظل حياة الزوجية ، بل قد تكون المحبة الشديدة سبباً للتشكك الشديد ، ووراء التشكك الخلاف والنزاع ، وفي ظل النزاع تبذر البغضاء بذورها ، ويحصد الزوجان حصادها ، والله وحده هو مقلب القلوب ، العالم بما تخفى الصدور ، وما تختلج به النفوس .

ولهذا الاحتمال الذي يفرض عروض النفرة بعد المودة ، والبغضاء بعد

الحبة وضع القرآن العلاج الذي يطب به للقلوب النافرة ، وأول هذا العلاج أنه أمر الزوجين أن يصلحا شأنهما بإثارة دواعي الرحمة عندما يعرض النفور ، والعمل بالعدل عندما يستحكم ، فإن لم يُجَد هذا ، لأن القلوب قد تنافر ودها ، فعلى المتصلين بهما أن يحاولوا الإصلاح بينهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فالصالح خير دائماً ، وخصوصاً في العلاقة بين الزوجين ، فإن لم يجد الإصلاح ، وتحكم الشقاق ، وتفاقم أمره . فإنه في هذه الحال يكون تحكيم حكيم يدرسان الأمر بينهما ، يحاولان الإصلاح مرة أخرى ، فإن عجزا كان التفريق الذي لا عناصر منه ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته .

هذه مراتب أربع - قد نص عليها القرآن الكريم في محكم آياته إذ قال سبحانه وتعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً .

وقال تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ؛ إنه كان عليهما خبيراً .

١٠ - وهكذا نجد الإسلام يعالج قلوب الزوجين ، فيطب لها قبل أن تحل البغضاء محل المودة والرحمة والمحبة ، فإذا استحكم النفور ، ولم يكن ثمة سبيل إلى إعادة الصفاء إلى القلوب شرع الطلاق ، وجعله بيد الزوج من غير تدخل قضاء ؛ لأن الزواج اقتصرت به تكاليفات مالية كثيرة عليه ، والطلاق يستتبع تكاليفات أخرى عليه وفوق ذلك ما يستتبعه من واجبات نحو أولاده منها ، وهي تفرض عليه أيضاً تكاليفات مالية لم تكن عليه قبل الطلاق ، إذ كان يؤويهم جميعاً بيت ، فكل هذه التكاليفات تجعله يفكر ويقدر قبل الإقدام على الخطوة الحاسمة القاسية ، فلا يقدم على الطلاق حينئذ إلا إذا كانت النفرة قد استحكمت ، ولم يكن

ثمة سبيل لمعيشة تقام فيها حدود الله تعالى ، وتصان فيها الحقوق ، ويقوم كل منهما بما عليه من واجب .

ولم يجعل الطلاق بيد القاضى إذا كان النفور من جانبه ؛ لأنه إذا كان النفور وحده هو السبب فيما إذا يقضى القاضى ، وحسب الرجل ما عليه من تكليبات تجعله يفكر ويقدر ، وإن الأسباب التى تكون بين الزوجين ليس من السهل بين يدى القضاء إثباتها ، وإن كان الطلاق لا بد له من سبب يمكن إثباته ، فإن استمع القاضى إليها وأثبتها ، فإن قضى بها فهو العار اللاحق بالمرأة الذى يعوقها من أن تستأنف حياة زوجية أخرى ، وإن لم يقض بمقتضى هذه البيئات فإنه العار أيضا يلحقها من جراء ما تردد فى دور القضاء ، فيكون الضرر لاحقا بها .

أما إن كان النفور من الزوجة فإنه لا يكون الطلاق إلا بحكم القضاء ؛ لأن المرأة سريعة الانفعال والاندفاع ، ولأنه لا معوق يعوقها من تكليفات مالية أو نحوها ، ولأن الرجل قد أنفق فى هذا الزواج ما أنفق لخلق عليها أن تعوضه عما أنفق إن كان سبب النفور من جانبها ، ولأن الرجل لا يلزمه العار ولا يضره ، بل سيجد على أى حال من ترضى به زوجا .

وإن إجابة المرأة الى الطلاق إن كان النفور من جانبها على أن تدفع للزوج المهر الذى دفعه ، ويكون التفريق خلعا منصوص عليها فى مذهب مالك ، وهو عدل فى ذاته .

١١ — وقد يقول قائل إن الزوج قد يقدم على الطلاق فى نوبة غضب جاح من غير تدبر ولا تفكر ، ونقول فى الإجابة عن ذلك : إن الشارع الحكيم قد سنَّ طريقاً لإيفاع الطلاق بالنسبة للدخول بها من النساء ، وذلك الطريق ألا يطلق إلا واحدة ، وفى حال طهر لا فى حال حيض ، وفى طهر لم يجامعها فيه ، فإن الطلاق فى هذه الحال يكون والنفس من شأنها أن تكون مقبلة فى العادة لولا النفور ، فأقدامه على الطلاق فى هذه الحال دليل على استحكام النفور ، واستغلاق

القلوب على العداوة ، ويكون له حق المراجعة نحو ثلاثة أشهر ، فإن لم يراجعها في هذه المدة يكون هذا دليلاً على أنه لا سبيل إلى إعادة المودة إلا بأمر من الله يحدثه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

ويعجبنى هنا أمران في مذهب الإمامية :

أولهما : أن الطلاق إذا لم يكن مقيداً بهذه القيود التي أشرنا إليها لا يقع ، فلا يقع الطلاق في حال الحيض ، ولا يقع الطلاق في طهر دخل بها فيه عندهم ، ولا يقع إن كان أكثر من واحدة في لفظ واحد ، وقد اختار ابن تيمية نظر الإمامية في هذا ، ولكنه قال إن الطلاق المتعدد يقع واحدة ، وهو رأى عندهم ، وبه أخذت القوانين المصرية .

الأمر الثاني : أن الإمامية يشترطون لإيقاع الطلاق شهادة اثنين عدلين ؛ لأن الله قال بعد الطلاق والرجعة : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، ولأن الزواج لا ينعقد صحيحاً إلا بشهادة اثنين ، فلا ينتهى إلا بشهادة اثنين أيضاً ، ولو أخذ بهذا لمكان فيه صلاح وإصلاح .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

المتأفلة نسيب

لمحاضرة صاحب السعادة العالم الجليل الأستاذ محمد نقي القمي
السكرتير العام لجامعة التقريب

التطور سنة من سنن الخليفة يقول به كل مفكر ، فالموحدون في توحيدهم ،
والمتصوفة في تعبيراتهم ، وأرباب السلوك فيما يرون من التدرج في المنازل ،
والطبيعيون في فلسفتهم الطبيعية ؛ كل أولئك يقرون التطور ، وهل ما دار
في مسألة قدم العالم وحدوثه ، وما قام بين المعتزلة والاشاعرة من خلاف معروف ،
إلا ألوان من التفسير القديم يرجع كثير منها إلى نظرية التطور ١ .

على أن هؤلاء وأولئك رغم اختلافهم في آرائهم تبعاً لآفاقهم الفكرية ،
يجمعون على أن التطور سير إلى الكمال . . . فبعضهم يقول : إنه السير إلى الخير ،
وبعضهم يقول : إنه السير إلى الإنسان الكامل ، وبعضهم يقول : إنه السير إلى الله .

والديانات السماوية كلها كانت أخذاً بيد الإنسانية نحو الكمال وسموها بها
من كامل إلى أكمل ، وتلك سنة الله في خلقه ، وإن تجد لسنة الله تبديلاً .

والأمم كالأفراد لا بد أن تخضع لسنة التطور ، وإذا كان الأصل في الإنسان
أن يتطور نحو الكمال ، فإن الأمم كذلك تتحرك بطبيعتها في مدارج الرقي ، وتسمى
بفطرتها نحو الكمال المنشود .

وإذا قيل : إن الفرد يتطور من طفولة إلى صبا فشباب ورجولة ، ثم إلى
شيخوخة وهرم ، أي ضعف ووهن ؛ قلنا : إن تطور الأمم يكون في المعنويات

لأف الماديّات ، لأن ما يربط الأفراد بعضهم إلى بعض بحيث يكونون أمة ، إنما هي روابط معنوية . فـ كما يقال إذن من أن للأمم شباباً وشيوخاً غير صحيح ، لأن المعنويات لا تضعف في الإنسان إذا تنفس به العمر ، بل إنها تبلغ أقصى درجات الرقي في الفرد حين يشيخ .

إلا أن العوائق قد تعترض الأمم فتحوّلها عن السير في طريق السكّال ، وتنحرف بها إلى السير نحو الانحلال ، وهذه حركة قسرية تكبر فيها الأمم على غير طبيعتها .

والأمة الإسلامية سارت في طريق التطور سيراً طبيعياً ، فامتصت الثقافات القديمة التي أوشكت أن تزول ، وحملت علم الحضارة ، وقدمت للعالم زاد العلم والمعرفة ، وغزت بمبادئها الإمبراطوريات القديمة ، ورفعت علم التوحيد في البلاد الوثنية والشنتائية ، وأوجدت للإسلام عصرأ ذهبياً كانت السماحة أكبر عون على ازدهاره ، ولا ندرى إلى أي درجة من الرقي كانت تصل بالبشرية لو تركت في طريقها تسير .

لكنها ابتليت بأدواء وعوائق لم تعظمها عن السير خصب ، بل حولتها عن مجرى التطور ، ودفعت بها إلى طريق الضعف والتفكك . وحين فقدت كثيراً من مقوماتها الشخصية ، لم تقو على صد أهواء حكامها ، فخطموا وحدتها ، وفرقوا كلمتها ، ثم جاء الاستعمار فزادها فرقة ، وعجل بها إلى الانحلال ، فأصبحت هزيلة ضعيفة يجتاحها التعصب الأعشى بعد أن كان يسيطر عليها التفكير الحر السليم ، وأصبحت بمرور الزمن تقدر الآراء وتعتبرها من المعتقدات ، وويل لأمة تحول فيها الآراء إلى معتقدات .

وهكذا توقفت الأمة عن السير في طريق السكّال ، وغشيتها سبات عميق ، وتركت معاول الهدم تعمل عملها في بنائها الشاخ ، رغم أن دينها هو بطبيعته دين السكّال ، جاء ليأخذ بيد الإنسانية نحو الوحدة والقوة والخير للبشر أجمعين .

وعوامل الهدم في الأمم كمثل المخدر لا يمكن أن يدوم مفعوله ، ولا بد من تجديده ، والطريقة التي اتبعت في تجديد تخدير أمتنا الإسلامية هي تقوية الخرافات والاهتمام بالقتور لصرف الناس عن الدين الصحيح (١) .

قلنا إن المخدر لا يمكن أن يدوم أثره ، ولا بد من فترة تنبه تعقب كل تخدير ، ومن هنا بدأت الشعوب تحس أن بها أمراضاً ، وتدرك أنها تخلفت عن الركب ، وتلحس أن في العالم أقوياء وضعفاء ، وأن الضعيف لا وزن له ، وأن القوى يتحكم في مصير الضعيف ويرسم له خطته ، وأن التقاطع بين الشعوب الإسلامية حرمها الارتفاع بما في أخوة أربعائة مليون من قوة .

والتنبه للمرض أول خطوة نحو العلاج . ومن هنا بدأ المفكرون يحاولون إيقاظ الأمة من سباتها ، ويكافحون الرجوع بها إلى التطور الطبيعي ، وكثرت المحاولات وظهر الوعي ، ثم جاءت فكرة التقريب ، وهي تتفق مع طبيعة التطور والعقل السليم وأسس دين الأخوة والتوحيد .

التقريب بين أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تنس العقائد التي يجب الإيمان بها .

وحل لواءها علماء من مذاهب أهل السنة الأربعة ومذهبي الإمامية والزيدية من الشيعة ، وبدأت تعالج التفرق بين أخوة في الدين ، كتبهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وصلواتهم واحدة ، وحجهم واحد ، يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولا ، وبأنه أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، وبأن ما جاء به لا بد أن يؤخذ به ، وبأن سنته من المصادر الحتمية للأحكام .

وسارت فكرة التقريب هادئة مطمئنة ، يؤيدها الفاهمون في كل شعب ، وحلة الأقلام الذين يعتقدون أن لأقلامهم رسالة وترفعون عن الدجل فيما يكتبون . وكان طبعياً وقد تركت الفكرة أثرها في النفوس أن يقف فريق من الناس يسألون أنفسهم : ماذا كسبنا من الماضي بما فيه من تخاصم وتطاحن ، وماذا جرأت

(١) راجع مقالنا : « الدين في معترك السياسة » العدد الثاني من السنة السابعة من هذه المجلة .

علينا النعرات الطائفية ، وأن يرغب المثقفون عما يقال لهم عن الطوائف ، ويصلوا إلى الاطلاع بأنفسهم على ما عند كل طائفة .

أما فريق المتزمتين فشأنهم ألا يعجبوا بمثل هذه الفكرة ، لأنهم لا يودون الرجوع إلى النهج السوي ، ويفضلون البقاء على ما هم فيه . وهؤلاء هم دعائم التفرق في كل عصر ، لأنهم يصورون كل مذهب بالصورة التي يرونها لا بصورته الحقيقية ، وما الشقاق بين المذاهب الإسلامية بنتيجة اختلاف على عقائد وآراء فيها ، بل من نتيجة مفتريات تقال عن أربابها .

ألم ينسب المتزمتون إلى خمس المسلمين عقائد هم براء منها ؟ ألم يقولوا إن الشيعة تعتقد بالحلول ؟ ألم يقولوا إن الشيعة تعتقد بأن الرسالة كانت لعلی وأن محمداً أخذها ؟ ألم يقولوا أن للشيعة قرآنا غير هذا القرآن ؟ .

ومثل هذه المفتريات كانت تقال عن الشيعة بينما أسانيد الشيعة في متناول اليد وكان بالإمكان الاطلاع على أي كتاب شيعي أو السفر إلى أي بلد شيعي للتأكد من أن هذا كذب وبهتان .

وها قد جاء دور الإصلاح ، ووقف رجال باسم التقريب يتحدثون أي إنسان أن يأتي بسند واحد يثبت أن مذهباً واحداً من المذاهب الإسلامية المعروفة يقر أمثال تلك الخزعبلات .

نحن لا نتكلم عن القرامطة والباطنية ولا عن غيرهم من الفرق البائدة التي يقال أنهم كانوا كذا وكيت ، ولا نقف منهم موقف الدفاع ، وإنما نتكلم عن الشيعة الذين يبلغون خمس المسلمين عدداً ، ويسكنون بالعراق وسوريا وإيران والهند واليمن وغيرها من البلاد ، ولهم فقهاؤهم وآراؤهم واجتهادهم ، ولهم مراكزهم الدينية وجامعاتهم العلمية ، وكتبهم تملأ المكتبات .

لقد جاء التقريب على أساس فكرة التعارف العلني ، وأوجد مركزاً لمن يريد أن يعرف كثيراً أو قليلاً عن المذاهب الإسلامية المعروفة ، ولكن المتزمتين يحكمون على أي مذهب دون أن يتعبوا أنفسهم بالاطلاع على كتبه ،

وبمحددون كل ترابط ثقافي ، ويلعنون كل اتصال يؤدي إلى التعارف ، ويحرصون على البقاء في أبراجهم العاجية وسط أوهامهم وظنونهم ، ويتناسون أنهم في عصر أبرز مظاهره سرعة المواصلات واتصال أجزاء العالم بعضها ببعض ، ويتجاهلون أن البشرية لم تعد تكتفي بالتعرف على ما في كرتنا الأرضية ، بل إنها تتطلع إلى اكتشاف في الأقمار والنجوم .

فهل يصح في مثل هذا العصر أن يقف جامدًا في وجه التطور ، ويأخذ عليه عن الطوائف من قصص أشبه ما تكون بالآوهام والخرافات .

أن المتزمتين - ومن حسن الحظ أنهم قلة في كل شعب - من دأبهم أن ينفروا مما لم يألفوا ، وأن يقفوا في وجه ما لم يعرفوا ، وأن يحتفظوا بقديمتهم لأنه تغلغل في نفوسهم فهم لا يرضون به بديلا ، ولا يطيقون له تحويلا ، كما أن من دأبهم أن يتلصسوا الآوهام في المعارضة إذا لم تسعفهم الحقائق . أليسوا يصرون لإصرارا عجيباً على أن التقريب محاولة لإدماج مذهب في مذهب ، أو تغليب مذهب على مذهب ، على الرغم من أن كل صوت من أصوات التقريب ، وكل نشاط يصدر عن التقريب ينادى بغير ذلك ؟

إن التقريب لاسمى من هذا وأجل شأننا ، إنه - على العكس مما يتخيلون أو يريدون أن يخيلوا للناس - ينادى بوجود أن تبقى المذاهب ، وأن يحتفظ المسلمون بها ، فهي ثروة علمية وفكرية وفقهية لا مصلحة في إهمالها ولا في إدماجها ، لكن شتان بين هذا وبين إيجاد جو من الهدوء والثقة والصفاء بين المسلمين يرتفعون به عن الضغائن والجدل العقيم ، ويتفرغون بسببه إلى ما هو أولى بهم من مشاركة الركب العالمي ، بل من قيادة هذا الركب وتوجيهه لو استطاعوا .

ذلك ما يريده التقريب . وإن القافلة تسير ، تسهر مع ركب الحضارة والعلم الصحيح ، تسير مع التطور إلى الحق ونحو الحق ، إنها في الواقع تسير إلى الله ، وإن الله معنا ، قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وناصرهم

لماضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

- ٢ -

كتبنا في تفرق المسلمين واختلافهم شيئا ومذاهب ، وكيف يعودون إلى أمرهم الأول من محبة واتحاد وتعاون ، ووعدنا أن نتوسع في هذا الموضوع ونزيده جلاءً وبياناً ، وها نحن أولاء نفى بما وعدنا فنذكر أسباب الفقرة والاختلاف ، لأنه ما لم يعرف سبب المرض لا يمكن الطب له والبرء منه .

انتشر الإسلام سريعاً في قليل من الزمان ، وامتد في رقعة من الأرض متلاصقة تجمع جزءاً من آسيا وإفريقية وأوربة ، واشتدت شوكة المسلمين وقوى سلطانهم ، وأصبحوا لا يرهبون العدو الخارجي لسقوط مقاومته أو لبعده داره ، وكل هذا حسن يدعو إلى اغتباط محبي الإسلام ، ولكن الله خلق الدنيا مختلطة منافعها بمضارها ويمتزجاً شرها بخيرها ، فهذا الخير العظيم ، وهو اتساع رقعة المسلمين ، وامتداد سلطانهم ، والأمن من أعدائهم أضعف الأواصر بينهم وجعلهم يعيشون في هذه الأرض وكأنه لا مالك لها سواهم ، فانصرفوا إلى منافسة بعضهم بعضاً ، إذ انقطع ذلك الخوف الذي يحفز إلى التضام والاتصاق ومراعاة أسبابهما وتوخي كل ما يوجب الالفة والمحبة ونبت كل ما يوجب الشقاق والتباعد ، وانظر في ذلك الأمة إذا تكونت من عنصرين مختلفين : أقلية ، وأكثرية ، فإنك تجد الأقلية تخوفها من الأكثرية تدفعها غريزة حب البقاء إلى التضام والتعاون ، أما الأكثرية فلعدم هذا الباعث تكون أقل تضامنا وتعاوناً .

بل انظر إلى أيام المسلمين الأولى أيام كانوا قليلا وكان المخالفون لهم كثيرا فقد كانوا كالشامة في النور الأسود وكانوا يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم فانجحت قوة المقاومة فيهم إلى الخارج ولم يكن لهم عدو من أنفسهم بل كانوا وحدة يرمون عن قوس واحدة ويشعرون بالتعاون وأن كلا عون لصاحبه وأنه لولا تعاطفهم وتساندهم لكانوا أكلة الآكل ونهزة المتنزه، في ذلك الوقت والشمل جميع، لم يلبسهم الله شيئا ولم يفرقهم أحزابا ولم يقطعهم مزايا بل كانوا كالجسد الواحد إن حدث ألم بعضو منه تألم له الجميع .

فلما عاش المسلمون أحقاباً طويلاً من الزمن وكأنه لا ساكن للأرض سواهم تنافسوا فيما بينهم فانصرفت قوة المقاومة التي خلقها الله في الكائن الحي إلى الداخل إذ لا منصرف لها في الخارج فأصبحوا يتعاملون وكأنهم وحدات مختلفة لا أمة واحدة .

تركوا الخلاف يشجر بينهم، وأعانوا هم على حدته وانصرف كل إلى تقويته : العالم بعلمه وجداله ، وذو السلطان بقوته وسلطانه .

ولأنك لتقرأ كتب علماء المسلمين : المتقدمين منهم والمتأخرين ، فتجد ما كتب في الرد على الفرق المختلفة من المسلمين أكثر مما كتب في الرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والملل المختلفة ، حتى كأن الأرض كانت خالية منهم .

وإن المرء إذا أراد أن يطلع على مجادلة المسلمين لأصحاب الأديان المختلفة ليعرف الروح الجدلية في هذا التاريخ الطويل لا يكاد يجد إلا القليل بجانب ما يراه من السيل الدافق من كتب المناظرة بين الفرق الإسلامية يحمده بعض الرسائل القصيرة للجاحظ في الرد على النصارى وبعض فقرات قصار تنسب إلى المأمون في كتب الأدب كالبیان والتبيين ويحمده رسالة تنسب إلى بعض علماء المسلمين والرد عليها من بعض علماء النصارى .

ولا أظن إلا أن الرسالة الأولى موضوعية لضعفها ، وضعت لتبين ضعف حجج المسلمين وقوة حجج النصارى .

والذي عرض لذلك باستيعاب ، كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم فقد رد على الملل والنحل المختلفة ، وكتاب ابن تيمية في الرد على النصارى وهو في الحق كتاب نافع يقرؤه المرء فيعتقد أن مؤلفه كان خبيراً بمذاهبهم وطقوسهم وخفايا دينهم ، يعرضها عرضاً جليلاً ثم يكر عليها بالنقض والإبطال ، ومثل ذلك كتاب لإظهار الحق لرحمة الله الهندي .

ولا أقول إن ما ألف في الرد على الملل المختلفة هو ذلك لحسب إنما أقول إنه قد ألف غير ذلك ولكنه بلغ من القلة إلى حد أنه لم يتداول منه إلا هذا القليل أما كتب جسدال الفرق الإسلامية بعضها بعضها فلا تكاد تحصى حتى إنك تجد كتاباً ككتاب الحيوان للجاحظ - وهو في علم غير علم الفرق والديانات - يمرض لبعض هذه المناظرات .

ومن ألفوا في الرد على الفرق لا يكادون يحصون ، منهم الإمام أحمد بن حنبل رد على الجهمية وابن جرير الطبري ، وابن قتيبة ، والأشعري له كتاب مقالات الإسلاميين والإبانة ، والمعتزلة لهم كتب في الرد على غيرهم كالانتصار لابن القصار . وكتب الكلام مشحونة بالرد على الفرق كالمعتزلة والمجسمة ، وأقرأ في ذلك المواقف وتهذيب المنطق والكلام لسعد الدين التفتازاني والمقاصد له والعفائد الفلسفية والمحصول للرازي والأربعين في أصول الدين ، حتى إن بعض كتب التفسير والحديث شغل فيها واضعوها بالرد على الفرق كالتفسير الكبير لفخر الدين الرازي شحنه مؤلفه بالرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق . وكتاب الكشف لجار الله محمود ابن عمر الزمخشري قد نصر فيه صاحبه أراء المعتزلة ، وحمل آيات القرآن على مذهبه .

كل ذلك يدل على أن كتب المناظرات والمجادلات منشؤها الحاجة ، ولم تكن الحاجة ملحة كثيراً إلى مجادلات الملل لسقوط مقاوماتهم ، ولكن الحاجة كانت شديدة لمناظرات الفرق الإسلامية لأن المقاومة انصرفت إلى الداخل فنشأت الفرق واحتيج فيها إلى المناظرة والجدال فألفت الكتب الكثيرة في مناظرات الفرق والرد على آرائها ومذاهبها .

نعم إن فلسفة اليونان ترجمت إلى اللغة العربية ، وانتشرت واعتنقها نخلة بعض المسلمين ، ورأى فيها علماء المسلمين خطراً عظيماً على الدين ، فانتفض قوم لمناعضتها والرد عليها ، واتفق آخرون للتوفيق بينها وبين الدين ، ومن القبيل الأول أبو حامد الغزالي درس الفلسفة حتى حذقها ، وألف فيها كتاب مقاصد الفلاسفة ، ثم رد عليها في كتاب تهافت الفلاسفة ، ومن القبيل الثاني ابن رشد الحفيد درس الفلسفة الإغريقية بعامة وفلسفة أرسطو بخاصة ، فأتقنها وألف فيها ولخص كتب أرسطو وشرحها ، ولم يكن تلخيصاً خشب ، بل كان تصحيحاً لما علق بها من أخطاء النسخين ، وبياناً لمراد الفيلسوف منها الذي استعجم واستبهم ، وقد لخص كتاب الكون والفساد والسماء والعالم وكتاب النفس وكتب أرسطو المنطقية الثمانية حتى كتاب البرهان والخطابة ، والشعر والجدل والسفسطة .

وإن من يشتغل بالفلسفة لا يجد معيماً له مثل ابن رشد حتى ليخيل إلى دارس الفلسفة أنه لم يفهم أرسطو مثل ابن رشد من عهد أرسطو إلى الآن .

وقد حاول ابن رشد الجمع بين الدين الإسلامي والفلسفة ، فألف في ذلك كتاب فصل المقال فيما بين الحقيقة والشريعة من الاتصال ، وألف كتاب تهافت التهافت في الرد على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ، وكان إذا ما غضب وظن أن الغزالي يتجنى على الفلاسفة فتأمر غضبه بقوله : ما أحرى هذا الرجل أن يسمى كتابه - التهافت - بإطلاق .

وكان إذا رأى الغزالي يقتل في المذاهب المختلفة يتمثل بقول الشاعر :

يوما يحزوى ويوما بالعقيق وبالسَّام يوما ويوما بالخليصاء
أو بقوله :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معدياً فعدناني

* * *

ما تقدم كله نعلم أن الخلاف والحجاج وليد الحاجة وأن عوامل طبيعية تدعو إلى الاجتماع وعدم الفرقة وعوامل أخرى تدعو إلى الانقسام والفرقة

وأن الشعور بالخطر الآتي من الخارج يدعو إلى التجمع والوحدة، والشعور بالأمن الخارجى قد يدعو إلى التهاون في هذه الوحدة، وقد مر بالمسلمين هذان الدوران وكان تفريطهم في الوحدة وإهمالهم للاجتماع نتيجة شعورهم بالأمن من أن يتسلط عليهم عدو خارجى، أما الآن فقد تغير الوضع وظهرت أُمم على وجه البسيطة ذات قوة ومنعة، وهى وإن كانت بعيداً عن مواطن المسلمين فهى قريب منهم بما أنشأ العلم الحديث من سرعة في المواصلات فأصبحت كأنها أو ليس بينهم وبينها الا قيد خطوات. هذه الأمم قد استولت على كثير من بلاد المسلمين، وأصبحت طامعة فيما لم تستول عليه فلا بد أن ينتج هذا الوضع الجديد وضعاً آخر وتنصرف المقاومة إلى الخارج ولا يحتاج الأمر إلا إلى تنبيه الأذهان ولفت الأفكار والضرب على وتر واحد وهو أن الأمم الإسلامية كلها أمة واحدة قد اشتركت في العواطف والميول والنظر إلى الحياة وتقديرها للأشياء بما اشتركت فيه من الدين، وهى فوق ذلك تشترك في الألم والجرح، مرضها واحد، وألمها واحد، وأسرها واحد وأغراضها في الشفاء والخلاص واحدة، وليس يجمع بين القلوب ويؤلف بين النفوس مثل الاشتراك في المصائب والاتفاق في الآلام.

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح حُ وَأَنْ نَلْتَقَى عَلَى أَشْجَانِهِ
كلما أنْ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عسانيه
نحن في الفكر بالديار سواء كننا مشفقاً على أوطانه !

الفرق بين الدين والمذهب

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

نريد من الدين - هنا - الإسلام ، ومن المذهب أى مذهب من المذاهب الإسلامية السنية أو الشيعية ، والفرق بين الإسلام وبين أحد مذاهبه من وجهين ، أو أن كلامنا فى هذا المقام يقع فى وجهين من الفروق :

الأول : أن الإسلام أعم ، لأنه يشمل جميع المذاهب ، والمذهب أخص ، لأنه واحد ، ومن ثمرات هذا الفرق أنه إذا قال أتباع مذهب بأن الإسلام يأمر بكذا ، ورأى أتباع مذهب آخر العكس فلا يحق لأحدهما أن ينكر على الثانى وينتق عن قوله الصفة الدينية الإسلامية .

لقد انفرد كل مذهب بقول لم يوافقه عليه أحد من سائر المذاهب ، كقول الشيعة بأن البنت تختص بالمهرات مع عدم الولد الذكر ، وقول أبى حنيفة بأن الصلاة تصح بغير الفاتحة ، وقول مالك بأن الحامل إذا بلغت ستة أشهر فليس لها أن تتصرف فيما زاد عن الثلث ، وقول ابن حنبل بأن من تزوج امرأة وشرط ألا يتزوج عليها ، يلزمه الوفاء بالشرط ، وقول الشافعى بأن شرط الخيار لا يصلح فى الإجارة ، فكل واحد من هذه الأقوال تخالفه أربعة مذاهب مجتمعة ، ومع ذلك لا يسوغ لأحد أن يدعى بأنه ليس من الإسلام ، مادامت المذاهب بكاملها تنتمى إلى كتاب الله وسنة نبيه بنسبة واحدة ، وإن نفى الإسلام عن مذهب يستتبع نفيه عن الجميع ، وثبوته

المذهب يستدعى ثبوته للجميع بدون أدنى تفاوت ، وهذا بديهى كالقول بأن المساويين لثالث متساويان .

وكلا لا يسوغ نفي الإسلام عن مذهب إسلامي ؛ لا يسوغ أيضاً نسبة حكم في مذهب إسلامي إلى الإسلام بنحو الإطلاق ، فلا ينبغي أن يقال : ثبت في الشريعة الإسلامية أو في الفقه الإسلامي كذا ، إذا لم تتفق عليه جميع المذاهب السنية والشيعة ، بل لا ينبغي أن يقال : السنة تقول كذا إذا خالف أحد مذاهبها ، وإنما يقال : ثبت في المذهب الإسلامي الحنفى ، أو المذهب الإسلامي الجعفرى .

الثانى : أن الإسلام هو الدستور الذى يُبنت مواد وأحكامه في الكتاب والسنة ، وهى أحكام واقعية ثابتة لا تختلف باختلاف علم المكلفين بها أو جهلهم ، أما المذهب فهو عبارة عن رأى صاحبه وفكرته عن الإسلام أو بعض أحكامه ، فإذا كانت فكرته انعكاساً حقيقياً عن حكم الله فى صواب ، وإلا خطأ يعذر صاحبه إذا كان قد أفرغ الوسع في البحث والتنقيب عن الدليل ، وعليه يكون الفرق بينهما كالفرق بين الوجود الخارجى والوجود ذهنى ، بين الحقيقة الواقعية وتصورها .

ومن ثمرات هذا الفرق أن مخالفة المذهب ليست دائماً مخالفة لواقع الإسلام وحقيقته ، بل لفكرة صاحب المذهب والصورة الذهنية التى تصورها عن الإسلام ، لذا يعدل الفقيه عن رأيه متى تبين له الخطأ .

إن أفكار الإنسان عالمها كان أو جاهلاً متصل اتصالاً وثيقاً بحياته وظروفه الخاصة لحياة الأديب تنعكس في أدبه ، وحياء الفقيه تنعكس في أحكامه وفتاويه ، ومن هنا تعددت الأقوال والمذاهب ، ومن هنا قال الإمام أبو حنيفة بجواز التكبير في الصلاة بغير العربية ، لأنه فارسى الأصل ، وتعددت المذاهب واختلفت ، أما الإسلام فواحد لا اختلاف فيه ولا تعدد ، كان قبل المذاهب ، وسبق إلى الأبد .

ليست آراء الفقيه ظلاً حقيقياً للأحكام الشرعية الواقعية ، وإنما هي اجتهادات تعبر عن الحكم الواقعي في نظر المجتهد ، وليس من شك أن الاجتهاد يقبل الجدل والنقاش ، وإن بلغ دليله من القوة ما بلغ ، غاية الأمر أن قوة الدليل تضعف احتمال الخلاف ، ولا تلغيه بالمرة ، وإلا فيخرج عن كونه اجتهاداً ، ويصبح ضرورة دينية يشترك في معرفتها العالم والجاهل .

وعلى أي الأحوال فإن الاجتهاد حجة في حق صاحبه يجب عليه اتباعه والعمل به ، أو قل كما قالت الشيعة الإمامية : إن الحكم الشرعي على قسمين : حكم واقعي ، وهو الذي شرع بالتشريع الأول في حق جميع المكلفين ، ولم يقيد بعلم أو جهل . وحكم ظاهري ، وهو الذي شرع في حق المجتهد عند ما تقوم لديه الأمانة من ظواهر الكتاب ، أو السنة الثابتة بنقل الثقات ، أو إجماع العلماء ، أو دليل العقل ، وقد يتفق الحكم الظاهري مع الحكم الواقعي ، فيكتب للمجتهد أجران ، أحدهما على العمل بالواقع ، والثاني على ما بذله من جهد ، وأحكام المذاهب كلها ظاهرية ليست بحجة إلا في حق القائلين بها ، حتى هؤلاء يجب عليهم أن يعدلوا عنها إذا انكشف لهم العكس .

وبالتالي فإن التعصب لمذهب هو تعصب للفرد ، تعصب لصاحب المذهب بالذات لا تعصب للإسلام ، ولا لمبدأ من مبادئه ، وإذا كان لابد لنا من التعصب فلتعصب للدين ، للإسلام لا لمذهب من مذاهبه ، على أن يكون تعصبنا للإسلام الحرص على تعاليمه ، واحترام شعائره ، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، تعصب للإسلام ببث روح الألفة والتآخي بين المسلمين جميعاً .

قال شيخنا

محاضرة الطائفة الفاضلة الأستاذ أحمد محمد بري

قال شيخنا :

إذا المرء لم يحتمل وقد جند جنده
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً
فذاك قريع الدهر ما عاش حوّل
أقول للحيان وقد صفرت لهم
هما خطتنا : إما إسهار ومنة
وأخرى أصادى النفس عنها وإنما
فرشت لهم صدرى قول عن الصفا
نخالط سهل الأرض لم يكده الصفا
فأبت إلى فهم وما كدت آيبا

أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
به الخطب إلا وهو للقصص مبصر
إذا سُد منه منخر جاش منخر
وطاقي ، ويوى ضيق الجحر معور
ولما دم ، والقتل بالحر أجدر
لمورد حزم إن فعلت ومصدر
به جؤجؤ عبل ومتن مختصر
به كدحة والموت خزيان ينظر
وكم مثلها فارتها وهي تصغر

كان له كهف في جبل يشتر منه العسل فعرفته لحيان وهم عدوه ، فأخذوا عليه الطريق وقالوا استأسر ، ولدته كان قد أعد الأمر عدته ، واتخذ له أهبة بأن فتح في الجبل نافذة إلى السهل صب منها العسل على الصخر المنحدر ، وهكذا نزل تجذبه الأرض ويسكه العسل إلى الصخر ، فما زال بين بين حتى تسلبه السهل سليماً لم يندق له عنق ولم ينكسر له ضلع .. وعاد إلى قومه وما كاد يفعل ، فقد كان الموت يقصده ، وكان حرياً أن يموت ، لولا أنه حوّل قلب متبصر صاحب حيل لا تنفذ ... إذا سد منه منخر جاش منخر ، فهو قريع الدهر حازم أبداً لا يرد مورداً إلا عالماً كيف يصدر .

لقد كان أمره - لو أنه كان من عامة الرجال - واحدة من اثنتين : ذل الأسر والمنة إن عفوا عنه ، والثانية أن يقتلوه وهي الأولى بالرجل الحر الكريم ، على أن يتم ثلاثة يصادى عنها نفسه ، وثاقه إنها لمورد الحزم ومصدره : يلهق أو يلسق أو قل يلزق بالعسل إلى الجبل كي يسلمه إلى السهل إلى آخر ما هرفت .

قلت : فمن يكون هذا الحول القلب الذى إذا سدد منه منخر جاش منخر : وإن كان التعبير يحمل الغثيان ، فما كانت المناخر لتجيش بما تستريح إليه النفوس .

قال : إذا أسلست ما يجيش به منخراك ومنخرا شيخك وما شئت من مناخر صهيحة أو معتلة الى كيمائى فخله الى عناصره الأولى ؛ فإنه إن يأتيك إلا ببعض ما تأكل أو تشرب ... فليسكن عيشك إذن غثيانا فى غثيان على غثيان ما طعمت طعاما أو شربت شرابا أو فكرت فيما تطعم وتشرب .

قلت : فقد يقرأ حديثنا هذا بعض ذوى الذوق السليم ، ولا أحب أن أسبب لهم ما سببته لشاب ظريف أنشدته قول الشماخ :

وهرفت رسما دارساً مخلوانا فوقفت واستنطقته استنطاقا

فكانت استنطقته استنطاقا ، هذه وجع قلب أرهقه ارهاقا :

قال : فليته أحرقه احراقا ، وليتك سميت الأشياء والذوات بأسمائها ، فقلت قد يقرأ حديثنا بعض ذوى الذوق المريض ، وإنك أنشدت شابا عليلا قول الشماخ فليس من سلامة الذوق أن تنفر من واقع الحياة ، إلا أن يكون شذوذاً غير متوقع ولا منتظر .

قلت : توقع وانتظار أى فرق بينهما ؟ ومتى أحب شيخى التزبد أو الحشو أو التكرار لجرى التكرار ؟

قال : للفرق بينهما كالفرق بين الليل والنهار ، فأنت تتوقع (الواقعة) وتنتظر الفرج ، فهذا للخير وذاك للشر .

قلت : فإنى أحيل شيخى على غير واحد من زملائه الكبار الذين (يتوقعون الخير) فيما يقولون .

قال : فلعله بدل غلط : أرادوا أن ينتظروا فتوقعوا غلطاً ، كما تقول : اللهم أدخلنى جهنم الجنة . أردت الجنة فقلت جهنم ، أو كما يقول النحاة : رأيت زيدا الحمار : أردت الحمار فقلت زيدا .

قلت : هم يفرقون بين بدلى البداء والغلط ، فبدل البداء هو ما لا تناسب فيه بين الاثنين ، بل هما متباينان لفظاً ومعنى نحو مررت برجل امرأة : أخبرت أولاً أنك مررت برجل ، ثم بدا لك أن تخبر أنك مررت بامرأة دون إبطال الأول ، فكأنهما لإخباران ، ويمثلون لهذا البدل بحديث أحمد وغيره : « إن الرجل ليصلى الصلاة وما كتب له نصفها ثلثها ، أخبر أنه يصلها وما كتب له نصفها ، ثم أضرب وأخبر أنه يصلها وما كتب له ثلثها . . . وأما بدل الغلط فهو ما ذكر فيه الأول دون قصد وانما هو سبق اللسان ، وبهذا يفارق بدل البداء الذى يعنى كلا الجزئين فقولنا رأيت رجلاً امرأة : صالح لأن يكون بدل بداء إن قصدت الخبرين ، ولأن يكون بدل غلط إن أردت الإخبار بأنك رأيت امرأة ولكنك غلطت فقلت رجلاً .

قال : يخ بـج لك فهذا كلام له مدلول ، وهو لعمري لغة القوم ، وما أدراك ما القوم على أن منهم من أنكر بدل البداء وبدل الغلط كليهما ، فقالوا فى الأول إنه بما حذف فيه حرف العطف ، وفى الثانى إنه لم يوجد . قال المبرد : بدل الغلط لا يكون مثله فى كلام الله ولا فى شعر ولا فى أثر ولا فى كلام مستقيم ، وقال خطاب لا يوجد فى كلام العرب لا نثرها ولا نظمها وقد عنت بطلب ذلك فى الكلام والشعر فلم أجده ، وطلبت غيرى به فلم يعرفه ، وادعى محمد بن السيد أنه وجد فى قول ذى الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

قال : فلمس بدل غلط ، لأن الحوة السواد بعينه ، واللحس سواد مشرب بحمرة ، ورد بأنه من باب التقديم والتأخير ، وتقديره فى شفتيها حوة وفى اللثات لعس ، وفى أنيابها شنب ، وشيخك من هؤلاء الذين لا يعرفون بدل الغلط ولا بدل البداء . . على أنه قد يبدو لك ، وقد تغلط ، فقد شاء الله أن تغلط الناس وأن يبدو لها ما لم يكن قد بدا ، ولكن ذلك شئ ، والبدل فى النحو واللغة شئ آخر .

قلت : ولكنكم أثبتتم بدل الغلط إذ كان حديثنا عن زملائكم الكبار الذين يتوقعون منتظرين .

قال : وما على إذا لم تفقه البقر . فأننا لم أشأ أن أرمى إخواني بما لا يحبون ، لم أشأ أن أخبرك بأنهم يغلطون فلم أجد لهم درعا واقية خيراً من بدل الغلط فهم يغلطون علماً لا جهلاً . أو قل هم يغلطون وفقاً للقواعد . ولأن تخطيء بناءً على القاعدة خير من أن تصيب على خلافها .

قلت : توارد خواطر ... ولو كان المتكلم غير شيخى لقلت سرقة من (موليير) الشاعر الفرنسي الذى أبدأ وأعاد في هذا المعنى على السنة أطبائه الذين كان يسخر منهم ومن طبهم ... فهذا مريض يقررون أنه مائت دون شك في أجل موقوت ، إلا أن الأجل يفوت ، والرجل لا يموت ، فكيف وقد قضت القواعد العلمية بأنه قد مات ؟ نعم مات وإن حياته لكاذبة فما دام العلم قد قضى بأن الرجل مقضى عليه فهو لا محالة مقضى عليه ولو شبه له ولغيره أو خيل إليهم أنه حتى يرزق .. كلا وأنف الحقيقة في الرغام .. ذلك بأن العلم لا يكذب ؛ فإذا ناقضه الواقع فهذا الواقع غير واقع . ويجوع مريض (موليير) فيغضب الطبيب العالم لأن الأموات لا يأكلون ولا يشربون فما بال هذا الميت يريد أن يأكل .. اسكت يا رجل فإنك ميت هكذا قرر العلم ومن أنت حتى تريدنا على أن نكذب صدق العلم ونصدق كذبك .. لقد مت وانقضى على وفاتك زمن طويل ...

قال : على رسلك فما ابتكر (موليير) ولا سرق شيخك وليس بمستغرب أن يكون للعلم منطق غير منطق الواقع أفلسنا في باب البدل أو ليس ثم شيء اسمه بدل الشكل من البعض ، إن بدل بعض من كل يتصوره العالم والجاهل على حد سواء . فأما أن تبدل كلا من بعض فذلك شأن النحاة أو العلماء وحدهم .. أهرب :

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

فأنت تحمدك تقول (طلحة) بدل من (أعظما) أو قوله تعالى : يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً جنت عدن ، لجنت وهي كل ، بدل من جنة ، وهي بعض .

قلت : ولم لا تكون جنات عدن بعضا من الجنة فبى جنس يشمل جنات عدن وغيرها من الجنات .

قال : وهل (أعظم) جنس بعضه طلحة ؟

قلت : أجل فكلنا — أعنى الأحياء جميعا — أعظم أو عظام متى غادرتنا الحياة أو غادرناها فطلحة الطلحات بعض الأعظم أو بعض العظام إن لم يكن لك جمع القلة .

قال : وهكذا نستطيع أن نمضى قدما (فى المحيط الفارغ) إلى حيث شاء العلم وإلا فما ميزة العالم إذا لم يستطع أن يجعل من العدم وجوداً .

قلت : فليتنا لم نمض فى باب بدل الغلط .

قال : مضيت فيه وفانك منه أبدع ما فيه فأنت تعلم أنه يغتفر فى الشعر ما لا يغتفر فى النثر إلا فى بدل الغلط فإنهم أو بعضهم يلبسونه فى النثر لا فى الشعر :

قلت : وسؤالى الاصلى قائم لم تعرضوا له فإنا كنت لأنسى أنى سألت عن ذلك الحول القلب الذى إذا سد منه منخر جاش منخر ، هذا هو الاصل ولست أدري كيف تفرعت بنا الفروع فخرجنا عن الموضوع .

قال : وأى عجب فى هذا ، إنها السنن الموروثة مذ كان فى العالم علم وعلماء وفقه وفقهاء ومذاهب تتفرع عنها مذاهب . . فهل تريدنى على أن أخرج على الأوضاع التى قررت فاستقرت فتقدست فألزمت فاستلزمت أن نحرص عليها أن يعبث بها العابثون الجاهلون الذين لا يعرفون كيف يفرعون من الاصل الواحد عشرات بل مئات بل ألوفاً من الفروع التى تنمو فتصبح أصولاً ضخمة ذوات فروع لا تلبث أن يلتف حولها فروعها ، وهكذا حتى يوم الدين .

قلت : فؤدى هذا أن ينقلب الوضع فيصبح الفرع أصلاً يطغى على الاصل الاصيل .

قال : فدع الاصول والفروع وعد معى الى ما كنا فيه ، أما كنت تتساءل عن الحول القلب الذى إذا سد منه منخر جاش منخر ؟ إنه ثابت وكنيته أبو زهير :

واسماً أتى وكنية ولقباً وأخرنْ ذا إن سواء صحبا
أو كما قيل :

وذا اجعل آخرأ إذا اسماً صحبا

فأنت تعلم أنهم أخذوا على ابن مالك قوله وأخرنْ ذا إن سواء صحبا ، لأن
اللقب والكنية عدلان من حيث التقديم والتأخير ، ولا كذلك في اللقب والاسم
فلأخير الصدارة ، فأما قول الشاعر :

بأنّ ذا الكلب عمرأ خيرهم حسبا بطن شريان يعوى حوله الذيب
قلت : أنا في غنى عن جواب أما .

قال : ولكن غيرك قد يطلع على حديثنا ، وقد يعنيه أن يعرف تفصيل
مسألة الاسم والكنية واللقب ، فقد تجتمع جميعاً ، وقد يجتمع الاسم والكنية ،
وقد يجتمع الاسم واللقب ، وقد تجتمع الكنية واللقب وقد ...

قلت : قد أستطيع أن أؤكد لكم - وقد للتحقيق - أن أحداً من يطلع على
حديثنا لا تعنيه هذه المسألة . ذلك بأنه إما أن يكون من طرازكم عارفاً لا يعرف ،
وإما أن يكون من طراز آخر يشغله أمور كثيرة عن الاسم والكنية واللقب .

قال : وعمرؤ ذوالكلب قتيل بطن شريان ، إنه ليس نحواً ولا صرفاً ،
وقد يكون من الخير أن تعرف ويعرف غيرك خبره . . ما خطبه وكيف ولماذا
قتل ؟ وقبل هذا وذاك ما هويته ؟ وبعد ذلك كله تلك المراثية المقولة فيه
التي مطلعها :

أبلغ هذيلأ وأبلغ من يبلغها عنى حديثاً وبعض القول تكذيب
أشعر نسائى هذا أم رجالى ؟ وأيا كان قائله ذكرأ أو أنثى فاقيمتها من حيث
الفن .؟ وشئ آخر له خطورته : أثابته هى لمن نسبت إليه أم مقول إنها منحولة ؟

قلت : كلها أمور ذات خطر ، ولكنى قبل أن نعرض لها أحب أن نعود
إلى ثابت هذا الذى يكنى أبا زهير فائقه يعلم أن اسمه وكنيته لم يغنيا في تعريفنا إياه ،

أفليس له لقب فقد يكون هذا المتأخر لفظاً ورتبة أخرى أن يعرفه بما تقدمه اسماً وكنية أصليين في التعريف قولاً لا فعلاً ؟ .

قال : فكنته - كما شئت أمه بمشيئة الله - تأبط شراً . ذلك بأنها سئلت عنه وكان قد خرج متأبطاً سكيناً : فقالت لا أدري ، إنه تأبط شراً وخرج . هذه رواية ، وفي أخرى أن أمه عاتبتة إذ كانت لا يأتها بخير على خلاف لداته من الغلمان الذين كانوا يحنون الكمأة لأمهاتهم . قال لها : اعطني وعاءً أملاء لك كمأة فأعطته كيساً ، فخرج وملاً كيسه أفاعى صادها . قالت أهدا كله كمأة ؟ قال نعم ، ففتحت الكيس فرحةً فخرجت الأفاعى تسمى في دارها . فصرخت وجلة فاجتمع عليها نساء الحى يسألنها ما خطبها فقصت عليهن قصص ابنها . قلن وكيف حمل كل هذه الأفاعى ؟ قالت لقد تأبطها . قلن لقد تأبط شراً . فكذلك نشأ لقب ثابت أبي زهير وغاب عليه حتى صر - كما استنبطت بحق ، لا يعرف إلا به . فكثيرون أولئك الذين يعرفون تأبط شراً ، وقليل منهم الذين يعرفون ثابتاً أبا زهير ، أو أبا زهير ثابتاً ، فقد آن لنا فيما يبدو أن نرجع إلى ابن مالك والاسم والكنية واللقب .

قلت : بل ثم أمور كثيرة تشغلنا عن ابن مالك ، وعن النحو بعامة ، وعن الاسم والكنية واللقب بخاصة . فقد سقمت روايتين في منشأ تأبط شراً أيتهما الأصح ؟ أو بعبارة أصح ، أيتهما الصحيحة إذ ليس في المسألة من حيث المنطق صحيح وأصح ، وإنما هي صحة أو عدمها .

قال : قد تكون الصحيحة هذه الرواية أو تلك أو أخرى لم يعرفها شيخك ولا غيره . ألا فلتعلم إن لم تكن علمت أن شيخك يعوزه اليقين في أسباب نزول القرآن المبين ، وأنت تعلم أن كتاب الله قد خدم خدمة ما كان الشعر ولا غيره من الأثر ليخدمها ، ومع هذا لو سألتني مثلاً لماذا نزلت : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينتهزم بما كانوا يفعلون » فإن إجابتي لن تتعدى حدود الحكم أو السبب العام المتحقق أبداً في كل زمان

ومكان ، أما لماذا أو فيمن نزلت خاصة فقل ماشئت أو شاء لك أصحاب الرواية : أنزلت في المشركين ، أم في أهل الكتاب ، في هؤلاء جميعا ، أم في اليهود وحدهم ، أم تراها نزلت في المسلمين أهل الضلال والبدع ، وجماعات الأحزاب والشيع التي تفرق الكلمة وتمزق الوحدة ، أم تراها نزلت في كل من تقدم . فهو وصف متى تحقق في فرد أو جماعة فهو أو هي من جملة الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وليس منهم صاحب الرسالة عليه صلوات الله ، ليس منهم ، ولا يجتمع بهم في شيء ، فأنت ترى برأته منهم حازمة كاملة شاملة كل شيء .

قلت : تريدون متعلق (في شيء) فهي حال من الضمير . . .

قال : صه وقل إن شيئا كائنا ما كان لا يمكن أن يجمع من أنزل عليه القرآن بأولئك الذين فرقوا دينهم فكانوا فرقا أو شيئا أو وحدات متميزة من تلك الوحدة الدينية التي جمعت ما وصى به نوحا والنبیین من بعده حتى خاتم الانبياء والمرسلين عليه صلوات الله والملائكة والناس أجمعين أما متعلق الجار والمجرور وكونه حالا فنشء يعنى النجاة وحدهم .

قلت : فما أنتم أولاء ترجحون قولاً على أقوال شئ أو لعلمكم تقطعون بأنها إنما نزلت في أصحاب الضلال والبدع والأحزاب والشيع من المسلمين .

قال : انطباق الحكم عليهم لا ينفى أنه انطبق على غيرهم فأنا لا يعينى المناسبة أو الغرض أو السبب المباشر في نزول الآية وإذا عانى فلست أملك الوسائل أو الوثائق التي تقطع بصحة هذا السبب أو ذاك .

قلت : فأنتم إذا تصرفون أو تحاولون صرف العلماء وأصحاب البحث والدرس من دراسة أسباب النزول . . وإنما محاولة — لو أنجحت — فسلام على دراسات وبحوث واعتراضات وإجابات يعلم الله وحده كم كلفت الرؤوس الكبيرة والقلوب الذكية من جهد وعناء وإذا فعلى آثار من ذهب العفاء .

قال : صبراً قليلاً ولا أقول جيلاً فأنت تستصرخ غير مستصرخ وتندب وتلطم في غير جنازة وإلا فقيم الويل والثبور وعظائم الأمور ، ومن عرض

لقداسة الآثار وأصحاب الآثار الذين تأتي إلا أن تهيل عليهم القراب أو تعفى عليهم وعلى آثارهم بالطريقة التي ترضى ؟ إن شيخك هذا الذي يحاورك قد يؤلف سفرًا أو أسفارًا في أسباب نزول القرآن ولكن ذلك شيء والامر الذي نعالجه شيء آخر . . فأنا أزعّم لك أن لا وسيلة للقطع بأن ثابتًا أباهير إنما لقب تأبط شرًا لأنه تأبط سكينًا أو أفاعى أو شيئًا آخر ، ثم أضفت أنه أمر عسير المنال أو متعذر أن تقطع بصحة رواية مادام ثم روايات أخرى حتى في أسباب نزول القرآن المبين بله أحاديث الشعراء وقصص المتصمّكين . . ادرس ما اتسع لك حقّ الدرس وابحث ما تراكم أمامك كشبان البحث ولكنك قبل هذا مكاف أن تعلم وتعتقد أنه صلى الله عليه وسلم براه من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا براه منهم من أقوالهم ومن أفعالهم ومن كل شيء يمت إليهم بسبب .

ولأنه يبدو أن أسباب النزول ما زالت قائمة أغنى أنها أحداث مستمرة فلقد فرقت الناس مثلا الذين قبل بعثة خاتم الرسل وعلى عهده وبعد انبعاثه عليه السلام إلى الرفيق الأعلى حتى في الأمور التي تعينت بذواتها وصفاتها فلقد ثبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب . . وثبت يدا غير أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ، وهو وغيره ممن سبق واجتمع ولحق سواء في التّب ، وصلاة النار ذات اللهب .

قلت : وفي المرأة حمالة الحطب مغلوّة الجيد بحبل المسد .

قال : وفيها دون أدنى ريب فأنت واجد أبا لهب وامراته حمالة الحطب في كل بيئة من البشر وفي كل فترة من الفتر، فتر هذا الدهر الطويل الدائم الممدود على حد تعبير لبيد .

قلت : إن الذين فرقوا دينهم قرئت (فسرّ قوا) بالتخفيف .

قال : وفارقوا بالآلف ، ولا عليك فسواء فرقوه أو فرقوه بالتخفيف أو فارقوه بالآلف فكهما مؤدية إلى الفرقة أو كلاهما من (فرق) مصدرًا أو (فرق) فعلا فلمست أدرى أمؤثر أنت أصلية المصدر أم مؤثر أصلية الفعل الماضي ؟ .

قلت : نعم إن صيغة الفعل لا تهمنا من حيث الجوهر ولكن من المهم أن تكون نزلت في أهل الكتاب أو في غيرهم ، فلو سلمنا أنها نزلت في الأولين لكان حكمها غير منصب على المسلمين .

قال : منطق يحمله صاحب المنطق ومن جاء بعده ويجيء من المنطقيين حتى يوم الدين ، فأنت بمنطقك هذا غير المنطقي تعنى ضرورة أن المسلمين إذا فرقوا دينهم وكانوا شيعا غير مؤاخذين أو غير مأخوذین بهذا العقاب عقاب أنه عليه الصلاة والسلام منهم براء براءة كاملة شاملة كل شيء ، فأنا وانت ومن نهج نهجنا مثلامسلمون على طريقتنا طريقة شيخك .. أنا على رأس الفرقة وأنت والأتباع والأشباع تحت لوائها نحارب فتتقتل ويقتلنا غيرنا من الشيع الآخر، فكل مسلم على طريقه من الحق له أو عليه أن يقتل غيره من المسلمين مادام على طريقة أخرى ، ويكون معنى الآية مزدوجا ، فهي من وجه تفيد أن الرسول برىء من أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ومن وجه آخر تفيد أن للمسلمين أو عليهم — فليست أدري أنراه أمرا واجبا ام جائزا — أن يفرقوا دينهم وأن يتشككوا شيعا على رأس كل شعبة منها شيخ أو زعيم أو رئيس أو أمير أو سمه ما شئت فتلك مسألة شكلية أو إسمية لا تثير إشكالا وإنما المهم أن يحرض كل شيعته على قتال الشيع الآخر . . . وكذلك تتحقق الفرقة التي أجازنها الآية الكريمة متى فسرناها بمقتضى منطقك هذا العجيب .

قلت : واضح أنى لا أقصد إلى هذا المنطق . فلو ثبت أن النص إنما نزل خبرا عن أهل الكتاب فلا أكثر من أنه أعلن براءة الرسول من قوم هذا شأنهم .

قال : بل ثم أكثر من هذا وهو أنه سبحانه وتعالى ينهى المسلمين أن يكون هذا شأنهم . ذلك إن ثبت كما قلت أن الآية نزلت في أهل الكتاب ، لأن القرآن لا يقص علينا قصص غيرنا إلا واعظاً ومذكراً . . . إلى لأبدى وأعيد وأكرر ثم أعود مبدئاً ومعيداً أو مكرراً أن أسباب النزول المباشرة لا تعيننا بوصف كوننا

مسلمين وإنما تعيننا بوصف كوننا من أصحاب البحث والدرس . والله وحده يعلم
مؤدى البحث والدرس في أمور مضى عليها قرون تلو قرون .

قلت : يعرف أصحاب القانون شيئاً اسمه الأعمال التحضيرية ، فالنص وليد
ملايسات شتى تعين على فقهه . . . والقرآن هو النص المقدس الأعلى افتريدونه
مجرداً عن السوابق؟ وما عسى أن يكون علة نزوله ؟

قال : إنه لم ينزل لينظم حياة قوم عاشوا في القرن السادس الميلادى لابتعادهم
بل نزل لينظم حياة الآدميين إلى يوم الدين ، فأسباب نزوله قائمة ما قامت الحياة
الآدمية . . . ومع هذا ليسكن لك ما أردت وليسكن لسبب النزول كما رواه زيد
أو عمرو قوة الأعمال التحضيرية للقوانين الوضعية فهل هذه الأعمال
التحضيرية ملزمة ؟

قلت : إلا تسكن ملزمة فلا أقل من الاستئناس بها .

قال : أو كما قال صاحب القاموس :

والإنس : البشر كالإنسان الواحد إنسى ، وأنسى جمعه أناسى وقرأ يحيى
ابن الحارث وأناسى كثيراً بالتخفيف ، وأناسية وأناس ، والمرأة لإنسان وبالحاء
عامية وسمع في شعر كأنه مولد :

لقد كستنى فى الهوى ملابس الصب الغزل
إنسانة فتانة بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيى بها فبالدموع تغسل

والأناسُ الناس ، وأنس بن أبى أناس شاعر ، والإنسى الأيسر من كل شيء
ومن القوس ما أقبل عليك منها ، والإنسان الأنشئة وظل الإنسان ورأس الجبل
والارض لم تزرع ، والمثال يرى في سواد العين جمعه أناسى وإنسك وابن إنسك
صفيك وخاصتك ، والأنوس من الكلاب ضد العقور جمعه أنس ، ومثناس ،
امرأة ، وابنها شاعر مرادى والأغر بن مانوس اليشكرى شاعر جاهلى ، والأنيس
الديك والمؤانس وكل مانوس به ، وبهاء النار كالمأنوسة ، وجارية أنسة طيبة
النفس والأنس بالضم وبالتحريك ، والأنسة محركة ضد الوحشة ، وقد أنس به

مثلثة النون ، والآنس محرّكة الجماعة الكثيرة والحي المقيدون ، وبلا لام خادمُ
النبي صلى الله عليه وسلم ، وآنس ضدُّ أوحش ، والشيء أبصره كأنَّسه تأنيسا
فيهما وعلمه وأحس به ، والصوت سمعه ، والمؤنسة بلدة قرب نصيبين ،
والمؤنسية بلدة بالصعيد ، ويونس مثلثة النون ويهمن ، علم ، واستأنس ذهب توحشه ،
والوحش أنس إنسياً ، والرجل استأذن وتبصر ، والمتأنس الأسد أو الذي
يحمس الفريسة من بُعد ، وما بالدار من أنيس أحد والمؤنسات السلاح كله
أو الرمح والمغفر التسيغة والترس ، ومؤنس كحدث ابن فضالة صحابي ، وكزير
علم وكأمير ابن عبد المطلب جاهلي ، ووهب بن مانوس من أتباع التابعين ،
وأبو أناس عبد الملك من جوبة أخباري ، وأم أناس بنت أبي موسى الأشعري
وبنت قُرط جدة لعبد المطلب وجدة لاسماء بنت أبي بكر وغيرهن .

قلت : نحن مع تأبط شرا ، وكانت المناسبة تقتضي أن تنتهي إلى مادة
د وحش ، لا إلى مادة د أنس ، فصاحبنا - كما سلف - كان يرى في د الوحشة ،
الآنس الأنيس .

قال : وهل خلصنا من تأبط شرا فننتهي إلى الوحشة أو غيرها ؟ إن حديثنا
عن د ثابت أبي زهير تأبط شرا ، مازال وسيظل مستمرا . فلا تتمجل النهاية ونحن
في البداية ، فإلى فرصة أخرى نعرض فيها لمادة د وحش ، في شعر لتأبط شرا
يمدح به ابن عمه د ابن مالك ، وهو غير صاحب الألفية ، أما اليوم فحسبك
د الآنس ، ود الإنسانية الفتانة ، التي خجل منها البدر . ولك أن تحقق : أهو شعر
مولد كما يبدو لصاحب د القاموس ، أم شعر عربي يحتاج به فتكون د إنسانة ،
بالهاء غير عامية ؟

الحُرِّيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ

محاضرة الطالب الفاضل الدكتور محمد البرهي

أستاذ الفلسفة في كلية اللغة العربية (*)

إذا درس الإسلام من أصوله - وهي القرآن والسنة الصحيحة - لا من تأويل ضعفاء المسلمين أو أصحاب الغرض منهم أو من غيرهم ، وجدنا أنه هياً مكاناً فسيحاً ، وللحرية ، وأنه أنزلها في تعاليمه وفي الاعتقاد به نفسه منزلة كريمة . إذ أنه لم يفرق بين الإنسانية والحرية . لأن للطبيعة نفسها التي أوجدها الخالق جعلت الحرية مظهر الإنسانية وخصيصة لها التي يفرق بها بين الإنسان وغيره من الكائنات في هذا الوجود . والإسلام نفسه ينادي بأنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

(١) لم يضيق الإسلام في الدعوة إلى مبادئه وتعاليمه على من دعاهم إلى هذه المبادئ والتعاليم ، ولم يقصرهم على الإيمان به ، بل وضع أمامهم آراءه في الوجود وفي الحياة الإنسانية على وجه خاص ، وناشدهم أن يحتكموا فقط إلى عقولهم الإنسانية في الأخذ به ، أو في رده ودفعه ، ولكن في غير تحيز في ذلك أو تأثر بالإلاف والعادة ، أو بتوجيه سابق لفكرة معينة أو عقيدة خاصة .

طلب إليهم الاحتكام إلى العقل العام ، في خصمهم لتعاليمه المبلغة إليهم والحكم عليها .

(*) الدكتور كاتب المقال هو الآن أستاذ زائر لدراسة الفلسفة الإسلامية بجامعة مونتريال بكندا .

وما طلبه الإسلام من وجه إليه دعوته من عدم التأثر بتوجيهات معينة في الحكم على قيمته الذاتية لم تزل تتنازع احتضانه المذاهب الفلسفية المثالية للآن . يقول الله جل شأنه في كتابه الكريم : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ » ، ويقول أيضاً : « لا إكراه في الدين . قد تبين الرشد من الغي . فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . والله سميع عليم » .

وهكذا قدر الإسلام الإنسان الحر ، وقدر الإيمان الحر عند ما دعا البشر إلى الأخذ بمبادئه وتوجيهه . وأولى هذه المبادئ : الاعتراف بالله وحده لاشريك له إلهاً وخالقاً لهذا الكون كله .

(ب) وإذا اعترف الإسلام للإنسان بنiam حريته في الإيمان بالله ، وفي تقدير الرسالة التي جاء بها - فقد قدر حريته في التعامل مع غيره ، وبالتالي يحكم ببطلاق كل عقد بين طرفين شاب الإكراه أحدهما ، أو قام على الخديعة لواحد منهما أو كليهما . وعقد الزواج واحد من العقود التي يسرى عليها هذا المبدأ العام . فقد قرر الفقهاء عدم قيام الزوجية إذا دخلها الإكراه ، وقرروا تبعاً لذلك أن لكل من طرفي هذا العقد حق فسخه إذا ظهر فيما بعد عقده أن الخداع كان عنصراً في إتمامه . وهنا يذكر هؤلاء الفقهاء كثيراً من أمثلة عدم السكافية الزوجية التي تعطى لأحد الزوجين حق طلب الفسخ .

(ج) وفي الزوجية : — وهي أساس بناء الأسرة — أعطى الإسلام المرأة أن تكون المعصمة بيدها إن رأت وطلبت ذلك . أما الرجل فأُسند إليه حق الطلاق دون الحاجة إلى تنبيه خاص عليه في العقد . ويستعمله إن رأى ما يدهو إلى الفرقة وتضرر بالبقاء في زيجته .

وفي حال قيام الزوجية بين المرأة والرجل لم يبلغ الإسلام وجودهما الشخصى بل أبقى لكل منهما الحق المطلق والحرية التامة في تصرف المال الخاص به على النحو الذى يراه .

(د) وفي تصرف شئون الدولة : لم ير الإسلام في رئيس الدولة إلا راعياً عاماً لشئونها . يصرفها حسبما يرى أهل الرأى والخبرة في الأمة .

ولكنه لم يرسم صورة محددة للشورى ؛ بل وكل ذلك إلى الجماعة نفسها . إذ أن الذى رى إليه من تقدير الشورى واعتبارها أساساً للحكم أن يطمئن أفراد الجماعة إلى مساهمتهم في تصرف أمورهم حتى يكون اتباعهم لما يرونه من تدبير أو يذهبون إليه في تشريع صادراً عن نفس راضية . وبذلك تكون خطوات سيرهم في الحياة خطوات إيجابية وإلى الامام دائماً .



والإسلام في تقديره لحرية الفرد في الإيمان ، وفي التعامل ، وفي قيام الأسرة وحلها ، وفي تصرف أمور الجماعة - يحدد هذه الحرية بما لا يضر الغير ولا يزعجه في حياته وفي وجوده الخاص :

١ - فقد نصح المسلمين نصحاً أقرب إلى الإلزام العيني بوجوب المحافظة على حرية أهل الكتاب من المسيحيين واليهود في ممارستهم لعبادتهم الخاصة ، وبصيانة أماكن هذه العبادة وجعل ذلك من أمور الولاية العامة التى تخص رئاسة الدولة الإسلامية . وبهذا حافظ الإسلام على مبدئه في حرية الاعتقاد عند ما يوجه دعوته إلى النظر في تعاليمه والاختذ بها .

والجزية التى كانت تفرض على أهل الكتاب لم تكن نوعاً من أنواع العقوبة - كما يصورها بعض المستشرقين - وإنما كانت في مقابل الزكاة التى فرضها الإسلام على المسلمين . إذ الإسلام شرط أساسى في التكليف بالزكاة ووجوب أدائها .

٢ — كما قرر بطلان كل عقد في التعامل يؤدي إلى إضرار أحد المتعاقدين .
فثلاً ارتفاع الأثمان ارتفاعاً مفاجئاً وواضحاً يؤدي في نظر الإسلام إلى عدم
إلزام الطرف الذي سيقع عليه الغبن بالاستمرار في إنجاز العقد على النحو الذي
تم عليه التعاقد بين الطرفين وهكذا بصفة عامة كل ما يؤدي إلى الإضرار في
التعامل جعله الإسلام سبياً في فسخ التعاقد .

٣ — كما أعطى الأمة حق عزل الوالى العام إذا جنح في تصريف الأمور على
نحو لا يحقق المصلحة العامة ، أو إذا لم يأخذ برأى أهل الخبرة والرأى . وأعطاهما
في الوقت نفسه حق تولية من هو أصح لمهمة الحكم .

٤ — وفي الوقت الذى حرص فيه الإسلام على أن يأخذ كل فرد من أفراد
الجماعة حقه وحرية في إبداء الرأى طلب من الجماعة الإسلامية أن تحافظ على حريتها
بالنسبة لدولة أجنبية . وأكد إثم المسلمين عامة إن هم قبلوا ضياع حريتهم بولاية
أجنبي عن دينهم عليهم . . وطالبهم في حال ما إذا تولى عليهم غيرهم بالقوة أن
يقاوموا ولايته وحكمه جيلاً بعد جيل ، ويتنزهوا كل فرصة لإبعاده . ولكنه مع
ذلك منع المسلمين من أن ينتهكوا عرضه أو يعتدوا على أطفاله ونسائه واليتامى
والمعاجز من أهله .

« الحرية » ، وكن أساسى في تعاليم الإسلام : للفرد ، وللجماعة في داخلها ،
وبالنسبة لغيرها من الجماعات والأمم الأخرى .

* * *

هذا هو نظام الإسلام في حال سير الجماعة سيرها الطبيعي .

فإذا أساء الفرد فهم « الحرية » ، وأساء بالتالى استخدامها فللوالى العام المولى
من الجماعة عليها حرصاً على المصلحة العامة للجماعة نفسها أن يوجه الأفراد بالتدابير
التي يراها نحو الفهم الصحيح للحرية ونحو الطريقة المثلى لاستخدامها إياها .

وعمل الوالى إذن ليس كبتاً للحرية الطبيعية وإنما هو تنظيم لاستخدامها .

الْحُرِّيَّةُ الْفِكْرِيَّةُ فِي الْبَيْتِ فِي الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ

للمؤلف الفاضل القاضي محمد بن اسماعيل العمراني
المدرس بدار العلوم العليا بصنعاء اليمن

— ١ —

لقد ظن كثير من العلماء أن العلوم الإسلامية قد ضعفت في العصور المتأخرة ضعفاً عظيماً ، وأنه سادها الجمود وعدم الابتكار كما سادها التقليد بتحريم الاجتهاد المطلق في مسائل الشريعة المحمدية وأصحاب التقليد لأحد الأئمة المتقدمين ولا سيما في العصر العثماني الذي ابتدئ بالاستعمار التركي للعالم العربي في ربيع القرن العاشر وينتهي بالاستعمار الفرنسي للديار المصرية الذي أعقبه استقلالها عن تركيا استقلالاً ذاتياً ، ثم كانت النهضة العلمية الحديثة التي كان من أبطالها السيد جمال الدين الأفغاني وغيره من العلماء والمصلحين الذين قاموا بتنبيه الافكار إلى الحرية الفكرية وترك التقليد للأسلاف في كل مسألة علمية بدعوتهم الإصلاحية .

هكذا ظنوا ، لعدم وقوفهم على ما أنتجته أقلام علماء اليمن في العصر العثماني الراكد ، فهم في ظنهم معذورون ، والواقع أن اليمن - وهي التي أنجبت السيد محمد ابن إبراهيم الوزير مؤلف « إنبثار الحق على الخلق » ، ذلك المجتهد المطلق وأمثاله من العلماء المستقلين - قد أنجبت في العصر العثماني الراكد جماعة من علماء الإسلام المجتهدين وفقهاء شريعته للمجتهدين ، ولا سيما في عصرها الذهبي الزاهر بعد أن تم لها الاستقلال التام أيام الدولة القاسمية التي ولدت دعوتها في فجر القرن الحادي عشر من الهجرة بهمة مؤسسها البطل الخالد الذكر (القاسم بن محمد بن علي) والتي شبت وترعرعت في بحر ذلك القرن نفسه عند ما تولى الإمامة المتوكل على الله إسماعيل ،

وذلك عقب انتهاء الحكم التركي الأول في بلاد اليمن بجلاء جميع القوات العثمانية المستعمرة في آخر مدة أخيه الأكبر الإمام (المؤيد بالله محمد بن القاسم) .

واقـد كان الحامل للواء هذه النهضة العلمية التي كان مبدأها الأول (الحرية الفكرية) والاجتهاد المطلق هو الإمام (القاسم بن محمد نفسه) فقد كان من دعاة الاجتهاد كما كان من أبطال الجهاد ومكافئ الاستعمار ، وقد كان من جملة مؤلفاته القيمة كتابه الذي سماه : (الإرشاد إلى نيسر الاجتهاد) وقد شاركه في دعواته الإصلاحيتين — الدعوة إلى الاجتهاد في العلم والدعوة إلى الجهاد في سبيل الاستقلال — جميع أولاده الأشبال . وأحفاده الأبطال . فقد كانوا جميعاً رجال علم وجهاد وأرباب سيف وقلم ، وهل ينسى التاريخ البني ورجال التاريخ البني (أن الحسين بن القاسم بن محمد) أخرج لأمته أعظم كتاب ألف لهم في علم الأصول أيام جلوسه بقرية (حدة) أثناء محاصرته للقوات العثمانية المستعمرة التي كانت يومئذ محتلّة احتلالاً عسكرياً للعاصمة اليمنية صنعاء ، فهلا تسمع التاريخ الإسلامي في عصوره المتأخرة مثل هذا أو قريباً من هذا .

واقـد كان من نتائج هذا النشاط العلمي العظيم الذي ظهر في شباب هذه الدولة العظيمة وكهولتها حركة عليّة عظيمة سارت على مبدأ الحرية الفكرية في جوٍّ يسوده القساح والإنصاف ، استمدادها من الكتاب والسنة ، وغايتها رضا الله تعالى في طلب الحق ، وخدمة الإسلام ، ونشر العلم .

وقد كان من أبطال هذه النهضة العلمية ذات الحرية الفكرية والاجتهاد المطلق السيد الحسن بن أحمد الجلال ، والشيخ صالح المقبلي ، والسيد محمد بن اسماعيل الأمير الصنعائي ، والقاضي محمد بن علي الشوكاني (١) . وغيرهم من المصلحين الذين

(١) توفي الجلال سنة ١٠٨٤ ، وتوفي للمقبلي في القرن الثاني عشر ، ولكنه كان قد أخرج بعض مؤلفاته التي أعلن فيها اجتهاده المطلق كالعلم الشافعي في آخر القرن الحادي عشر سنة ١٠٨٨ ، ولهذا قلت أنموذجاً من أفكارهما في آخر مقال هذا ، أما الأمير فهو من رجال القرن الثاني عشر توفي سنة ١١٨٢ ، وأما الشوكاني فهو من رجال القرن الثالث عشر توفي سنة ١٢٥٠ ، وأسأفرد لها مقالا مستقلا إن شاء الله ، وأنقل أنموذجاً من أفكارهما كما نقلت هنا أنموذجاً من أفكار الجلال المقبلي .

لا يعرف قدرَ علومهم واجتهادهم إلا من درس مؤلفاتهم ، ولا يعترف بحريتهم الفكرية إلا من شرب من معين علومهم .

وحسب الفارسي الكريم أن يطلع على ما قد طبع من مؤلفاتهم ليعرف أن شمس الحرية الفكرية قد طلعت على الدين في العصر العثماني بعد أن غربت عن سائر الأقطار تاركة علماءها يتخبطون في ظلمة التقليد وديجور الجود تحت كابوس الاستعمار العثماني الذي ظل جاثماً على الأقطار العربية حوالى ثلثمائة عام ، وليعرف أيضاً أن علماء الدين قد قاموا بدعوة الإصلاح في هذه العصور الراكدة قبل أن تخلق النهضة العلمية الحديثة التي أشرقت على العالم الإسلامي في بحر القرن الثالث عشر وكان من جملة أبطالها السيد جمال الدين الأفغاني وغيره من المصلحين .

أمودج من روح العلم النيني في بحر
القرن الحادى عشر من الهجرة :

أحب الآن أن أقدم للقراء أمودجاً لروح العلم النيني في وسط القرن الحادى عشر ، وذلك بعرض موجز لأصغر كتاب أخرجه العلامة الجلال ، وهو : فيض الشعاع الكاشف للقناع عن أركان الابتداع ، وهو الكتاب الوحيد الذى أخرجه المطابع من مؤلفات عالمنا الجلال ، إذا ما استثنينا كتاب : العصمة عن الضلال ، الذى ساقدمه للقراء فى فرصة أخرى إن شاء الله ، وفيض الشعاع ، هو شرح صغير لفصيدة الجلال البائية الرائعة التى قال ناظمها فى مطلعها :

الدين دين محمد وصحابه يا هائماً بقياسه وكتاباه

وهو بالرغم من كونه كتاباً صغيراً فهو يصلح أن يكون مثالا صغيراً من أمثلة أفكار عالمنا الجلال التى ديجها قلبه السيال والتي هى أكبر مثال من أمثلة الحرية الفكرية فى بلاد الدين قبل ثلثمائة عام ، وأحسن نموذج لروح العلم النيني فى بحر القرن الحادى عشر ، وذلك فى أيام الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم ، وهى أول فترة من عصور العلم الذهبية فى بلاد الدين فى العصر العثماني الراكدة ، وذلك حينما بدا السيد الجلال يخرج لليمينيين مؤلفاته القيمة التى لا تزال فى عالم

المخطوطات بالرغم من أنها المثل الأعلى في الجدل والتحقيق ، ومثال صادق للحرية الفكرية والاجتهاد المطلق في بلاد الدين ، في عصر التقليد والجمود .

والقارىء لكتاب د فيض الشعاع ، لا يكاد يتصفح أول ورقة من هذا الكتيب حتى يرى مؤلفه قد وثب وثبة سريعة نحو الموضوع ، فذكر الدليل على تحريم البدع التي وقعت في الدين الإسلامى ، فكانت أكبر حائل بين المسلمين وبين الفهم لأصول الدين وأدلتها الشرعية الصحيحة ، وعقبه بذكر الأدلة الدالة على تحريم التفرق في الدين الذى كان أكبر مانع للاستضاءة بنور القرآن ، ثم يأسف كثيراً لتفرق المسلمين في الدين ، ويعلم اجتجاده المطلق بقوله : « لو وقف كل إنسان على فهم نفسه فيما يتفاوت فيه الفهم لمان الأمر ، ولكن حاول إلزامه الغير فحصل الجدال وتشيعت الشيع ، ثم لو اكتفى المتتبعون للأحياء لانقطعت الفرقة بموت المتفرقين ، وفى من أقوال المتفرقين ما كان بدعة ، ولكن حفظها الجاهلون بتقليد الأموات ، وقطع نفيس الأوقات بكتب أقاويل الرفات ، فخرموا بذلك مباشرة بصائرهم لأنوار التنزيل ، وخذلوا عن البلوغ إلى شىء من حقائق التنزيل فاستبدلوا الأدنى بالذى هو خير ، وكان حظهم من سيول الحقائق هو الزبد الذى يذهب جفاء لا غير .

ولقد سحبت دوايس هذه البدع أذيالها على مسالك أصول الدين والفروع ، وحالت دونها فرسان طعن يكشف عن سواهدا الدروع ، لولا جراتى على أسنة تلك الهم بقلب أصم وعصب حطم ، ثم يراه القارىء قد دخل فى شرح القصيدة فأنكر الابتداع فى الدين ، كما أنكر ما كان ذريعة إلى الابتداع فى الدين فكان سبباً فى هجر أدلة الدين الخفيف ، وذلك كالتفاسات الفاسدة ، والجدال بالباطل ، وتأصيل الحكم النظرى للغير ، وتقليد الأموات ، بقلم سيان وفكر وقاد وحرية فكرية لا يعرفها ذلك العصر الجامد ، وانظر إلى آخر هذه القصيدة الرائعة ، وقارن بينه وبين أقوال علماء ذلك العصر الراكد ، إنه يقول :

يا راكبا يهوى لقبر محمد عرج به متمسحا بترابه
واقرا السلام عليه من صب به يبلغ إليه القدس فى محرابه

وقل ابنك الحسن الجلال مباين من قد غدا في الدين في تلعبه
لا عاجزاً عن مثل أقوال الورى أرهاقاً من علمهم لصخبه
فالمشكلات شواهد في أننى أشرفت كل محقق بلعبه
لولا حجة قدوتى بمحمد زاحمت رسطا ليس في أبوابه
لكننى أولى الورى بمقامه فأنا ابنه وأسير في أعقابه

هكذا قال عالمنا الجلال : إنه سيزاحم أرسطاطاليس على أبواب الفلسفة الإغريقية وعلى أبواب المنطق اليوناني ، لا يمنعه من المزاومة له عجز ولا قصور ، ولكن حبه الاقتداء بحده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نعم ، لولا حبه الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزاحم حكيم اليونان وواضع علم الميزان .

هكذا بلغت الحرية الفكرية بعالمنا الجلال في العصر الذى جد فيه الفقهاء جهوداً كان من نتائجها السيئة أن هابوا مزاحمة أسلافهم بمعارضة أقوالهم هيبة جهلهم ويقولون لأجلها النصوص الصريحة من الأحاديث الصحيحة ، بلا حجة نيرة ولا دليل صحيح ، بعد أن استحبوا المقام فى ظلمات القول والقيـل ، وحرّموا على أنفسهم - بلا دليل صحيح - الاستضاءة بأنوار التنزيل .

وأرجو أن يكون القراء قد تصوروا بهذا الموضوع الموجز ، موضوع هذا الكتيب الذى ما هو بالنسبة إلى سائر مؤلفات الجلال التى لا تزال مخطوطة إلا قطرة واحدة من بحر عجاج متلاطم الأمواج ، كما لا يخفى على من قد اطلع على مؤلفات الجلال المخطوطة التى لا يسبح فى محيط بحور علومها إلا العلماء المحققون ، ولا يرتاض فى ميادين أفكارها الحرة إلا طلاب العلوم المتحررون المستقلون ، وذلك كضوء النهار المشرق على حدائق الأزهار ، ويتصور مؤلفات الجلال القيمة قد تصوروا حركة النهضة العلمية اليمينية الحرة قبل ثمانئة عام ، وتكيفوا (روح العلم النبئى فى بحر القرن الحادى عشر من الهجرة) ؟

فِي التَّارِيخِ وَالْإِدْبِ

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوي الأستاذ في كلية اللغة العربية

— ٢ —

(تتميم لتمهيد البحث عن الآخرين)

خندف — حلوان :

سأقنا إلى الاسترسال في الكلمات السالفة مطاوعة المناسبات المنقبلة في النفوس ، فالحديث عن اليأس جد النبي صلى الله عليه وسلم مدعى للقول في زوجه : خندف ، وخنتة : حلوان أخوها .

وعند ما طفقنا نروى بعض ما أثرهما أطل علينا المنادى بابتغاء تقديم الحديث عن أبيهما : عمران وحُزْريّة ، فألمعنا بعض الإلمام بشيء من أخبارهما وما تركا من مخلفات لا تمحى على مر الدهر ، لنفرغ لابنيهما على حسب اتجاهنا الأولى المقصود لنا بالذات .

غير أننا ماكدنا نردد آيات التمجيد لهما من ناحيتي الأصل والفرع ، وأنهما مُقيّض لهما ما استأثرا به في دنياهما ، حتى بدا لنا الالتفات إلى النظرة العامة في أصول للناس وفروعهم بالقياس إلى كل من يكتشفانه منهم .

وحينئذ لاح لنا أنها لا تخرج عن نطاق أنواع أربعة ، جمعها الشيخ المحدث القسطلاني في بيتيه السابقين آنفاً .

النوع الأول : طيب الأصل والفرع ، وهذا النوع أسمى الأنواع وأقنها بالثناء والذكر الحسن ، وإنه لينطبق على خندف وحلوان ، ومن على شاكلتهما ممن وانه القدر لحقه من ورائه وأمامه من يُتغنى طرباً بالقربى لهم .

وإذا أريد المثل الكامل الذي لا يتأري فيه إثنان ، ولا ينتطح أمامه عزان ، فليس ثمة أحق وأوفى ممن فضله ربه على سائر خلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع الله له الحسنين : حسنى الأصل وحسنى الفرع ، أو كرم المنبت ورواء الثمر ، فأما الأصل فقال فيه الصادق المصدوق : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . فأنا خيار من خيار من خيار — وأما الفرع فهي ذى العترة الزكية من آل البيت رضى الله عنهم أجمعين ، وإنه ليطيب لى أن أتمثل بقول من يناديهم ويفخهم :

يا آل بيت رسول الله جبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

النوع الثاني : خبيث الأصل والفرع . وهذا النوع أخسها فلنضرب عنه صفحا .

النوع الثالث : طيب الفرع دون الأصل ، ونسل هذا النوع حرى بالتبوء للذنبة التي تلى منزلة نسل النوع الأول الأعلى ، لأنه وإن لم يسند ثبات الأصل وعظمة الجند إلا أنه تدارك ما فاته واستجلب ما لم يجد له أثراً بعد عين ، فكفاه أنه حاول فأفلق وتناول بيده البعيد عنه ، هذا هو العصاى الحقيق بالاحتفاء به ، ومن الأمثلة البارزة فيه : قتيبة بن مسلم الباهلى ، فليس كثيراً عليه أن يمدد الشاعر فيما سبق أباً لباهلة قبيلته التي نشأ منها ، ولا عجب من إعتبار الفرع أباً للأصل ، فالأبوة في المكارم والمفاخر لا في الأنساب والأشخاص .

ويقرب من هذا الاعتبار مع الاختلاف : ما قاله ابن الرومى في مدح أبى الصقر سيد بنى شيان ، فإن شيان منيعة الجانب مرهوبة المسكنة ، موفورة الكرامة ، وباهلة مبهضة الجناح كسيرة الخاطر . وفرع شيان أبو الصقر باسق ، اختصه ابن الرومى بإطرائه وأنساق في حلية مديحه فمرض لهذا المعنى ، وجعل أباً للصقر أصلاً لشيان مع قوة نفوذهم وشدة شكيمتهم آتت ، بل تجاوز

ابن الرومي هذا الاعتبار إلى التصريح بوجوب التعديل في الآبوة والبنوة ، فأنكر
 آبوة شيان لآبي الصقر وحسبهم فروعا له وأبناء ، حيث يقول :
 قالوا أبو الصقر من شيان قلت لهم : كلا لعمرى ولكن منه شيان
 وكم أب قد علا بابن ذوا شرف كما علا برسول الله - عدنان
 ولما كان يظن في ابن الرومي الاشتطاط في هذا الرأي ، والخروج به عن
 مألوف الناس ، ومجاهدة الوقع المحس الذي لا يجادل فيه - اضطر إلى تلمس معتمد
 يشكى عليه مما يقبله الناس ، حتى يسلم له قوله ، ويعترف له به .
 فضرب المثل بعدنان إذ سما قدرها وتألّق نجمها أن كان منها أفضل الخلق
 عليه الصلاة والسلام . وكان جسد موفق في تأييد نظريته بما لا يستباح
 بعده الارتياب .

نعم لا نحاول جعل الموازنة بين البيتين تامة ، فإن الثاني مع سوقه دليلا
 للأول صريح في استبقاء الآبوة والبنوة كل في مرتبته ، وإن أفاد بمنطوقه الواضح
 أن الآباء يتسمنون الذروة برفعة أقدار الأبناء ، وأن الأبناء الأجناد أضفوا على
 الآباء أودية مجادتهم ، لكنه على أى حال يسعفنا في الاعتماد عليه باعتبار النتيجة
 المعمود إليها .

ولهذا البيت الثاني شأنه في البلاغة ، فإنهم في مبحث التشبيه ذكروا أغراضه
 المرادة منه ، وأن منها بيان إمكان المشبه ، فاستشهد بعضهم ببيت ابن الرومي ،
 وبعضهم ببيت أبي الطيب المتنبي .

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال
 ولكن جهرة البيانين رجحوا الأول على الثاني في تحقيق الاستشهاد
 المفاضلة بين بيتي ابن الرومي والمتنبي :

استشهد السكاكي في المفتاح ببيت ابن الرومي ، والتشبيه فيه صريح لا تعقيب
 عليه ، واشتهد الخطيب ببيت المتنبي . فقال السعد في شرح التلخيص معلقا عليه :
 (وهذا التشبيه ضمني ومكنى عنه) (١) .

وأراني قد أطلت في هذا النوع مع أن مقابله مما يتطلب حديثاً عنه مختصراً حتى ينتهي المقال الذي عرض المناسبة لتعود إن شاء الله تعالى لموضوعنا .

النوع الرابع : طيب الأصل خبيث الفرع . وهذا النوع يحزن الحديث عنه بما جره من الشر الويل على أصله ، وأخلف الآمال المترتبة منه ، وأضاع تليداً من المسكارم بانحطاطه وتنسكه الجادة التي سلكها سلفه العظيم ، وأثنى كان النوع الثاني ؛ خبيث الأصل والفرع ؛ ملوماً إن هذا النوع ألوم . إذ كانت الأسباب له مبيأة ، ومقاليذ السعادة مائلة في يديه ، فقد غمص نسبه العريق وغمطه ، حتى كأن لم يغن بالأمس .

إن خمول الفرع ينقض البناء العالي المسكين بل يعنى آثاره ويزيل معالمه ، وأمثلته حولنا مائلة البقاع والاصمقاع ، وفيما مضى منذ كان الوجود والمجتمعات ، وسأذكر مثالا فيه عبرة لأولى الالباب .

يروى التاريخ أن أحمد بن أبي دواد الإيادي بلغ قمة المجد ، إذ صار قاضى القضاة في عهد المعتصم بالله ، ورجل المشورة في الدولة ، وذو الرأي المسموع فيها .

قال ابن خلسكان : « وقال لازون بن إسماعيل : ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم بالله لابن أبي دواد ، وكان يُسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دواد فيكلمه في أهله وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كله يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان ، فقال له : « وما على من هذا النهر ؟ فقال : يأمر المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعينك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفق به حتى أطلقها ، (١) .

كانت له مواقف خالدة ، ولو تحدثنا فيها لامتدَّ المقال وما نفي بها ، وما انفك مرموق المنزلة مرفوع الجانب طيلة خلافة المعتصم بالله ، وابنه هرون الواثق بالله ، حتى أصيب بالفالج في أول خلافة المتوكل على الله ، فلم يجد الخليفة بداً من

مكافأته على ما قدم من صنائع للخلافة العباسية ، لتخفف عنه ويلات الكارثة المفاجئة .
فاستخلف محمداً ابنه في منصبه ، لكن ابنه كان مضطرباً قهراً عن شأو أبيه وتخلف
عنه ، فأذهلت المفارقة بينهما الناس ، فكلاهما بلغ الغاية في العمل على شاكلته ،
ولذا قال إبراهيم بن العباس الصولي فيه :

عفت مساور تبت منك واضحة على مجاسن أبقاها أبوك لكا
فقد تقدمت أبناء الكرام به كما تقدم آباء اللئام بكا

قال ابن خلكان : « ولعمري لقد بلغ الغاية في طرفي المدح والذم ، وهو
معنى بديع ، (١) .

واقعد خطر على بالي لهذه المناسبة مقابلة جرت مع المرحوم الشيخ المهدي
العباسي شيخ الأزهر فإنه لما تولى مشيخة الأزهر الشريف وتلأل نجمه وملا
الاسماع ذكره حقد عليه كبار معاصريه . والمعاصرة ممضة مقصبة بين الأنداد ،
موهنة جبل الوداد ، لذا خدم أحدهم الزمان وفرقت بينهم في المناصب الأيام ،
فكان العلماء يتهامون فيما بينهم مشدوهين بحكم القدر ، والمجب من رياسته عليهم
مع أن جده الأدنى أو الأعلى كان من مياسير اليهود في مصر ، وفاتهم أن الشيخ تبوأ
الصدارة بكفاءته الممتازة ، وسمو شخصيته الفذة ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

حكى لنا بعض مشايخنا ملاحظة عرّض فيها بعض مناهضيه به فعرض
هو به أيضاً بما استخذى بعده وبهت .

التمريض بين الشيخين .

روى لنا ذات يوم شيخنا أن المصادفات - جمعت بين الشيخ المهدي وبين
الشيخ العروسي أو البيلوي ، - والشك من الراوى على أنهما معاً شريفان يمتان
بصلة النسب العالي - في زيارة الضريح الحسيني ، فبينما كانا بجوار المقصورة
استلقت الشريف نظر المهدي وأشار بيده إلى المقصورة ثم تبثّل بقول الفرزدق .

أولئك آباءى فجنى بمنهم إذا جمعنا يا جرير المجامع (١)

فرد عليه المهدي من فوره وعلى البداة :

يفأخرون بآباء لهم سلفوا نعم الجدد ولكن بئس من خلفوا (٢)

لقد بغت الهاشمي المهدي بهذا التعريض الذي لو وجه لغيره لاستشاره إلى السباب ، ولكن المهدي الحليم في ساعة الغضب اقتدر أن يلقمه الحجر وأن يرد عليه بما يدخل معه القبر ، والعجيب في الرد أنه أصاب المحز وقطع المفصل حتى لا يلتفت من فاته الحسب إلى النسب بعد ذلك .

وقد أجاد في التشبيه من ندد بالمتنافئين على القديم دون حفاظ منهم على رعاية ماله من حقوق في المسامرة له إذ يقول :

إن القديم إذا ما ضاع آخره كساعد فله الأيام محطوم (٣)

وفي هذا البيان السالف إجمال في القول عن الأنواع الأربعة حسبما يقتضيه الاختصار لنالحق به الموازنة بينها لتفاوتها في المنزلة والتقدير .

لموازنة بين الأنواع الأربعة :

إن الأنواع الأربعة متفاوتة الموازين متغايرة المقادير ، ينظر المجتمع إلى بعضهم شزرا ، وإلى بعضهم مهابة مع خفض الطرف ، ومرجع النظرتين إلى ما يصدر من الأشخاص وعندهم من أعمال يدور وراءها تكييف المجتمع لمنازل الناس في درجاتهم المتنوعة ، وما من شك أن المجتمع مأخوذ في تقديره بحاضر الأشخاص غير ذا كرك قديمهم وغير متطلع إلى ما سوف يكون .

(١) البيت من قصيدة طويلة ناقض بها قصيدة لجرير على رويها ، فبعد أن عدد مفاخر الآباء أشار إليهم معرفا للسند إليه باسم الإشارة للتعريض بقاوة السامع ، وبه استدلل الخطيب في الإيضاح والتلخيص على تعريف السند إليه باسم الإشارة ، والقصيدة مشروح بعضها في خزنة الأدب الشامد ٧٠٦ ، والسكامل شرح الرغبة ج ١ ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) لا أدري قاتل البيت ، أفن إنشاء المهدي أم لإنشاده .

(٣) من أبيات في هجاء بني تغلب راجع السكامل شرح الرغبة ج ٢ ص ١٧٦ .

وعلى هذا المقياس الحاضر فإنه يحقر النوعين : خبيث الفرع سواء أطاب أصله أم خبيث ، ويحفل بالنوعين الآخرين : طيب الفرع أطاب أصله أم خبيث ، فالنوعان الأولان في المجتمع من الجرائم الفتاكة التي يفر منها خيفة لإيذائها ، وإذا دامنها في الخلط فإنه يرائها تقية شرها بينما يتربص بها الدوائر ويمكن لها البغضاء ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنا لنكشر في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم » .

أما النوعان الآخران فهما مناط الأمل للمجتمع ومببط الرجاء فيه ، فطيب الأصل والفرع جَدَّ قديمه وحديثه ، وطيب الفرع غطت مآثره مآسى سلفه . وإن الحسنات يذهبن السيئات ، والناس أبناء يومهم لا أمسهم ولا غدهم . على أن هذين النوعين ليسا سواء عند ذوى الخبرة في الاحتفاء بهما ، فنصر قديمه لم يرهق بالتكاليف الشاقة وإنما أضاف مجداً إلى مجد ، ومن خذله قديمه كدح وكد وسمى سعيه وناضل وحده حتى أوفى على الغاية ، فذاك متبع وهذا مبتدع ، وليس التشييد كالتأسيس ، فالتأسيس أثر قوة الحزم ، وصدق العزم . الكريم النفس أبي الضمير :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يحد يوماً على من يتكل

كان كثير ممن واتاهم القدر في طيب المعتقد يأبون احتماهم بهذا المستند العالى ويأنفون من تذرهم بالحلل المستعارة منه ، مزهوين بحللهم نسيج أيديهم لا غير .

ومن هؤلاء على سبيل المثال : عامر بن الطفيل العامري الذي مكن له ما لم يمكن لغيره ، حتى أطعمه جبروته ألا يسلم حتى يشاطر المصطفى صلى الله عليه وسلم فضل ربه عليه ، أو يرم فيه ما انطوت عليه نفسه الشريرة من جرم تناجى به مع أريد بن قيس العامري أخى ليبد بن ربيعة لأمه ، فلما وفدا إلى الرسول قال له عامر : يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ قال : لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين ، قال : تجعل لي الأمر من بعدك ، قال : ليس لي ذلك ، إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء ، قال : فتجعلني على الوبر وأنت على المدر ، قال : لا ، وانقضى

المقال بينهما مع إبعاد وتهديد من الطاغية ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله : « اللهم اخسفهما بما شئت » ، فأرسل الله صاعقة على أربد أحرقتة ، ورمى عامراً بغدة في بيت امرأة فقال : « غدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية » ، ونزل في ذلك قوله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » .

هذا العاقب الذي زين له الشيطان سوء عمله قد سوده قومه فسخر العرب من حوله . يابى في مقام التباهي والتفاخر أن يبني تسويد قومه له على أصله وأبيه وأمه ، ويقصره على حوله وطوله فحسب يقول :

ولاني وإن كنت ابن فارس عامر وسيدها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن ورائة أبي الله أن أسمو بأمر ولا أب
ولكنني أحى حماها وأتقى أذاها وأرى من رماها بمنكب
وأتركها تسمو إلى كل غاية وتغلب حتى مشرق بعد مغرب (١)

مغزى أبيات العامري :

يعلن في البيت الأول أنه نسل فارس الهيجاء ، وسيد المواكب في الصدارة الجامع بين البطولة والرياسة ، وفي الثاني أن تسويد قبيلته لإياه ليس مستعاراً من ورائته السادة ، فأنه أبي له العوز إلى السمو من أبيه وأمه ، وإنما وهبه السيادة من عزمه وبعدهم ونفوذ سلطانه ، وفي الثالث أنه لم يك تسويد قومه له حياء وإنما هو ناشئ لما يحوطهم به : يحمي حماهم ويتقى أذاهم ويرى من رماهم بمنكب يدفع ، وفي الرابع أنه صير قبيلته تسمو إلى أوج العز وتسر حتى المشرق وحتى المغرب فتبسط سلطانتها على الجميع .

(١) الشطر الثاني من البيت الثاني من شواهد النحاة على نصب الواو بالسكون ضرورة ، والأبيات من قصيدة شرح بعضها في السكامل مع الرغبة ج ٢ ص ١٧٦ وما بعدها ، وخزانة الأدب الشاهد ٦٣٢

وموطن القصد في الآيات عند البيت الثالث المبدوء بالاستدراك الجميل موقعه المبين أن الناس لا يترجمونها وتدين له بالانقياد إلا من يسدى إليها النفع فيزود عنها الضرر ، ويحلب إليها الخير ، فكيف به إذا جعلها عالية المنزلة نافذة السلطان على من حولها . وهكذا الناس لا تلقى مقابلتها إلا لمن ترمقه بعين المهابة والتقدير .

ونظير ابن الطفيل في التعويل على الشخصية وحدها دون تدلس رافد آخر يقوى من شأن المرء عند الخلق - المعز لدين الله الفاطمي . وإن كان ثمة اختلاف بينهما على ما ترى ، مما لا يؤثر في المشابهة بينهما وجعلهما المثل المضروب في التمسك بأهداب المصامية .

المعز لدين الله الفاطمي :

لما تم له فتح مصر ودخلها في حفل حاشد راجت الشواحي في مصر حول نسبه ، وانتهام أسرته إلى السيدة فاطمة الزهراء ، وتقدم إليه أحد علمائها بالسؤال عن نسبه وحسبه ، وكان المتوقع أن يترتب اختلال كبير بعد هذا النصر الخطير ، لكن المعز أجاب بما فيه مقتنع ، وكأنه ينظر إلى المعنى الذي مجده ابن الطفيل ، قال ابن خلكان : « وكان - المعز لدين الله - يطعن في نسبه ، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقاءه ، اجتمع به جماعة من الأشراف فقال له من بينهم ابن طباطبا : إلى من ينتسب مولانا ؟ فقال له المعز : سنعقد مجلسنا ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا ، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم ، وقال : هل بقى من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا : لم يبق معتبر ، فسل عند ذلك نصف سيقه وقال : هذا نسبي ، ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسبي ، فقالوا جميعاً : سمعنا وأطعنا ، (١) .

وقد حاول ابن خلكان تحقيق الفائل للخليفة وردّد النسبة بين من عرف عنهم الجرأة في هذه المواقف الخطيرة فلم يسعه إلا أن يختم مقاله بالتفويض لمن عند العلم ، وليس لهذا دخل في الموضوع ، فسواء أكان السائل ابن طباطبا أم غيره ، الواقعة في ذاتها صحيحة ، وجواب المعز لا شك فيه ، والعبرة في هذا الجواب ،

(١) وفيات الأعيان (ترجمة بن طباطبا) عبد الله .

فقد تحلل من تدلس النسبة التي بنيت عليها الدولة الفاطمية في مصر ، وأراهم ما أراهم ، وأرجع نسبه إلى سيفه وكأنه يقول :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك عموده عن النسب
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

ولا نرى من وراء ضرب المثاليين الماضيين - وغيرهما كثير - أن نفرض من شأن العراقة أصلا ، كلاثم كلاثم كلا ، بل نريد أن النفس الطموح للعلا لا تترك أبدأ إلى تسكأة الأصل وتتواكل معتمدة عليه ، فإذا ما احتذت حذر سالفها فإنها تقبوا مكانته ، وتملا فراغه الكبير . ولقد أجاد (رحمة الله عليه) عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في حديثه عن نفسه وعن نظرائه :

لسنا وإن احسانا كرمتم يوما على الآباء نتكل
فبني كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا (١)

فأعمال الفروع الزكية تتم عن أصولهم السنية ، ومنها يعرف الناظر حالهم ، إذا لم يدر أخبارهم . وقد در صفي الدين الحلي إذ يقول :

إذا غاب أصل المرء فاستقر فعله فإن دلائل الفرع يبني عن الأصل
فقد يشهد الفعل الجميل لربه كذلك مضاء الحد من شاهد النسل

أما بعد فما علينا بعد هذا كله إلا أن نحتكم إلى منطق الصواب ، الذي يرجع فيه إلى حسن المآب . فحكمه الفصل العادل .

الموازنة بالقسطاس المستقيم .

انقد أرسلنا هذا المقال على وفاق العرف الجسارى بين الناس في تقاديرهم ، وانتحينا فيه وجهة المؤلف عندهم في موازينهم ، فإن معيارهم بفطرتهم مستمد من نزعتهم الدنيوية المبتناة على ما استقر عندهم من احترام من تحبوه الحياة جاها إما لانه مع الجد كريم الجد في زعمهم ، أو لانه اقتدر أن ينهض فيمناز على أترابه حتى يتخذوه المثل المقتدى به فيصبح سيدهم وقائدهم وإن نفسوا عليه في دخائل

أنفسهم ، وهم في معيارهم متجنبون الميزان الحق الذي لا معدل عنه عند الله ،
والقسطاس المستقيم ، فالنسب ولا النشب ولا الجاه عنده جل جلاله التكريم ،
إنما المكرم عنده سبحانه وتعالى ذو المنزلة والزلفى التقي التقي قال عز مز قائل :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، وَوَرَدَ فِي السَّنَةِ الْمُطَهَّرَةِ التَّوْجِيهِ كَثِيرًا إِلَى تَقْدِيسِ التَّقْوَى
لِحَسْبِ ، وَأَنَّهَا السَّبِيلُ الْوَاحِدُ إِلَى التَّكْرِيمِ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى » .

وبطبيب لي أن أردف الآية والحديث بقول الشاعر الملمم بالحق الذي ضاق
ذرعاً بمقاييس الناس في دنياهم الزائلة لأنه ربما حملهم مقياسهم على التبديل في الأنساب
تعلقاً بأذيال العصبيات ذات العدد والعدة ، وعلى مر الزمان تختلط الأنساب ،
وفي هذا الخطر الداهم ، ذلك الشاعر : نهار بن توسعة اليشكري في قوله :

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا هَتَفُوا بِي كَرِ أَوْ تِمِيمِ
دَعَى الْقَوْمَ يَنْصُرُ مَدَّعِيَهُ فَيُلْحِقُهُ بِذِي النَّسَبِ الصَّمِيمِ
وَمَا كَرَّمَ وَلَوْ شَرَفَتْ جَدُودُ وَلَكِنَّ التَّقَى هُوَ الْكَرِيمُ (١)

وأراني قد استرسلت في هذا المقال تبعاً لما تدعو إليه المناسبات وما خططت
صحيفة كاملة في جوهر الموضوع الرئيسى للعنوان ، حتى أُلْجَأُني هذا الاسترسال إلى
الاستثناء به إلى المقال التالى إن شاء الله .

(١) نهار بن توسعة شاعر أموى ، والأبيات في ترجمته في كتاب « الفهرست والمعمراء » .

تحقيق جليل

في نصر النبي بالرب

لمحاضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعيدي
الاستاذ بكلية اللغة العربية

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، فبينما أنا قائم أوتيت بمفاتيح
خزائن الأرض فوضعت في يدي ، قال أبو هريرة : وقد ذهب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأنتم تنتقلونها . »

وقد روى البخاري هذا الحديث في كتاب الجهاد في باب قول النبي صلى الله
عليه وآله وسلم . « نصرت بالرعب ، وروى فيه : « بعثت بجوامع الكلم » وروى
« ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وفي رواية « شهراً أمامي وشهراً خلفي » وفي أخرى
« ونصرت على العدو ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر . »

وهذا الحديث يتضمن ثلاث خصائص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم :
إيتاؤه جوامع الكلم من القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة ، ليؤدي رسالته
بأفصح لسان ، ويدعو إليها بأبلغ بيان ، بين قوم اشتهروا بالفصاحة ، وامتازوا
بالبلاغة . ونصره بالرعب وهو الخوف ، ليقبل فيها سفك الدماء ، ويدخل الناس
فيها أفواجا في أقل زمن ، مما لم يتحقق لشريعة قبلها من شرائع الرسل الذين
بعثوا قبله . واستيلاؤه على ممالك الأرض ، لتسكون شريعته ديناً ودولة ، وتحقيق
للناس المثل العليا في الحكم ، وتضع لهم أساس حضارة جديدة يقوم فيها الحكم
على أساس التقى والعدل والعلم ، ولا يكون فيها طغيان ولا ظلم ولا جهل .

والذى يهتأ هنا من هذه الخصائص الثلاث الخاصة الثانية ، وهى نصره صلى الله عليه وآله وسلم بالرعب ، فالرعب : الخوف والفزع ، وكان كثير من مشر المسلمين يفهم خطأ أن الإسلام انتشر بالسيف ، ومن يفهم هذا يفهم خطأ أيضاً أن الرعب الذى نصر به النبي صلى الله عليه وسلم كان رعباً من ذلك السيف الذى نشر به دينه ، لأن هذا لازم لذلك ، والحقيقة أن الإسلام لم ينشر بالسيف ، وإنما نشر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس فى القرآن الكريم إلا أخذ الناس بهذه الدعوة الكريمة ، فمن شاء آمن بها فنجوا من عقاب الله فى الآخرة ، ومن شاء كفر بها فاستحق عقابه فيها ، وقد جاهد المخلصون من المسلمين فى عصرنا حتى أثبتوا هذه الحقيقة ، وقضوا على ما كان شائعاً بين المسلمين فى عصر الغفلة والجهود ، من أن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، وقد أراد أعداء الإسلام أن يستغلوا هذا فى عصرنا ، فطمعنوا فيه بأنه لم ينتشر لأنه حق ، وإنما أكره الناس عليه بالسيف ، وأخذوا يخوفون الناس من ظهور أمر المسلمين بعد ضعفهم ، ويزعمون أنهم لو عادوا إلى الظهور لشنوا حرباً شعواء على الناس لإكراههم على دينهم ، فقصى المخلصون لدينهم بذلك على هذا الاستغلال الماكر من أعداء الإسلام ، حتى حلوا كثيراً من المنصفين فى أوروبا وأمريكا على الشهادة للإسلام بأنه دين سلام لا حرب ، وأنه إنما يحمل السيف ليحمى دعوته من يريد فتنه أهلها عنها ، لا ليكره الناس على الإيمان بها .

وإذا ثبت أن الإسلام لم ينشر بالسيف فإنه يثبت تبعاً لهذا أن السيف لم يكن له أثر فى نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرعب ، لأنه كما لم يبعث لينشر دينه بالسيف ، بل لينشره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، لم يبعث أيضاً ليثير رعباً بالسيف بين الناس ، وإنما بعث لينشر بينهم سلاماً وأماناً ، فيدخلوا فى دعوته لا عن فزع ورعب ، وإنما يدخلون فيها عن طمأنينة وأمن .

على أن القرآن الكريم قد أتى ببيان سبب ذلك الرعب الذى نصر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيجب أن نقف عند ما ذكره لذلك من سبب ،

ولا نجاوزهُ إلى سبب آخر نخترعه من أنفسنا ، ولا سيما إذا كان يسيء إلى الإسلام ويعمده محاسنه بين الناس ، ويجعلهم يفهمون أنه دين يأخذ بالشدّة ، ويثير بينهم الرهبة ، فلا تكون الحياة فيه حرة كريمة ، وإنما تكون حياة رعب وخوف .

وقد جاء بيان ذلك السبب في قوله تعالى في الآية - ١٥١ - من سورة آل عمران « سئل في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وما وامم النار وبئس مئوى الظالمين » ، وقد نزلت هذه الآية في غزوة أحد ، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا الوعد بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا خاص بها ، لأن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية واردة في هذه الغزوة ، وذلك أن الكفار استولوا على المسلمين فيها وهزمهم ، فأوقع الله الرعب في قلوبهم حتى تركوا المسلمين من غير سبب ، وفروا منهم بعد أن هزمهم ، ولولا هذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم لثبتوا ولم يفروا إلى أن يقضوا عليهم ، وقد روى أنهم لما كانوا في طريقهم إلى مكة بعد أن فروا ندموا على تركهم للمسلمين ، وقالوا : ما صنعنا شيئا ، قتلنا الأكثرين منهم ، ثم تركناهم ونحن قاهرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم . فلما عزموا على هذا ألقى الله الرعب في قلوبهم ، فضوا في طريقهم إلى مكة ولم يرجعوا إليهم .

والحق أن ذلك الوعد غير خاص بيوم أحد ، بل هو عام في جميع الأوقات ، ولجميع الكفار ، لأن ما ذكره له من سبب لا يختص بوقت دون وقت ، ولا ببعض الكفار دون بعض ، وقد قال القفال رحمه الله : كأنه قيل إنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد ، إلا أن الله تعالى سيق الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين ، حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان ، وقد فعل الله ذلك ، حتى صار دين الإسلام قاهراً لجميع الأديان والملل .

وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن ذلك الرعب خاص بأولئك الكفار ، ولكن ظاهر الآية يفيد العموم ، والحق لإجراؤه على ظاهره كما سبق ، لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضرب من الرعب من المسلمين ، إما في الحرب ،

ولما عند الجدال والمحاجة ، وقوله تعالى : « سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب » ، لا يقتضى وقوع جميع أنواع الرعب في قلوب الكفار ، وإنما يقتضى وقوع هذه الحقيقة ، ولو من بعض الوجوه دون بعض .

فصريح هذه الآية أن إلقاء الرعب في قلوب الكفار لم يكن بسبب تسليطه للنبي صلى الله عليه وسلم على الناس بسيف أو نحوه من آلات الحرب ، وإنما كان لأن أولئك الكفار أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، والسلطان ههنا هو الحججة والبرهان ، لأن السلطان في اللغة هو الحججة ، وإنما قيل للأمر سلطان لأن معناه ذو الحججة ، وقيل إنه مأخوذ من السليط وهو الذى يضاه به ، وقيل إن السلطان هو القدرة بناء على أخذه من التسليط ، لأن في البرهان سلطانا لقوته على دفع الباطل .

قال الفخر الرازى : وتقرير هذا بالوجه المعقول هو أن الدماء إنما يصير في محل الإجابة عند الاضطرار ، كما قال : « أمْ مَنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ شَرِيكًا لَمْ يَحْصِلْ لَهُ الْاضْطِرَارُ ، لِأَنَّهُ يَقُولُ : إِنْ كَانَ هَذَا الْمَعْبُودُ لَا يَنْصُرُنِي فَذَاكَ الْآخَرُ يَنْصُرُنِي ، وَإِنْ لَمْ يَحْصِلْ فِي قَلْبِهِ اضْطِرَارٌ لَمْ تَحْصِلْ الْإِجَابَةُ وَلَا النُّصْرَةُ ، وَإِذَا لَمْ يَحْصِلْ ذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَحْصِلَ الرُّعْبُ وَالْخَوْفُ فِي قَلْبِهِ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْإِشْرَاقَ بِاللَّهِ يُوْجِبُ الرُّعْبَ .

والأمر أسهل من تكلف هذا الدليل المنطقي الذى يسوقه الفخر الرازى ، وإنما ذلك الرعب لما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحق في أصول الدين وفروعه ، وأن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فكانت هناك حرب معنوية بين هذا الحق الذى جاء به الإسلام ، وبين الباطل الذى كان عليه أعداؤه ، وهذه الحرب المعنوية هى التى كانت تثير الرعب في قلوب الكفار ، لأن الباطل لا يقوى أمام الحق ، بل يضعف ويذهق ، كما قال تعالى في الآية ٨١- من سورة الإسراء : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، والحقيقة أن أعداء الإسلام حينما بدأهم بالدعوة بالحجة والبرهان عجزوا عن

مقارعة الحجّة بالحجة ، ولم يكن عندهم إلا حجة التقليد لآبائهم ، كما قال تعالى في الآية - ٢٢ - من سورة الزخرف : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وهى أوهى من حجة العقل التى كان يقرعون بها ، ولهذا ذمهم لعدم استعمالهم عقولهم ، كما قال تعالى في الآية - ١٧٠ - من سورة البقرة : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، » .

ولما عجزوا عن مقارعة الحجّة بالحجة رموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة بالسحر ، ومرة بالكذب ، ومرة بالجنون ، ومرة بالكهانة ، وكل هذا من شأن العاجز المعاند ، بل كانوا لمزيد عنادهم يقولون ما يحكىه القرآن عنهم في الآية - ٣٢ - من سورة الانفال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، » .

ثم انتهى أمرهم بالقتال ، فشرعوا السيف في وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقامت الحرب بين الفريقين ، ولكنهم لم يحاربوا إلا بعد أن شعروا بضعف باطلهم فاستمر شعورهم بهذا الضعف بعد حربهم ، ومن يكون هذا شأنه لا تطمئن نفسه في القتال ، بل يكون دائماً في خوف ورعب ، لشعوره بضعف ما يحارب في سبيله ، فيخاف سوء العاقبة في دنياه وآخره ، ويتمسكه من الرعب والخوف من ذلك ما يتمسكه .

ولم يكن هذا الشعور بالضعف خاصاً بالمشركين وحدهم ، بل كان يشاركهم في التريب من شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كما يتبين من قصة وفد نجران ، فقد وفدوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ، فأورد عليهم الأدلة ، وأقام عليهم الحجج ، ولكنهم أصروا على دينهم ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله أمرنى أن لم تقبلوا الحجّة أن أباهلكم . » ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم إلى مباهلتهم ، وعليه مرط من شعر أسود ، وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وقاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، ثم قال لهم : « إذا دعوت فأمنوا . » فلما رأهم أسقف نجران

قال : يا معشر النصارى ، إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا قهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة ، فأدركهم ما أدركهم من الخوف حين سمعوا كلامه ، وامتنعوا عن المضى في مباحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وصالحوه على أن يؤدوا إليه الجزية ويبقوا على دينهم .

أما المشركون فكان أمرهم في ذلك الرعب أشد ، حتى إنه كان يفوت عليهم ثمرة ما يدركونه أحياناً من نصر ، كما سبق في غزوة أحد ، ومثل هذا حصل في غزوة الأحزاب ، فقد جمع المشركون فيها جموعاً كثيرة للاستيلاء على المدينة ، لخاصروها حصاراً شديداً ، حتى ضاق الأمر بالمسلمين ، وزاغت منهم الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، ولم ينجم إلا ما ألقى في قلوب المشركين من الرعب حين طال عليهم الحصار ، وأرسلت عليهم ريح باردة في ليلة مظلمة ، فأدركهم فيها من الخوف ما أدركهم ، وأجمعوا على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، ولولا ذلك الرعب الذي كان يلزمهم في حروبهم ، لأدركوا في هذه الغزوة ثمرة كثرة جموعهم ، ولصبروا حتى يسلم لهم المسلمون إذا طال الحصار عليهم .

وقد اختلف في ذلك الرعب : أكان خاصاً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أم كان لأمته أيضاً من بعده ؟ والحق أن ذلك الرعب استمر بعده لحلفه الصالح من صحابته وخلفائه الراشدين ، حتى فتحوا به مملكتي الفرس والروم ، مع أنهم كانوا أقل منهم جنداً ، وأضعف منهم آلة حرب ، خفقوا بهذا وعد الله لهم ، وانتلوا خزائن الأرض ، واستخرجوا مافي ممالكها مما أفاء الله عليهم من خير ، ومنحهم من فضل .

وقد بقي ذلك الرعب لأمته ما بقوا متبعين هديه ، متمسكين بسنته ، فلما انحرفوا عن ذلك الهدى ، وفرطوا في أوامر دينهم ونواهي ، وأسأوا التصرف في دينهم ودنياهم ، وأعمتهم الشهوة ، وغرهم سعة السلطان ، أدركهم من الضعف ما أدركهم ، حتى استبد فيهم الحكام ، وساروا فيهم بالطغيان ، فزال الرعب الذي كان في قلوب أجدادهم منهم ، بل حل الرعب في قلوبنا من أجدادنا ، حتى استولوا على بلادنا ، وقضوا على ممالكنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

التسايق الهيدروجيني

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية - ليسانس العلوم الحرة - دبلوم المهندسخانة

سُئل العالم الكبير د أينشتاين ، صاحب النظرية النسبية عن رأيه فى الحرب العالمية الثالثة ، فأجاب أنه يستطيع إبداء الرأى عن الحرب الرابعة لا الحرب الثالثة ، ذلك أنه على ثقة أنها ستكون بقذف الطوب والحجارة ، ومعنى ذلك أن الحرب العالمية الثالثة أو الحرب الذرية إن قدر لها الوقوع سيكون من شأنها زوال المدنية وعودة الإنسان إلى البدائية لا يعرف من وسائل الحرب غير المعصى والزلط والحجارة .

وفى السنين الأخيرة توصل العلماء إلى معرفة القنبلة الذرية ، وكانوا لا يجهزون إذا كانت القنابل الهيدروجينية ستصبح فى مقدور العلم التجريبي مع ما له من قوة أم أنها ستظل معادلات رياضية على الورق ومتساويات نووية من باب العلوم النظرية ، كذلك التى عرضها د جان بيران ، سنة ١٩٢٩ عند ما فسر لأول مرة أن الحرارة والضوء اللذين يصلان من الشمس نتيجة الاحتراق العادى الذى تعلناه فى دروس الكيمياء ، إنما هو تحول نووى فى الذرة ، الشيء الذى أكدته د هانس بيته ، سنة ١٩٣٨ ، من أنه تحول من عنصر الهيدروجين إلى عنصر الهيليوم على حساب طاقة كبيرة تفقدها الشمس ويصلنا منها القدر الذى هو المصدر لرتيمى حياة الإنسان والحيوان والنبات .

وكننت أود ويود الفارىء معى أن يظل التحول الهيدروجينى مادة للرياضيين وفرضية عند الطبيعيين ، ولا تصيح يوما آله فى يد المحاربين ، وذلك لما لها من آثار فتاكة يعجز عن وصفها المقال ، ونتائج خطيرة تتعدى كل خيال ، ولكن حدث أن جاوبت الطبيعة القاسية العلماء فيما تخيلوه ، وشاء القدر أن يحقق العلم مارسموه ، وولدت القنبلة الخطيرة ، وأصبحت بين أيدى المحاربين ووجد السلاح السلاح الرهيب وأصبح طوع أمر الطامعين .

ونجّر الأمريكان أول قنبلة هيدروجينية فوق مياه المحيط فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، كما نجّروا قنبلتهم الهيدروجينية الثانية فى أول ماوس سنة ١٩٥٤ ، وكانت قوتها تعادل ستمائة مرة قدر قنبلة هيروشيما الذرية ، بمعنى أنه إذا كانت قنبلة هيروشيما الذرية تعادل عشرين ألف طن من أقوى المواد المتفجرة فإن هذه القنبلة تعادل ١٢ مليون طن منها ، وعم الذعر العلماء وأهل الرأى بعد أن علموا ما وقع من آثار مروعة على مركب الصيد اليابانية التى كانت تبعد أكثر من مائة كيلو مترا لا من مكان الانفجار إنما من طرف الدائرة التى حددتها السلطات الأمريكية أنها دائرة الخطر ، وكان ذلك أثر الغبار الذرى المشع الذى أصاب هؤلاء الثلاثة والعشرين صيادا وبحارا ، ومنذ ٨ أغسطس سنة ١٩٥٣ أعلن مانتوكوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى فى ذلك الحين أن روسيا تملك بدورها القنبلة الهيدروجينية ، وقد نجّرتها فعلا فيما بعد ، وقد بلغ عدد ما نجّرته روسيا وأمريكا من القنابل حتى أوائل سنة ١٩٥٥ عشر قتابل ، وذلك وفق أحدث الأنباء ، ويراجع فى ذلك تقرير هام للأستاذ مارتان والعالم لويس دى بروى السكرتير الدائم للجمع العلمى الفرنسى ، وهو التقرير الذى ذكرناه فى مقالنا السابق فى رسالة الإسلام : العدد الثانى من السنة السابعة .

* * *

ويقول البروفسور روتيلات ، البريطانى أن القنبلة التى نجّرتها أمريكا فى الباسفيك عام ١٩٥٤ لم تكن سوى قنبلة هيدروجينية ، فوق العادية ،

ذات قوة مبروعة فتاة ، ومُغلَّفة بغلاف من الألومنيوم غير النقي ، وقال إنه استدل على ذلك من دراسته للتقارير الخاصة بكمية الإشعاع الذي خلفه الانفجار - وإن إضافة الألومنيوم غير النقي إلى القنبلة يجعل منها سلاحاً رهيباً لا تقتصر قوة فتكها على مساحة حوالى ألف كيلو متر مربع بل تتعدى هذه المساحة الكبيرة وتهدد حياة الملايين من الناس بخطر التسمم المباشر من الإشعاع الذرى ، كما تهدد الجنس البشرى بأسره من الاضمحلال مع مرور الزمن ، وقال إنه يعتقد أن قلب هذه القنبلة يتألف من جهاز مُفجِّر وتُحيط بهذا القلب قنبلة الهيدروجين الثقيل المغلَّفة بالألومنيوم غير النقي ، وهذه الطريقة تتيح إنتاج أسلحة أكثر فتكاً وأشد تدميراً بتكاليف أرخص مما كان يعتقد العلماء من قبل .

وصرح البروفسور د كومتون ، عالم الذرة الأمريكى المعروف صاحب الظاهرة الطبيعية المعروفة باسمه بأنه لن يفكر فى بناء مخبأ فى قنات منزله لانتقام خطر القنبلة الهيدروجينية فليست هذه هى الطريقة العملية لمعالجة المشكلة - إذ أن فرصة الشخص للاحتباء بمخبأ عند سقوط القنبلة ستكون ضئيلة جداً ، وانتقد إندارات أمريكا المستمرة بأن لديها من الأسلحة ما يكفي لمسح روسيا من الوجود ووصف هذه التهديدات بأنها تافهة وغير مجدية ، وقال إنه لا محل لها ما دامت أمريكا لا تعزم تنفيذها ، فهى لا تؤدى إلا إلى إثارة الفزع فى روسيا واندفاعها الجنونى فى التسلح لانتقام الهجوم الأمريكى المحتمل .

ولقد جاء فى الأنباء بعد الذى طالعه من آراء العالم كومتون وما طالعه من تقارير علمية عن الآثار السيئة المترتبة على التفجيرات الأمريكية فى الباسيفيكي ، أن الروس فجروا منذ حوالى شهرين أقوى انفجار هيدروجينى عرف فى العالم حتى وقتنا هذا ، وأنه كان أكبر من أى تفجير هيدروجينى قام به الأمريكيون ، وقد اعترفت بذلك غالبية محطات الرصد القريبة والبعيدة .

* * *

وفى البرقيات الخارجية طالعنا فى الصحف فى يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٥٦

أن عضو الشيوخ الأمريكى « جون بريكر » ، وهو عضو اللجنة المشتركة للطاقة الذرية ذكر أن الولايات المتحدة لديها عدد من القنابل الذرية قال عنه العلماء إنه يكفى لفناء الجنس البشرى ، وقال إن طالما أدلى بشهادته أمام اللجنة فذكر أنه إذا لمجر عدد معين من القنابل فإنها ستدمح الجنس البشرى بأسره من جراه الغبار الذرى الذى يتساقط ، وقال عالم آخر إنه يلزم عشرة أمثال المقدار الذى قدره العالم الأول ، وعلت اللجنة أن لدى الولايات المتحدة المقدار الاخير أى أن لديها العدد اللازم لفناء الحياة على الأرض .

وفى برقية من لندن أن رئيس وزراء بريطانيا أذاع خطاباً فى التلفزيون قال فيه إن الحكومة البريطانية ماضية فى صنع القنبلة الهيدروجينية ، وقال إنه يأمل أن يتفق الشرق والغرب على تنظيم اختبارات القنبلة الهيدروجينية ، وكنت آمل أن يصير بإيقاف جميع التجارب الخاصة بهذه القنابل وقصر استخدام الطاقة الذرية على أعمال السلام وإسعاد بنى الإنسان .

* * *

اند ذكرت فى محاضرتى بالكلية الحربية بالقاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٣ وفى كلية الهندسة جامعة القاهرة فى الشهر ذاته أن أربعة قنابل هيدروجينية تكفى لإبادة الحياة للإنسان والحيوان والنبات من منطقة واسعة كالوجه البحرى بما فى ذلك القاهرة والإسكندرية ، وشمرت خلال هذه المحاضرات وخلال المناقشات التى تبعتها بدهشة الحاضرين لما ذكرت ولكن الأيام والأنباء المتوالية لم تزددى إلا يقينا فيما ذهبت إليه ، بل إن ماذكرته هو أقل من الواقع ، ولقد صححت ذلك فى نشرتى التى ألفتيتها فى ندوة الذرة التى أقامتها لجنة الطاقة الذرية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية والتى انعقدت فى أيام ١٦ ، ١٧ ، ١٨ يونية سنة ١٩٥٥ بأن قنبلة هيدروجينية واحدة تكفى لإبادة الحياة كلها من الوجه البحرى ومصر والإسكندرية حيث يعيش ١٥ مليوناً من البشر .

ولقد ذكر بعد ذلك فى الأنباء هذا الشهر بأن القنابل التى جربتها روسيا والتى

ستجربها أمريكا في إبريل القادم تعادل الواحدة منها خمسين مليون طن من أقوى المتفجرات ، ومعنى ذلك أن القنبلة الواحدة تعادل (٢٥٠٠) مرة قدر قنبلة هيروشيما الذرية ، إذ كانت قوتها تعادل عشرين ألف طن من الديناييت .

وواضح أن كل هذه التقديرات لا يمكن أن يكون لها نهاية في العظم ، بل ستزداد على مر الأيام طالما يظل هذا التسابق الهيدروجيني جارياً ، ذلك أنه بينما للقنبلة الذرية العادية كقنبلة هيروشيما حجم حرج لا تنفجر إلا في حدوده ، بمعنى أنه إذا قل حجم القنبلة عن قدر معين فهي لا تنفجر ، وإذا زاد عن حجم آخر معين فإن التفاعل الذري المتسلسل المسبب للانفجار يقف في الداخل ، ولا يتم الانفجار ، فليس للقنبلة الهيدروجينية حجم حرج ، وكلما زادت المادة المعدة للانفجار (ويغلب على الظن أنها النظير الثاني للهيدروجين ويسمونه الديتريوم ، ويحضره بكمية كبيرة ويفجرونه بقنبلة ذرية عادية مع كمية صغيرة من النظير الثالث للهيدروجين الذي يسمنونه التريتيوم) كلما كانت قوة الانفجار عظيمة .

وعلى هذا الأساس فليس هناك من فضل لدولة على أخرى في هذا المضمار ، فقد أصبح طريق الهلاك معروفاً لا حدود له ، بل يبدو أنه سهل وأقل تعقيداً من القنبلة الذرية العادية ، وليس المجال هنا للدخول في تفاصيل القنابل الهيدروجينية والقنابل الذرية ، أو نشرح ما نسميه التجمع النووي والانفلاق النووي ، أو نشرح ما هو جار في الشمس مصدر حياتنا من وجود نوع من تجمع أربع ذرات هيدروجين لتكوين ذرة واحدة من الهيليوم ، فإن المطلع يجد ذلك في كتابي الأخير الذي صدر في أغسطس سنة ١٩٥٥ (١) .

وما هو جدير بالذكر أن وجود غلاف من مادة الألومنيوم ، أو مادة السكوبلت أو غيرها حول هذه القنبلة يجعل منها عند انفجارها وجود مواد تكتسب نشاطاً إشعاعياً خطيراً يبق أثره مدة طويلة تودي بحياة الإنسان وتدمر

(١) وعنوانه : « الذرة ومستقبل العالم » وهو كتاب قيم في هذا الموضوع الهام يقع

في ١٣٠ صفحة مزود بالرسوم الضرورية لفهم موضوعه .

كل تراث للبلدية ، بل إن الاستمرار في التجارب الهيدرولوجية بتفجير عدد آخر من هذه القنابل له أثر مدمر على حياة الإنسان .

إن هذا التسابق إن دل فلا يدل إلا على انحدار الدول القوية المتمدينة كأمریکا والروسيا إلى طريق البربرية والهلاك ، وكم نخشى أن تجرف في تيارها دولا عريقة في المدنية ، دولا انبعثت منها أقدم المدينات وأعظم الحضارات كعصر والشام والعراق وإيران والهند والصين ، كم نخشى أن تتطور المدينات الحديثة إلى مدينات مادية تخلو من الناحية الروحية التي تأثر بها الشرق منذ القدم ، والتي تأثرت بها مصر وجاراتها مبهط الأديان ، حيث غلبت في هذه البقاع روح البساطة والعدالة الاجتماعية ، وهما روح الديانة الإسلامية ، وكذلك التساخ روح الديانة المسيحية .

وماذا ياترى سيسمى الناس فيما بعد ، الجيل المادى الذى نعيش فيه ؟ أسىكون جيل التسابق الهيدرولوجى الذى لا يحمل فى طياته فى عملية التسابق هذه أى ذكاء وأية مروءة وأى علم حقيقى أو أى فن رفيع ؟ .



فى حقبة الزمان الحالية ، ولا أنكلم هنا عن فلسفات الصين القديمة ولها قدرها أو آثار الهند فعرقتى بهما ما زالت قليلة ، بل نتحدث قليلا عن مصر وعن أحد الآثار الخالدة القريية منا ، فى حقبة من أحقاب الزمان الحالية أقام المصريون القدامى آثاراً باقية ، ولعل أهمها هرم خوفو فى الجيزة (يرجع تاريخه إلى ٢٥٠٠ سنة) بدعة الزمن ، ومن عجائب الدنيا السبع - كما انفق الناس أن يحصوها - دليل علم غزير ومدنية عريضة ، حيث يجد الناس دائماً فيه وعلى مر الأحقاب ملاحظات جديدة تدل على علم راسخ ومعرفة حقة - دعك من ملاحظات الآب د موريه ، الذى تخيّل أنه يتوسط اليا بس من الكرة الأرضية ، كما تخيّل أن لارتفاعه علاقة مع ارتفاع الشمس ، فهذه ١٤٦ مليون كيلو متراً ، والأهرام ١٤٦ متراً ، فإنى اعتبر ذلك من قبيل الاجتهاد من ناحية د موريه ، ومن قبيل المصادفة ، ودعك من خرافات معهد د فلسفة الأهرام ، ومركزه لندن ، حيث

يدعون أنهم وجدوا هجرة موسى ومولد المسيح في أقيسة الأهرام الداخلية ، الشيء الذي لا يجوز بحقه أو تصوره ، ولا يجوز بأية حال كتابته ، ولكن ما ذا نقول في أن الأهرام تم بناؤه على سطح مستو بلغ الاستواء فيه دقة تبلغ سنتيمرين أو ثلاثة في مساحة تُربى على ١٣ فدانا ، وأنه بُنى مواجهاً للقواعد الأصلية الأربعة وأن الخطأ في ذلك لا يتجاوز في الزوايا دقيقتين ، باعتبار أن الدرجة الواحدة ٦٠ دقيقة ، وأنه يُكمل في ابعاده تربيع الدائرة ، بمعنى أنك تجد في هذه الأبعاد النسبة التقريبية للدائرة المعروفة في نسبة أضلاعه مع الارتفاع ، مما يؤكد أن المصريين عرفوا أهم ما في هندسة إقليدس قبل مدينة الإغريق بحوالى ألفى عام ، بل إن أغرب من ذلك كله أنه وجد به ثقبان يخترقانه إلى الخارج ، بحيث إن شعاع نجم الشعرى اليمانية (سيوس) يتجه عمودياً على سطح أحدهما ، ويصل خلال هذا الثقب حتى الغرفة الملكية بينما شعاع النجم القطبي يقع على سطحه البحري ويدخل خلال فتحة أخرى في الأهرام فيصل إلى الغرفة السفلى فيه ، وهذا ربما دل مبلغ علمهم بأهمية النجم القطبي باعتباره واقعا على المحور الذي تدور عليه الأرض - هذه المارمونية الرفيعة في الفكر والتقدم العظيم في العلم يقف أمامهما المرء حائراً لما تنطوى عليه هذه الحقائق من عظمة ورفعة وخلود .

وهكذا سارت البشرية في طريق العلم من ذلك الزمان الغابر البعيد ولم يفت العهود المختلفة والمدنيات المتتابعة أن يكون لها آثارها الخالدة دليل العلم والذكاء ، وإذا اختصرنا هنا الحديث فتركنا جانباً مع أهميته ما تركه الإغريق والفرس والرومان وغيرهم من آثار ناطقة بعلومهم فإننا نجد للفرنجية أهل المادة البعيدين عن أن يسكون لهم إلى حد ما روح الشرق ومع ذلك فلم آثارهم الأخيرة تجدها في فرنسا وإنجلترا وألمانيا ، تركوا في كل قرن من القرون الأخيرة آثاراً جميلة آية في الفن والروعة ، وهي إن لم تدل على العظمة والجهد كما يدل الأهرام فهي دليل على الذوق السليم - وهذه كنيسة القديس بطرس في روما ، ونتردام في باريس والأخيرة من القرن الثاني عشر يقومان دليلاً على ما بلغه القوم من الكفاية والذوق ، بل إن الزائر ليعجب من قصر فرساي من عهد لويس الرابع عشر

عند ما يقف في مسرحه العظيم أو يدخل في صالة المرايا المعروفة فإن أعجزه الذهاب إلى هناك رآه في تلك الأفلام التي تعرض علينا هذه الأيام ، وهذا برج إيغل شبيده الفرنسيون من الحديد وأقاموه في معرضهم الدولى الذى أقيم منذ ٨٠ سنة يرتفع ٣٠٠ متر عن سطح الأرض ويصعد إليه الزائر فيحس مدى ما بلغه الإنسان في ذلك الزمان من علم ومدنية .

ترى ماذا ترك مدينة القرن العشرين من آثار ومن ذكريات بل ومن آثار خالدة ؟

أتكون تلك القنابل الذرية والقنابل الهيدروجينية التى يصرف الإنسان من جهد في صناعة الواحدة منها أكثر مما صرف في بناء مسجد القلعة الجميل بالقاهرة والكاظمية في بغداد وسيدنا على في النجف الأشرف بالعراق . نرجو ألا يكون الأمر كذلك وإننى أرجو مخلصاً أن تغلب نزعة العلماء على نزعة الفسكربين وأن يند الساسة تلك النظرية الخاطئة التى يرددونها كل يوم والتى تقول إنه يجب أن تسلح لكي تتجنب الحرب وأن يكون هناك رأى عام للبدء بنزع السلاح والسلاح الذرى على الخصوص فلا نرى حرباً ذرية ولا نرى حرباً عامة نالكة على الإطلاق ولا نشهد زوال المدنية ولا نشهد فناء الكتب والنشرات العلمية . بل تزداد العلوم وتزدهر وتتابع النشرات العلمية وتكثر المصنفات التى تحوى علماً عميقاً وأدباً رفيعاً لترى الدنيا في صفاء والعالم يسعى بفعل الذرة إلى طريق الخير والهناء مبتعداً عن طريق الشر والفناء ؟

من محوٲ مجمع اللغة العربية^(١)

مبعم ألفاظ القرآن الكريم

— ١٨ —

د ل ك

ذلك بذلك دلوكا (من باب دخل) أى مال ، ومنه : د أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، ٧٨ / الإسراء . أى لميلها . وأصل التركيب للانتقال ، ومنه : الدلك وهو الدعك لأن الدالك لا تستقر يده بل تنتقل ، وربما يكون أصل المسادة (الدليك) وهو ثمر الورد الأحمر ، أو هو الورد الجبلى كأنه البسر كبراً وحرمة ، ثم استعمل فى حرمة الشمس أو صفرتها عند الظهيرة أو الغروب ، ولما كان دعك الجلد يورثه حرمة ، أخذ له (الدلك) واختلف المفسرون فى تفسير دلوك الشمس فقال بعضهم إنه ميلها عن كبد السماء وقت الزوال ، وقال البعض الآخر إنه غروبها ، وفى المعاجم فسر دلوك الشمس بما يشمل القولين ، وهو الأولى ، لأن أغلب الصلوات المفروضة تتلاحق من الزوال إلى الغسق ، قال الاخفش : د دلوك الشمس من زوالها إلى غروبها ، وفى القاموس : دلكت الشمس دلوكا : غربت أو اصفرت أو مالت أو زالت ، وفى النهاية : د ويراد به زوالها عن وسط السماء وغروبها أيضا ، وأصل الدلوك الميل .

(١) يأذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

د ل ل

دل على الشيء وإليه يدلّه دلالة (وبئناك) : سدد إليه ، فهو دال ودليل ، والدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ، ودلالة الإشارات والرموز ، والكتابة والعقود في الحساب ، وسواء كان ذلك بقصد من يجعله دلالة أم لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي ، ودلهم في : د مادهم على موته إلا دابة الأرض ، ١٤/ سبأ . من الدلالة بغير قصد من الدال .

دل

والدليل اسم فاعل أو صيغة مبالغة وهو المرشد ، ومنه : د ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ، ٥٥/ الفرقان ، والمعنى : جعلنا الشمس مرشداً ومنها إلى وجود نعمة الظل بما فيه من المنافع والذات . وقد وردت المادة أيضاً بالمعنى السابق في ٤٠ ، ١٢٠ / طه ، ١٢ / القصص ، ١٠ / الصف ، ٧ / سبأ .

دليل

د ل و

دلى الدلو وأدلاها ودلاها يدلّوها دلوا : أرسلها أو نزعها وجذبها ، والمعنى العام للمادة : إرسال الشيء إلى أسفل مع تعلّقه بما أرسل منه ، والمعنى في : د فدلاهما بغرور ، ٢٣/ الأعراف . فخطهما عن درجتهما وأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المخالفة ، أو فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ، أو فأطعمهما ، من تدلية العطشان شيئاً في البئر فلا يجد ما يشقّ غليله ، وقيل : هو من الدالة وهي الجرأة أى فجرأهما ، أبدل حرف التضعيف باء .

دلى

وفي دولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلّوا بها إلى الحكام ، ١٨٨/ البقرة أى تلقوا أمرها والخصومة فيها إلى الحكام ، أو تلقوا ببعضها إليهم على سبيل الرشوة .

أدلى

وفي : د فأرسلوا واردم فأدلى دلوه ، ١٩/ يوسف .

دلو

أدلى دلوه : أرسلها ، والدلو ما يستقى بها . مؤنثة ومذكورة وتأنثها أكثر ، وجمعها أدل ودلاء ودلى .

تدلى : د ثم دنا فتدلى ، ٨ / النجم . تدلى : استرسل مع تعلق ، كستدلى الثمر ، والدوالى : الثمر المعلق ، والمعنى : ثم دنا فقرب ، أو تعلق عليه فى الهواء ، أو تحرك من المكان الذى كان فيه فنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو تعلق به ، وهو تمثيل لعروجه بالرسول .

د م د

دمدم الدمدة لإهلاك باستئصال ودمدم الشيء ألزقه بالأرض ، والدمدمة الغضب والكلام الذى يزعج ، وأصلها من الدم وهو اللطخ من كل جانب يقال : ناقة مدمومة ، أى أطبق عليها الشحم وألبسها من كل جانب ، فإذا كرر الإطباق على الشيء قيل : دمدم عليه على التضعيف مثل فكبكبوا ، والمعنى فى د دمدم عليهم وبهم بذنبهم فسواها ، ١٤ / الشمس . يحتمل السابق كله : من الإطباق المكرر على الكفار بالعذاب مع الإزعاج بالصيحات وإرجاف الأرض بهم وطحنهم وتسوية الأرض عليهم واستئصالهم .

د م ر

دمر يدمر دموراً ودماراً : دخل بدون إذن وهجم هجوم الشر . والتدمير لإدخال الهلاك ، ومنه : د وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفوها ففسقوا فيها فخرق عليها القول فدمرناها تدميراً ، ١٦ / الإسراء . أى خربناها وطمسنا آثارها . ودمر عليه : أى أهلكه وأهلك عليه ما اختص به من نفسه وأمواله وأولاده ومنه : د دمر الله عليهم ، ١٠ / محمد . وقد وردت المسادة أيضاً بهذا المعنى فى ١٣٧ / الإعراف ، ١٧٢ / الشعراء ، ١٣٦ / الصافات ، ٣٦ / الفرقان ، ٥١ / النمل ٢ / الأحقاف .

د م ع

دمع : ماء من العين من حزن أو سرور والدمعة القطرة منه ومصدر دمعته مين تدمع من باب منع وفرح دمعاً ودمعانا ، والمعنى فى : د ترى أعينهم تفيض من الدمع ، ٨٣ / المسائدة . تمتلئ منه حتى تفيض وكذلك فى ٩٢ / التوبة .

د م غ

دمغه كمنعه ونصره : شجّه حتى بلغت العجّة الدماغ وهو مخ الرأس . وهو في : د بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ١٨ / الأنبياء بمعنى يمحّقه بالكلية ، استعاره للنقذ والدمغ تصويراً لإهدار الحق للباطل وإبطاله ومحّقه لجعل الحق كأنه جرم صلب كالصخرة قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه .

يدمغ

د م و - ي

الدم : السائل الأحمر الذي يملأ الشرايين والأوردة جمعه دماء وأصله من دم الثوب والشيء يدمه (باب قتل) دما : إذا صبغهُ وطلاه بالصبغ ، وقدر دميم : مطلية بالطحال ، ودم البيت : طينه ، وفي القاموس : الدم ما طلى به ، وأصله الصرق : دمو أو دمي ، فذهبت منه الواو أو الياء ، ونقل الإعراب إلى الميم ، وقد يقال دم بتضعيفها . وجمعه دماء . ومنه : د إنما حرم عليكم الميتة والدم ، ١٧٣ / البقرة . وقيد بالمسفوح في سورة الأنعام .

دم

واستدل بعمومه على نجاسة دم الحوت . وهو في د فأرسلنا عليهم الجراد والقمل والضفادع والدم ، ١٣٧ / الأعراف . قيل إنه كان الرعاف ، وقيل سال النيل عليهم دما عبيطا وصارت مياهه دماء ، ولعله دم البهارسيا (البول الدموي) الذي يسيبه استعمال ماء النيل بدون تطهير وتصفية ودم كذب في : د وجاءوا على قبيصه بدم كذب ، ١٨ / يوسف : أي دم ذى كذب ، أو وصف بالمصدر للبالغة وهو في معنى مكذوب فيه . والدماء في : د قالوا أنجمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ٣ / البقرة . المراد بها هنا الدماء المحرمة بقرينة المقام ، وقيل التعميم يقتضى جميع أنواعها المحظورة وغيرها ، والمقصود هدم تمييز الإنسان بينها ، ودماءها في : د لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله تقوى منكم ، ٣٧ / الحج . المراد بها المراقبة بالنحر من حيث إنها دماء ، وقد وردت المادة أيضاً في ٣ / المائدة ، ٦٦ ، ١١٥ / النحل ، ١٤٥ / الأنعام ، ٨٤ / البقرة .

د ن ر

الدينار : فارسى معرب ، قيل أصله بالفارسية دين آر ، أى الشريعة جاءت به .
 وقيل أصله دنسار ، فأبدل من إحدى النونين ياء لئلا يلتبس بالمصادر ككذاب ،
 أو لوقوعه بعد كسرة ، وبديل على ذلك جمعه على دنائير ووزنه فى المشهور
 أربعة وعشرون قيراطا ، والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير ، فوزنه
 اثنتان وسبعون حبة . قالوا ولم يختلف جاهلية ولا إسلاماً ، وفى المصباح وزنه
 إحدى وسبعون شعيرة ونصف شعيرة تقريبا ، بناء على أن الدائق ثمانى حبات
 وخمسا حبة ، وإن قيل الدائق ثمانى حبات فالدينار ثمان وستون وأربعة أسباع حبة
 والدينار هو المئقال . وقد ورد فى موضع واحد : (ومنهم من إن تأمنه بدينار
 لا يؤده إليك ، ٧٥ / آل عمران .

د ن و

دنا منه وإليه يدنو دنوا : قرب بالذات أو بالحكم ويستعمل فى المكان
 والزمان والمنزلة فهو دان وهى دانية ، والدنو فى : د ثم دنا فتدلى ، ٨ / النجم .
 دنو بالحكم إن كان الضمير لله تعالى ، ودنو بالذات إن كان الضمير لجبريل
 عليه السلام .

ودان . فى : (وجنى الجنتين دان) ٥٤ / الرحمن . قريب يناله القائم والقاعد
 والمضطجع ولا يرد أيديهم عنه شئ .

ودانية . فى : د ومن النخل من طلمها فنوان دانية ، ٩٩ / الأنعام : سهلة التناول .
 وقد وردت الكلمة أيضا بهذا المعنى فى ٢٣ / الحاقة .

وفى : د ودانية عليهم ظلالها ، ١٤ / الإنسان . بمعنى مرخاة مسدولة عليهم ،
 وقد ضمنت دانية معنى مرخاة ولذلك عدت بعل . وأدنى . فى : د أنسبدلون
 الذى هو أدنى بالذى هو خير ، ٦١ / البقرة . أدنى : من الدنو أو مقلوب دون ،
 وعلى الأول استعير الدنو للخصه كما استعير البعد للشرف ، ويحتمل أن يكون

مهموزاً وأبدلت الهمزة ألفاً من دناً يدناً وذنو يدنو دناءة إذا أوم فعله وخبث .
وقد قرئ بذلك . وقد ورد (أدنى) يحتمل المعنيين أيضاً في : « يأخذون عرض
هذا الأدنى » ١٦٩ / الأعراف . فهو بمعنى الأقرب أو الأزدل . وقد ورد
(الأدنى) بمعنى الأقرب أو الأقل في : « ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون
العذاب الأكبر » ٢١ / السجدة وورد بمعنى : الأقل في : « ولا أدنى من ذلك
ولا أكثر إلا هو معهم » ٧ / المجادلة . وفي : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من
ثلاثي الليل ونصفه وثلاثة » ٣٠ / الزمل . أى زمناً أقل منهما ، وقد استعمل الدنو
بدل القلة لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياء ، وفيه مجاز
مرسل من استعمال الشيء في لازمه ، وقد وردت أدنى بمعنى أقرب غير ما تقدم
في ٢٨٢ / البقرة ، ٣ / النساء ، ١٠٨ / المائدة ، ٣ / الروم ، ٥١ / الأحزاب ،
٥٩ / الأحزاب ، ٩ / النجم .

دنيا والدنيا في : « فاجزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا »
٨٥ / البقرة . بمعنى : الأولى مقابل الأخرى وسميت الدنيا لدنوها وهي تأنيث
أدنى بمعنى أقرب وأصلها دنوى ، ومن قواعدهم أن فعلى من ذوات الواو إذا كان
اسماً تبدل واؤه ياء كعلياً ؛ بخلاف ما إذا استعمل وصفاً فتبقى الواو ، وقد وردت
الكلمة في ١١٥ موضعاً بالمعنى السابق .

يدنى وأدنى يدنى إدناء : قرب ومنه « يدنين عليهن من جلابيبهن » ٥٩ / الأحزاب
وقد ضمن الفعل هنا معنى السدل والإرخاء ولذا عدى بعلى وفسر (عليهن) بجميع
أجسادهن وقيل على رؤوسهن أو على وجوههن .

د ه ر

دهر الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، ثم يعبر به عن
كل مدة طويلة ، وهو خلاف الزمان فإنه يقع على المدة القصيرة والطويلة ، وفي
السلام الفلسفي : الدهر وعاء الزمان ، وعن الخليل : الدهر هنا مصدر يقال :
دهر فلاناً نائبة دهرًا : أى نزلت به ، وعن بعضهم يقال : دهره دهرًا : غلبه ،

وقد ورد في موضعين : « وما يهلكنا إلا الدهر » ، ٢٤ / الجاثية . « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ، ١ / الإنسان .

د ه ق

دهق الحوض يدهقه دهقا وأدهقه : إذا ملأه ، ودهق أيضا بمعنى أفرغ لشدة اعتلاء الوعاء ، يقال : دهق الماء دهقا : إذا أفرغه ، والدهق أيضا ضغط الشيء وشده باليد ، وتفسر على ذلك « وكأسا دهاقا » ، ٢٤ / النبأ . بالمعتلة أو التي يفرغ ما فيها لشدة اعتلائها أو المضغطة لكثرة الامتلاء وقيل متتابعة .

د ه م

ادهام يدهام ادهيما فهو مدهام : مفعال : إذا ضرب إلى سواد من الدهمة ، وهي سواد الليل ، ويعبر بها عن الخضرة الكاملة ، ومنه : « مدهامتان » ، ٦٤ / الرحمن أي خضراوان تضربان إلى سواد من النعمة والرى ، هذا هو المشهور ، وقد تطلق الدهمة على خلوص الحرة فيقال : شاة دهما ، خالصة الحرة .

د ه ن

دهن يدهن دهنا من بابي نصر وقطع ، وأدهن : نافق . ومنه : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ، ٩ / القلم أي تلاينهم وتنافقهم وتهاون معهم فيلانيونك وينافقونك ويتهاونون معك وأصل الدهن والأدهان جعل الأديم ونحوه مدهونا بشيء من الدهن ، ليلين ليناً محسوساً ، وهو هنا اللين المعنوي ، ويتجاوز به عن مطلق اللين إذا استعير له ولذا سميت المداراة مدهانة ، وشاع هذا حتى صار حقيقة عرفية ، ولذا تجوز به عن التهاون أيضاً لأن التهاون في الأمر ألا يتصلب فيه .

ومدهنون . في : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » ، ٨١ / الواقعة مكذبون لأن التكذيب من فروع التهاون .

والدهن : عصارة كل ما فيه دسم والمراد به الزيت . في : « وشجرة تخرج من

طور سيناء تنبت بالدهن ، ٢٠ / المؤمنون . والدهان الأديم الأحمر . ومنه :
« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، ٢٧ / الرحمن : ومنه قول الأعشى :

وأجرد من كرام الحيل طرف كأن على شواكله دهانا
دهن أو الدهان في الآية : جمع دهن كقمرط وقراط والمعنى : فكانت كالدهان
المختلفة لأنها تتلون ألواناً .

دهان أو الدهان : إسم لما يدهن به كالخزام والأدام . والمعنى حيثئذ ، فكانت
كدهن الزيت ، كما قال تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل ، والمهل دردى الزيت ،
وهو ما يكون في قمره .

د ه ي

أدهى الدهى والدهاء : النكر وعظم الأمر وجودة الرأى وسعة الحيلة دهى يدهى
دهيا ودهاء ، ودهاء ودهاء : أصابه بداهية ودهاء الأمر ، نزل به ، ومنه :
« والساعة أدهى وأمر ، ٤٦ / القمر . أدهى : أعظم داهية وهى الأمر المنكر
القطيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه .

البيان

في شرح غريب القرآن

من الكتب الجديدة التى أهديت أخيراً إلى مكتبة التفرير ، وهو للعلامة
الشيخ القاسم بن الحسن عبي الدين ، وقد حققه ووضع فهارسه فضيلة الأستاذ
السيد مرتضى الحكيم ، وطبع في المطبعة العلمية بالنجف ، وقد انبع مؤلفه طريقة
لطيفة هى : ذكر ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها في رجز شعرى سهل اللفظ ،
سريع إلى الحفظ ، ثم شرحه ثراً في بيان شاف مع الدقة والإيجاز ، الدالين على
العلم الغزير والقوة في التعبير .

أَنْبَاءٌ وَأَرْاءُ

القافلة تسير :

هذا عنوان مقال يراه القراء في هذا العدد من رسالة الإسلام ، تحدث فيه الأستاذ العلامة صاحب السباحة الشيخ محمد النقي القمي - بمناسبة افتتاح العام الثامن لهذه المجلة - عن بعض الجوانب المتصلة بالتقريب ، وعن العزيمة الصادقة المصممة التي تسير بفكرته ، معتمدة على حول الله وقوته ، نحو الغاية المنشودة من تأليف قلوب المسلمين ، وجمعهم على كلمة سواء في الإيمان والعلم والعمل والأخوة الصادقة في الله ، المتآصرة على إعلاء كلمة الله ، حتى يتبوءوا مكانهم اللائق بهم في الركب العالمي ، وإنه لمكان الصدارة والتوجيه ، والاختد بيد البشرية إلى حياة الأمن والسلام والصلاح والإصلاح .

وإن باب د الأنباء والآراء ، ليرى في هذا العنوان تعبيراً دقيقاً عن المعنى الجامع الذي يؤلف بين ما يقدمه اليوم مما يبدو فيه حقاً أن د القافلة تسير ، :

بين جلالة الملك سعود

وقطب من أقطاب التقريب :

علينا أنه قد تمت مقابلة هامة بين حضرة صاحب الجلالة الملك سعود ابن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية ، وقطب كبير من أقطاب التقريب ، وقد تمت هذه المقابلة الهامة في طهران ، حيث كان جلالة يزور إيران ، وكانت الشخصية الكبيرة هناك .

ولا شك أنه يسر المسلمين جميعاً أن يعلموا أن هذه المقابلة الخاصة كانت خطوة موفقة نحو التقريب ، ففيها شرحت فكرته وأهدافه ، والأسس التي يمكن بها توطيد دعائم الأخوة الإسلامية بجعل كل مسلم يحترم رأى أخيه في إنصاف وسماحة . وكان اهتمام جلالته بفكرة التقريب حديث الصحف في ذاك الحين .

* * *

جلالة الملك سعود وكبير علماء الشيعة بإيران
هدية من جلالته ، ورسالة في شأن الحج من سماحته :

وقد بلغنا أن جلالة الملك المعظم سعود بن عبد العزيز قد أرسل بهدية سنية إلى السيد الجليل العلامة الأكبر الحاج آقا حسين بروجردي كبير مجتهدى الشيعة ، وعلنا من مصدر وثيق أن سماحة السيد الجليل قد بعث بكتاب منه إلى سفير المملكة السعودية بطهران ، واستطعنا أن نحصل على نصه ، ونحن نسجله مغتبطين بما فيه من روح الأخوة والحفاظ والكرامة العلمية .

قال سماحته : « بسم الله الرحمن الرحيم . سلام الله عليكم ورحمته . أما بعد : فقد بلغنا كتابكم مع السيد يوسف بو علي ، ومعه حقيبة كبيرة ذكرتم أنها تحتوي على خمس عشرة نسخة من القرآن الكريم ، وعلى قطع من حزام ستار الكعبة الشريفة ، وعلى وأن جلالة الملك أمر بإرسالها إلى ، فتحيرتُ في الأمر لأن سيرتي عدم قبول الهدايا من الملوك والعظماء ، ولكن اشتال هذه الهدية على القرآن الكريم وستار الكعبة الشريفة ؛ ألزمني قبولها ، فأخذت نسخ القرآن الكريم والقطع من حزام ستار الكعبة الشريفة ، وأرسلت الحقيبة « بما بقي فيها ، إلى جنابكم هدية مني إلى شخصكم ، لا كون على ذكر منكم في أوقات الصلوات والدعوات ، ولما كان أمر الحج في هذه السنين بيد جلالة الملك ؛ أرسلتُ حديثاً طويلاً في صفه حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، رواها مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه ويستفاد منه أكثر أحكام الحج إن لم يكن كلها ، لترسله إلى جلالة الملك

هدية مني إليه ، وتبلغه سلامي وتحياتي ، وأسأل الله عز شأنه أن يؤلف بين قلوب المسلمين ، ويجعلهم يداً واحدة على من سواهم ، ويوجههم إلى أن يعملوا بقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، وأن يمتنعوا التدابير والتباغض واتباع الشهوات الموجبة لافتراق الكلمة ، وأن يلتزموا بقول الله : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيّنوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » . والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

وفي جامعة مونتريال « بكندا » :

بعث فضيلة الدكتور محمد الهبي الأستاذ الزائر من الأزهر في جامعة مونتريال بكندا - وهو عالم باحث من المحتررين المؤمنين بفكرة التقريب - بكتاب إلى « دار التقريب » يتضمن حديثاً مفصلاً عن صدى دعوة التقريب في الأوساط العلمية الجامعية بكندا ، « وانها أدخلت في منهاج الحركات الإسلامية الحديثة ذات النشاط الإيجابي في بناء الجماعة الإسلامية المعاصرة » ، وأن الباحثين هناك يبحثون كذلك في بعض حلقات التقريب حين كان السيد جمال الدين يبكث فكرة الوحدة بين المسلمين ويهاجم التعصب والمتعصبين .

وقد ختم فضيلة الدكتور كتابه بقوله : « إن رسالة جماعة التقريب اليوم أوضح من ذي قبل ، ومكانها أوسع مما مضى ، والغرب يريد أن يعرف كثيراً عنها ، وقد كتب إليكم مدير المعهد الإسلامي منذ مدة - كما أخبرني - راجياً إرسال نشرات الدار ومنهاج الجمعية ، وقد أودعت المكتبة شتا صورة من المنهاج وسأعمل على أن أمد الباحثين في هذه الشؤون بما يمكن لهم من النظر الواسع ، ويحدد لهم فكرة التقريب تحديداً واسعاً ، كما يوضح إمكانياتها العملية والمصادر التي تعتمد عليها في فهم مذهب الشيعة الإمامية والزيدية الذين هم أحد الطرفين في التقريب مع تسحيح ما يراه بعض المشتغلين بالدراسات الإسلامية هناك من أن

فكرة التقريب من الوجهة النظرية ممكنة ، أما من الوجهة العملية فمسيّرة ، ولعل ذلك كله ينشر في كتاب باللغة الإنجليزية إن شاء الله .

* * *

وفي معهد الدراسات الإسلامية :

وقد افتتحت الدراسات العليا في معهد الدراسات الإسلامية منذ أكثر من شهرين ، وهو معهد حديث أنشأته جمعية الدراسات الإسلامية لينسب إليه خريجو الجامعات الدينية والمدنية الراغبون في التزود من الثقافة الإسلامية العالية ومعرفة أحوال المسلمين في مختلف بلادهم وشعوبهم ، ولا تقيّد في هذه الدراسات بمذهب ولا طائفة ولا شعب ، وإنما هي لمن يشاء من المسلمين جميعا على شرط أن يكونوا حاصلين على إجازة عليا من أية جامعة .

والروح الذي يسير به هذا المعهد في دراساته وصلاته وبحوثه العلمية والعملية ؛ يلتقي مع التقريب في أهدافه ووسائله ، ويتسم بالطابع الحيادي المنصف الذي يعتمد البحث الحر ، ويستقبل مشكلاته بالرزانة والسباحة والهدوء والمثابرة ، التماسا للحقيقة من أى أفق ظهرت .

والأسانذة الذين عهد إليهم بهذه الدراسات هم من كرام العلماء وصفوتهم في مختلف النواحي من دينية ومدنية ، وهم يسرون على منهاج متميز بطابعه الخاص على غيره من مناهج الدراسة في غير هذا المعهد .

والتقريب يسعده ويقويه ويؤازره كل مسعى كريم إلى غايته الشريفة ، وأهدافه السامية التي هي أهداف الإسلام لمن عرف رسالة الإسلام .

فنحي هذا المعهد أسانذته وطلابه والقائمين عليه ، ونسأل الله لهم جميعا التوفيق .

* * *

وفي ندوة الأصفياء :

وهي ندوة تجمع فريقا مستنيرا من ذوى العلم والأدب ، منهم العالم الضليع ،

والشاعر المجيد ، والكاتب المبرز ، والخطيب المصقع ، والسياسي المحرب ، والمجاهد المناضل ، لا يعرفون لهم جنسية على تعدد شعوبهم وبلادهم إلا جنسية الإسلام ، وقد اختاروا مقررًا لندوتهم رجلاً من خول الأدب هو الشاعر محمد علي الحوماني ، وكانت باكورة الثرات التي أثمرتها ندوتهم كتاب أصدرته باسم د الأصفياء ، وهو كتاب جامع لكل المحاضرات والمناقشات التي دارت طول العام الماضي في جلساتهم ، وفيها المعجب المطرب من البحوث العلمية والشرعية والاجتماعية والأدبية ، وفيها الكثير مما يهيم به التقريب ، ويدعو إليه أقطابه ، وإن رسالة الإسلام لنحي هذه الندوة ونحي أعلامها الكرام ، وترى في مسلكها الحميد تأزرا على ما يرفع شأن الإسلام والمسلمين .

وفي مؤتمر الخريجين :

وكان من القرارات التي أصدرها د مؤتمر الخريجين ، في دورته المنعقدة بالقدس في شهر سبتمبر الماضي الموافقة على توصية لجنته الثقافية بأن تعمل الحكومات والشعوب على تهدئة الخلافات الطائفية ، والحد من آثارها المنبعثة عن التعصب المذهبي ، كي يقف المسلمون في مختلف البلاد العربية - والإسلامية - صفًا واحدًا يقاوم الاستعمار ، ويفسد خططه وماله من أساليب تعتمد على بث دعوة الفرقة والقطيعة في مقدمة ما تعتمد عليه .

* * *

وهكذا يتردد صدى التقريب في مختلف الأوساط ، وتسير قافلته في ظل من رعاية الله تعالى وتوفيقه .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للوادة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، ففسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخرُوا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطه .

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبيّن أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٣	كلمة التحرير
٥	تفسير القرآن الكريم
٢٩	المجتمع القرآنى
٣٨	القافلة تسير
٤٣	كيف يستفيد المسلمون وحثهم وتناصرهم
٤٨	الفرق بين الدين والمذهب
٥١	قال شيخى
٦٣	الحرية فى الإسلام
٦٧	الحرية الفكرية فى اليمن
٧٢	فى التاريخ والأدب
٨٣	تحقيق جديد فى نصر النبى بالرب
٨٩	التسايق الهيدروجينى
٩٧	معجم ألفاظ القرآن الكريم
١٠٥	أنباء وآراء
١١٠	رجاء من التقريب
١١١	من القانون الأساسى لجامعة التقريب

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار الفكر بين المذاهب الإسلامية بالقطر

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون : ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرى أو ما يعادلها

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقرى بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السكنة الثامنة
العكاز الشكافى

رمضان ١٣٧٥ هـ
ابريل ١٩٥٦ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَلَامُ الْفَخْرِيِّ

مما وصف الله به المؤمنين أن بعضهم أولياء بعض ، وأنهم يوفون بميثاقهم ، وأعياناً لهم إرادة لا يروج معها إلا الحق ، ولا يستطيع الباطل أن يعيش تحت سمعها وبصرها . وذلك حيث يقول الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

إن الولاية صفة تجمع المحبة والتكافل والتناصر ، ففلان وليّ لفلان أى حبيبٌ وصديق حميم ، وبين فلان وفلان ولايةٌ أى تكافل وترايط ، كلاهما يرى لصاحبه من الحق ما يراه لنفسه ، وكلاهما يفرح لفرح الآخر ، ويألم لألمه .

والمؤمنون متصفون بهذه الصفة الجامعة ، فالأساس فيما بينهم هو المحبة الصادقة الصافية ، والقاعدة عندهم هي التكافل في الخير والشر ، في الغنى والفقر ، في الحرب والسلام ، مصلحتهم واحدة غير متجزئة ، وأهدافهم واحدة غير متفرقة ، وبينهم تناصر ، فإذا اعتدى على طرف من أطرافهم هبّت جميع الأطراف لتنتصر له ، وتدافع عنه ، وتشاركه في بأسائه حتى تنكشف عنه البأساء ، وتقاسمه ألوان ضرائه حتى تزول عنه الضراء .

هذا هو شأن المؤمنين وطابعهم الذى طبعهم الله به ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم .

* * *

والولاية بين الوليين تقتضى النصيحة ، وأن تقوم العلاقات على أساس المكاشفة والإخلاص ، لا على أساس الخداعة والمصانعة ، فالولى ينصح لوليه : بأمره بالمعروف فيؤدى بذلك حق ولايته ، وينهاه عن المنكر فيؤدى بذلك حق ولايته .

وهذا يدلنا على أن المجتمع الصالح - وهو مجتمع أهل الإيمان أو أهل صفات الإيمان - هو المجتمع الذي يكون فيه رأى عام حساس غيور قوى مسموع الصوت نافذ الكلمة ، ذلك أن المجتمع الذى ينطوى فيه كل إنسان على نفسه ، وينقطع عن الآخرين ، ولا يهتم أن يصلح الأمر فيه أو أن يفسد؛ إنما هو مجتمعٌ منحلٌّ لا يمكن أن يستقر أمره ، ويكون مجتمعاً سعيداً ، ولا بد أن يستشري فيه الفساد ، ويكثر المنكر ، ويقل العمل الصالح .

فالامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فى مجتمع ما : هو صمام الأمن ، وميزان الصلاحية والاستقامة ، ولذلك يخطئ من يظن أن الإسلام يكتفى من المؤمن بأن يرعى شئون نفسه ، غهر عاني بما حوله ، وأن يعيش فى مجتمعه عيشة المنكش المنطوى على نفسه تمسكاً بما قد يفهم خطأ من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » نعم لا يضرني من ضل إذا اهتديت ، ولكن ما معنى اهتديت ؟ أليس أن آخذ بتعاليم الحق ، وأن أؤدى واجبي حق الأداء ؟ وهل أكون مهتدياً ، إذا فرطت فى ذلك ، وعشت على جانب الحياة لئمة ؟ هل أكون مهتدياً إذا عطلت مواجبي ، وحرمت الأمة قواى التى هى جزء من قواها ، وحق من حقوقها ؟ هل أكون مهتدياً إذا اعتزلت المصلحين فلم أعاونهم ، والضالين فلم أحاول ردهم ، ولم أتحايل لإبلاغ كلمة الله إليهم .

كلا ! ولذلك أجدنى دائماً حريصاً على أن أفهم المعنى فى قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ، على أنه أمرٌ للأمة حاسمٌ بأن تكون أمةً هذا طابعها ، وهذا لونها ، أمة دعوة إلى الخير ، أمة إحساس بالحق ، أمة غيرة على المعروف تريده ونحب أن يفعل ، أمة ثورة على المنكر تمقته وتمقت أن يفعل ، فهذه الأمة هى التى تفلح ، وهى التى تقتصد منزلة العزة .

محمد محمد الدين

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لِحَصْرَةِ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَمِينِ تَاجِدِ الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ دُشَيْثُونَ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

- ١ -

منهجنا في دراسة السورة - عود على بدء في شأن ما سبقها
من السور : سورة الفاتحة تتضمن الإشارة إلى جميع مقاصد
القرآن - السور المدنية السابقة على « الأنعام » متفقة
في الهدف الأصلي مع اختلاف في التفاصيل - سورة البقرة
في أوليها وأهدافها - سورة « آل عمران » بين حجاج
أهل الكتاب وإرشاد المؤمنين - سورة النساء وعنايتها بتنظيم
جماعة المسلمين - سورة المائدة وما تضمنته من التفصيلات
الداخلية - رجع إلى بيان المنهج - سورة الأنعام متميزة
في أهدافها عما قبلها - أهداف السورة لإجمالا .

منهجنا في دراسة السورة :

سورة الأنعام ، هي السورة السادسة من سور القرآن الكريم في الترتيب
المصحفي ، ولها بحكم مكانتها ، وبحكم الأسلوب الذي عالجت به قضاياها الأصلية ،
منهج خاص يخالف منهج السور الأربع المدنية التي سبقتها في الترتيب ، وقد شاركها
في البدء بإثبات الحمد لله ، أربع سور مكية ، وهي : سورة الفاتحة ، وسورة الكهف ،

وسورة سبأ ، وسورة فاطر . ومن هنا رأينا زيادة في تشخيصها وتوضيحاً لمنهجها أن نعود فنضع أمام القارئ صورة إجمالية لما عرضت له كل سورة من السور الأربع المدنية السابقة عليها في الترتيب . ثم نضع بإزاء ذلك صورة إجمالية لما عرضت هي له ، وبذلك يتضح سبيل الموازنة بين المنهجين ، ثم نقف ثانياً ببيان سبيلها مقارناً ذلك بسبيل السور الأربع الأخرى التي شاركتها في المكية والبدء بإثبات الحمد لله .

عود على بدء في شأن ما سبقها من السور :
سورة الفاتحة تتضمن الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن :

أما سورة الفاتحة ، فهي - وإن كانت مكية - قد أخذت باعتبار ما تضمنته من الإشارة إلى جميع مقاصد القرآن ، وبذلك اختيرت فاتحة للكتاب ، وأطلق عليها ، أم القرآن ، أخذت بهذا الاعتبار ، شخصية تكاد تكون مستقلة في المنهج وفي المقصد عن سائر سور القرآن مكية ومدنية ، وصارت نسبتها إلى جميع سور القرآن بهذه الشخصية واحدة ، يدل كل ما فيها على كل ما فيه ، ذلك أنها تشير إلى جانبي الحق والخير ، متمسكتين بالعقيدة والعمل ، والعقيدة والعمل هما عنصر الكمال الإنساني الذي نزل القرآن لرسم طرقه والدعوة إليه ؛ ففي العقيدة بالنسبة للبدء ، جاء قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، وفي العقيدة بالنسبة إلى المعاد ، جاء قوله تعالى : « مالك يوم الدين ، وفي العمل ، جاء قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، وقد توجت عقيدة الحق ، وعمل الخير بصورتين :

أحدهما : صورة تبشيرية لمن سلك الصراط المستقيم الذي يهدي إلى الإيمان بالحق وعمل الخير : « صراط الذين أنعمت عليهم » .

والأخرى : صورة انذارية لمن حاد عن طريق الحق والخير : « غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » .

ولا ريب أن كل ما تضمنه القرآن في آياته المفصلة ، وأحكامه الواضحة ، وقصصه الحق ، يدور على محور من بيان الحق والإرشاد إلى الخير ، لافرق في ذلك بين مكية ومدنية ، يأبى الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن الله ما فى السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً .
 « الحق من ربك فلا تكونن من الممقرين ، . . وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ، .

وهكذا نجد كثيراً من آيات القرآن الواضحة فى مكية ومدنية ، تعلن أن الأمر فى شرائعه وأحكامه يدور حول هذا المحور ، محور « الحق والخير » .
 هذا هو وضع سورة الفاتحة من القرآن كله .

السور المدنية السابقة على « الأنعام » متفقة
 فى الهدف الأصلى مع اختلاف فى التفاصيل :

أما السور الأربع المدنية التالية لسورة البقرة ، وهى سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ؛ فهى بحكم مدنيها تشترك كلها فى هدف واحد ، وهو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة ، ويأرشارهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام ، وإلى الأساس الذى يرجعون إليه ويحكمونه فى التعامل معهم فى حالتى السلم والحرب ، وقبلما تعرض هذه السور المدنية إلى شئ من شئون الشرك ومناقشة المشركين ، وهذه السور مع اشتراكها فى أصل الهدف العام ، تختلف قلة وكثرة فيما تناوله من التشريع الداخلى الخاص بالمسلمين ، والتشريع الخارجى الذى يرتبط بهم مع من يخالفهم فى الدين .

سورة البقرة فى أسلوبها وأهدافها :

ومن ذلك نرى سورة البقرة بدأت فذكرت أوصاف الذين ينتفعون بهذا الكتاب وينتسبون إليه ويضاف هو إليهم ، ثم عرضت لأوصاف المجاهدين

الذين يعلنون الإنكار ، والمنافقين الذين يترددون بين المؤمنين والكافرين بإيمانهم الظاهري وكفرهم الباطني ، وقرأ في ذلك من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شيء قدير ، الآية ٢٠ ، ثم توجه الخطاب إلى الناس جميعاً باعتبار إنسانيتهم العاقلة ، إلى توحيد الله في العبادة والالوهية ، وإلى الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتضمن ذلك الإيمان بالجزاء الآخروي : العذاب لمن جحد واستكبر ، والنعيم لمن آمن وعمل صالحاً ، وتشير إلى أن الإيمان بالحق شأن الفطر السليمة التي لم تدنس بمتابعة الهوى والشهوة ، والتي لم تبحر على سنن الآباء الضالين ، وتنتقل من تصوير الدعوة والمجيبين لها ، والمرضين عنها على هذا الوجه ، فتذكر لهم قصة الإنسانية الأولى وتشير بها إلى أن الإنسانية وقعت في الخلق والتكوين بين طائفتين ، يدفعها أحدهما إلى الخير والطاعة والامتنال ، ويزين لها الآخر لإغراء الشهوة والهوى ، وأن الله لهذا ، وهو الرحيم بخلقه : قد أخذ على الإنسانية - بما ركب فيها من قوى الخير - العهد والميثاق باتباع الحق الذي يبعث به إليها ، وقرأ في كل ذلك من قوله تعالى : « يأبى الناس عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الآية ٢١ ، إلى قوله تعالى : « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، الآية ٣٩ .

كان كل هذا في فاتحة البقرة بمثابة تمهيد ، يصل به القارئ إلى الهدف الأصلي الذي عالجته السورة فيما بعد بحكم الوقت الذي نزلت فيه .

إن سورة البقرة قد نزلت في أوائل الهجرة ، وقد صار للمسلمين بالهجرة كيان خاص وجوار خاص ، وبذلك كان أمامها هدفان :

الأول : نظم يأخذ بها المسلمون أنفسهم في عباداتهم ومعاملاتهم : شخصية ومدنية وجنائية .

والهدف الآخر : إرشاد إلى طرق المناقشة فيما كان مجاورهم يشيرونه حول الدين والدعوة من شبه وتشكيكات . وقد تجلّى هذان الهدفان بصورة واضحة في سورة البقرة ، برز أحد الهدفين في نصفها الأول ، وبرز الهدف الثاني في نصفها الأخير ، وقرأ في الأول على وجه عام من قوله تعالى : يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، الآية ٤٠ ، إلى قوله تعالى : ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ، الآية ١٧٦ ، وقرأ في الهدف الثاني قوله تعالى : ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، الآية ١٧٧ ، إلى نهاية الآية ٢٨٣ : وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فراهان مقبوضة .

وقد عرضت في هذا السبع الطويل بعد أن أجملت أوصاف الصادقين في إيمانهم المتفين في أعمالهم ، لجملة من الأحكام التي تسوس الأمة فيما بينها :

عرضت للقصاص ، والوصية ، والصيام ، وعرضت لحكم القتال في الأشهر الحرم وبعض أحكام الحج ، وعرضت لحكم الخمر والميسر ، وبعض أحكام اليتامى ، وعرضت لحكم مصاهرة المشركين ، وأحكام الإيمان ، وكثير من أحكام الطلاق وما يتبعه من رضاع وعدة ومتعة ، وعرضت للإنفاق في سبيل الله وأدبه الذي يحقق في الأمة ثمراته الطيبة ، وقارنت بينه وبين استغلال حاجة الفقير بالربا ، وهو بفقره يستحق الرحمة بالإنفاق في سد حاجته .

وأخيرا ، ذكرت آية فذة ، عرضت فيها لطرق الاستيثاق في الديون وحفظها من الجحد والإنكار ، فأشارت إلى الكتابة ، والإشهاد ، والرهن . وبعد هذا كله تختم كما بدأت ببيان أصول الإيمان الحق ، وبيان أساس التكليف عند الله ، وأن ليس القصد منه الإرهاب ولا الإعانة ، وبجىء ذلك الختام في قوله تعالى : آمّن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، إلى آخر السورة .

* * *

سورة آل عمران ، بين حجاج أهل الكتاب وإرشاد المؤمنين :

ثم نجيء سورة آل عمران ، فنصرف عناية خاصة إلى مناقشة النصارى فى قضية الألوهية ، وإلى كشف بعض صور التزييف التى كان يصطنعها أهل الكتاب لإخفاء لحق الإسلام ودعوته .

ثم ترشد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم ، ويقيهم شر الوقوع فى مخالف الأعداء وترسم لهم فى ذلك الطرق الحكيمة التى تجعل منهم ، قوة الكفاح فى تأييد الحق ، وهزيمة الباطل .

وفى سبيل الهدف الأول تبدأ السورة ببيان أن الكتب السماوية كلها إنما نزلت لغاية واحدة هى هداية الناس للحق . ثم تقرر خاصة الألوهية الحققة من العلم الشامل والقدرة التامة ، وترشد إلى منشأ الشبهة الملهمة التى تعلقوا بها فى ألوهية عيسى ، فأضللتهم ، واقرأ فى ذلك من أول السورة ، إلى نهاية قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات . الآية ٧ » . ثم ترشد فى هذا الهدف إلى السبب الحقيقى الذى يرجع إليه تمسكهم بالباطل وأعراضهم عن دعوة الحق ، وهو حرصهم على زخارف هذه الحياة الدنيا التى ظنوا أنها تفوتهم إذا آمنوا بمحمد ودعوته ، وتذكر ذلك فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك هم وقود النار . الآية ١٠ » ، وعلى هذه الأسس تسير السورة فى حجاجهم وتفنيدهم . فتقص ولادة عيسى ، وولادة أمه ، وتدعوهم إلى الكلمة المشتركة فى الرسالات السماوية كلها : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . الآية

٦٤ . ثم تذكر شيئاً عن حيل اليهود وصور زيفهم ، وتلييسهم الحق بالباطل . إلى أن تقول : « قل يا أهل الكتاب ، لم تصدون عن سبيل الله ، من آمن ، تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » .

وفي سبيل الهدف الثاني ، وهو إرشاد المسلمين إلى ما يحفظ عليهم شخصيتهم ، توجه إليهم بوصف الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا ، فتحذروهم عن إطاعة أهل الكتاب والتأثر بشبههم الباطلة والوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتراض بزخارف الدنيا التي حالت بينهم وبين الإيمان بالحق وتأمرهم في ذلك بالاعتصام بحبل الله والتضامن في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتغريهم بالانفاق في سبيل الله ، وتحذروهم الوقوع في خيال الأعداء واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين . واقرأ في كل ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن طيعوا فربما من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . الآية ١٠٠ » إلى قوله تعالى : « إن تمسكم حسنة تسؤم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط . الآية ١٢٠ » .

ثم تنتقل السورة إلى تذكير المؤمنين بحادثتين عظيمتين من حوادثهم مع المشركين لهم في كل حانة منهما ، أكبر العظات والمبر : تذكروهم بغزوة بدر وما كان لهم فيها من النصر والظفر بسبب الصبر والتموى مع قلة العدد والعدد : « ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ، وتذكروهم مع هذا بما أصابهم في غزوة أحد ، أترأ للتنازع والفشل ، وتضع أمامهم بالحادثتين ، صورتي الصبر وآثاره . والطمع وآثاره : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسنونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

ولا يفوت السورة أن تبرز لهم في أثناء التذكير بهاتين الحادثتين عن شيء من صفات المنافقين . اتقاء لها ، وتحذيراً منها ، ويستغرق كل ذلك على وجه

عام الآيات ابتداء من قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . الآية ١٢١ » ، إلى قوله تعالى : « والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير . الآية ١٨٩ » . ثم تختتم السورة بالإرشاد إلى الطريق الذي يصل بالإنسان إلى الإيمان الحق الذي ختمت به سورة البقرة ، والتي مهدت به سورة الأنعام : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » . وتذكر جزاء المؤمنين الصادقين الذين اتقوا ربهم ، والذين لا يشتركون بآيات الله ثمنا قليلا . وتكون خاتمة المطاف في سورة آل عمران تلسم النصيحة الغالية التي هي بحق أساس كل تركيز . وعماد كل عزة وسمو : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء وعنايتها بتنظيم جماعة المسلمين :

وعلى أساس من مشاركة النساء لزميلاتها المدينيات في أصل الهدف ، تناولت الأمرين : تنظيم جماعة المسلمين ، ومناقشة أهل الكتاب في موضوع الألوهية والرسالة ، غم أن عنايتها بجانب التنظيم كانت أشد من عنايتها بجانب المناقشة .

ففي جانب التنظيم شرعت في الأموال وبخاصة أموال الضعفاء : « واليتامى والسفهاء والنساء ، وشرعت في الأسرة من زواج وميراث وحقوق ، وقرأ في ذلك كله من أول السورة إلى قوله تعالى : « إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ، الآية ٣٥ » .

وذكرت أساس الحكم ومصادر التشريع « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، إن الله نعمًا بكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ، الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

وعرضت للذين يحاولون الخروج عن تشريع الله ، وصرف الحاكم عن العمل

بالحق . ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ،
الآية ٦٠ ، مع الآية : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما
أراك الله ، الآية ١٠٥ »

ثم عرضت للتنظيم الخارجي في الحرب والسلم ، ابتداء من قوله تعالى :
« يأياها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ، الآية ٧١ .
إلى قوله تعالى : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما
تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً ، .

أما في جانب المناقشة ، فقد عرضت لغلو بعض أهل الكتاب في قولهم على
مریم وولدها عيسى ، وغلو البعض الآخر في شأن الألوهية . ثم تتجه إلى دعوة
الناس جميعاً إلى الحق الذي أوحاه الله إلى محمد ، وأوحاه إلى النبيين من قبله
« يأياها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبيناً ، فأما الذين آمنوا
بآله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ، .



سورة المائدة وما تضمنته من التشريعات الداخلية :

ثم تجيء سورة المائدة ، فتأخذ سبيل أخواتها أيضاً ، فتشرع للمسلمين في
خاصة أنفسهم ، وفي معاملة من يخالطون من أهل الكتاب ، مع الإرشاد إلى
طرق محاجتهم والنبية على أعطائهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتذكيرهم
بسيئاتهم مع أنبيائهم ، وقد استغرق ذلك معظم السورة .

أما في التشريع للمسلمين فقد وجهت إليهم ستة عشر نداء بوصف الإيمان ،
لم توجد في سورة غيرها . قررت فيها مسئولية التعاقد والمحافظة على الشخصية
الدينية ، وما يجب القيام به حين إرادة الصلاة ، كما بينت علاقة الإنسان بطبيات
الحياة وأوجبت المحافظة على العقل ، وحددت موقف المسلمين مع من يعيث بحقوقهم
ويتخذ دينهم هزواً ولعباً . كما عرضت إلى تشريعات جزئية في حلال الطعام
وحرامه ، وفي الاستقسام بالألزام ، وحكم الصيد بالحيوانات الملعنة ، والتزوج

من أهل الكتاب ، وعرضت لعقوبة الاعتداء على الأمن العام الذى تقوم به عصابات الشر والفساد ، كما عرضت لعقوبة السرقة ، وقصت بعض التشريعات التى كانت فى كتب السابقين ، وأشارت إلى المبدأ الطبيعى الذى يقضى باختلاف الشرائع نظراً إلى اختلاف الأجيال والعقليات ، وحذرت العدول عن الحكم بما أنزل الله ، واتباع أهواء المضلين .

ولم يفتأ فى أثناء ذلك كله أن تشد أزر النبى صلى الله عليه وسلم فيما يختص بموقفه من أهل الكتاب ، وعصمة الله لإياه من الناس وتوجه إليه فى ذلك الخطاب مرتين بعصمة الرسالة ، منج العصمة والتأييد : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » . « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » . ثم تذكر الجميع يوم الجمع الذى تحدد فيه المسئوليات ، وتذكر أهل الكتاب بوجه خاص بشأن يجرى فيه بين عيسى وربه فيما يختص بعقيدة النصارى فيه : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ ، الآيات . ثم تحتم بهذه الآية الكريمة التى ترد الأمر كله لله ، ملكاً وتديراً وتصريفاً : « لله ملك السموات والأرض ومن فىهن وهو على كل شئ قدير » .

* * *

رجع إلى بيان المنهج :

أما بعد ، فهذا عرض وجيز ، نستحضر به أصول ما تضمنته السور الأربع المدنية التى سبقت سورة الأنعام فى الترتيب المصحفى ، ومنه يتضح أنها اشتركت فى هدف واحد ، هو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع لهم باعتبارهم أمة مستقلة لها كيان خاص ، وسبيل فى الحياة خاص ، وإرشادهم إلى مناقشة أهل جوارهم فيما يتصل بالعقيدة والأحكام ، ومعاملتهم فيما يختص بالسلم والحرب . وقد جاءت بعد هذه السور الأربع المدنية سورتان مكيّتان ، هما أطول المكيّ فى القرآن ، وهما : الأنعام والأعراف . والذى يهنا الآن بيان منهج سورة الأنعام

على وجه عام ، وسيتضح لنا فيما بعد حيننا نصل إلى الأعراف إن شاء الله تعالى ، أن منهجها يخالف منهج الأعراف رغم اشتراكهما في وقت النزول ، وفي الهدف الذي رمت كل منهما إليه .

* * *

سورة الأنعام متميزة في أهدافها عما قبلها :

وسورة الأنعام ، لم تعرض لهدف من الأهداف الأصلية التي تميزت بها السور الأربع المدنية قبلها :

فهي أولا : لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج في العبادات ، والعقوبات في الجنايات ، والمدانة والربا في الأموال ، وأحكام الأسرة في الأحوال الشخصية .

وهي ثانياً : لم تذكر في قليل ولا كثير شيئاً يتعلق بالقتال ومحاربة الخارجين عن دعوة الإسلام .

وهي ثالثاً : لم تتحدث في شيء ما ، عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكذلك لم تتحدث عن طوائف المناقذين ولا عن أخلاقهم السيئة ومسالكتهم المظلمة .

وهي رابعاً : لا نجد فيها مع ذلك كله نداءً لواحد المؤمنين باعتبارهم جماعة تنتظمها وحدة الإيمان ، لا نجد فيها شيئاً من هذا كله كما وجدناه جميعاً في السور الأربع السابقة .

* * *

أهداف السورة إجمالاً :

وإنما نجد الحديث فيها بدوره بشدة وقوة حول العناصر الأولى للدعوة ، ونجد سلاحها في ذلك ، الحجج المتكررة والآيات المصروفة والتوبيخ العجيب في طرق الإلزام والإقناع : تذكر توحيد الله في الخلق والإيجاد وفي العبادات والتشريع وتذكر موقف المكذبين . وتقص عليهم ما حاق بأمتهم السابقين ، وتذكر شبههم في الرسالة . وتذكر يوم البعث والجزاء . وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل

في الأنفس والآفاق ، في الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . وتذكر إبراهيم وجملة من أبنائه وترشد الرسول إلى اتباع هدام وسلوك طريقهم في احتال المشاق وفي الصبر عليها . وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر ، وتفيض في هذا بألوان مختلفة . ثم تعرض لكثير من تصرفاتهم التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحرير ، وتقضى عليه بالتفنيد والابطال ، وتبين خصوص ما حرّم الله من الأطعمة ، وتعرض إلى تقرير الشبهة البشرية التي علقت بالعقل الإنساني من قديم الزمان فيما يتعلق بالإيمان والشرك ، والطاعة والمعصية ، أمام التكليف والقدر .

ثم تختم السورة بعد ذلك في ربع كامل : « قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ، إلى آخره » ببيان أن ما يدعو إليه محمد عليه الصلاة والسلام ، هو الوصايا التي نزلت في كل الكتب السابقة ودعا إليها كل الأنبياء السابقين : فهو لم يأت بجديد ، ولا بما يناقض ما جاءت به الرسل إن كنتم طلاب إيمان وحق . وتنتهي إلى آية فذة ، تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة ، وهو أنه خليفة في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تنعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأنه سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية ، وحكمة عظيمة ، وهي الابتلاء والاختيار في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن تحقق المقصود من هذا الخلق وذلك النظام : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

* * *

ولعلنا بعد هذا نلّس القرق الجلى الواضح بين منهج سورة الأنعام ، ومنهج السور الأربع المدنية قبلها ، وهذا هو إحدى الخطوتين اللتين أردنا التمهيد بهما للحديث عن سورة الأنعام .

أما الخطوة الثانية وهي المقارنة بينها وبين السور الأربع الأخرى التي شاركتها في المكية ، والبدء بإثبات الحمد لله ، فوعدنا بها العدد المقبل إن شاء الله ٢

المَجْتَمَعُ الْفُرَاتِيّ

— ٣ —

المَجْتَمَعُ الصَّغِيرُ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة

وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — قررنا في مقالين سابقين أن الإسلام جاء لإنشاء مدينة فاضلة ، تقيم الفضيلة بين آحادها ، وترتبط مع غيرها بقانون الاخلاق ، فالفضائل في الإسلام ليس لها موطن ، ولا يحدها إقليم ، ولا يحاجز دونها حصون .

وإن الدولة الفاضلة يجب أن يكون بناؤها فاضلا في كل أجزائه وعناصره ، فإن الكل يتكون من الجزء ، ولا يمكن أن يكون الكل فاضلا إلا إذا كانت أجزاؤه وعناصره فاضلة .

ولذلك اتجه الإسلام إلى إصلاح المجتمع الصغير ، لينبني منه المجتمع الكبير ، والمجتمع الكبير إنما يقوى بقوة الاتصال بين عناصره كالصرح المشيد المرتفع إلى عنان السماء لا يمكن أن يرتفع ويشمخ إلا إذا كان الرباط الذي يربط بين أجزائه وثيقا محكما ، والدعائم التي يقوم عليها قوية الأركان ، وثيقة البنيان ، وذلك كله لا يكون إلا إذا تكونت المجتمعات الصغيرة التي تدخل في بناء المجتمع الكبير على أسس فاضلة .

٢ — وإن الإسلام قد عنى بالمجتمعات الصغيرة أبلغ عناية ، فعنى بالأسرة كما نوهنا من قبل ، وقد بين ذلك القرآن ببيان تفصيلي كما أشرنا .

ثم انتقلت عناية الإسلام من الأسرة إلى القبيلة ، وهي في حقيقتها ومعناها أوسع مدلولات الأسرة شمولاً ، فجعلها مترابطة الأجزاء أمر لا بد منه في الإسلام ، وذلك بأن يحمى قوتها ضعيفها في غير عصبية جاهلية ، ولا تعاون على الإثم والعدوان .

واقدم انتقلت عناية الإسلام من القبيلة إلى القرية ، وإن شئت فقل إن القرية مجتمع صغير في السواد يقابل القبيلة في البادية بيد أن القرية يقوم الاتصال فيها على الجوار والبيئة الواحدة ، والقبيلة يقوم الاتصال فيها على النسب واتحاد الأرومة ، وقد يتلاقيان ، فتكون القرية من القبيلة ، أو تحتاز القبيلة مكاناً خصيصاً تبنى فيه وتحل فتكون القبيلة هي القرية .

ونظام القرية على العموم يكون في البلاد الزراعية كريف مصر ، فإن الأهلين المنبئين في ذلك الجناب الحبيب في القرى لا يجمع بينهم نسب جامع في كثير من الأحوال ، إنما تجمعهم القرية ومصالحها المشتركة ، وجوارهم الطاهر العف النزيه ، وإنه إذا صلت القرية صالح الإقليم .

٣ — وإن كل إصلاح اجتماعي في الإسلام أساسه الأخوة والتعاون على الخير والفضيلة ، وقد دعا القرآن الكريم إلى التعاون ، فقال سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، فالتعاون والإخاء هما الأساس لكل إصلاح اجتماعي في المجتمع الصغير ، وقد ذكرنا في صدر بحثنا في مقال سابق أن التعاون والإخاء هو العلاقة الرابطة بين آحاد كل مجتمع ، وإلا كان التدابر والتناذب ووراء ذلك الفساد ، ولا يمكن مع الإخاء والتعاون فساد قط .

٤ — وانقد ضرب لنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً في إصلاح المجتمع الصغير بالتعاون والإخاء ، فقد جاء إلى يثرب وكانت مدينة متنازعة متنازعة ، مع أنها في مجموعها لا تزيد في سكانها عن قرية كبيرة من قرى مصر ، كانت ثلاث

طوائف : الأوس ، والخزرج ، واليهود ، كان الأوس في نزاع مع الخزرج ، وكان كلاهما في نفرة مع اليهود الذين يحاورونهم ، وجاء رسول الله الى هذا المجتمع المتنافر بعنصر رابع ، وهو المهاجرون الذين هاجروا معه .

فكان لابد من عمل لهذا المجتمع الصغير الذي سيكون نواة الحضارة فاضلة تعلن أهل الأرض أن في الإمكان أن توجد مدينة فاضلة تحكم بالفضيلة ، وتحارب بالفضيلة ، وتعاهد بالفضيلة ، وتمسك في الأرض تحكم بأمر الله ونبيه ، وأن ابن الأرض لا يعجز عن أن ينفذ أحكام السماء جملة وتفصيلا إن كان معه إرادة نقية فاضلة ، وأن الدولة الفاضلة ليست حلاً من الأحلام ، ولكنها حقيقة من الحقائق يستطيعها ابن آدم إذا أرادها ، واعتزم مخلصاً أن يوجد لها .

ابتدأ محمد في إصلاح هذا المجتمع الصغير بالإخاء والتعاون ، فأخى بين كل واحد من الأوس ، وكل واحد من الخزرج ، وأخى بين المهاجرين ، وكانوا من بطون مختلفة ، وأخى بين المهاجرين والأوس والخزرج ، وهم الذين أطلق القرآن عليهم اسم الأنصار في مقابل كلمة المهاجرين ، وبذلك ترابطت الجماعة كلها بمواثيق الإخاء والتعاون ، وكان الأخ بحكم هذه العلاقة التي ربطها محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحمل له في مال أخيه ما يستحله الأخ من النسب ، وبمقتضى هذا الإخاء والإدماج زال ما كان بين الأوس والخزرج من نفرة ، وزال ما بين القرشيين من تفاخر بالأنساب ، واعتزاز بما كان عليه الآباء .

وكان ذلك التآخي قوياً بحكم الإسلام حتى إنه كان يجري بسببه التوارث بين المتآخين ، فتألفت به القلوب ، واجتمعت على الحق نفوس كانت متنافرة بالباطل وفي الباطل ، وكان هذا أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل يثرب التي صارت من بعد : المدينة الفاضلة ، ولقد قال سبحانه وتعالى في هذه النعمة التي أنعم بها عليهم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

٥ — وإن هذا العمل النبوي يشير إلى أن أول ما ينبغي عمله في إصلاح المجتمع الصغير هو بث روح التعاون والإخاء، وإذا كان الذي أوجده النبي صلى الله عليه وسلم بوضعه الإسلامي الأول لا يمكن تحقيقه على الوجه الذي صبغه النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه عمل نبي وأنتي لأحد من البشر أن يعمل ما يعمل الأنبياء ، إلا بقبسة من نورهم ، ولأن التوارث بالإخاء قد نسخ وبذلك فقد الإخاء المحمدي عنصراً من عناصر قوته ، ولكن إن تعذر إخاء على النحو المحمدي فإخاء على نحو إنساني يليق بمجتمعنا ، فيكون إخاء على نحو منه ، وإن لم يكن مثله وذلك بإيجاد إخاء اقتصادي واجتماعي ، ويكون بمجموعات تعاونية تنظم الموارد ، وتنظم المصادر ، وتمتد المحتاج وتعين على نوائب الدهر وتخفف ويالات الحكوميين ، وتنظم العلاقات المادية والأدبية تنظيمًا يجعل الضعيف قوياً بمجماعته للتعاونية ، والفقير غنياً بأسرته الاقتصادية ، وغير ذلك مما ينشئه التعاون الفاضل .

وإن ذلك التعاون الاقتصادي كان بعض ما تضمنه الإخاء المحمدي ، فإن الأنصار الذين آخوا المهاجرين آوهم إلى منازلهم وأعانوهم حتى وجدوا لأنفسهم مرتزقا ، بل عاونوهم في إيجاد هذا المرتزق ، ويروي في ذلك أن عبد الرحمن بن عوف عندما نزل على أخيه الأنصاري بمقتضى ذلك الإخاء الموثق المقدس أراد أن يشاطره الأنصاري ماله ، فأبى ابن عوف ، وأخذ قدرا من المال على أنه دين ، وكان تاجراً ماهراً يعرف كيف يكون الصفق في الأسواق ، وقد اتجر فيما أخذ من مال واكتسب منه كسبا وفيراً ثم رد لأخيه الأنصاري ما اقترضه من فضل المكتسب الذي كسبه ، والخير الذي أدره الله عليه في تجارته .

٦ — هذا عمل النبي صلى الله عليه وسلم في الإخاء وما يصح أن يقبس منه ، وليس الإخاء المحمدي إلا عقد تعاون روحي يصح أن يبي عليه عقد التعاون المادي والروحي الذي يجب أن يسود القرى ، وسائر المجتمعات الصغيرة .

وإن القرآن الكريم لم يدع أمر إصلاح المجتمعات الصغيرة إلى عقود التعاون والإخاء فقط ، بل أوصى بوصايا وقرر أحكاما فيها ما يدل على عناية

الإسلام بالمجتمعات الصغيرة وتقوية الروابط بين آحادها ، ثم تقوية الروابط بينها وبين المجتمع الإسلامي الأكبر ، وذلك لكيلا تكون المجتمعات الصغيرة طوائف يضرب بعضها بعضا ، ويكون التنافر بين الطوائف بدل أن يكون بين الآحاد وهو أشد فتكا وأذى .

ومن هذه الوصايا التي من شأنها تقوية الروابط بالمجتمع الصغير ، الوصية بالجار ، فإن الإسلام جعل من تلك العلاقة المادية ما هو طريق لعلاقة روحية بين المتجاورين ، لا فرق بين جار مسلم ، وجار غير مسلم ، بل لا فرق بين جار موحد ، وجار مشرك ، وذلك لقوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى . والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

وإن الجار ليس هو القريب الملاصق فقط ، ولكنه يشمل الحي كله ، ولقد روى أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « إن لي جارين فألى أيهما أهدى ؟ قال : إلى أقربهما بابا » .

وإن الإحسان إلى الجار بالمودة والتعاون لا يفرق بين جار مسلم وجار غير مسلم كما ذكرنا ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، وهو أفضل الجيران حقا ، فأما الجار الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » .

وإن حرص الإسلام على ملاحظة حقوق الجوار ، واتساع معنى الجوار حتى يشمل الحي كله - فيه دلالة على أن أهل كل حي يجب أن يكونوا متعاونين بحكم الجوار الذي كان من الدين وجوب رعايته ، فيكون الارتباط بالخير بين الجيران ، ومن جمهرع الجيران يتكون مجتمع صغير يربطه التعاون والمودة .

٧ — ومن النماذج الرائعة في تكافل المجتمع الصغير والنهوض به : ما قرره الفقهاء بالإجماع من أن الزكوات والصدقات كلها لا تنتقل من بلد إلى بلد ما دام في البلد الذى وجبت فيه الزكاة فقير ، وذلك عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « خذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم » ، ولقد قال في ذلك الامام أبو يوسف : ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ، ولا يخرج منها فلا يتصدق بها على أهل مدينة أخرى .

وإن هذه صورة حية قائمة لعمل الشارع الإسلامى على النهوض بالمجتمعات الصغيرة من ناحية التكافل الاجتماعى ، ومعالجة الفقر وتخفيف ويلاته ، وإن الفقر هو الداء الأول الذى تترتب فيه كل الأدواء ، ولا يمكن أن يتحقق رقى لمجتمع صغير أو كبير إلا إذا عولجت مشكلة الفقر ، ولا يمكن النهوض الثقافى أو الصحى أو الاجتماعى من غير معالجة مشكلة الفقر .

فإذا كان الإسلام قد أوجب صرف زكاة البلد فيه ، فقد وضع الأساس للنهوض بالمجتمع الصغير .

٨ — وإن فقهاء المسلمين يتجهون إلى وجوب التعاون بين أدل القرية أو المدينة الواحدة ، حتى إنه يجب عليهم إذا كانت أموال الزكاة لا تكفى لسد حاجة الفقراء أن يعملوا على سد الحاجة ، ويجبرهم ولى الامر على ذلك إن لم يقوموا به . ولقد جاء فى المحلى لابن حزم : « إن الله فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم » ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات ، ولا الخيـم ، ولا سائر أموال بيت مال المسلمين بهم ، فيقسام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن بكنهم من المطر والشمس وعيون المارة .

وإن هذا النص الذى يتفق مع منطق الفقه الإسلامى كله قاطع فى مقدار عناية الإسلام بالنهوض بالمجتمع الصغير .

٩ — وإن المسلمين عند الفتح الإسلامى ، وضعوا نظام الخراج على أساس

سلم بين أهل القرية بعضها مع بعض ، وبين القرى في علاقاتها بعضها ببعض في مجموعها ، وقد ذكر لنا ابن عبد الحكم في تاريخه صورة للقرية المصرية بمقتضى النظام الذى وضعه عمرو بن العاص ، فقال :

« يجتمع عرفاء كل قرية ، ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب ، ثم يجتمعون هم ورؤساء القرى ، فيضعون الخراج على احتمال القرية وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمها ، وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون فيها ، ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد للضيافة للمسلمين ، ونزول السلطان ، فإذا فرغوا نظروا إلى ما في كل قرية من الصنائع والأجراء ، فقسّموا عليهم بقدر احتمالهم ... ثم ينظرون فيما بقي فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع على حسب طاقتهم ، فإن عجز أحد أو شكاه ضعفه عن زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه ، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فإن تشاحوا قسم ذلك على عدتهم ، (١) .

١٠ — هذا مجتمع القرية كما وضعه عمرو بن العاص على النظام الإسلامى ، ونرى فيه التعاون الصادق والعمل على إنتاج أكبر قدر ممكن ، والتوزيع بالعدل وعلى قدر العمل ، ويبدو من ذلك التوزيع ما يأتى :

(أ) أن القرية كلها تتعاون في القيام على شئون معابدها ، فيخصص قدر من الأطنان لخدمة المعابد ، والقيام بشعائرها ، وهذا القدر يؤخذ من أرض القرية كلها ، لا من حصة بعضها .

(ب) أن القرية كلها تتعاون أيضاً في الضيافة ونزول المسلمين وذوى الأمر وذلك بتخصيص جزء من الفدادين لذلك .

(ج) أنهم يقسمون الأرض على العاملين كل على قدر احتماله وعمله ، على أن يكون فيها ما خصص للمعابد والضيافة ، ولكن لا يقسم ما تنتجه الأرض كله ، إنما يقسم الصافي بعد الضيافة ونفقات المعابد والخراج .

(د) أنهم يقسمون بعدد الخراج والكنائس صافي الثروات بين العاملين ، كل بقدر عمله ، وبنسبة ما عمل وأنتج ، والضعيف تؤخذ منه الأرض وتعطى القوى القادر ، وعلى الجماعة أن تسد حاجة الضعيف ، وتغنيه عن السؤال .

١١ — وإن هذا نوع من التعاون لا نظير له ، فهو ارتباط معنوى ومادى وهو نظام اشتراكى عادل ، لا يحرم العامل من ثمرات عمله ، وما يصل إليه الجميع يشتركون فيه بمقدار جهد كل واحد وما أنتج .

ولأنهم بذلك يتعاونون على العمل ، وعلى تخير خير الأعمال إنتاجاً ، وأقواها لثماراً ، ألم تر أهل كل قرية يجتمعون ويتناظرون في العماره والخراب ، فيحاولون إصلاح الخراب ، والانتفاع بالعماره ، وفي هذه المناظرة يكون التفكير في محاولة الانتاج وتزكية ثماره .

وليست كل قرية منقطعة عن جاراتها ، بل إنه ليجتمع رؤساء القرى المتجاورة فيتشاورون في الوصول إلى خير الطرق لإنتاجاً ، وأكثرها خيراً .

١٢ — ولما أراد السيد محمد بن علي السنوسى وخليفته محمد المهدي أن ينشأ مجتمعات إسلامية صغيرة في وسط الصحراء الليبية ، أنشأ الزوايا ، وهي مجتمعات صغيرة تقوم على التعاون في كل شيء : في أسباب العيش ، وفي العلم ، وفي التدريب العسكرى ، فالزاوية مركز العلم والتعلم والانتاج ، والجندي . ولكل زاوية (مقدم) هو القائم بأمورها ، يفصل في الخصومات بين أهلها ، ويضع كل شيء فيها بالنسب المستقيم ، ويجلب ما تحتاج إليه من بذور وغروس ، ويتولى في الجلة الإشراف على كل شيء ، سواء أكان اقتصادياً ، أم كان اجتماعياً ، أم كان دينياً . وللمقدم إثنان يعاونانه (أحدهما) معاونته اقتصادية ويسمى وكيلاً ، وهو يقوم بشئون الدخل والخرج ، ويدبر أمر الزراعة ، وما تحتاج إليه من أيد عاملة ويعمل على توزيعها توزيعاً عادلاً تحت إشراف المقدم مستعيناً به فيما يحتاج إليه من خارج الزاوية من بذور وغروس غير موجودة بها تجدد أشجارها ونباتها .

(والثاني) شيخ يتولى تعليم الصبيان ، ويحفظهم القرآن ، ويعقد عقود الزواج ، ويصلح بين الأمر ، وغير ذلك مما يجب أن يضطلع به رجل الدين المثقف ... وكان السيد محمد بن علي وخليفته يجلب أصناف الأشجار الغريبة التي لم تكن بالشرق وتصلح لواحات الصحراء .

وكل من في الزاوية يكون عاملاً مجداً دموياً ، فكان السيد السنوسي يقول لهم : « إن الخير كل الخير تحت سكة الموات ، وفي كد اليمين وعرق الجبين ، وكان يبحث على تعلم الصناعات المختلفة ، والحرف المتباينة ، ويعهد بتعليمها إلى صناعات مهرة ، وكان رضى الله عنه يجعل يوماً من أيام الأسبوع للتدريب على الفروسية ، والتصويب بالبنادق ، ويوماً آخر يتولى فيه كل قادر العمل لغيره ، فيعمل القادرون للعاجزين فإذا كان صاحب أرض عاجزاً عن زراعتها تولى عنه القادرون ، وفي هذا اليوم كان يعمل المقدم معهم (١) .

١٣ — هذان مثالان لمجتمعين إسلاميين صغيرين من المجتمعات التي نظمها الحكم المرشدون تحت ظل الإسلام ، وأولهما كان ومصر دخلت في حكم المسلمين ولم تكن قد دخلت في الإسلام ، وترى فيه صورة المجتمع الصغير المثالي يشرف عليه وينفذه حاكم مسلم ، وفيه أخرج الظلم الروماني ليحل محله عدل إسلامي . والمثل الثاني مجتمع صغير إسلامي خالص قد حدث في القرن الماضي ، وهو صورة مثالية للتعاون الصادق على الفضيلة الدينية والعمل على الوصول إلى أسباب الحياة في رفق وهدوء واطمئنان ، وإنتاج مستمر ، وتعاون على البر والتقوى ، وأخذ بيد العاجز ، وتمكين له من الحياة العزيزة السكرية من غير ذل ولا هوان .

١٤ — وإن الإسلام يعنى أشد العناية بتهديب المجتمعات الصغيرة وتثقيفها ، وقد سلك لذلك طريقين كلاهما موصل للغاية محقق للهدف .

أولهما : أن يرسل ولى الأمر إلى القرى والمدائن هداة مرشدين يعلمونهم أمور دينهم ، فكان الإمام العادل يرسل إلى كل قبيلة وقرية من يعلمها دينها ويرشدها ،

(١) راجع نظام الزوايا السنوسية في كتاب حاضر العالم الإسلامي والتعليق عليه للأثير شكيب أرسلان .

ويقوم أخلاقها ، فلم يكن عمال الخليفة جباة صدقات وخراج فقط ، بل كان معهم علماء مرشدون ، ولقد كانت عمر بن الخطاب الإمام العادل يقول لعالمه :
« إني لا أرسلكم لتضربوا أبشار الناس ، ولكن لتعلموهم دينهم » .

والطريق الثاني : أن يرسل أهل كل طائفة أو قبيلة إلى مهد العلم نفرأ يتفقهون في دينهم ، ويعودون إليهم هداة مرشدين ، ولذلك قال سبحانه : « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

١٥ — وهكذا نجد التعاون على العلم والهداية بجوار التعاون على الحياة والعيش .
وهناك في نظم الإسلام ما يقرر وجوب التعاون على منع الجرائم ، وذلك بأن جعل على القبيلة غرماً مالياً تشترك به مع الجاني من الجناة إذا وجبت عليه الدية ، ولم يكن عنده مال يكفي لسدادها ، إذ أن عصبته تشاركه في أداها ، وهي ملزمة في ذلك غير مخيرة .

وإن هذا بلا ريب يربي في القبيلة والأسرة شعوراً بالتعاون لمنع الجريمة لكيلا يكون غرماً عليهم ، إذ أن شعور كل واحد من القبيلة بأنه ملزم بجزء من الدية في كل جرم يرتكبه واحد منها يدفعه إلى الحرص على تجنب ذلك ، ومنع غيره من ارتكاب ما يؤدي إلى هذا الغرم المالي ، وهكذا تتضافر القوى كلها على منع الإثم ، والتشجيع على البر ، فيكون الخير عمياً ويختفي الشر ، ولا يظهر .

١٦ — هذه صور واضحة للمجتمع الإسلامي الصغير ، وعمل الإسلام على النهوض به بالتآخي بين آحاده ، ثم التعاون على العمل الجدى المنمّر ، ثم بالتهذيب وبث روح الدين والأخلاق الفاضلة الكريمة التي تربط القلوب ، وتوحد النفوس ثم بتطهير المجتمع من الآثام ، ومنع الظلم مطلقاً ، فإن الظلم أقمع خلائق الإنسان وأكثرها جمعاً للشر .

ولو أن المجتمعات الصغيرة قامت على هذه المبادئ في عصرنا لكانت أهدى سبيلاً ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

صَلَاةُ التَّرَاوِيحِ

لسماعة العلامة الأكبر السيد شرف الدين الموسوي - ليناه

التراويح : هي التناقلة جماعة في ليالي شهر رمضان ، وإنما سميت (تراويح) للاستراحة فيها بعد كل أربع ركعات .

ونحن الإمامية لا تفوتنا نوافل رمضان والحمد لله ولكننا تؤديها كما كان يؤديها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتبنا وكيفنا ، عملاً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

وموضوع هذا البحث بيان وجهة نظر الإمامية في الاجتماع على صلاة التراويح : فنقول :

شرع الله الاجتماع في الصلوات الواجبة كالفرائض الخمس اليومية وفي صلاة الاستسقاء والعيد والآيات وعلى الجنائز .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقيم ليالي رمضان بأداء سنتها في غير جماعة ، وكان يحض على قيامها ، فكان الناس يقيمونها على نحو ما رأوه صلى الله عليه وآله وسلم يقيمها .

وهكذا كان الأمر على عهد أبي بكر حتى مضى لسبيله سنة ثلاث عشرة للهجرة (١) وقام بالأمر بعده عمر بن الخطاب ، فصام رمضان من تلك السنة لا يغير من قيام الشهر شيئاً ، فلما كان شهر رمضان سنة أربع عشرة أتى المسجد ومعه بعض أصحابه فرأى الناس يقيمون النوافل وهم ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد وقارئ ومسبح ومحرم بالتكبير ومحل بالتسليم في مظمر لم يرقه ، ورأى

(١) وكان ذلك ليلة الأربعاء لثمان بقين من جادى الآخرة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام .

من واجبه لإصلاحه فسنّ لهم التراويح أوائل الليل من الشهر وجمع الناس عليها حكماً مبرماً ، وكتب بذلك إلى البلدان ونصب للناس في المدينة إمامين يصليان بهم التراويح إماماً للرجال وإماماً للنساء . وفي هذا كله أخبار متواترة .

وحسبك منها ما أخرجه الشيخان في صحيحهما (١) من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قام رمضان - أى بأداء سنته - إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وأنه صلى الله عليه وسلم توفى والامر كذلك - أى وأمر القيام في شهر رمضان لم يتغير عما كان عليه قبل وفاته صلى الله عليه وسلم - ثم كان الامر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدرأ من خلافة عمر ا هـ .

وأخرج البخارى في كتاب التراويح أيضاً من الصحيح عن عبد الرحمن ابن عبد القارىّ (٢) قال : خرجت مع عمر ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون . إلى أن قال : فقال عمر : إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد كان أمثل ، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب [قال] ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم . قال عمر : نعمت البدعة هذه . الحديث .

قال العلامة القسطلانى في أول الصفحة الرابعة من الجزء الخامس من إرشاد السارى في شرح صحيح البخارى عند بلوغه إلى قول عمر في هذا الحديث : نعمت البدعة هذه . ما هذا لفظه : سماها بدعة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنّ

(١) فراجع من صحيح البخارى كتاب صلاة التراويح ص ٢٣٣ من جزئه الأول .
وراجع من صحيح مسلم باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح من كتاب صلاة المسافرين وقصرها ص ٢٨٣ والتي بعدها من جزئه الأول .

(٢) عبد القارى بن تونين عبد وتشديد ياء القارى نسبة إلى قاة وهو ابن ديش بن منعم ابن غالب المسدنى . كان عامل عمر على بيت المال وهو حليف بنى زهرة . روى عن عمر وأبى طلحة . وأبى أيوب . وأبى هريرة . وروى عن ابنه محمد ، والزهرى ، ويحيى ابن جعدة بن هيرة . مات سنة ثمانين . وله ثمان وسبعون سنة .

لهم الاجتماع لها ، ولا كانت في زمن الصديق رضى الله عنه . ولا أول الليل ، ولا هذا العدد الخ . وفي تحفة البارى وغيره من شروح البخارى مثله فراجع .

وقال العلامة أبو الوليد محمد بن الشحنة حيث ذكر وفاة عمر في حوادث سنة ٢٣ من تاريخه - روضة المناظر - : هو أول من نهى عن بيع أمهات الاولاد وجمع الناس على أربع تكبيرات في صلاة الجنائز ، وأول من جمع الناس على إمام يصلى بهم التراويح . الخ . ولما ذكر السيوطى في كتابه - تاريخ الخلفاء - أوليات عمر نقلا عن العسكرى (١) قال : هو أول من سمى أمير المؤمنين ، وأول من سنّ قيام شهر رمضان - بالتراويح - وأول من حرم المنعة ، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات . الخ . وقال محمد بن سعد - حيث ترجم عمر في الجزء الثالث من الطبقات - : وهو أول من سنّ قيام شهر رمضان - بالتراويح - وجمع الناس على ذلك ، وكتب به إلى البلدان ، وذلك في شهر رمضان سنة أربع عشرة ، وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئا يصلى التراويح بالرجال ، وقارئا يصلى بالنساء . الخ ...

وحسبنا في حكمة عدم تشريع الجماعة في سنن شهر رمضان وغيرها : انفراد مؤديها - جوف الليل في بيته - بربه عز وعلا يشكو إليه بثته وحزنه ، ويناجيه بمهماته مهمة حتى يأتى على آخرها ملحا عليه ، متوسلا بسعة رحمته إليه ، راجيا لاجئا ، راغبا راغبا منيا تائبا ، معترفا لائذا عائذا ، لا يجد ملجأ من الله تعالى إلا إليه ، ولا منجى منه إلا به .

لهذا ترك الله السنن حرة من قيد الجماعة ليتزودوا فيها من الانفراد بالله ما أقبلت قلوبهم عليه ، ونشطت أعضاؤهم له ، يستقل منهم من يستقل ، ويستكثر من يستكثر ، فإنها خير موضوع ، كما جاء في الاثر عن سيد البشر . أما ربطها بالجماعة فيجد من هذا النفع ، ويقبل من جدواه .

(١) العسكرى هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى يكنى أبا هلال القنوى ، له كتاب الأوائل فرغ من تأليفه يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥ .

أضف إلى هذا أن إعفاء النافلة من الجماعة يمسك على البيوت حفظها من البركة والشرف بالصلاة فيها ، ويمسك عليها حفظها من تربية الناشئة على حبها والنشاط لها ، ذلك لمكان القدوة في عمل الآباء والامهات والاجداد والجدات ، وتأثيره في شدّ الأبناء إليها شدّاً يرسخها في عقولهم وقلوبهم ، وقد سأل عبد الله بن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أفضل : الصلاة في بيتي أو الصلاة في المسجد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ألا ترى إلى بيتي ما أقربه من المسجد فلأنّ أصلى في بيتي أحبّ إلىّ من أن أصلى في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة . رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه كما في باب الترغيب في صلاة النافلة من كتاب الترغيب والترهيب للإمام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذرى ، وعن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : صلوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة ، رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم . وعنه صلى الله عليه وسلم قال : مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت ، أخرجه البخارى ومسلم وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجمل لبنته نصيباً من صلاته ، وإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً . رواه مسلم وغيره ورواه ابن خزيمة في صحيحه بالإسناد إلى أبي سعيد . والسنن في هذا المعنى لا يسعها هذا الإملاء .

لكن الخليفة قصد بما أمر به إلى التنظيم وجمع الناس ؛ فإنه رجل تنظيم وحزم ، وقد راقه من صلاة الجماعة ما يتجلى فيها من الشعائر بأجلى المظاهر إلى ما لا يحصى من فوائد الاجتماعات التي أشبع القول فيها علماءنا الأعلام بمن عالجوا هذه الأمور بوعى المسلم الحكيم .

وأنت تعلم أن الشرع الإسلامى لم يهمل هذه الناحية ، بل اختص الواجبات من الصلوات بها ، وترك النوافل للنواحي الأخر من مصالح البشر .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم ونصرتهم

لحضرة صامب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرف
عضو جماعة كبار العلماء

- ٣ -

كتبنا في مقال سابق سببا واحداً من أسباب تفرق المسلمين ، وتصدع وحدتهم واختلافهم على أنفسهم ، فبعد أن كانوا أمة واحدة أصبحوا أمماً مختلفة بناوى بعضها بعضاً ، وهذا السبب هو سبب طبيعي ، وهو أنهم دانت الأرض لهم ، وسقطت المقاومة الخارجية فأصبحت مقاومتهم داخلية يقاوم بعضهم بعضاً ، ويحذر بعضهم بعضاً ، وذهبت تلك الحوافز التي تجمع القلة لدفع الخطر الخارجي وبينما أن ذلك السبب وإن كان طبيعياً فإنه يمكن التحرز منه بالفطنة له وإتقاء غوائله ، وأنه في هذا الزمن قد زال ، فإن أمماً كثيرة قد تنهت ، وضربت في الحضارة بسهم وافر ، وتقدمت في العلوم والمعارف ، وتغلبت على الأمم الإسلامية ، وملككت بلادها ، واستولت على خيراتها ، وأصبحت المقاومة الخارجية موجودة ولا يحتاج الأمر إلا إلى التنبه لها ، وتوجيه المقاومة نحوها .

وفي هذا المقال نذكر سبباً آخر لتفرق المسلمين وتصدعهم وهو سبب صناعي لا طبيعي ، وإن الحادثة الآنية التي رواها الطبري في تفسيره تبين لنا هذا السبب :

روى أبو جعفر بسنده عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية ، أي كبر ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفهم

وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال :
 قد اجتمع ملائكة بنى قبيلة هذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤم بها من قرار ،
 فأمر فى شابا من اليهود - كان معه - فقال : أعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم
 بعث وما كان قبله ، وأنشدكم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار - وكان
 يوم بعث يوما اقتتل فى الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج -
 ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين
 على الركب فتناولوا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم واقه رددناها الآن جذعة
 وغضب الفريقان وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح ! موعدكم الظاهرة ١ - والظاهرة :
 الحرة - فخرجوا إليها وتحاور الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ،
 والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية ، فبلغ ذلك
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه
 حتى جاءهم ، فقال : يا معشر المسلمين الله الله أبدوى الجاهلية - وأنا بين أظهركم
 بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم
 به من الكفر وألف به بينكم - ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ١٢ فعرف القوم
 أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا
 وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله ، شاس
 ابن قيس ، وما صنع ، فأُنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع قوله عز وجل :
 « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل
 الكتاب لم تصدوني عن سبيل الله من آمن ببغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله
 بغافل عما تعملون ، يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب
 يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم
 رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ؟ » .

من ذلك يعلم أن الإخوة الإسلامية من قديم جداً ، من عهد النبي صلى الله

عليه وسلم كانت غرضاً لأعداء الإسلام والمسلمين يرمونها بسهامهم ليضعفوا منها ، وإنهم ليتوصلون إلى ذلك بالحيل الغامضة والمداخل الخفية .

وقد ألحت الشعوب المغلوبة في هذا الكيد الخفي لما رأت أن مقاومتها قد سُلبت ، وإنها لا تستطيع أن تقاوم المسلمين غلباً واقتساراً ، فرأت أن تلجأ إلى مقاومتهم من طريق الخدياع والمكر - كذلك الأمم التي لم تفتح ولكنها تعادى الإسلام والمسلمين إما عداوة دينية وإما عداوة دنيوية لأنها كانت تملك جزءاً عظيماً من إفريقية أو آسيا فأجلاها عنها المسلمون فهذه أيضاً كانت تقاوم المسلمين بالحيلة والمكر والدهاء .

كان في هؤلاء وهؤلاء علماء اجتماع يعلمون أسباب رقي الأمم وأسباب انحطاطها وقد درسوا الأمة الإسلامية فرأوا أن أهم الأسباب في رقيها يرجع إلى الأخوة الإسلامية ، فقد كان في العرب قبل الإسلام فضائل الأمم البدوية من الشجاعة وعزة النفس والحرية والمخاطرة بالنفس ، وكان السبب في وجود ذلك فيهم البداوة وعيشتهم التي كانت مبنية على الغارة والسلب ، فكانوا مضطرين إلى تعلم الحرب ومعرفة كيف يدافعون عن أنفسهم ، وكيف يغيرون على غيرهم ، وقد مكن لحلق الشجاعة فيهم أنهم لم يملكوا فلم تُضعف شجاعتهم معاناة التسلط عليهم ، ولم يَفْلَحْ حُدُومُ ظلم ولا استبداد ، فكانوا كالأسيود الطليقة فيها ما فيها من قوة وشجاعة وإباء - كل ذلك كان فيهم ، ولكنهم لم يكن لهم تاريخ لأن شجاعتهم كانت عليهم لا لهم ، فكانوا غير مترابطين : يعادى بعضهم بعضاً ، ويغير بعضهم على بعض ، فلما جاء الإسلام أراد أن يحول هذه القوة وهذه المقاومة من الداخل إلى الخارج ، وعلم أنه إذا وُحِّدَهم وآخى بينهم ، وجمعهم فلا أحد أعز منهم ، فبث فيهم الأخوة الإسلامية ، واستفاد من شجاعتهم الموروثة في دفع الأعداء وفتح البلاد ، كل ذلك كان معلوماً للعلماء الباحثين فجعلوا الأخوة الإسلامية غرضاً يُرمى ، وسلطوا عليها نباهم ليزيلوها أو يضعفوها فلا تؤثر نتائجها من التغلب والفتح والدفاع ومقاومة الغازين والمغيرين .

لبسوا لهم لباس الناصح الأمين ومشوا بينهم بالنيمة وصاروا يخيفون بعضهم من بعض ، والمسلمون لسذاجتهم لم يفظنوا إلى هذه المداخل فصدقهم فنشبت بينهم العداوات والحروب وتقطعت الأواصر :

شواجر أرماع تُنْقَسَطع بينهم شواجر أرحام ملومٍ قَطُوعُها
تُقتل من وترٍ أعزَّ نفوسها عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعها

وإن المرء إذا درس تاريخ ملوك الطوائف بالاندلس رأى فيه صورة لما كان يحدث بين المسلمين ، فقد استقل كل ملك بناحية ، وكانت تقع بينهم الحروب فيستعين المغلوب على الغالب بملوك الفرنجة ، وكانوا يعينونهم ليضعفوا الغالب فيسهل عليهم غلبه ، وكانوا إذا اشتدت عليهم شوكة الفرنجة تطلعون إلى ملوك المسلمين بالمغرب ، واستشفعوا بالآخوة الإسلامية فكانت تارة تعينهم وتارة تخذلهم : لقد استجار ملوك الطوائف بملوك المغرب فأغاوثهم وجهزوا لهم جيشاً من شمال إفريقيا ، فعبر البحر ، وقاتل الفرنجة حتى هزمهم وفرّج الكرب عن سكان الاندلس من المسلمين ، وكانت هذه الإخوة - أحياناً - تضعف فلا ينهض المسلمون لنجدة إخوانهم في الاندلس حتى استولى الفرنجة على بلاد الاندلس وأجلاوا المسلمين عنها ومن بقي تنصر وفارق دينه ليستطيع العيش مع الفاتح الجديد ، وإن قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الاندلس تشير إلى ما قلناه ، وهي التي يقول فيها :

هل عندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز لإنسان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها وما لها مع طول الدهر نسيان
فيم التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله لإخوان

وهي قصيدة طويلة يجب أن تدرس في جميع مدارس المسلمين لتعرفهم قيمة الآخوة الإسلامية إذا حوفظ عليها ومقدار خسارة المسلمين إذا لم يحافظوا عليها . إن أقل ما يصيبهم من خسارة أن تقطع بلدانهم بلداً بلداً ، وقطراً قطراً ، ثم يتبع

ذلك التشتيت تحت كل نجم وفوق كل أرض ، أو البقاء تحت الأسر والذلة وتحكم العدو وقبول كل ما يمليه عليهم حتى مفارقة الدين والخروج من زمرة المسلمين .

وإذا كان لا بد لي أن أختم هذا المقال بكلمة أوجهها إلى المسلمين في جميع أقطار الأرض فإني أقول ؛ هذه الأخوة الإسلامية ، وهذا تاريخ الإسلام ، أقرموه تجدوها قد لعبت دوراً عظيماً ، بل كان لها الدور الرئيسي وجوداً وعدماً ، فإذا وجدت وقويت كأنت عزاً ومنعة وإذا ضعفت كان الضعف والانحلال والموت والزوال ، فأحيوها 'تحياهم' ، وابعثوها تبعثوا حضارتكم ، أو على الأقل تحفظوا بلادكم ، وتنجوا من الهوة الفائرة فاما لتبتلعكم .

هذه الأخوة الإسلامية هي قوام وجودكم فانظروا أين تضعونها وفي أي مكان تكون .

إنه يجب ألا يخذلكم عنها خادع ، ولا يسلبها منكم سالب ، واعلموا أن الناس يلبسون لكم لباس الأصدقاء ويسعون بالنيمة بينكم ، فيخيفون هذا من ذلك ويحذرون ذلك من هذا حتى تظنوا أن كلا يتربص بكم ليقتلكم ، وتذكروا قول ذلك الشاعر العربي القديم :

واعصوا الذي يُزجى النيمة بينكم متصحا وهو السهام المنقع

أيها المسلمون لا تظنوا أن شاس بن قيس قد مات ووقاكم الله شره ؛ فإنه لا يزال حياً بينكم ينفث فيكم سمومه ، يفرق بها كلمتكم ، ويمزق بها وحدتكم ، وهو إن لم يكن موجوداً بينكم بذاته فهو موجود بخلاله وصفاته ، تلقونه حيثما كنتم ، وترونه حيثما توجهتم يوجب بينكم نار العداوة والبغضاء ، ويوقظ الفتن النائمة والاحقاد الهاجعة .

أيها المسلمون آية من كتاب الله إن تذكرتموها وقششكم ، وإن عملتم بها عصمتكم : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

الأصول الثلاثة والأخوة في الدين

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنبة

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

إن الإسلام بعقيدته وشريعته وسائر تعاليمه يعبر عن روح الفطرة الصافية الخالصة من أعراض التربية والمحيط ، فمن أراد أن يثبت أصلاً من أصول الإسلام ، أو حكماً من أحكامه فلا يضطر إلى التكلف واستخدام الأشكال والأفيسه التي لا تؤدي - في الغالب - إلى الطمأنينة ، وارتياح النفس ، وقد رأينا أثرها في تشويش الأذهان وتضعب الآراء والمذاهب ، لذا اكتفى القرآن الكريم ، فيما يتعلق بالعقائد ، بذكر الشواهد البديهية تُرجع الشاك والذاهل إلى فطرته الأولى .

ونذكر في هذا المقام بعض ما جاء في الكتاب العزيز شاهداً على الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، ورسوله ، واليوم الآخر ، فنستدل على وجود الله سبحانه بما اعتبره هو دليلاً على وجوده . وعلى نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويوم البعث بنفس الدليل الذي خاطب الله به الجاحدين والمعاندين ، وألزمهم به الحجة البالغة ، وإذا لم يقتنع المكابر بحجة الخالق ، فأولى أن لا يقتنع بقول المخلوق .

الأصل الأول :

الإيمان بالله ، والدليل عليه الآية ١٩٠ من آل عمران : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب » ، ونقدم للمأريء المثل التالي ، ومنه يتضح وجه الدلالة :

إذا رأيت حجراً ملقى في الطريق بصورة طبيعية ، ولا أثر فيه لإنسان ، قلت وجد هذا الحجر هنا صدفة ، أما إذا رأيت حجراً منحوتاً نحاً فنياً ، ويرتكز على الطين بصورة فنية ، فإنك تقول : إن لهذا العمل فاعلاً مريداً ، لأن عقلك لا يتصور وجود حجر كهذا صدفة ، نعمته ، وامتزاج الكلس والرمل والماء حتى صارت طينا ، ثم تركيزه بشكل فني ، لا يتصور عقلك أن ذلك كله حصل من باب التفاعل والمصادفات ، فأولى أن يدل لإحكام الكون ونظامه واتقانه على وجود خالق عالم حكيم .

الأصل الثاني :

نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتدل عليه الآية ٢٣ من سورة البقرة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

وجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى طلب من الجاحدين أن يعارضوا بمثل سورة من القرآن الذي أنزله على نبيه ، وقرن هذا التحدى بالاستفزاز ، حيث أكد لهم أنهم لن يفعلوا أبداً ، وفي هذا دلالة ثانية تضاف إلى عجزم ، فقد حاولوا واجتهدوا ، ولما عجزوا قالوا : ساحر ومجنون ، وهو جواب العاجزين والمكابرين في كل عصر ومصر ، هذا ، وقد عاش محمد في قومه عمراً طويلاً لم يعرفوا فيه إلا الخير والصدق والعزوف عن الباطل ، حتى لقبوه بالصادق الأمين ، ولا ريب أن أعرف الناس بالإنسان قومه وخطاؤه الذين عاشروه صغيراً وكبيراً ، وساعة غضبه ورضاه ، وعسره يسره .

الأصل الثالث :

يوم القيامة ، وتدل عليه الآية هـ من سورة الحج : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نَّفْثَةٍ ثُمَّ مِّنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مَّضْغَةٍ مَّخْلُوقَةٍ وَغَيْرِ مَخْلُوقَةٍ . »

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسلوب البعيد عن الاستعلاء والإلزام ، القريب إلى كل قلب ، فبعد أن سألهم هل داخلهم الشك لفت نظرهم إلى إنشائهم وابتداء خلقهم ، وكيف أوجدهم من العدم ، وانتهى بهم إلى نتيجة لا يسعهم إلا التسليم بها والإذعان لها ، هي أن من يقدر على إيجاد المعدومات فهو على إعادة الموجودات وجمعها بعد تفريق أجزائها أقدر ، ابتداء معهم من الخطوة الأولى ، خطوة الشك ، وهي بداية الحرية العقلية ، وانتهى بهم إلى اليقين والطمأنينة .

العبادة :

إن هذه الأصول هي أركان العقيدة الإسلامية ، فمن لم يؤمن بواحد منها جهلاً أو عناداً فليس بمسلم إلا أنها ليست بكل شيء ما لم تبرز خصائصها وآثارها في عمل الجسم يكون انعكاساً للإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ولهذا الانعكاس الديني مظاهر شتى ، منها العبادة ، ويستقل الوحي بتشريعها وتحديداتها حكماً وموضوعاً ، ويفسدها العجب والرياء ، وكل غرض من أغراض الدنيا ، ولا تصح إلا بدافع التقرب والإخلاص لله تعالى ، فهي له وحده سبحانه ، لذا قرنها الله في كتابه بالإيمان به ، بل جعلها مع الأصول الثلاثة الفارق والمميز بين المسلم وغير المسلم .

الآخوة في الدين .

حدد الله سبحانه الآخوة الدينية في الآية ١١ من سورة التوبة : « فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ . »

قال المفسرون : إن التوبة هنا ترك الشرك ، إذن الأخوة في الدين لا تناط بالرجوع إلى مذهب من المذاهب ، ولا بقول فقيه عظيم ، وشيخ قديم ، ولا بالاتفاق على مسائل الزواج والطلاق والإرث والهبة والبيع والإجارة ، ولا بجواز المسح على الخفين ، أو التكتف في الصلاة ، وإنما تناط بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

وهذا : بالأصول الثلاثة والعبادة تتحقق الجامعة الدينية بين كافة المسلمين ، ومن دخلها كان مسلماً ، سواء أكان شرقياً أم غربياً ، عربياً أم أعجمياً ، سنياً أم شيعياً ، ومن فرق بين اثنين من أبناء هذه الجامعة ، وأقام بينهما الحواجز والحدود فقد صد عن سبيل القرآن ، واتبع خطوات الشيطان .

وبالتالى فإن معنى التقريب بين المذاهب الإسلامية هو إعلان هذه الحقيقة التى نطق بها القرآن ، والدعوة إليها ، والتنبيه إلى أن أى قول أو فعل يخالفها فهو خطأ يضر بصالح الإسلام والمسلمين .

ليكورغوس

والحسديون

وأبو ذر الغفاري

للمفسرة الأستاذ الدكتور علي عبد الواسع وافي

لم يخل عصر ما من ظهور آراء ونظم متطرفة في الثروة ، وما ينبغي أن يكون عليه توزيعها بين الناس ، وكان من أشهر من حل لواء الدعوة إلى هذه الآراء والنظم في العصرين القديم والوسيط المشرع اليوناني ليكورغوس (في القرن التاسع ق م) ، وجماعة الحسديين في بني إسرائيل (في القرن الثاني ق م) وأبو ذر الغفاري في صدر الإسلام (منتصف القرن السابع الميلادي) .

وقد اختلفت هذه الاتجاهات الثلاثة اختلافا كبيرا في مبلغ حظها من النجاح ، فأتيح لأولها وهو نظام ليكورغوس أن يأخذ طريقه إلى التطبيق في دولة من أشهر دول اليونان القديمة وهي إسبرطة ، وظلت هذه الدولة مترسمة قواعد هذا النظام في معظم أدوار تاريخها القديم ؛ وأتيح لنظام الحسديين أن يطبق في نطاق ضيق محدود ، وهو نطاق جماعتهم وحدها ، وفي مواطن منعزلة عن الناس ؛ بينما لم يتح لدعوة أبي ذر الغفاري شيء من النجاح ، بل لاقى صاحبها في سبيلها كثيرا من ضروب العنت والاضطهاد .

* * *

أما نظام ليكورغوس فكان نظاماً اشتراكياً متطرفاً ، فقد ألغى هذا المشرع الملكية الفردية للأرض ، وأعاد تقسيم أرض لاكونيا (وهي المقاطعة التي كان يسكنها قبائل الدوريين ، والتي اشتهرت باسم عاصمتها إسبرطة) إلى ثلاثين ألف قطعة متساوية القيمة بعدد الأسرات الإسبرطية في ذلك الحين ، وأعطى كل أسرة

قطعة منها . فأصبحت ملكية الأرض جماعية ، وأصبح جميع الأسرات سواسية كأسنان المشط . وجعل للدولة نفسها - أى المجتمع العام - نصيباً كبيراً من غلة الأرض ودخل الناس في مختلف مظاهر الإنتاج . وفي مقابل ذلك تنفق الدولة على جميع الشئون العامة وأعمال الحرب ، وتأخذ على عاتقها تربية جميع الأطفال الذكور ، وتنشئهم تنشئة عسكرية على نفقتها وفي دورها الخاصة ، فكان كل وليد من الذكور يختبر بنيته وقواه الجسمية على يد أمه أولاً ، وعلى يد رؤساء عشيرته ثانياً . فإن كان ضعيفاً أو مشوها أعدمته أمه نفسها أو قذف به رؤساء عشيرته خارج الحدود ، وكانت الأم تلجأ إلى مختلف الوسائل لتحقيق هذه الغاية ، فللتأكد من صلاحية ابنها للحياة كانت تغمسه عقب ولادته في دن من النبيذ وتركه مغموساً وقتاً ما : فإن عاش بعد ذلك دل هذا على قوة بنيته واستحقاقه للتربية ؛ وإن مات أدت الأم واجها نحو المجتمع بأن خلصته من كائن ضعيف لا يستحق الحياة في نظره ، وكان يعهد بحضانة الغلام إلى أمه تحت إشراف الدولة نفسها ، حتى إذا تجاوز سن الحضانة تسلمته الدولة وقامت بتربيته تربية عسكرية وإعداده لشئون الحرب في معسكرات عامة ، وعن طريق مربين ومعلمين ومدربين من الجيش ، فإذا بلغ سن الجندية التحق بالجيش العامل ، وظل به حتى يبلغ السن التي لا يقوى فيها على مباشرة أعمال الحروب ، وهكذا كانت دولة لإسبرطة كلها أشبه شيء بمعسكر محارب أو متأهب للحرب ، ومن ثم خضعت جميع نظمها الاجتماعية في مختلف شئون حياتها لمقتضيات الحروب ، فكان نظامها الاقتصادي أدنى إلى ما نسميه الآن بالنظام الشيوعي : تملك الدولة بمقتضاء قسمها كبيراً من ثروات البلد ومنتجاته ودخله ؛ وتقوم هي نفسها بتربية قسم كبير من أهله وتسخيرهم في شئونها العامة .

وأنشأ ليكورغوس بجانب ذلك نظام « الموائد الجمعية » ، ويقوم هذا النظام على تناول الرجال الأطعمة في جماعات صغيرة تتألف من خمسة عشر شخصاً على نظام العشائر ، ولكل جماعة ردهة خاصة تتناول فيها طعامها ، وكان على كل مشترك أن يدفع كل شهر إلى المخزن الجمعي اشتراكاً عيانياً من الدقيق والنبيذ والجبن والتين

واشتراكا نقدياً لإعداد المائدة وشراء ما يلزم لطهوها وتكلفتها من المواد الأخرى وكان يجب على كل إسبرطى الاشتراك في هذه الموائد وحضورها ، فإما كان يسمح لأحد ، كما يقول بلوطارخوس : « أن يسمن وحده خفية وفي الظلام كما تفعل البهائم الجشعة » ، وحتى الملوك أنفسهم كانوا ملزمين بذلك . فالملك أجيس عند ما عاد منتصراً من إحدى غزواته ضد الأثينيين لم يستطع الحصول على إذن بتناول عشاءه في منزله مع زوجته . وكان كل إسبرطى يتخلف عن تقديم اشتراكه العيني أو النقدي في هذه الموائد مجرد من جنسيته ويفقد حقوقه الوطنية ، وقد قصد ليكورغوس من هذا النظام ، كما يقول المؤرخ بلوطارخوس : « أن يأخذ مواطنيه بالمعيشة الجمعية ، وينفهم من حياة العزلة ، ويجعلهم متساكين متحدين كالبنيان المرصوص ، متضافرين على الصالح العام كجماعات النحل » ، ولتحقيق هذا الغرض على أكمل وجه كان الإسبرطيون يؤخذون بالتقشف والحياة الحشنة ، وتحرم عليهم مظاهر الترف والنعيم .

وقد شاع في إسبرطة في هذا الصدد تقليد غريب ، فقد كان يباح - بحسب نظم ليكورغوس - للأحداث والشبان السرقة من المخازن العامة المملوكة للدولة ومن غيرها . بل كانوا يشجعون على ذلك ، لما تنضمه هذه المغامرات من تدريب على أعمال الحرب ، وتدريب على ما يلزم للجندي في ساحة القتال من مهارة وخدعة وسرعة حركة ، ومواجهة لما يطرأ من مفاجآت لم تكن في الحسبان ، وكان الشاب السارق لا يعاقب إلا إذا قبض عليه وييده الشيء المسروق قبل أن يتمكن من إخفائه ، وكان لا يعاقب في الحقيقة على السرقة نفسها ، وإنما كان يعاقب لعدم مهارته في اقترافها وإحكام وسائلها ، ولذلك كان الشبان يحرسون أيما حرص على بجاح سرقتهم ، وكانوا يعانون في ذلك أحياناً عنتاً كبيراً ، حتى إنه ليرى أن شاباً إسبرطياً سرق ثعباناً من حظيرة عامة ، وبينما كان يقوده إلى حيث يريد إخفائه إذ لمح جماعة في طريقه ، فأخفى الثعبان في داخل ثيابه حتى لا تتكشف سرقة ، فأنشب الثعبان أظافره وأنيابه في جسمه ، وظل الشاب متجلاًداً لمصابه

فلم تبدر منه أية بادرة تنم على ألم أو توجع حتى مرّ بالجماعة بدون أن تظن لفعلته . وهكذا نجحت مغامرته ؛ ولكن نجاحها كان على حساب حياته ؛ فقد مات عقب ذلك متأثراً بجراحه .

* * *

وأما جماعة الحسدبين Esséniens فكانت إحدى فرق ثلاث انقسم إليها اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد (١) . وقد نددت هذه الجماعة بنظام الملكية الفردية وما يجره هذا النظام على المجتمع من نتائج وخيمة ، ونادت بالملكية الجماعية ووجوب المساواة بين الناس وأن يعيش العالم في سلام دائم ، وحاربت البذخ والترف والحياة الناعمة التي كان يحياها الأغنياء ، ودعت إلى الزهد والتقشف ، وطبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلي ، وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ، وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكاً جماعياً شائعاً يحفظ ما يزيد منه عن الحاجة العاجلة في مخازن عامة ، ويشرف على شئون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريق الانتخاب العام المباشر ، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه . وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكاً جماعياً ، وتركوها في كل قرية من قرائم مفتحة الأبواب لكل « رفيق » من جماعتهم ، سواء أكان من أهل القرية أم كان قادماً من خارجها ، وكما ألغوا الملكية

(١) انقسم بنو إسرائيل من الناحية الدينية إلى ثلاث فرق : فرقة القروشيين (فروشم Pharisiens) ؛ وفرقة الصادوفيين (صادوفيم Saducéens) ؛ وفرقة الحسدبين (حسدیم Esséniens) . ومعنى « حسدیم » الشفقون (الياء والميم علامة الجمع في العبرية) . وقد امتازت هذه الفرق عن سائر فرق اليهود في الشؤون الدينية بالإكثار من الفضل والصوم وتحريرهم تقديم الأضحية والقرايين . هذا ، وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرق عن طريق ما كتبه فيلون الفيلسوف Philon ويوسف المؤرخ Joseph ؛ وكلاهما من رجال القرن الأول الميلادي .

الفردية فيما بينهم ألغوا كذلك نظام الرق : لجميع أفراد جماعتهم كانوا أحراراً متساوين ، وقد حرموا على أنفسهم الاشتغال بالتجارة لما تبعته في النفوس من جشع وحرص على جمع المال وجنوح إلى ابتزاز أموال الناس . ويذكرنا هذا بما يذهب إليه ابن خلدون إذ يقرر : « أن أخلاق التجار نازلة عن خلق الأشراف » (١) . وحرموا كذلك على أنفسهم الاشتغال بصناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التي تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم . وهو أن يعيش العالم في سلام دائم . ولذلك اقتصر أعمالهم على الزراعة والصيد وما يحتاجان إليه ويتصل بهما من صناعات . واقتضت مبادئهم في النقش والزهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة واقتناءهما والتعامل بهما . وبالغ معظمهم في تطبيق هذه المبادئ فحرموا على أنفسهم الزواج .



وأما أبو ذر الغفاري فقد بدأ دعوته الاشتراكية في الشام أيام كان معاوية ابن أبي سفيان والياً عليها من قبل عثمان . فقد هاله ما كان يفعله معاوية إذ يحتج بأموال المسلمين لنفسه يصرفها على أهله وخدمه وحراسه وأهله وما كان يظهر به من عكاكة القياصرة والملوك ، وما وصل إليه حال الأغنياء من الترف والبذخ واقتناء القصور والضياع واكتناز الأموال وإغفال حقوق السائلين والمحرومين في أموالهم . فهبّ يندد بهذه الحال ، ويبين مبلغ انحرافها عن مبادئ الإسلام ، ويدعو الناس كافة إلى الزهد في الدنيا ، والعزوف عن ماديات الحياة ، ويدعو الأغنياء خاصة إلى أن يتفقوا جميع ما فضل من أموالهم عن ضروريات حياتهم في سبيل الله والبرِّ بالفقراء والمساكين وذوى الحاجة ، وينهاهم عن الترف والسرف واكتناز الأموال والترفع على المستضعفين والفقراء من الناس ، ويدعو الولاة إلى أن يلتزموا حدود الله فيما يصل إلى بيت المال فينفقوه في مصارفه التي فرض الله ورسوله أن تنفق فيها ، ويعمل جاهداً على الرجوع بالمجتمع الإسلامي إلى ما كان عليه في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر وعمر .

ولم تشتمل دعوة أبى ذر هذه على إفراط ولا مبالغة إلا من ناحية واحدة .
وذلك أنه كاد يوجب على الأغنياء أن يتفقوا جميع ما فضل من أموالهم عن
ضروريات حياتهم فى سبيل الله وسد حاجات المعوزين ؛ على حين أن الإسلام
قد حثَّ إلا الناس هذا المسلك ، ولكنه لم يوجه عليهم إيجاباً ؛ بل يعتبر المسلم
مؤدياً لواجبه المالى ما دام لم يقصر فيما فرضته الشريعة أو أوجبته من زكاة
وضرائب وصدقات ونفقة على الأهل .

بيد أن هذا ، كما لا يخفى ، هو أضعف الإيمان . ومن بعده منازل رفيعة فى
الإسلام تتدرج فى سموها وقربها إلى الله حتى تصل إلى المثل الأعلى الذى حث عليه
بو ذر الغفارى وأوحت به إليه روح الإسلام .

وقد أخطأ كثير من الباحثين إذ عدوا دعوة أبى ذر الغفارى والدعوات
المشبهة لها فى الإسلام اتجاهات شيوعية . والحق أنها والشيوعية على طرفى نقيض
فهذه الدعوات ، إذ تحث الملاك على أداء زكاة أموالهم وعلى البر بالفقراء ، تعمل
بذلك على تثبيت الملكية الفردية وحمايتها من كل ما يهددها من ثورة أو انتقاص
من جانب الفقراء والمحرومين ، وعلى انقفاء الصراع بين الأغنياء والفقراء ؛ على
حين أن الشيوعية تعمل على إلغاء مبدأ الملكية الفردية نفسه ، وتنادى بحمل
الملكيات كلها ملكيات جماعية ، وتمهد لذلك بإثارة الصراع بين الطبقات . من
أجل ذلك تعتبر هذه الدعوات السمحة من ألد خصوم الشيوعية ومن أشد
ما يوضع فى سبيل انتشارها من معوقات .

هذا ، ولم يتح لدعوة أبى ذر رضى الله عنه شيء من النجاح ، بل لاقى صاحبها فى
سبيلها كثيراً من ضروب العنت والاضطهاد ، وانتهى الأمر بأن ضاق معاوية
ذرعاً به وبدعوته ، فكتب بشأنه إلى الخليفة يستعديه عليه ، فطلب إليه عثمان أن
يبعث به إليه فى المدينة . ولما لم يستطع عثمان نفسه أن يمنعه عن متابعة دعوته نفاه
إلى الرِّبْدَةِ فأقام بها حتى وافاه أجله وهو أشد ما يكون إخلاصاً لدعوته وأسفاً
على ما آل إليه حال المسلمين ؟

الْحُرِّيَّةُ الْفِكْرِيَّةُ فِي الْبَيْنِ فِي الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ الْهَجْرِيِّ

للمؤلف الفاضل القاضي محمد بن اسماعيل العمراني

المدرس بدار العلوم العليا بصنعاء اليمن

— ٢ —

أ نموذج من روح العلم البيني في أواخر القرن الحادي عشر :

وها كم أ نموذجاً من حركة النهضة العلمية البينية ذات الحرية الفكرية والاجتهاد المطلق في أواخر القرن الحادي عشر من الهجرة ، وهو كتاب : « العلم الشاخ » في إثبات الحق على تقليد الآباء والمشايع ، للشيخ صالح المقبلي البيني ، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٠٨٨ هـ ، وهو الكتاب الوحيد الذي قد أخرجته المطبعة من مؤلفات هذا العالم المستقل والمؤلف المتحرر ، ولم يطبع من مؤلفاته القيمة كتاب غيره ، إذا ما استثنينا تلك التعليقات المفيدة التي كان المقبلي نفسه قد علقها بقلمه على نفس هذا الكتاب القيم وأخرجها لقراء كتابه تحت عنوان : « الأرواح النوافع على كتاب العلم الشاخ » ، وقد طبعت هذه التعليقات بجانب أصلها في مطبعة المنار الغراء بالقاهرة منذ سنين عديدة .

(والعلم الشاخ) أكبر مثال لحرية عالمنا المقبلي الفكرية وشجاعته العلمية ، وأ نموذج لمؤلفاته القيمة التي هي أكبر مثال لنهضة العلم باليمن في أواخر القرن الحادي عشر ، تلك النهضة التي قامت على مبدأ الاجتهاد المطلق ، والاستقلال في الفهم ، والحرية الفكرية الحقة .

ونظرة واحدة في كتاب (العلم الشاخ) وما علق عليه مؤلفه المقبل ترينا المقبل مجددا وترينا المقبل مصلحا وترينا المقبل علامة مجتهدا ، وتدلنا على أن المقبل ما كاد يتوسط في دراسته لكتب الدين حتى ننبه لما عليه أهل عصره من الجود على ما عليه آباؤهم وأجدادهم ، وأخذهم جميع ما تركوا لهم من آراء وأقوال في كتب مخصوصة قضايا مسلمة لا يدور حولها نقاش ولا نقد ولا جدال ، نتيجة للتقليد الذي أوجبوه على أنفسهم ، فكان حائلا بينهم وبين الفهم لكتاب الله تعالى ، ولسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا فرق بين مذهب ومذهب ، وبين قطر وآخر ، يناقش مشايخه في كل ما لم يظهر له دليله حتى ولو كان إمام زمانه (المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم) أو محقق عصره (السيد حسن ابن أحمد الجلال) غير ناظر إلى استهزاء المستهزئين ولا كيد الحاسدين كما هو شأن كل مجدد ، وكما هي العادة عند كل مصلح ، كما يراه أيضاً شديداً على هؤلاء المقلدين صارخا بالتبري من التقليد ومن التذهب في غضون أبحاث الكتاب نثراً ونظماً ، داعياً إلى وجوب الاجتهاد على من عرف علوم الاجتهاد المعروفة وشب عن الطوق أو شاب ناهياً عن التقليد من قد استطاع إلى الاجتهاد سبيلا .

وما يكاد القارئ لكتاب (العلم الشاخ) هذا يتوسط في خطبة كتابه حتى يندهش كثيراً حينما يقرع سمعه لإعلان المقبل حريته الفكرية واجتهاده المطلق في أول ما تلمس يده هذا الكتاب ويفتح أول ورقة من أوراقه وفي ثاني صفحة من صفحات هذا الكتاب القيم بشجاعة أدبية وحرية فكرية لا يعدها ذلك العصر الجامد ولا يكاد يعرفها إذ يسمعه يقول : (مبهات لقد أعمى التعصب البصائر وأفسد التذهب السرائر غير أني ذاهب إلى ربى مهدين) . ويسمعه يقول أيضاً : (اللهم إنَّه لا مذهب لي إلا دين الإسلام فمن شمله فهو أخى وصاحبي) . ويقول أيضاً : (إنى برىء من الانتساب إلى إمام معين يكفى أنى من المسلمين فإن سئلت ولم يبق لي من الإجابة بدت قلت مسلم مؤمن) . ثم يراه يقتحم كل لجنة من بحار العلوم الإسلامية العميقة ويخوض تلك البحار خوض الجسور لا الجبان الحدور ويراه قد توغل في كل مشكلة يهاب الدخول فيها غيره من علماء ذلك العصر الذي

ساد فيه الجود . وهجم على كل معضلة يخاف من الهجوم عليها كثير من فقهاء ذلك القرن الذى وجب فيه التقليد وعم فيه الركود وتفحص عن عقيدة كل فرقة من فرق الإسلام . واستكشف كل مذهب مشهور من مذاهب علماء الإسلام وفرق بين الحق والمبطل والمتصف والمنصف وبين الشيعى والسنى وبين المتكلم والشافعى وبين الأشعرى والمعتزلى وبين الفقيه والشافعى وبين المحدث والجدلى وبين صاحب السنة وصاحب البدعة وبين المجتهد والمقلد وبين الدليل وشبه الدليل وهم جرا لا يقال له قول سنى أو شيعى إلا وقد عرف كيفية أسننه أو تشيعه ولا يمر بقول سلقى إلا وقد ظهر له وجه قوله . ولا يذكر كلاما لمنكلم إلا واجتهد فى الاطلاع على غايه كلامه ومآله . ولا يعضى على قول جدلى إلا وقد اتضح له صحة مناظرته وجداله . ولا يسوق كلاما لمعتزلى إلا وقد اتضح له وجه دعواه . ولا أشعرى إلا وقد ظهر له مفهوم كلامه وخفواه ولا يقبل رواية راو من أهل الحديث إلا وقد عرف صحة ما رواه . ولا يقبل رأى فقيه أسطره فى كتابه إلا وقد برهن الفقيه على وجه ما رواه . ولا يعترف لصاحب السنة إلا إذا قد طابق اسمه مسماه ولا يمر عليه رأى لمبتدع إلا أنكر عليه هواه وكفى يشن الغارة على ما يراه فى أقوال الصوفية من البدع فى الدين والمخالفة لنهج سيد المرسلين وهكذا وهم جرا .

كل ذلك استطاعه المقبل بما أوتي من فكر ناضج وعقل راجح وملاكمة راسخة فى العلوم واطلاع واسع فى جميع المعارف وقدم ثابتة فى جميع الفنون وحرية فكرية حققة واستقلال علمى تام واجتهاد مطلق لا يعرفه ذلك العصر مع بيان رائع وأسلوب ساحر وكلام جذاب لذوى العقول والألباب .

أفرايت أيها القارئ الكريم ، هذا الكتاب الذى لا ينتهى الى مذهب غير الإسلام ولا ينسب الى فرقة من الفرق غير شريعة الإسلام ولا يعتزى الى إمام من أئمة العلم غير نبي الإسلام . ولا يعتمد على كتاب غير السنة والقرآن . أخرجه مؤلفه فى عصر أوجبوا فيه التقليد وحمدوا فيه الجود .

وإن هذا العرض الموجز لدليل كاف على ما كنت قلته فى أول مقال هذا

من أن حركة النهضة العلمية اليمنية ذات الحرية الفكرية قد سبقت غيرها في سائر أقطار العالم العربي من هذه الناحية ، والآن سل التاريخ واخبرني واسأل الاسفار وانبقى . سل التاريخ هل احتفظ بكتاب من كتب الدين التي ألقت في العصر العثماني بمائل كتاب (العلم الشايع) استغلالاً واجتهاداً وحرية وانصافاً ، سل الاسفار التي ألقت في هذا العصر الراكد هل يوجد فيها كتاب ديني يقول مؤلفه مثلاً قال مؤلف العلم الشايع (اللهم أنه لا مذهب لي إلا دين الإسلام فمن شمله فهو أخي وصاحبي) وغير ذلك مما في هذا الكتاب الجليل ، لو كانت الاسفار تستطيع أن نجيب أو لو كان التاريخ يستطيع أن يتكلم لما كان الجواب إلا سلبياً ، ولنادى الجميع بأعلى صوت اللهم لا ، اللهم لا هذا هو (العلم الشايع في إنبات الحق على تقليد الآباء والمشايع) .

وأظن أن الذين لم يقدرُوا المقبلي حق قدره لم يطلعوا على كتاب من كتبه النافعة كهذا الكتاب الذي عرضته ، والذي ما هو إلا قطرة من بحر علم هذا العالم الكبير ، ونور واحد من أنوار شمس حرية فكر هذا المجدد العظيم ، أولعلمهم اطلعوا على بعض من تلك الكتب النافعة ، ولكنهم كانوا في نفس الوقت جامدين غافلين لم يخلعوا أغلال التقليد من أعناقهم ولا كانوا على جانب عظيم من التسامح المذهبي .

فهذا مثال من أمثلة حركة العلوم الدينية في اليمن في أواخر القرن الحادي عشر وهي تمثل الحرية الفكرية والاجتهاد المطلق بكل ما في كلمة الاجتهاد المطلق والحرية الفكرية من معنى واذا لم يكن هذا اجتهاداً مطلقاً فما في الدنيا اجتهاد والمقصود هو هداية المنصف لا مجادلة المتعسف وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ؟

فِي التَّكَايُفِ وَالْإِدْبِ

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوي الأستاذ في كلية اللغة العربية

— ٣ —

حلوان — خندف :

أخوان كريمي الأبوين ، أبوهما عمران بن الحاف بن قضاة ، وأمهما ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد ، فالتقى فيهما رافد السؤدد من قحطان وعدنان .

نسبتهما لأبويهما :

إن بنوة حلوان لها لا اختلاف فيها بين المؤرخين وعلماء الأنساب ، يقول ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (١) : « ولد عمران بن الحاف : حلوان بن عمران أمه ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد » .

وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي القسم الثاني (حرف الحاء) أسماء المواضع (حلوان) يقول : « حلوان ... نسب إلى حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة » (٢).

وفي القاموس مادة (الخلو) يقول : « وحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة ، ولم أر في كتب أخرى ما يخالف المصادر السالفة ، فلا داعي لكثرة النقول اكتفاء بها .

(١) ص ٤٢١ طبع دار المعارف .

(٢) الحاف في عبارة التهذيب بكسر الفاء ، كما هو مذكور في هامش الاشتقاق لابن دريد ص ٣١٣ ، فقال : « الحاف مما حذفت العرب ياءه اجتزاء بالكسرة ، كقولهم : العاص في العاصي » الخ ، وعلى هذا يصح ذكره بالوجهين ، فقد روى بالياء في الجمهرة وبدونها في التهذيب والقاموس ، ويلاحظ ذلك في الآتي إن شاء الله .

وأما بنوة خندف لها فأكثر المصادر الوثيقة على نسبتها لها ، يقول ابن هشام في السيرة : « خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة » وفي شرح الروض الأنف للسهيلي : « واسمها ليلى وأما ضرية بنت ربيعة بن نزار ، (١) .

وقد نقل البغدادى للنسابة في شرح شواهد شرحى الشافى ، الشاهد التاسع والأربعين بعد المائة هذين النصين عن ابن هشام والسهيلي .

والذى يثير العجب والاستغراب أن البغدادى نفسه في خزنة الأدب الشاهد الرابع بعد الخمسائة نقل عن ابن هشام أن خندف بنت الحاف بن قضاعة ، بخندف أبيها وإضافتها إلى جدّها .

وفى يقينى أن ذلك مما سها فيه الكاتب أو الطابع ، إذ ليس بمعقول ذلك الاختلاف الجوهرى فى الأبوة مع اتحاد المصدر المنقول عنه فى الوطنين ، ومع اتحاد الناقل فيهما .

وأعجب من ذلك وأغرب ما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد إذ قال : « وأهمهم خندف وهى ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة » ، (٢) .

لأنه جعلها ابنة أخيها ، ولا يسمح بمثل هذا فى عرف الأنساب ، فالبنوة للجد على رواية البغدادى فى الخزنة تستساغ لأن الجد أب أعلى ، أما البنوة للأخ فلا عهد بها فى المتعارف أبداً - وقد جرى المجد فى حلبة ابن عبد ربه إذ قال فى القاموس مادة (الخندوف) ما نصه : « وأهمهم خندف وهى ليلى بنت حلوان ابن عمران » - ولعل هذين النصين كانا مرجعى المرفعى فاتبعهما دون تفتيش وتحريه . إذ قال فى رغبة الآمل على السكامل : « خندف لقب ليلى بنت حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة » ، (٣) .

على أنه مما يعد حسناً لهذه النصوص الثلاثة التى أقحمت أخا خندف : حلوان

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٦١ مطبعة الجمالية .

(٢) العقد (أنساب مضر) ج ٣ ص ٣٣٨ ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٣) السكامل شرح الرغبة ج ٣ ص ٤٢

وجعلته أباهما ، كانت على الصواب في جعل حلوان بن عمران كالتصوص السابقة عند بنو حلوان .

والخلاصة : أن حلوان وخندف أخوان لآب وأم شقيقان ، نشأ في ربوع العز ، وسلكا دروب المجد ، اقتفيا لأبويهما : عمران وضربة ، ولكل منهما شأن خطير ، ينبغي لإفراده بالحديث ، فلنبداً بحلوان على حسب الأولوية من تقديم الأخ على الاخت .

حلوان :

جرى في مضمار المجد بين بدى أبويه الماجدين ، ومكن له في الدنيا بما استبق ذكره ، وخلد اسمه ، فلم يتخلف عنهما في قوة النفوذ وبعد الصيت ، فكما سجل في الدنيا اسم أمه هلى حماها (حمى ضربة) على ما بسطناه في الحديث عنه سلفاً ، كذا دون اسمه على المدينة المنسوبة إليه مدينة (حلوان) العراقية ، وناهيك بهذا الأثر الكبير القاسم على عمر الأيام ، على أنه بعدئذ قد بارك الله له في ذريته ، إذ استمر التوالد فيها مع اطراد التكاثر في نسلها ، قرناً بعد قرن ، واسمه يملأ الأسماع ، ويتنقل في البقاع ، حتى نجا الإسلام ، فاهتدى بنوره بعض حفدته ، ونالوا شرف الصبغة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتلك هي المفخرة التي لو نُبِّهنا حلوان في رmse لحار جواباً ، وعجز شكراً .

بقى أن نقف على مستندنا في عد هاتين المأثرتين ، فهناك النصين : قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات القسم الثاني (الحاء) أسماء المواضع : « حلوان آخر حد السواد مما يلي المشرق نسب الى حلوان بن عمران بن الحاف لأنه بناء » - ويقول المجد في القاموس مادة (حلر) . « وحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة ، من ذريته صحابيون ، وهو باق حلوان » - ولأنه لما يزداد به البيان في التوحيه بحلوان أن نلم بكلمة خاصة بالتعريف بشأن هذه المدينة ، وأن نذكر طرفاً يسيراً من التاريخ فيما يتعلق بفتحها الإسلامي .

تعريف بحلوان العراق :

قال ياقوت : « حلوان العراق وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ، وقيل إنها سميت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، كان بعض الملوك أقطعه إياها فسميت به . . . قال أبو زيد : أما حلوان فإنها مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وُسْرٌ مَنْ رَأَى أَكْبَرَ مِنْهَا وَأَكْثَرَ ثَمَارَهَا التين ، وهي بقرب الجبل ، وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها ، وربما يسقط بها الثلج ، وأما أعلى جُبلها فَإِنَّ الثلج يسقط به دائماً ، وهي وِيشة ردية الماء وكبريتية ، ينبت الدِفْلَى على مياهها ، وبها رمان ليس ليس في الدنيا مثله ، وتين في غاية الجودة ، ويسمونه لجودته : شاه ابجر : أى ملك التين ، وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء . »

حلوان في فجر التاريخ الإسلامي :

لمدينة حلوان في التاريخ الإسلامي ذكر دَوْن في صحائفه العزة والمنعة للامة الإسلامية البسيطة عدداً ، الفتية عزيزة وقوة ، مع ضعف شكمتهم ، وقلة لآمنهم ، كما دون فيها الخور والرعب للفرس ، مع كثرة نفيرهم ، واستكمال أسلحتهم .

ذلك أنه بعد فتح القادسية في الموقعة المشهورة ، وتراجع الجيش الفارسي إلى المدائن (عاصمة آل ساسان) استنهض كسرى (يزدجرد) همم الفرس ونظم جيشه أملاً أن يصد هذا الهجوم المباغت ، ولكنه ما لبث حتى أحاط به الجيش العربي من حيث لا يحتسب ، فانهزم الفرس وبدأ لهم أن يوغلوا في بلادهم بعيداً عن الجيش الإسلامي ليجتمع أمرهم ، فتركوا من بلادهم وراهم جلولا ، ونزلوا في (حلوان) بخيلهم ورجلهم ، واستفزز كسرى الفرس ، واستنفذ كل من يقوى على حمل السلاح ، فأجمعوا أمرهم ، وصمموا على الانقضاض على الجيش الإسلامي ، غير أنهم لما سمعوا بدخول المسلمين جلولا ارتعدت فرائصهم ، وتفككت أوصالهم ، وتمثلوا الأسد الإسلامية تزار حولهم ، فلم يجدوا بداً من ترك (حلوان) بعد ما أعدوا فيها ما أعدوا : تركوها مفتحة الأبواب دون حامية ، تستقبل

الإسلام وتفتح ذراعيها للعهد السعيد ، فدخلها المسلمون دون حرب ، وصالحهم أهلها على أن يؤمنوهم ، لأنه لنصر من الله مؤزر ، فقد كفى الله المؤمنين القتال ، وفتح الصلح الأثر الجميل الباقي في نفوس الحاكين والمحكومين . يقول ياقوت في بقية الحديث الماضي عن حلوان : « وأما فتحها فإن المسلمين لما فرغوا من جلولاء ضم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وكان عمه قد سيره على مقدمته إلى جرير ابن عبد الله البجلي في خيل ، ورتبه بجلولاء فنهض إلى حلوان ، فهرب يزدجرد إلى أصبهان ، وفتح جرير حلوان صلحاً على أن كف عنهم وأمنهم على ديارهم وأموالهم ... فأقام بها والياً ... قال الواقدي بحلوان عقب الجرير بن عبد الله البجلي ، وكان قد فتح حلوان في س ١٩ ، وفي كتاب سيف في س ١٦ ... وقال القعقاع بن عمرو التميمي :

وهل تذكرون إذ نزلنا وأتم منازل كسرى والأمور حوائل
فصرنا لكم ردةً بحلوان بعد ما نزلنا جميعاً والجميع نوازل
فتحن الالى فزنا بحلوان بعد ما أرنت على كسرى الإماو الحلائل

ولقد رأيت فيما طالعت أمراً عجبا تكرر في هذه المدينة من طريق الاتفاق كلما وردها الحارثي ، مما يحار المفكر في تسييه ، ولهذا أسوقه تاركا التعليق عليه للناظر فيما عسى أن يكون الداعي إليه ، وما لإخال حدسا يدني إلى تعرف أو تقريب السبب فيه ، وإنما أسوقه لمجرد الإخبار بما تفعله الطبيعة ، والعلم عنده سبحانه وتعالى.

ظاهرة مدهشة في حلوان :

تولى على بن الجهم القرشي الشاعر المشهور مظالم (حلوان) في خلافة جعفر المتوكل على الله ، وكان كلما دخلها الحارثي أصابها الزلزلة ، فإذا غادرها سكنت ، قال أبو الفرج الأصبهاني : « قال ابن الجهم : كان الحارثي يجيء إلى حلوان وأنا أتولاها - وكان على بن الجهم على مظالمها - فإذا وردها وقع الإرجاف ، فلم يزل متصلا حتى يخرج ، فإذا خرج سكن الإرجاف ، فأتاني مرة وظهر كوكب الذنب في تلك الليلة ، فقلت :

لما بدا أيقنتُ بالمعطب فسألت ربي خيرَ مُشَقَّلِب
لم يطلعا إلا لآبدَةٍ الحارثُ وكوكب الذنب (١)

وبقي استيفاء للحديث عن (حلوان) العراق أن نذكر نبذة عن كسرى
يود جرد الذي ألَّب الفرس فيها ، ثم تركها مذعوراً إلى الشرق ، وكلنا حاول استجماع
قوى الفرس انتكث قتله ، إلى أن لقي مصرعه ، فانهضت بزواله دولة الساسانيين ،
إذ كان الرابع عشر للملك ساسان بعد كسرى أنوشروان الذي ولد في عهده النبي
صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أول المسلمون من الآيات التي حدثت في ميلاده
صلى الله عليه وآله وسلم آية سقوط الشرفات الأربع عشرة بذلك ، فكان كما اعتقدوه .

قال القسطلاني : « ومن عجائب ولادته أيضاً ما روى عن ارتجاج إيوان
كسرى ، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ... وفي سقوط أربع عشرة شرفة
إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات ، وقد ملك منهم في أربع
سنين عشرة ذكره ابن ظفر ، وزاد ابن سيد الناس وملك الباقون إلى خلافة عثمان
رضي الله عنه » (٢) .

قال ابن الأثير : « وولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة اثنتين
وأربعين من سلطان كسرى أنوشروان ، وأرسله الله تعالى لمضى اثنتين وعشرين
من ملك كسرى أبرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنوشروان ، وهاجر لاثنتين
وثلاثين سنة مضت من ملك أبرويز » (٣) .

يَزْدَ جَرْد :

ولى ملك فارس عشرين سنة ، بعض هذه المدة قام بتدبير المالك فيها عظام
الدولة ووزرائها لحدائثة سنة عند ولايته ، وبعضها لا يعد فيها مع الملوك لأنه كان

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢١٠ طبع الدار ، الإرجاف : الزلزلة ، والآبدة : الداهية
الخالدة الذكر ، والأمر العظيم تنفر منه وتستوحش .

(٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٣

(٣) السكامل ج ١ ص ٢٦٩ وما بعدها ، الطباعة للنيرية .

مشردا طريدا أمام الجيوش الإسلامية ، فقد فتحت بلاده ومدنه بلدا بلدا ومدينة مدينة في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وانتهى بهلاكه ملك آل ساسان ، قال شهاب الدين النويرى : « وهو آخر الملوك الساسانية وعليه انقضت دوائهم ، فلم تبق لهم قائمة ، وتردد إلى بلاد خراسان وإلى بلاد الترك ، وعاد فقتل بمرور من بلاد خراسان في سنة إحدى وثلاثين من الهجرة لسبع سنين خلت من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، (١) .

الله أكبر ، وما النصر إلا من عند الله ، تقهر الدولة الإسلامية الناشئة الفتية كسرى الفرس ، وتستحوذ على أملاكهم الواسعة الاطراف ، التليدة في حضارتها وقوة بأسها ، والفرس إحدى الدولتين المتقاسمتين العالم آنذاك ، مع كثرة اعتدائها على الروم ، وطمعها في للقضاء عليها ، ولا ينسى التاريخ الإسلامى جبروت كسرى أبرويز واستهافته بكتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فإن من كانتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الملوك والقيصرة في هدنة الحديبية المعروفة أحسنوا جميعاً الرد عدا هذا المجرم الاثيم ، فإنه مزق الكتاب استكباراً وعتوا ، وأرسل لعامله باليمن أن يوجه للرسول من يأتي به إليه ، ولما بلغ ذلك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « مزق الله ملكه كل ممزق ، وقد كان ذلك فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه بمؤازرة الفرس وقتلوه .

تمضى الأيام سراعاً وتقلب الأوضاع ويقتل المسلمون كسراهم الأخير ، ويملكون إخوانهم ، ويلبون أمور شعوبهم ، ويغنمون منهم ما لا يظنون ، وما لا عهد لهم به من أثاث ومال وتيجان وآثر عادية ، ويأسرون منهم بعد أن أنحنوا في الأرض ، ومرجع هذا الظفر الأبدى إلى اعتصام المسلمين بحبل الله المتين « إن تصهروا الله يصحكم ويثبت أقدامكم » .

تأمل أيها القارئ بعين الاعتبار ، فقد كان من الأسارى بنات يزدجرد العنيد ، عوملن في المدينة المنورة معاملة كريمة خاصة ، أوحى بها الروح الإسلامى ، لأن الإسلام دين الرحمة والإحسان واللطف والحنان .

بنات يزددجرد :

قال ابن خلكان : وذكر أبو القاسم الزمخشري في كتاب (ربيع الأبرار) أن الصحابة رضي الله عنهم لما أتوا المدينة بسبني فارس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان فيهم ثلاث بنات ليزددجرد ، فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزددجرد أيضا ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق ، فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال يُقَسَّوْنَ ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقومن ، فأخذهن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاهم بنات يزددجرد ، (١) .

تأثيرهن في التخفيف من العرف الجاري :

كان حكم العرف الجاري في الجاهلية وصدر الإسلام والدولة الأموية يقضى بوضع ابن الأمة بعد ابن الحرة ، فكان الهجين يستخذى من أمومته ، وقد حماها ودافع عنها بياسه ومنصله قديما عنبرة إذ يقول :

وأنا امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل (٢)

ومن النوادر الفكهة : أن الخليفة عبد الملك خطب لبعض بنيهِ من عقيل

(١) وفيات الاعيان (ترجمة على زين العابدين) ونقل هذا أيضا في رغبة الأمل على

الكامل ج ٥ ص ٤٩

(٢) شطرى مبتدأ والخبر في المجرور قبله ، والمراد به أبوه ، والشرط الثاني أنه ينوب عن كرمها حمايتي بالسيف ، فأنا خير في قومي ممن عمه وخاله منهم وهو لا يفتي غنائى . ويعرض في ذلك يقبس بن زهير عند ما فر من تميم ووقف عنبرة فقال قيس : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء ، والبيت من قصيدة في الديوان أول قافية اللام .

ابن علقمة المري ابنته الجرباء على ما به من شظاف العيش ، فأطرق مليا ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين جنبني هجاءك ، فضحك عبد الملك ، (١) .

ولقد حدثت مهازرات بين بعض النابهين من الهجاء وبعض الصرحاء تراها مبسوطه في كتب الادب وطالت الألسنة في هذه الناحية ، قال المبرد : وأنشدني الرياشي :

إن أولاد السراى كثروا يارب فينا
رب أدخلى بلاداً لا أرى فيها هجينا

كان هذا فاشياً إلى أن ولدت بنات يزددجرد من لهم في الإسلام قدم صدق ممن يعتز بهم المسلمون (بنو الخالات المرموقون بالتبجيل والتعظيم) خفت صوت هذه النعرة القديمة المستمرة ، حتى قال سيدنا على رضى الله عنه : (ليس قوم أكيس من أولاد السراى ، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم) وأقبل كثير من سراة المسلمين على التسرى ، وأتحت من النفوس تلك العادة البالية ، وهاك طريقة يلتبس منها جمال التأسي .

طريقة :

قال المبرد في الكامل : د ويُرْوَى عن رجل من قریش لم یسم لنا ، قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، فقال لي يوما : من أخوالك ؟ فقلت أمى فتاة ، فكأنى فقصت في عينه ، فأملت حتى دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رحمه الله ، فلما خرج من عنده قلت يا عم من هذا ؟ فقال : يا سبحان الله ، أنجمل مثل هذا من قومك ؟ هذا سالم بن عبد الله بن عمر ، قلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة ، قال : ثم أناه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رحمه الله فجلس عنده ثم نهض ، فقلت : يا عم من هذا ؟ فقال : أنجمل من أهلك مثله ، ما أعجب هذا . هذا القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ، فقلت : فمن أمه ؟ قال : فتاة ، فأملت شيئاً حتى جاء على بن الحسين بن على بن أبي طالب رضى الله عنه فسلم عليه ثم نهض ، فقلت :

(١) راجع الأغانى ١١ ص ٨٢ ساسى ، والمقد الفريد ٣ ص ٤٠ طبع لجنة التأليف

يا عم من هذا ؟ قال : هذا الذي لا يسع مسلماً أن يجمله ، هذا على بن الحسين ابن علي بن أبي طالب ، قلت : فن أمه ، قال : فتاة ، قال : قلت : يا عم رأيتني نقصت في عينك لما علمت أني لأم ولد ، أفألي في هؤلاء أسوة ؟ قال : (جللت في عينه جداً) (١) .

إن نفسى تطيب ، وصدرى ينشرح للحديث عن هؤلاء الثلاثة المعسلين ، لولا أني أخاف أن يمتد الحديث ويطول ، وليس المقام للتاريخ خاصة ، لكن لا يفوتني الإشارة إلى سيدنا زين العابدين ، لأن الله أراد له أن يكون سلالة الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أم معروفة ومن خيرات النساء : سلافة بنت يزيدجرد ، ولذا قال المبرد : « وكان يقال له : ابن الخيرتين لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله من عباده خيرتان ، خيبرته من العرب قريش ومن العجم فارس » (٢) وكان مضرب المثل في البر بالأم .

بر زين العابدين بأمه :

اشتهر بين المسلمين وفي المدينة بهذه الفضيلة ، ولما رأى الناس منه ما ظنوه ضافياً للبر كان جوابه آية السمو في البر . قال المبرد : « ويروى أنه قيل لعل ابن الحسين رحمه الله إنك من أبر الناس ولست تأكل مع أمك في صحفة ، فقال : أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها » (٣) .

معدرة :

كنت قدرت أول المقال أن يتم فيه الحديث عن الأخوين ، ولكن . وتقدرتون فتضحك الأقدار ، إذ أن حلوان ومدينته وتاريخها العاطر تطلب كل من الثلاثة الإنباه عن يحمل من خبره فاستغند المحسوب للمقال ، مما اضطرني إلى إرجاء الحديث عن الأخت إلى الغد ؟

(١) الكامل شرح الرغبة ص ٤٨ وما بعدها ، ونقله عن المبرد ابن خلكان في الوفيات (ترجمة زين العابدين) .
(٢ ، ٣) الكامل ص ٥٥ .

مِنْ مَجْلُوثِ مَعْنَاهُ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةُ بِالْمِثْلِ هَرَّةُ

أَسْبَابُ الْإِخْلَافِ بَيْنَ أُمَّةِ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لفضيلة الشيخ محمد محمد المدني الاستاذ بكلية الشريعة بالازهر

الْقَطْعِيُّ وَالظَنِّي فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

- ١ — القطعيات ، أو « ما ليس محلاً للاجتهاد » : العقائد الأساسية في الإيمان — الأحكام العملية التي التحقت بها — القواعد الكلية القطعية .
- الظنيات ، أو « مواطن الاجتهاد واختلاف النظر » : المعارف الكلامية — الأحكام الفقهية — القواعد الأصولية أو المذهبية .
- ٢ — الحكمة في ورود الشريعة الإسلامية بهذين النوعين .
- ٣ — هذا التقسيم مسلم به على الجملة من جميع علماء المسلمين ، وإنما وقعت الفارقة والتشاحن من إلحاق بعض الظنيات بالقطعيات اشتباهاً أو تعصياً .
- * أمثلة لذلك في المسائل الكلامية : القضاء والقدر — الحسن والقبح العقليان — رأى ابن القيم في هذه المسألة .
- * أمثلة لذلك في المسائل الفقهية : حل متروك التسمية عمداً من الذبائح — المسح على الخفين — نكاح المتعة —
- ٤ — الخلاف لا يمنع الانصاف والائتلاف .

١ — هناك نوعان من المسائل والأحكام يستطيع الناظر في علم الشريعة الإسلامية أن يفرق بينها ، وأن يهتدى بهذا التفريق في بحثه ودرسه :

النوع الأول :

الأحكام القطعية التي قام الدليل على أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان ، ولا يجوز الاختلاف فيها ، ولا تخضع في ثبوتها ونفيها لاجتهاد المجتهدين .
ويمكننا أن نرجع هذا النوع إلى ما يأتي :

أولاً : العقائد القاطعة التي يجب الإيمان بها لقيام الدليل اليقيني - في ثبوته ودلالته - عليها ، وعلى أنها الحد الفاصل بين المسلمين وغير المسلمين ، ومن جحد شيئاً منها فقد خرج من رتبة الإسلام ، وذلك كالنوحيد ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وختم النبوة بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال في الدار الآخرة ، وأن الله تعالى متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقصان ، وأن الرسل لا يجوز عليهم الكذب ولا الكتمان ولا الخيانة ، إلى غير ذلك من العقائد التي يكون بها المسلم مسلماً ، والتي يخرج من الإسلام إذا جحد شيئاً منها .

فليس لأحد أن يجتهد في ذلك وأمثاله ، لأنه ليس محلاً للاجتهاد ، إذ هو حقائق متعينة ثابتة باقية لا تتغير مهما تغير الزمان أو المكان إلى يوم الدين ، وليس هناك احتمال ما لثبوت تغيرها أو بطلانها .

ثانياً : الأحكام العملية التي جاءت بها الشريعة بطريقة واضحة حاسمة في جانب الإيجاب أو المنع أو التخيير ، وذلك مثل وجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وكون الصلوات خمساً في اليوم والليلة ، وكون هيئة الصلوات هي هذه الهيئة المعروفة ، وأعداد ركعاتها هي الأعداد المعروفة ، ومثل تحريم قتل للنفس بغير الحق ، وأكل الأموال بالباطل ، وقذف الأعراض ، والزنا ، والإفساد في الأرض ، ونحو ذلك ، ومثل إباحة الطيبات وتحريم الفواحش ... الخ .

ثالثاً : القواعد الكلية التي أخذت من الشريعة بنص واضح ليس فيها ما يعارضه تقريراً أو تفريعاً ، أو استنبطت بعد الاستقراء التام وعلم أن الشريعة

تجعلها أساساً لأحكامها ، وذلك مثل : « لا ضرر ولا ضرار » ، « ما جعل عليكم في الدين من حرج » ، « الحدود تدرأ بالشبهات » ، « لا يُعبد الله إلا بما شرع » ، « المعاملات طُلُقٌ حتى يثبت المنع » ونحو ذلك .

النوع الثاني :

أحكام أو نظريات لم تنجى على هذا النحو الواضح القاطع في وروده ومعناه ، ولكنها جاءت أو جاء ما يدل عليها أو يشير إليها ، على نحو صالح لأن تختلف فيه الأنفهام ، وتعدد وجهات النظر ، إما لأمر يتعلق بأصل الوجود ، أو بالدلالة والإفادة .

وهذا النوع هو الذى جعلته الشريعة موضع اجتهاد المجتهدين ، وجعلت منه مجالاً للنظر والتفكير والموازنة والترجيح والاستقراء والتتبع وتقدير المصلحة والعرف وتغير الحال ، إلى غير ذلك من وجوه النظر ، وأسباب الاختلاف .

ومن هذا القبيل :

(أ) في جانب المعارف الكلامية : ما كان من اختلاف النظر في شأن القضاء والقدر ، وفي تأويل ما ورد من إثبات الوجه واليد والعين ونحو ذلك لله تعالى على معنى يليق بالتنزيه ، أو التفويض بإبقائها على ما وردت عليه بدون تأويل مع اعتقاد أنه تعالى « ليس كمثل شيء » ، وفي إمكان رؤية المؤمنين لله أو عدم إمكانها ، وفي وجوب التوقف عن الخوض فيما شجر بين الصحابة من خلاف أفضى إلى التنازع والحرب أو لإباحة ذلك لمن شاء ، إلى غير ذلك .

(ب) وفي جانب الأحكام الفقهية : اختلاف الفقهاء في مقدار الرضاع المحرّم إقيام علاقة زوجية ، وفي حكم القصاص في القتل بالإكراه ، وفي صحة النكاح ونفاذه ولزومه إذا باشرت المرأة العقد دون وليها ، وفي القضاء بشاهد وبيمين من جانب المدعى ، وفي القضاء بالفرائن ، وغير ذلك من المسائل الخلافية الفقهية .

(ج) وفي جانب القواعد الأصولية أو الفقهية التى تُنقَرَعُ عليها الأحكام : اختلاف النظر في أن القرآن ينسخ أو لا ينسخ ، وبم ينسخ ، وفي العمل بالقياس ،

وفي العمل بالعقل ، وفي كون الزيادة على ما في الكتاب نسخا ، وفي تقديم أحاديث الآحاد أو أقوال الصحابة على القياس ، إلى غير ذلك .

٢ - والحكمة في ورود هذين النوعين من الأحكام في الشريعة الإسلامية : أن أمر الناس لا يصلح إذا جاءت الأحكام والمسائل كلها على نمط واحد : فلا يصلح في أمور العقائد وأصول الدين أن يترك الناس لعقولهم وأفهامهم وظنونهم ، كما لا يصلح ذلك في حقائق العبادات وصورها ورسومها ، ولا في أصول المعاملات التي تقوم عليها ، فكان من رحمة الله بالناس أن وقاهم شر التفرق فيها ، ورسم لهم دائرة محدودة واضحة المعالم ، يعرف من دخلها ومن خرج عنها ، وسما بالحقائق الواقعة عن أن تكون محل خلاف أو تنازع - أما الفروع التي لا يضر الاختلاف فيها ، سواء أكانت في الجوانب النظرية أم في الجوانب العملية ، فلم يكن يصلح أمر الناس على توحيدها ، ولو أنها وجدت لجمدت العقول ، ولا صطدمت الشريعة في كل زمان ومكان بما يجد للناس من صور المعاملات ، وبما لا بد منه من مراعاة المصالح ، ودرء المفاسد ، لذلك كان من رحمة الله بالناس وحكته في التشريع لهم ، أن يفتح للعقول مجال النظر ، وأن يجعل من ذلك مددا لا ينضب معينه لما يجد من القضايا والصور ، ولما تسير به الشريعة المصالح (١) .

٣ - وهذا التقسيم الذي ذكرناه مسلم على الجملة لدى جميع علماء الإسلام في مختلف المذاهب ، لا تكاد تجد فيه خلافا بين سني وشيعي ، ولا بين أشعري ومعتزلي ، ولكن يوجد كثيرا من يبالغ في مسألة من المسائل الخلافية الكلامية أو الفقهية فيلحقها - اشتباهاً أو تعصبا - بالمسائل القطعية التي لا يجوز الخروج عنها ، ويترتب على ذلك أن يرمى مخالفه عنها بأنهم أهل بدعة أو ضلال أو هوى أو غير ذلك من الأوصاف التي تسوق إليها الحماسة والعاطفة المذهبية .

(١) راجع في ذلك رسالة « نقط على الحروف » لصاحبة الأستاذ الشيخ محمد التقي القمي ، وتجدها كذلك في مجلة « رسالة الإسلام » ص ٣٧٧ من المجلد الخامس .

ومن أمثلة هذا :

(١) في جانب المعارف الكلامية :

١ — اختلاف النظر في شأن « القضاء والقدر » ، (١) : فن الناس من تأملوا في القرآن والأحاديث فوجدوا فيها أشياء ظاهرها الإيجاب والإكراه ، كقوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » . « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ، وكقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « السعيد من سعد في بطن أمه » ، والشقي من شقي في بطن أمه » ، فبنوا من هذا النوع أن العبد مجبر ليس له شيء من الاستطاعة .

ومن الناس من نظروا إلى آيات أخر ، وأحاديث أخر ، تدل على أن العبد مستطيع مفوض أمره إليه بفعل ما يشاء ، كقوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر » . « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا الأمر على الهدى » ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، ثم بنوا من هذا النوع مقالة ثانية أصلوها على أن العبد مخير مفوض إليه أمره بفعل ما يشاء ، ثم عمدت كل طائفة من هاتين إلى ما خالف مذهبها من الآيات والأحاديث فأولته ما أمكنها التأويل ، وردت منه ما استطاعت رده .

وطائفة ثالثة توسطت فجمعت بين مشيئة العبد ومشيئة الرب ، على معنى أن للعبد مشيئة ولكنها لا تتم إلا بمشيئة ربه ، وذلك أخذاً من مثل قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . « ولولا أن نبتلك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » ، ومن مثل ما روى عن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه من أن رجلاً سأله : هل العباد مجبرون ؟ فقال : الله أعذل من أن يجبر عبده على معصية ثم يعذبه عليها . فقال له السائل : فهل أمرهم مفوض إليهم ؟ فقال جعفر : الله أعز من أن يجوز في ملكه ما لا يريد ، فقال السائل : فكيف الأمر إذن ؟ فقال جعفر :

(١) راجع في ذلك كتاب « الانصاف » لبطلبوسى ص ٨٣ وما بعدها .

أمر بين الأمرين ، لا جبر ولا تفويض . وكسبحوا ما روى عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه لما انصرف من صفين قام إليه شيخ فقال : يا أمير المؤمنين أرايت مسيرنا إلى صفين ؟ أبقضاء وقدر ؟ فقال علي رضي الله عنه : والله ما علونا جبلا ، ولا هبطنا وادياً ولا خطونا خطوة إلا بقضاء وقدر ، فقال الشيخ : فعند الله احتسبت عناي ، إذن مالي من أجر ! فقال له علي : مه يا شيخ : فإن هذا قول أولياء الشيطان وخصماء الرحمن ، قدرية هذه الامة ، إن الله تعالى أمر بخيراً ، ونهى تحذيراً ، لم يُعص مغلوباً ، ولم يقطع مكبرها ، فضحك الشيخ ونهض مسروراً ثم قال :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم القيامة من ذى العرش رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا جزاك ربك عنا فيه إحسانا !

ويتلخص هذا في أن الله تعالى علم كل ما هو كائن قبل أن يكون ، ثم خلق الإنسان فجعل له عقلاً يرشده واستطاعة يصح بها تكليفه ، ثم طوى عنه السابق عن خلقه ، وأمرهم ونهاهم ، وأوجب عليهم الحجة من جهة أمرهم ونهيهم ، لا من جهة علمه السابق فيهم ، فهم يتصرفون بين مطيع وعاص ، وكلهم لا يعدو علم الله السابق فيه ، وإلا انقلب العلم جهلاً ، تعالى الله عن ذلك ، ولكن ليس في أن يعلم الله الأمور قبل وقوعها لإجبار ، لأن العلم ليس من صفات التأثير ، فن فعل شيئاً فقد فعله باستطاعة منه في ظل المشيئة الإلهية ، ولم تجر المشيئة الإلهية بأن تجبر أحداً على طاعة أو معصية ، ولكن تيسر وتمدد : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » . « والذين اهتدوا زادهم هدى » . « قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً » . « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » . « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

هذه مقالات الطوائف الثلاث في القضاء والقدر ، وذلك سر اختلافهم في هذه المسألة ، والخير كل الخير في الوقف وعدم الخوض في ذلك وأمثاله لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا ذكر القضاء فأمسكوا » ، ونعم ذلك مذهباً لمن أثر

الخلاص والسلامة ، وشغل نفسه بالعمل النافع ، متوفراً عليه ، مستريحاً من السير في طريق طالما زلت فيه الأقدام ، وتحيرت الأفهام .

٢ - ومن الأمثلة في هذا المقام أيضاً اختلاف الأشاعرة مع المعتزلة والإمامية في مسألة الحسن والقبح العقليين ، فالأشاعرة يقولون : لا حسن إلا ما حسنه الشرع ، ولا قبيح إلا ما قبحه الشرع ، وأنه تعالى لو خلد المطيع في جهنم والمعاصي في الجنة لم يكن قبيحاً ، لأنه يتصرف في ملكه ولا يسأل عما يفعل ، وليس للعقل حكومة ولا إدراك للحسن والقبح في حق الله تعالى ، أى أنه ليس له وظيفة الحكم بأن هذا حسن من الله ، وهذا قبيح منه - تعالى الله عن ذلك - .

أما المعتزلة والإمامية فقالوا : إن الحاكم في ذلك هو العقل مستقلاً ، وجاء الشرع مرشداً لحكمه أو مؤكداً له ، والعقل يحكم بحسن بعض الأفعال وقبحها ، ويحكم بأن القبيح محال على الله لأنه حكيم وفعل القبيح منافي للحكمة ، وتعذيب المطيع ظلم ، والظلم قبيح منافي للحكمة ، لا يقع منه تعالى (١) .

وينبغي أن يعلم أن نظرية الحسن والقبح - وإن نسبت إلى المعتزلة أو الإمامية - يقول بها بعض علماء السنة ، ومنهم ابن القيم ، قال في كتابه «مفتاح دار السعادة» (٢) «فن جاوز عقله أن ترد الشريعة بضدها من كل وجه في القول والعمل ، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها ، من السخرية والسب والبطر وكشف العورة والبول على الساقين والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذلك ، فليعز في عقله ، وليسأل الله أن يهبه عقلاً سواه ، وقد سئل بعض الأعراب فقيل له كيف عرفت أن محمداً رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه ، ولا ينهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به ، فهذا الأعرابي أعرف بأهله ودينه ورسوله من هؤلاء ، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح

(١) راجع كتاب (القواعد الكبرى) لمز الدين بن عبد السلام ص ١٩٢ / ١٩٣ ج ١ وفيه أمثلة عدة للاختلاف في الفروع الكلامية مع الاتفاق على الأصل .

(٢) ص ٣٢٩ وما بعدها : الطبعة الثانية سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

ما نهى عنه ، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته . . . وما يدل على صحة ذلك قوله تعالى : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » فهذا صريح في أن الحلال كان طيباً قبل حله ، وأن الخبيث كان خبيثاً قبل تحريمه ، ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس الحل والتحريم ، فإنه بمنزلة أن يقال : يحل لهم ما يحل ، ويحرم عليهم ما يحرم ، فثبت أنه أحل لهم ما هو طيب في نفسه قبل الحل فكساه بإحلاله طيباً آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معاً ، وما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا . باقاه ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها ، فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، والعلة يجب أن تغاير المعلول ، فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيّاً عنه ، وكونه خبيثاً هو معنى كونه محرماً ، كانت العلة عين المعلول وهذا محال . ومن ذلك قوله تعالى : « ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة ، وأنه سبحانه وتعالى لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ، ولم ينزل عليهم كتاباً ، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن تصيبهم بها المصيبة ، ولكنه سبحانه وتعالى لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل ، وهذا هو فصل الخطاب ، وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إرسال الرسل .

ومن هذا يتبين أن ابن القيم يأخذ من المعزلة قولهم بالحسن والقبح العقليين وأن الشرع لا ينشئ في الأشياء حسناً ولا قبحاً ، بل يؤكد الحسن بالحل ، والقبح بالتحريم ، ولكن ابن القيم في الوقت نفسه ينفي أن يكون التعذيب على القبح إلا بعد إقامة الحجة بالرسالات والكتب .

والواقع أن المختلفين جميعاً مستهدفون هدفاً واحداً هو اتصاف الله تعالى بأوصاف الكمال والجلال ، ولم يقل أحد إن العقل والشرع قد اختلفا في شيء ما ، من جهة أنه حسن أو قبيح ، وإنما الكلام في جواز ذلك أو عدم جوازه ، فمن جوزه فإنما يفر من تقييد الله تعالى المتأني لآلوهيته ، وكونه يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ، ومن أحاله فإنما يفر من وصفه جل شأنه بأنه يجوز عليه فعل شيء يراه العقل قبيحاً ، وليس المصير إلى أحد القولين بواجب في العقيدة .

وقل مثل ذلك في جميع المسائل النظرية التي تذكر في كتب الكلام ، ويهتم بها علماء ، وتعطى في نظر كثير من أهل المذاهب أو الطوائف أهمية فوق ما تستحق ، ويصل بها الأمر أحياناً إلى أن تكون سبباً في الفرقة بين المسلمين ، بل إلى أن ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم أهل أديان مختلفة ، وربما طوعت العصية المذهبية لبعضهم أن يستنصر بمخالفه في الدين على مخالفه في المذهب أو الطائفة مع أنهم جميعاً إخوة في الإسلام .



(ب) وفي جانب المسائل الفقهية : من أمثلة ذلك :

١ — تشديد بعض العلماء على الشافعية في قولهم بحل الحيوان الذي تركت التسمية عليه عمداً لظنهم أن هذا مصادم مصادمة صريحة لقوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وقد بلغ ببعضهم التشديد في ذلك إلى أن عدوه زيقاً مع أنها مسألة خلافية ، وللشافعية فيه وجهة نظرهم حيث حلوا الآية على آية أخرى وهي قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقاً أهل لغير الله به » فهذه الآية تفيد أن المحرم من الذبائح إنما هو الحيوان الذي أهل لغير الله به وهذا غير الحيوان الذي لم يذكر اسم الله عليه عمداً أو سهواً فحلوا النهي في قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » على ما أهل لغير الله به ، وآزروا هذا بما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

سئل فقيل له : أن ناساً من البادية يأتوننا بلحان ولا ندرى أسموا الله عليها أم لا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سمووا الله عليها ثم كلوها ، وما روى من قوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم ، ومن أنه سئل فقيل له : رأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى الله ؟ فقال : « اسم الله في قلب كل مسلم » .

فالذين شددوا على الشافعية اعتبروهم مخالفين للنهي الصريح المشبع بأن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق ، ولكن الشافعية متأولون في أمر محتمل ، لم فيه وجهتهم ، وحاشاهم أن يرفضوا نصاً لا احتمال فيه .

٢ — ومن أمثلة هذا في المسائل الفقهية أيضاً : مسألة الاختلاف في المسح على الخفين ، فقد أولاهما المختلفون أهمية كبرى : فبينما يعتبر أهل السنة جواز المسح على الخفين في منزلة الأصول التي لا يجوز إنكارها ولا انقردد فيها ، ترى الشيعة من زبدية وإمامية ، ينازعون في الجواز منازعة شديدة ويقولون إنه نسخ .

وقد روى أهل السنة أحاديث كثيرة في جواز المسح وقالوا ثبت هذا الجواز عن أكثر من سبعين صحابياً ، وصرح جمع من الحفاظ بأنه متواتر ، ويقول بعض العلماء من أهل السنة : « رأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون : الرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمر الله ، والصبر على حكم الله ، والاختصاص بما أمر الله والمسح على الخفين ، فهو قد جعل المسح على الخفين عديلاً للعقائد القاطمة .

والشيعة يقولون : إن ما ورد من مسح النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما يذكر ما كان منه قبل آية الوضوء التي في سورة المائدة ، فيكون منسوخاً ، ويقول يحيى بن الحسين ، وهو من المنكرين لجواز المسح على الخفين ، لأن تنقطع رجلى أحب إلى من أن أمسح على خفي ، ورووا عن ابن عباس وغيره ما يدل على نسخ الجواز .

٣ - ومن أمثلة هذا النوع أيضا ما وقع من الخلاف بين الجمهور والشيعة الإمامية في نكاح المتعة ، وهو العقد على الزوجة إلى أجل ، فالإمامية يبيحونه والسنة يمنعونهم ويعتبرون إباحته خرقا للإجماع ، ويذكرونه في معرض التنبيه للإمامية بخالفاتها أمراً مجمعا عليه ، والامر في هذه المسألة له جانبان : جانب متفق عليه وهو أن ذلك كان مشروعا في أول الإسلام شرعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأباحه وعمل به جماعة من الصحابة ، وجانب يختلف فيه : وهو أن أهل السنة يقولون : نسخت الإباحة ، والشيعة يقولون : لم تنسخ ، ولكل أدلته على ما يقول ، وهي أدلة صالحة للنظر والدرس والترحيل ، فالمسألة إذن من المسائل الخلافية التي يباح للمجتهدين أن ينظروا فيها .

* * *

(ج) وفي جانب القواعد الأصولية : من أمثلة ذلك :

١ - اختلافهم في الاستثناء بعد الجمل المتعاطفة ، وذلك أنه إذا ورد في الكلام جمل متعاطفة ، ثم جاء استثناء ، ولم يكن في الكلام دليل على عوده إلى جميع الجمل أو إلى بعضها بخصوصه ، فهل تكون القاعدة أن يعود الاستثناء إلى جميع الجمل ، أو إلى الأخيرة منها فقط ؟ .

فالأول هو مذهب الشافعية والظاهر من مذهبي المالكية والحنابلة ، والثاني هو مذهب الحنفية ، وذهب جماعة إلى التوقف ، منهم القاضي أبو بكر ، ومنهم المرتضى من الشيعة الإمامية .

ويترتب على هذه القاعدة اختلاف في مثل قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

فالذين يعيدون الاستثناء إلى الجمل كلها يقولون : قد ذكرت عدة جمل قبل الاستثناء هي أحكام مترتبة على القذف : « فاجلدوهم ثمانين جلدة » ، ولا تقبلوا

لهم شهادة أبداً . . . وأولئك هم الفاسقون ، والاستثناء يعود إلى السكل إلا أن الدليل دل على أن التوبة لا تسقط حقوق العباد ، وبقي بعد ذلك الجملتان الثانية والثالثة ، فن تاب وأصلح قبلت شهادته ، ولم يعتبر فاسقاً

والذين يعيدون الاستثناء إلى الأخيرة فقط يقولون : لا تقبل شهادة القاذف بالتوبة ولكن لا يعد فاسقاً بعد توبته ، ويؤيدون ذلك بمعنى عقلي هو أن رد الشهادة من تمام الحد والعقوبة فإن الله جعل على القاذف نوعين من العقوبة : عقوبة بدنية هي الجلد ، وعقوبة أدبية هي الحرمان من مركز الشهادة ، فكما أن التوبة لا ترفع الجلد لأنه حق من حقوق العباد ؛ كذلك لا ترفع العقوبة الأدبية التي هي رد الشهادة لهذه العلة نفسها .

فالمبدأ في هذا الخلاف يرجع إلى القاعدة التي ارتضاها كل من الفريقين ، ولكل منهما دليله على ما ارتضى في علم أصول الفقه ، ثم آزر الحنفية ما رأوا بالمعنى الذي ذكرناه ، كما آزر الفريق الآخر رأيهم بأن رفع الفسق بالتوبة يناسبه قبول الشهادة ، وليس مما يقناسب أن يرفع الفسق ويبقى رد الشهادة .

٢ — ومن ذلك أيضاً اختلافهم في مسألة الزيادة على النص هل تعد نسخاً أولاً ، وستأتى أمثلة لذلك تغنيانا عن التمثيل .

* * *

(د) وفي جانب القواعد الفقهية : من أمثلة ذلك .

١ — ما ذكره الإمام أبو زيد الدبؤسي في كتابه « تأسيس النظر » ، (١) حيث يقول : « الأصل عندنا - أي الحنفية - أن المضمونات تملك بالضمان السابق ويستند الملك فيها إلى وقت وجوب الضمان إذا كان المملوك مما يجب تملكه بالتراضي ، وعند الإمام القرشي أبي عبد الله الشافعي : المضمونات لا تملك بالضمان وعلى هذا مسائل :

منها أن الغاصب إذا ضمن قيمة المغمصوب ثم ظهر المغمصوب فهو له ، لأنه ملكه بالضمان ، فاستند ملكه إلى وقت وجوب الضمان عند علمائنا ، وعند الإمام القرشي أبي عبد الله الشافعي لا يكون له المضمون ملكاً والمغمصوب منه إذا أخذ القيمة كان عليه رد القيمة وأخذ المضمون من الغاصب ، لأن الغاصب لا يملكه ... ومنها إذا غصب حنطة فطحنها ملكها ، لأنه عجز عن ردها بعينها ، فأشبه فواتها من يده فضمن مثلها ضماناً مستقراً لا موقوفاً فلك المطحون ، لأن الملك يتبع سابقة وجوب الضمان عندنا ، فإن قيل ما الدليل على أنه عجز عن ردها بعينها ، ودقيقها عينها ، قيل له : الدقيق غير الحنطة اسماً وحكماً ولونا وصورة ، وعند الإمام أبي عبد الله الشافعي لا يملك ذلك الطحين بالطحن .

ومنها إذا غصب ساجدة فأدخلها في بنيانه وفي نزعها ضرر لصاحب البنيان ملكها صاحب البناء عندنا ، لوجوب الضمان اللازم عندنا له بالملك المستقر في ذمته ، وعند أبي عبد الله لا يملك الساجدة ، ويجب عليه نزعها . ١٠ هـ .

* * *

٤ — ويتبين من هذا كله أمران :

أحدهما : أن الخلاف بين المسلمين في المسائل الخلافية من كلامية وفقهية ليس أساسه - إذا أرجعناه إلى مراجعه الأولى - أن هؤلاء سنة وهؤلاء شيعة ، أو أن هؤلاء حنفية ، وهؤلاء شافعية أو مالكية ... الخ ، أو أن القائل بكذا أشعري والمخالف له معتزلي . إلى غير ذلك ، ولكن أساسه هو اختلاف الفظر والتقدير وما ترجح عند كل فريق ، ثم جاء الاتباع فورثوا هذا عن المتبوعين وتعصبوا له ، ووجد من متأخريهم من يصور المذهبية على أنها التزام لمذهب معين ، فيما دام الإنسان قد اختار أن يكون حنفياً مثلاً ، فليس له أن يعمل بمذهب غير الحنفية ، وإذا كان عالماً بالفقه كان عليه أن يدور في فلك الحنفية فيخرج أقوالهم ويدافع عنها ، ويجتهد في إبطال آراء الآخرين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وتفرع على ذلك أنهم قرروا أن من قلده مذهباً ليس له أن يفتقل إلى غيره ،

وقد جاء في فروع باب التعزير من كتاب (الدر المختار) : « ارتحل إلى مذهب الشافعي يمز ، وقرروا أن ليس للانسان إذا قلده مذهبا معينا - ولا بد له أن يقلد - أن يقلد غير هذا المذهب في بعض الوقائع إلا بشروط ، وقرروا أن ليس للتأخر أن يبحث أو يرجح فيما يحنه المتقدم أو رجحه ، الخ (١) .

وليس هذا صحيحاً ، وإنما قاله بعض المتأخرين حينما تحكمت فيهم روح الخلاف ، وملكتهم العصية المذهبية ، فراحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم ، وانتقلت المذاهب بهذا الوضع عن أن تكون أفعالاً يصح أن تناقش فترد أو تقبل إلى التزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها أن يخالفها أو يعتقد غيرها (٢) .

وقد وصف الشيخ عز الدين بن عبد السلام موقف هؤلاء المتأخرين فقال : « ومن العجب العجائب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ، وهو مع ذلك يقلده ، ويترك من شهد له الكتاب والسنة ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده » ثم قال : « لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين ، إلى أن ظهرت هذه المذاهب وتمتعصبوها من المقلدين ، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال كأنه نبي أرسل ، وهذا نأى عن الحق ، وبعد عن الصواب ، لا يرضى به أحد من ذوى الألباب .

وقد عهدنا العلماء الراشدين يتبعون الدليل من أى أفق ظهر ، ولا يعابون بمخالفة مذاهبهم ، فقد يخالف الحنفى الحنفى ، وقد يخالف الشافعى الشافعى ، وقد يخالف الإمامى الإمامى ، وقد ينتصر العالم لرأى في غير مذهبه لأنه يراه

الصواب ، ومن أمثلة هذا مخالفة ابن تيمية وابن القيم لجميع مذاهب أهل السنة في مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، وأخذهم بمذهب الإمامية الذين لا يوقعون به إلا طلقة واحدة ، لأن الدليل معهم ، وقد كان لبعض العلماء المعاصرين يوم قرر قانون الأحوال الشخصية في مصر الأخذ بمذهب الإمامية في ذلك ، ضجة كبرى ، لأن المذاهب الأربعة توقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثاً ، وقد استقر أمر الناس عليها حتى اعتبرها العامة والخاصة مسألة في صف المسائل الأساسية ، فكان هذا القانون سبباً في قيام اعتراضات كثيرة ومناقشات متعددة ، ثم استقر أمره وصار العمل عليه ، وهجر رأى المذاهب الأربعة وما يوافقها في ذلك ، ولم يعد أحد يهتم بهذا أو يراه حدثاً في الإسلام .

الأمر الثاني : أن كلا من الاتفاق والاختلاف أمر لازم لامناص منه ، فلا يمكننا أن نتصور المسلمين أو أية أمة من الأمم متفقين في كل شيء ، ولا أن نتصور هؤلاء وأولئك مختلفين في كل شيء ، ولكن الذي هو واقع فعلاً ، ولا مناص من أن يقع ، هو أن الأمة الواحدة لها مواضع كثيرة تتفق عليها ، وهي التي ربطت بينها وجعلتها أمة واحدة ، ولها مع ذلك مواضع كثيرة تختلف فيها لاختلاف العقول والمصالح والأدلة بينها ، وهي بحكم اتفاقها فيما اتفقت فيه أمة واحدة ، وبحكم اختلافها فيما اختلفت فيه مذاهب متعددة ، والمذهبية الخاصة لا تخرج أهلها عن كونهم من الأمة ، ولا تعطيهم في نفس الوقت قرباً أو نسبة في القرب من الدين ليست لأصحاب مذهب آخر ، ومن ثم لا يستطيع منصف أن يقول : إن مذهبي حق كله وصواب كله ، ومذهب غيري باطل كله وخطأ كله ، ولكن يقول أن هذا هو مارأيته بحسب فهمي واجتهادي وما علمته ، فأنا أرجحه ولا أقطع به ، ويحتمل أن يكون مارآه غيري هو الحق والصواب ، ولست مكلفاً إلا بما وصلت إليه ، وليس مخالفاً مكلفاً إلا بما وصل هو أيضاً إليه .

وقد اشتهرت في هذا المعنى عبارة جيدة تصور اختلاف المختلفين المنصفين لأنفسهم وغيرهم ، إذ تقول بلسان كل مجتهد : « مذهبي صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب » .

وما من مجتهد إلا وقد روى عنه ما يدل على سماحته العلمية ، وأنه كان يأبى على الناس أن يقلدوه في كل ما قال ، ويلغوا ما سواه .

فأبو حنيفة رضى الله عنه كان يقول : « لا ينبغي لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى ، وكان إذا أفتى يقول : هذا رأى النعمان بن ثابت - يعنى نفسه - وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب .

والشافعى رضى الله عنه كان يقول : « إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وقال يوما للزنى « يا إبراهيم لا تقلدنى في كل ما أقول ، وانظر في ذلك لنفسك فإنه دين .»

وكان الإمام أحمد رضى الله عنه يقول : « ليس لأحد مع الله ورسوله كلام ، وقال يوماً لرجل : « لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الأوزاعى ولا النخعى ولا غيرهم وخذ الأحكام من حيث أخذوا من الكتاب والسنة .»

وهذه النظرة المتصفة تغيب أحيانا عن بعض أهل العلم ، أو تغمرها العصبية ، أو المصلحة الشخصية ، فيشتد الخلاف ، وينقلب لجأجا وخصومة ، وربما أدى إلى قطيعة .

وقد عرف التاريخ العلمى الإسلامى كثيراً من صور الخلاف والتعصب ليس المجال لبيانها أو تحليل أسبابها ، كما عرف صوراً رائعة من صور الاختلاف المذهب بين الأئمة الاعلام والعلماء الراسخين ، أفادت العلم ووسعت دائرة الفكر ، وجعلت معين الفقه الإسلامى قياضاً .

وإن خير ما يقدمه خاصة أهل العلم إلى أمتهم في هذا العصر ، أن يتناولوا بحوثهم العلمية في انصاف ورفق ، وأن يكون رائدهم الحق من أى أفق ظهر ، وأن يحسن كل منهم الاستماع إلى ما يقوله الآخرون ، فربما وجد عنده صواباً وربما استعان به على الوصول إلى درجة السكال المنشود .

[البحث موصول]

في النقر الأدبي :

مُسْتَقْبَلُ الشِّعْرِ

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ علي العماري
المدرس بالأزهر

كتب الأستاذ أحمد حسن الزيات ، في رثاء صديقه المازني يقول ، بعد أن ذكر أنه كان رجل وحده في تفكيره وأسلوبه ، وصاحب شخصية ممتازة لا يفتنى عن وجودها وجود : « فإذا أضيف إلى ذلك أن المازني كان أحد الكتاب العشرة الذين يكتبون لغتهم عن علم ، ويفهمون أدبها عن فقه ، ويعالجون بيانها عن طبع ، وأن هؤلاء العشرة البررة متى خلت أمكنتهم في الأجل القريب أو البعيد فلن يخلفهم في هذا الزمن النائر الحائر العجلان من يحمل عنهم أمانة البيان ، ويبلغ بعدهم رسالة الأدب ، أدركنا فداحة الخطب الذي نزل بالامة العربية يوم توفي هذا الكاتب العظيم ،

ولا تزال إلى يومنا هذا ، نؤمن على هذه المقالة ، ونرى أن الكاتب أصاب فيها شاكلة الصواب ، ذلك أن الكتاب الذين خلت أمكنتهم من هؤلاء العشرة البررة ، لم يخلفهم فيها من يملأ الفراغ ، ويكون فيه عن الداهب العزاء ، ولا تزال هذه الأمكنة التي تركها الراحل والمازني وأحد أمين ، لا تزال أمكنة هؤلاء خالية ، ولما نتحدث — جاهدين — في هذا السيل الجارف الذي تقذفه المطابع من الكتب وأشباه الكتب ، نبحث عن البئر الفنى الرائع ، والأدب الخالص الرفيع ، فلا نجد إلا السطحية في التعبير ، والسطحية في التفكير ، ونجد بجانب ذلك الدعاوى الطويلة العريضة ، ولعل السر فيما آل إليه الأدب تلك الدعوات السافرة إلى التحلل من الأساليب الرصينة ، والعبارات الجزلة ، وساعدت

الصحافة على هذا الاتجاه بما تضطر إليه كتابها من العجلة ، التي تدعو إلى التحلّي عن الدراسة الهادئة الرزينة ، والأسلوب المتأنق المصقول .

وهذه الدعوة التي نادى بها بعض المحدثين في النثر ، نادى بها جماعة آخرون في الشعر أيضاً ، ولا سيما النقاد اللبنانيون ، وشعراء المهجر ، فلا بأس عندما ، بل الواجب ، أن يستعمل الشاعر من الألفاظ ما يوضح معناه ، ولو لجأ إلى اللفظ الضعيف أو الملحون ، لأنه — كما يزعمون — ما دام الغرض الإيضاح ، فكل لفظ معبر كاف ، وينصح أحدهم في اطمئنان وتحمس قائلاً للشاعر : « كن كيف شئت إلا اثنتين فلا تقرّ بهما أبداً : النحو واللغة » (١) .

والشعراء — الآن — يحافظون كثيراً على النحو واللغة ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول في الشعر والشعراء مقالة الأستاذ الزيات في الكتابة والكتاب ، بل لعل مقالتنا تكون أكثر تشاؤماً ، وأشدّ مرارة ، فما بالنا إذا رأينا الشعراء قد استمعوا إلى هذه النصائح الغالية ، ولم يبالوا باللحن ، ولا بقوانين اللغة في صوغ مفرداتها ؟

وقد رأينا من الأدباء النقاد من يدعو إلى أن تنثر الزهر على موكب الشباب ، بدل أن نزرجه بالحجارة ، وأن الشيوخ قد استوفوا حقهم من الثناء ، فعلياً أن نوفي الشباب حقهم ، وأن نأخذ بأيديهم ، وهذا مقصد جميل لو أن شعراءنا الناشئين كانوا في حاجة إلى الزهر ينثر على موكبهم ، فقد استغنوا عن ذلك بما أضفوا على أنفسهم من ألقاب ، وما غمروها به من ثناء ، فما من شاعر ظهر إلا وهو يعد نفسه في الذروة من شعراء العالم ، ففهم غرور تضيق به النفس ، ويخرج منه الصدر ، وفهم — كما يقول الدكتور طه حسين — كبرياء لا تخلو من سخف ، ومن سخف يذكرنا بأخلاق الأطفال ، فهم إن كتبوا رأوا لأنفسهم العصمة ، ولم ينتظروا من النقاد إلا ثناء وحداً .

وعندى أن النقد الخالص النزيه قد يكون أنجح علاجاً ، وأحسن طاقبة

من الثناء والتصفيق ، وإلى لعل يقين من أن شعراءنا يخافون من النقد كما يخاف الطفل من الغول ، وليس ذلك لأن النقد سيهدمهم ، أو يحوهم من سجل الأدباء محواً ، كلا ، وإنما يكرهون النقد لأنهم لا يحبون أن يسمعوهم إلا ما وقر في أنفسهم ، وهو أن كل واحد منهم شاعر كبير ، وأديب خطير ، ولكن مع ذلك سنمضي .

* * *

كثر الشعر في الفترة الأخيرة كثرة جعلتنا نصدق ما يروى عن أبي ضمضم ، قال الأصمعي : جاء قتيان إلى أبي ضمضم بعد العشاء فقال لهم : ما جاء بكم يا خبيثاء ؟ قالوا : جنناك نتحدث ، قال : كذبتكم . قلتم كبر الشيخ ، وتبلغته السن ، عسى أن نأخذ عليه سقطه ، فأنشدهم لمائة شاعر ، كلهم اسمه عمرو . قال الأصمعي : فعددت أنا وخلف الأحمر ، فلم نقدر على أكثر من ثلاثين ، قال ابن قتيبة - وهو ناقل الحديث - هذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن أروى الناس ، وما أبعد أن يكون من لا يعرفه من المسكتين بهذا الاسم أكثر من عرفه (١) . وجعلنا نصدق ما يروى من أن مدينة (شلب) بالاندلس لم يبق من أهلها أحد إلا قال الشعر رجالاً ونساء .

نعم : كثر الشعر كثرة عظيمة ، فأنا منذ خمس وعشرين سنة لا أكاد أفتح مجله أو صحيفة حتى أجد شاعراً جديداً ، أو شعراً جديداً ، وهؤلاء الذين نقرأ لهم عدد قليل بالإضافة إلى من لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن يظهرُوا ، وحسبك أن مدرسة من المدارس ألقت فيها أسرة للشعر فكان عدد أعضائها ثلاثين ، فإذا كان هذا عدد الأعضاء في مدرسة قليلة الطلاب فما عسى أن يكون الشعراء فيها ؟

وقد تحدث الناس بعد موت شوقي بأن ميدان الشعر خلا بموت الشعارين الكبارين شوقي وسافظ ، ولكن هذا الحديث لم يعجب شعراءنا النابغين ، فاتمز الشاعر أحمد الكاشف فرصة إقامة موسم للشعر ، وصاح فيه :

قالوا انقضى الشعر بعد الشاعرين ولم يأنس بغيرهما ميدانه الخالي
ولست وحدي له في مصر بعدهما فصر ملأى بأشباهي وأمثالي

ومات مطران ، فازداد ميدان الشعر خلوا ، ولا زلنا — بالرغم من صيحة
الكاشف — نرى الميدان خاليا ، بمن يسد فراغ واحد من هؤلاء الثلاثة ،
والحقيقة أنه لا ينقصا الشعر ، وإنما ينقصنا الشعراء ، أعنى أن عندنا شعراً رائعاً ،
ولكن ليس عندنا من واثقه ظروفه وطبعه لأن يكون شاعراً خلوا ، ولست أشك
في أنه كان يمكن لبعض النابهين من شعرائنا أن يكون شاعراً كبيراً لو أخلص لفته ،
وغذى ببيانه ، وصقل خياله بإطالة النظر في مآثور العرب من شعر ونثر ، وأخذ
نفسه بالقراءة والدرس ، وشعره بالتهذيب والتجويد ، ولكن الواحد منهم يكون
فيه استعداد لأن يكون شاعراً ولكنه يتسكب الجادة ويمضى على غير الطريق ،
فهذا شاعر في قلبه نبع من الشعر ولكنه مفرم بالترانيم والتهاويل يزين بها شعره ،
ولئن كان يسمح لشاعر كأبي تمام هذا التلاعب الصناعي بالشعر — مع ما أدى إليه
من سخف في أحيان كثيرة — لأن معناه يستطيع أن يتغلب على بهرجة لفظه ، لقوة
المعنى وعمقه إذا كان يغتفر لأبي تمام هذا ، فإنه لا يغتفر لشاعر ناشوء يدور في دائرة
ضيقة من الألفاظ ، وتستطيع أن تقول — دون أن تستهدف لخطر المبالغة — إن
عنده ثلاثين لفظة يستعملها في الغزل كما يستعملها في المديح ، كما تجدها في وصف (نور)
مثلا ، وقد لاحظت ملاحظة يسيرة في أحد دواوين هذا الشعر ، تؤيد ضيق ثروته
في الألفاظ ، بل وفي المعاني ، وجدت له عشرين قصيدة كلها بدئت بما يدور حول
الغناء والنشيد ، فهذه قصيدة مطلعها (شدى المزاهر في القلوب ورتلى) وثانية
مطلعها (شاديك من قصب الفرداس نايه) وثالثة مطلعها (دع لحنك الشادى
بلا تعريف) . وهكذا . . . وأقد عددت له في قصيدة واحدة الزهر وما إليه ثلاثين
مرة ، وإذا كان هذا الشاعر أدار شعره حول ألفاظ خاصة ، فإن كثيرا من
شعرائنا المحدثين داروا حول معان مخصوصة جودوها بكثرة المرات ، فإذا
تجاوزوها أسفوها ونزلوا .

ويمكن أن نقسم هؤلاء الشعراء إلى طوائف ثلاث :

١ — الطائفة الأولى تأثرت تأثراً قوياً بمذهب العقاد، وخلاصته أن الشعر صدق في التعبير، واستقلال في النزعة .

٢ — والطائفة الثانية تخرجت في مدرسة (أبولو) وهي مجلة أنشأها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، ومذهب القائمين على هذه المجلة (توجيه الشباب إلى النواحي التجديدية التي يفتقر إليها الشعر العربي سواء في الصياغة أو في المواضيع الإنسانية أو في الروح الفنية العالية، والدعوة إلى الشعر الوصفي، والشعر القصصي والتمثيلي بصفة خاصة وإلى التخلي بقدر الإمكان عن القافية الواحدة، وإلى المزوف عن شعر المناسبات الوقتية إلى دراسة الحياة والتفاعل الصادق معها مع التعبير عن عصرنا عن طريق التعبير عن نفوسنا في غير ما تكلف ولا تصنع) .

وهذا في الحقيقة ليس مذهباً شعرياً من المذاهب المدروسة التي لها أصول وقواعد ترجع إليها، وإنما هي دعوة إلى أن ينتهج الشعراء هذه النواحي، وهي شبيهة بهذه الجماعات التي تألفت لخدمة الشعر من حيث التوجهات التي ترى كل جماعة أن توجه إليها الشعراء، ونلاحظ أن جماعة تألفت في ذاك التاريخ، هي (جماعة موسم الشعر) وقد برز في منهجها المحافظة على خصائص البيان العربي، والتمسك بضوابط اللغة، والجري على السنن العربي، والذوق العربي، في حين حاولت جماعة أبولو أن توجه الشباب إلى النواحي التجديدية في الصياغة وفي الموضوعات وفي الروح، وتتفق الجماعتان في الدعوة إلى مماشاة الشعر لحاجات العصر، وتهئية الفرص أمام الشباب لتقويم ملكاتهم، غير أن مدرسة (أبولو) ظفرت بمريدين، أثرت فيهم، وبثت في أرواحهم روحها، في حين لم تظفر جماعة موسم الشعر بغير قصائد قدمت إليها من شعراء كان كل منهم قد ثبت على ما طبع عليه .

٣ — أما الطائفة الثالثة فهؤلاء الذين لم يتلذذوا لأشخاص أحياء، وكان لكل منهم نهجه الخاص به، وأكبر الظن أنهم تأثروا بما قرءوا، فمنهم من استمد

أخيلته ومعانيه من الأدب العربي القديم ، ومنهم من جعل من الشعر الغربي نموذجاً يترسمه .

ونلاحظ أن بعض الذين تخرجوا في هذه المدارس أسرفوا أحياناً في الزيادة على الشعر العربي فجعلوا ينتقصون منهجه ، ويهرجون أسلوبه ، ويسخرون من معانيه ، بل غالى واحد منهم فجاء بما يدل على سذاجة في التفكير ، جاء في مقدمة أحد الدواوين : « يقول ابن رشيق : وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، فإن المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوى فيها العالم والجاهل ، ومع الأسف لا يزال يوجد إلى يومنا من يؤمن على هذا الكلام ! ولعمري إن هذا القول وحده كفيل بتزييف الشعر العربي ، وجعله مهزلة الشعر في كل اللغات . »

وهذه الجماعات وإن عملت على تشجيع الناشئين إلا أنها كانت تسرف أحياناً في تقدير ما ينتجون ، ولقد درجوا على سنة من أسوأ السنن تلك هي التقاريظ الكثيرة التي تلتحق بالدواوين ، وأكثرها يجاوز الحق والنقد الصحيح ، ولو أنك قرأت ما يكتب من التقاريظ في ديوان من الدواوين لوقر في نفسك أن هذا الشاعر سيفتح في دنيا الأدب فتحاً جديداً ، وأن الشهرة ضلت مكانته ، وأن النقد غفل عن موضعه ، فإذا شاء سوء حظك وقرأت بعض ما في الديوان من الشعر لم تملك نفسك من الضحك الساخر ، أو من الألم المرير ، ولقد مررت كثيراً بهذا التناقض قرأت مقدمة ديوان ، فوجدت مقرظه يقول : « وبعد فإن شاباً جاوز العقد الثاني من عمره بشهور يكون نموذجاً في الآداب العربية ، ويفهم الشعر كما يجب أن يفهم لجدير أن تنتظر منه الآداب فيضاً زاخراً تعب منه شراب الخلود وتطفربه إلى عليين ، ثم قرأت أول قصيدة فإذا مطلعها :

بينما كنت سائراً وظلام الليل لمسيل ضارج بالبدر يوم التمام
لا تراني أردد الطرف في شيء سوى في الألة الأجسام

حتى في النقد الذي كانوا ينشرونه في الصحف والمجلات ترى المحاباة واضحة ، وإذا لم تكن محاباة فهو أمر نشأ من ضعف حاسة النقد ، هذا شاعر يقول إنه

بحب حبيبته ميتة ، وإنه يودها في خاطر القبر سرّاً ، كي يهرب منها العذول ، ويحیی هو يبلل خديها - كالدود طبعاً - من أدمعه ثم ينزع فؤادها من جنينها ويخبئها في أضلعه ، إن هذا السخف الذي لا يقف عند حد يظفر من الناقد الدقيق بهذه العبارة : « وقد أجاد كل الإجاده » .

وقد كان هذا - إلى أسباب آخر - السر في غرور هؤلاء الشادين وكبريائهم ، فما يكاد أحدهم يشدو شيئاً من الأدب ، وينظم أبياتاً من الشعر حتى يصبح عند نفسه شاعر عصره - كما قلت آنفاً - ورحم الله شوقياً ، فقد فتح لنا باباً يصعب إغلاقه حين قال :

أنا إن عجزت فإن في بردى أشعر من جرير

فكم في شعرائنا - الآن - من هو عند نفسه أشعر من جرير ومن الفرزدق ومن الأخطل ، ومن الثلاثة مجتمعين !

وافقد كان المنطق السليم أن يفتخر الشعراء بشيء غير هذا الشعر الذي كسدت سوقه وأصبح لا يشبع من جوع ، ولا يروى من ظمأ ، فعندهم التطلع للجدد ، وعندهم الحيوية ، وما كان أجدرهم أن يحفظوا آخر ابن العشرين طرفة بن العبد .

وليس أدل على تأصل هذا الخلق فيهم من أن أحدهم نظم قصيدة طويلة في مدح عظيم من العظماء ، فلما أراد أن يضع لها عنواناً أتى غروره ألا أن يعنونها بهذا العنوان : (أنا شاعر الوادي وعزاف اللظى) . ويجرنا عزاف اللظى هذا إلى أن نقول قولاً في الأسلوب الذي يؤثره هؤلاء عن يجعلون أنفسهم أشعر من شوقي وإنه لمن المؤلم أن ترى أسلوب الكثير منهم ضعيفاً ، وقافيتهم نابية ، واستعاراتهم تكاد تقطر ظرفاً ، من أمثال ، قلة مرئحة الأعطاف ، ودلال شرود ، وصمت حريري ، وجسم طازج ، وشحوب يؤكل ، ولنا لتسكتفي هنا بإيراد كلمة للرافعي عليه سحائب الرحمة ، وإن كان أراد بها من هم أرسخ في الشعر من هؤلاء الذين نتحدث عنهم ، ونسميهم : « ساقه (١) الشعراء » ، قال الرافعي : « وما التراكيب

(١) ساقه الجيش مؤخرته ، وساقه الشعراء لقب كان يطلق على جماعة من متأخري الشعراء منهم ابن هرمة وابن ميادة وحكم الحضري .

البيانية في موضعها من الشعر الحى إلا كالملاحم والتقسيم في مواضعها من الجمال الحى ، وكثيراً ما يخيّل إلى حين أنامل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل في شعر محكم السبك أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متألق يتقرب من حب امرأة جميلة ، وعطف أمومة على طفولة ، وحنين عاطفة لعاطفة ، إلى أشباه ونظائر من هذا النسق الرقيق الحساس ، فإذا قرأتُ في شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالشرطى أخذ بتلايب لفظ كالمجرم . . . إلى كلمتين هما معاً كالضارب والمضروب . . . إلى همج ورعاع وهرج ومرج وهمج وفتة . . . أما القافية فكثيراً ما تكون في شعرهم لفظاً ملاكاً . . . ليس أمامه إلا رأس القارىء . .

ومرجع هذا عندى - كمرجع البساطة التى نلاحظها في كثير من أشعارهم - إلى عدم العناية باستظهار الآداب القديمة ، والشعر القديم بنوع خاص ، فإن لم نفوساً مرهقة لا تصبر على المطالعة والدرس ، وهم مع رغبتهم في المجد الأدبي يملون العمل ، ويتوهمون أنهم واصلون بأيسر المجهود ، ولعل من التنازع العجيبة في هذا الشأن أن واحداً منهم أخرج ديوانين من الشعر ، وهو لا يحفظ من الشعر القديم إلا أيسر اليسير .

وربما وجدت في شعر بعضهم مسحة من الشعر القديم ، ولكن مرد ذلك عند هؤلاء إلى أن الواحد منهم حين يمد نفسه لنظم قصيدة يضع تحت بصره قصيدة للبحترى أو للمتنبى ثم ينسج على منوالها وزناً وقافية ، فيجىء التشابه في المعنى حيناً ، وفى الالفاظ أحياناً كثيرة .

لمناسبة وفاة إيرين كوري مكتشفة النظائر المشعة :

عَمُودُ الْحَدِيثِ الذَّرِّيَّةِ

للدكتور محمد محمود غالي

دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية - ليسانس العلوم الحرة - دبلوم المهندسخانة

وأخيراً انتهت إيرين كوري كما ينتهي كل الناس ، وماتت العالمة الكبيرة الشهر الماضي كما يموت البشر ، انتهت بعد أن أدت إلى علوم الذرة أجلّ الخدمات ، وانقطعت حياتها بعد أن خطت بسلام العالم أوسع الخطوات .

ولو أننا اعتبرنا أن كشف الذرة أصبحت الصّرح الشاخ لتقدم الإنسان ، وأن معرفتنا للنواة وتركيبها هو أهم مرحلة من مراحل العرفان ، فإننا نضع إيرين كوري الحائزة على جائزة نوبل مكتشفة النشاط الإشعاعي الصناعي وخالقة النظائر المشعة بين هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين أناروا لنا السبيل ، وبين هؤلاء المحسنين الذين لهم أكبر الفضل على هذا الجيل ، وما علينا لتبيان ذلك إلا أن نستعرض الأحداث العلمية ونتابع الكشف الذرية لترى مكان إيرين كوري من بين العاملين في تقدم العرفان ، ونلّس دورها الخالد في أهم ما ورثه الإنسان ، وفي هذا نقسم هذه الناحية الهامة من العلوم إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول . العلوم الذرية النظرية :

ولعل ألبرت أينشتاين في نظرية النسبية الأولى سنة ١٩٠٥ ، والنسبية العامة سنة ١٩١٦ ، كذلك ماكس بلانك في نظرية الكم سنة ١٩٠٥ ، ونيلز بوهر الذي جمع في سنة ١٩١٣ بين الكم وخطوط الطيف مفسرا بذلك أدق الأحداث العلمية داخل الذرة هم الفرسان الثلاثة الذين أقاموا أهم المراحل النظرية في العلوم الذرية تلك المراحل التي يستند إليها اليوم "جُلُّ" العلماء المحدثين ، أمثال : ديراك وباولي ودي بروي وشرورنجر وماكس بورن وفري وغيرهم ، وسيفهم الكثير ممن يتابعون الميراث العلمي اليوم لماذا رتبنا هؤلاء الأعلام على هذا النحو ، فذكرنا على رأس القائمة أينشتاين وبلانك وبوهر ثم ذكرنا ديراك مع باولي ودي بروي مع شرورنجر وأخيراً بورن مع فري .

القسم الثاني : العلوم الذرية العملية والتطبيقية :

ولهذه الناحية أهمية قصوى ، فقد كان من آثارها كما نعلم استخدام الطاقة الكامنة في نواة الذرة للحصول على طاقة كبيرة تفوق كثيراً الطاقة التي نحصل عليها من الوقود العادي ، أو استخدام النظائر المشعة في علاج الأمراض أو مقاومة الآفات أو في تقدم البحوث العلمية والصناعية ، وهذه الناحية الواسعة تستند إلى أربعة أربعة ، كان لإيرين كوري مع زوجها جوليو الفضل في اثنين منها ، وكان لزوجها مع غيره الفضل في واحد آخر منها ، وهذه الأسس أو الأعمدة الأربعة نجعلها في التقسيم الآتي الذي يتضح منه أعمال إيرين العلمية الخالدة .

(١) الكشف عن العناصر المشعة الطبيعية مثل اليورانيوم والبولونيوم والراديوم والتوريوم ، وكلنا يعلم أن الفضل في هذه المرحلة الهامة التي بدأت سنة ١٨٩٧ كان للعالم "بكارل" ، بكشفه إشعاع اليورانيوم ، ثم "لماري سكلودوفسكا" (وهي مدام كوري والدة إيرين) بكشفها عن البولونيوم وقوة إشعاعه تعادل ألف مرة قدر قوة إشعاع اليورانيوم ، ثم لوالدتها مدام كوري ووالدها بيير

كورى بكشفهما الراديو ، وقد استحققت والدتها جائزة نوبل مرتين ، مرة بالاشتراك مع زوجها ومع بكارل سنة ١٩٠٣ ، ومرة بمفردها سنة ١٩١٠

(ب) الكشف عن النيوترون :

والنيوترون هو ذلك الجسم الاساسى فى بناء نواة الذرة التى نعلم اليوم أنها تتألف من البروتونات ومن النيوترونات ، وليس المجال هنا لأذكر أهمية هذا الجسم (النيوترون) فى جميع مراحل العلوم الذرية ، فباستخدامه وصلت هذه العلوم إلى هذا التقدم والنجاح ، وهو موجود فى جميع تَوَيَّات العناصر المختلفة ابتداء من العنصر الثانى الهيليوم إلى العنصر الـ (١٠١) الفرميوم ، ولقد كان الفضل فى الكشف عن هذا الجسم الهام لفرسان خمسة كانت إيرين كورى أحدهم ، وهؤلاء الفرسان هم :

شادويك الانجليزى ، وإيرين كورى ، وزوجها فردريك جوليو الفرنسيان ، وبوت ، وبِكْسَرُ الألمانيان .

(ج) الكشف عن النشاط الإشعاعى الصناعى ومعرفة النظائر المشعة :

والنشاط الإشعاعى الصناعى هو نشاط إشعاعى ذرى لم يكن موجودا فى الطبيعة ، والنظائر المشعة هى عناصر أو نظائر للعناصر المختلفة ، أمكن بفضل إيرين كورى وزوجها جوليو جعلها مشعة كالمواد المشعة بطبيعتها ولها كل خواصها .

واقلة المواد المشعة الطبيعية وصعوبة استخلاصها ، وبالتالى ندورها وارتفاع أمانها ، وكثرة النظائر المشعة وسهولة استحضارها تقدمت التطبيقات الذرية باستخدام النظائر المشعة ودخلت جميع فروع العلوم التطبيقية ، وهنا يجدر بنا أن نؤكد أن الفضل فى كشف هذه الظاهرة للنشاط الإشعاعى الصناعى ووجود النظائر المشعة يرجع وحده إلى إيرين كورى وزوجها جوليو ، وقد نالا من أجل هذا الكشف جائزة نوبل سنة ١٩٣٣

ولأهمية الكشف الأخير أذكر الظروف العلية التى تم لها فيها هذا الكشف الخطير الذى كان له أكبر الأثر فى تقدم الذرة من أجل السلام .

يعرف الباحثون في نواة الذرة أن لعنصر الألومنيوم عدة تحولات هند الضرب بقذائف النواة ، وقد ذكرتُ في محاضرة سابقة في المجمع المصرى للثقافة العلمية وفي قاعة مصلحة الكيمياء في ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ ، وفي أخرى بجمعية المهندسين في ٣ مارس من السنة ذاتها ستة من هذه التحولات ، اثنان بقذف نواة الألومنيوم بالبروتونات أو الديترونات ، واثنان منها بالقذف بالنيوترونات ، واثنان بالقذف بجسيمات ألفا الخارجة من المواد المشعة الطبيعية ، وفي هذين التحولين الأخيرين يحصل الباحث عوضاً عن الألومنيوم على سيليسيوم وبروتونات سريعة ، أو يحصل على سيليسيوم ونيوترونات سريعة وكذلك على بوزيتونات سريعة ، وقد لاحظت إيرين وزوجها أن البوزيتونات يستمر خروجها من الصفحة المعدنية بعد إبعاد المنبع المشع الذى يُستخدم للحصول على القذائف مما يدل على وجود مادة جديدة اكتسبت نشاطاً إشعاعياً - هذه المادة الجديدة في تجربة إيرين وزوجها كانت الفوسفور ، ولكنه فوسفور مشع ، تحول بعد مدة وجيزة إلى سيليسيوم ، وهى المادة الأخيرة الثابتة التى تصادف كل باحث دون أن يفتن إلى وجود فوسفور مشع ، وبعبارة أخرى أرجعاً متساوية الألومنيوم إلى تفاعلين نووين أى متساويتين الأولى أنه عند قذفه بجسيمات ألفا تحول إلى فوسفور مشع مع خروج نيوترونات والثانية أن هذا الفوسفور المشع تحول بدوره وفي سرعة إلى سيليسيوم مع خروج بوزيتونات .

وبما أنه قد نشأت مادة جديدة هى الفوسفور المشع ، ولم يكن معروفاً أن من بين نظائر الفوسفور نظيراً مشعاً فقد اعتبر العلماء هذا خلقاً صناعياً لمادة مشعة ، غير المواد المشعة الطبيعية التى كانت معروفة ، وتساءل العلماء بعد هذا إذا كان من الجائز عمل مواد أخرى مشعة صناعياً ، وفتح الباب على مصراعيه بخلق عدد عديد منها فكان الصوديوم المشع والبوتاسيوم المشع والكوبلت المشع وغيرها من مئات النظائر المشعة المعروفة اليوم ، والتى أصبحت نافعة للإنسان في الطب

والزراعة والصناعة وغير ذلك من شتى التطبيقات التي تهدف كلها إلى تقدم الجنس البشرى .

وإني لأهمية الكشف أذكر نص نشرة إيرين وجوليو من واقع محاضر المجمع العلمى الفرنسى ، حيث ظهرت نشرتهما عن خلق النظائر المشعة بعد نشرة والدتها الخالدة بخمسة وثلاثين عاما ، وهى النشرة التى نالت عليها إيرين وجوليو جائزة نوبل وفيما يلى نص النشرة :

• نضرب صفيحة من الالومينيوم بضع دقائق بجسيمات د ألفا ، الخارجة من البولونيوم ، وعند سحب الصفيحة نلاحظ أنها تكتسب نشاطاً إشعاعياً يتناقص للنصف فى ثلاث دقائق .

على أن الإشعاع الخارجى الممكن ملاحظته بواسطة عُدّاد أو فى غرفة ولسون هو بوزيتونى ، ويتناقص الإشعاع وفق قانون أشى ، وهذا يدل أننا أمام مادة مشعة .

لقد عاصرنا هذا الكشف الخطير وكنا فى المعامل والأروقة المجاورة للمعامل التى تمّ فيها هذا الحدث العلمى الذى هز العالم ، ولقد لغت إيرين كورى وجوليو نظر العلماء فى مؤتمر لندن ١٩٣٣ ، وفى باريس فى حديقة النباتات عند عرض تفصيلات هذا البحث ، وانتظم من أعمالها علم جديد .

(د) المرحلة الرابعة والأخيرة انقسام أو انشطار نواة البليتونيوم . نستطيع أن نقسم هذه المرحلة الهامة والفاصلة من البحوث التجريبية خاصة بنواة الذرة إلى مرحلتين هامتين تمّ الكشف عنهما فى مدة قصيرة حوالى الأسبوع وذلك فى يناير سنة ١٩٣٩ ، أما الأولى فهى حدوث انشطار للبليتونيوم وهو اليورانيوم ٩٤ وكان ذلك فى تجارب أوتوهان الألمانية الخالدة فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٨ حيث ظهرت النشرة عنه فى ٧ يناير سنة ١٩٣٩ ، والمرحلة الثانية هى ملاحظة جوليو كورى مع زميلين له - هما هلبان وكوارسكى ، وبعد كشف أوتوهان

بأسبوع واحد - وجود نيوترونات متطوعة من الانشطار الأولى تعمل بدورها على إحداث انشطارات أخرى واستمرار السلسلة ، ولم يكن لإيرين كورى دور مع زوجها وزميليه في هذا الكشف الأخير رغم أنى ذكرت في كتابى الثانى . ماذا تخبئه نواة الذرة للإنسان ، المنشور سنة ١٩٤٩ اشتركا مع زوجها في هذا الكشف الأخير ، ولكنها صححت لى عقيدتى هذه عند انعقاد مؤتمر الجسيمات المتناهية فى الصغر الذى عقد فى باريس فى الأسبوع الأخير من شهر إبريل سنة ١٩٥٠ ، ويحمد المطلاع تفصيل ذلك فى كتابى الثالث « الذرة ومستقبل العالم ، المنشور حديثاً ، وفى هذا نلّس لهذه العالمة الجليلة خلقاً عالياً - بنسبة الفضل لذريه - وهو خلق العلماء .

* * *

هذه هى الأسس الأربعة أو الدعائم الكبيرة التى قامت عليها العلوم الذرية التجريبية فى الستين سنة الأخيرة ، ونرى منها أنه لا يمكن أن نفصل عمل إيرين كورى عن أهم أحداث العلم التجريبى من ناحية ولا عن أعمال عائلتها الخالدة من ناحية أخرى ، فوالدتها كما سبق أن ذكرنا كشفت البولونيوم بمفردها على أثر كشف هنرى بكارول اليورانيوم ، ووالدتها كشفت من جديد الراديو مع والدتها بحيث امتزج بكارول ووالدتها ووالدها فى أكبر عمل علمى تم فى آخر القرن التاسع عشر ، وهى وزوجها لهما فضل وفير فى الكشف عن النيوترون مع ماله من أهمية ، وأخيراً لهما أكبر الفضل فى الكشف عن النظائر المشعة كثيرة الاستخدام اليوم ، وفى النهاية كان لزوجها مع زميليه الفضل فى تنبيه العالم أجمع لحدوث سلسلة هامة فى عمل أوتوهان الخالد .

* * *

أى فضل عمّ البشرية أكثر من أفضال هذه السيدة وعائلتها ؟ طالمة وزوجها وولداها تدخل جائزة نوبل من بابهم خمس مرات خلال ثلاثين عاماً ، أى فضل شمل بنى الإنسان أكثر من خلق ما نسميه اليوم النظائر المشعة .

يقولون أنها انتهت كوالدتها متأثرة بالنشاط الإشعاعي ، وهو قول معقول ، فقد أفنت حياتها في هذه الأجواء المشعة قبل أن تصل الوقاية من هذه الأجواء درجة الكمال التي وصلت إليه اليوم .

أذكر يوماً في سنة ١٩٣٤ تناقش فيه علماء السوربون في موضوع دفن أمها في البانتيون مدفن العظماء ، وهي التي لم تحظ بهذا الشرف ، كنت على مقربة من اثنين من جهاذة العلم ، هما : جان بيران من حملة جائزة نوبل في الطبيعة ، والمرحوم العالم الكبير من له الفضل في تكويني الأستاذ جيبه يحاولان الحصول على تأييد غيرهم ليكون مقرها الأخير في البانتيون ، ولا أريد أن أعلل الأسباب الآن فيما وصل إليه الأمر في هذا الشأن ، ومن يدري إذا كانت إيرين كوري ستقبل إليه لتكون جوار روسو بمعمله يُنير العالم ، وترقد قريباً من قلب جامبنا المحفوظ على حائط سلم البانتيون الموصل إلى أسفل الدار إلى مقابر الخالدين ، أم أنها ستكون خارج هذه الدار ، وأيا كانت رقدتها الأخيرة فقد استقرت في قلوب العالم أجمع ، وذلك لما قدمت إليه من آثار علمية ينعم بها في سبيل حياة أفضل ويسير بها نحو سلام دائم .



في خطاب لفيلسوف هيجو ألقاه في سنة ١٨٧٨ بمناسبة مرور مائة عام على وفاة « فولتير » قال في وصفه : « فولتير هو القرن الثامن عشر ، وسرد الأحداث التي جعلت من فولتير زعيماً لهذا القرن بكتابات التي اشتهر بها أثر حادتين : الحادث الأول : تعذيب وإعدام « جان كالايس » الذي ظهرت برأته بعد إعدامه . والحادث الثاني : تعذيب وإعدام الشاب « لا بار » متهماً بأنه اقتلع صليب الكيسة في بلدة إيفيل ، وكان بدوره بريئاً .

لقد خلق الحادثان فولتير العظيم الذي هاجم قضاة فرنسا ، وسخر من القساوسة وأطاح بالملكية ، وجعل كل هذا منه زعيماً لا يبارى للقرن الثامن عشر ، وأشرك

هيجو معه في هذه الزعامة خمسة ، هم : جاك جان روسو ، ومونسكيو ، وديدرويه ، وبيفون ، وبومارشيه .

فهل لى أن أصف القرن العشرين الذى نعيش فيه الآن أنه مدام كورى وبكارل وبير كورى - إنه أينشتاين وماكس بلانك وبوهر - أنه رذرفورد وإيرين كورى وجوليو - أنه فرمى وأتوهان - إننا نكون بهذا التقرير قد أحسننا صنعا أن وضعناها وسط هذه الزمرة من الرجال المحسنين الذين هم فى الواقع بناء القرن العشرين .

لقد كانت الدنيا أيام التى هيجو خطابه الرائع فى حاجة إلى تذكيرها بحرية الفرد وقيمة الإنسان ، أما اليوم فقد بتنا فى عصر آخر وأضحينا أمام معركة تختلف عن تلك المعركة التى خاضها فولتير بشجاعة منقطعة النظير - اليوم يوم معركة العلوم ، معركة البقاء أو الفناء ، وترانا فى أشد الحاجة إلى من يذكرنا بهؤلاء الأعلام الذين طالما سعوا لإبعادنا برفق عن طريق الفناء ، وأخذوا بأيدينا نحو طريق البقاء - هذه الزمرة من خدام البشر تجد إيرين كورى مكانها الطبيعى بينها ، ولا عجب إذا وضعناها بين بنائى عالم جديد هو عالم الخير والسعادة والهناء لا عالم الشر والشقاء والفناء ؟

قال شيخنا

حضرة الطالب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريري

قال شيخنا :

إني لمجد من ثنائى فقاصد	به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهز به فى ندوة الحى عطفه	كما هز عطفي بالهجان الأوارك
قليل التشكى للنهم يصيبه	كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بمومة ويمسى بغيرها	جحيشا ويعرورى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتهى	بمنخرق من شدة المتدارك
إذا حاص عينه كرى النوم لم يزل	له كالىء من قلب شيخان فاتك
ويجعل عينه ربيعة قلبه	إلى سله من حد أخلق صائك
إذا هزه فى عظم قرن تهلك	نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأانس الأانس ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

ابن عمه شمس بن مالك أهدى إليه الهجان الأوارك : الإبل الكريمة التى ترعى الأراك ، فهز عطفه فهو يعامله بالمثل مثفيا عليه ثناءً أهزه فى ندىّ قومه ، وتالله إنه لرجل حقيق بالثناء ، صبور لا يتشكى البلاء بعيد الهمة متعدد المطالب يسلك إليها مختلف المسالك . يصبح بمفازة ويمسى بغيرها مستقلاً بأمره لا يتردد فى أن يركب ظهور المهالك . سريع اللية يسبق طلائع الريح إذا شد إلى غايته شدا متداركا . تنام عيناه وقلبه يقظان ، حازم فاتك ، يتخذ من عينه رقبيا ينبئ بالنبأة فيجعل إلى سل سيف صقيل قاطع إذا ضرب به ضحككت المنايا فأبدت نواجذها لأنها على

يقين من أنها مقاتلة فريسة يقدمها إليها شمس بن مالك ، هذا الوحش الأدنى المستأنس بالوحدة المستغنى عن الدليل . اللهم إلا أن يكون الشمس أو المجرة فهو مهتد بما تهتدى به النجوم أو أمها .

قلت : له الله من جاهل بحسب الشمس أم النجوم ، ولو أنه عرف ما يعرفه الآن تلاميذ المدارس الأولية ، لعلم أن الشمس ، بل المنظومة الشمسية مثلها ، شيء حقير بالقياس إلى الشعرى العبور أو أختها الغميصاء أو ما شاء من نجوم السماء التى يستطيع أصحاب الفلك أن يحدثوه عن عظمتها حديثاً حقيقياً يعجز الخيال أن يرقى رقبه .

إن القافلة العلمية ما كانت لتسير إلا بجهزة بأجهزتها الفلكية وغيرها بما قد تدعو إليه الحاجة ، وإذا كانت السلامة فى جانب صاحبكم عشرا ففى كنف أصحابي مائة عشر ، ألا فلتسمع لى أن أخالف عن أمركم ، وأن أستظل بظل العلماء وأنبعم حيثما ارتحلوا وأينا حلوا .

قال : إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم ، أو إلى حيث طار الطائر الميمون فليست أدرى . ذلك بأن السلامة والندامة لا ترتبطان لا بعلم ولا بجهل ، ولكنه (القدر) فيما يعلم المؤمنون (والحتم) فيما يقول الكافرون .

قلت : ولكنى أوجه نظركم إلى موضع حديثنا . . كنا فى شمس بن مالك أو فى الهجان الأوارك التى أهداها إلى ابن عمه تأبط شراً فكانت هبة بعوض ، عوضها هذا الشعر الذى أنشدتمونه وهأنذا أفكر فيه وفى القيم الإنسانية وكيف تتحول بها الأحوال . فما أحسب هذا المديح الذى هز عطف ابن مالك يرضى الآن المتواضعين من الرجال . . وإلا فن ذا الذى يبعث كبرياءه فى أيامنا هذه أن يقال له : إنه يستأنس بالوحشة ، فأتك ما ينفك وراءه مطالب بدم ، فهو يقظان هاجع عينه ربيثة قلبه ، وقد يضطره مطارده إلى أن يعدو عدواً سريعاً يسبق وقد الريح ، فهو طريد شريد ، يصبح فى فلاة ويمسى فى غيرها . ثم هو جحيش .

ألا ترون في جحيش ، هذه شيئاً بغيضاً ؟ فليست أدري ماذا يصيبني لو أتى واجهت رجلاً أبدأ بأنه جحيش ؟ .

قال : روبدك بعض سخريتك ، فحجيش هذه تساوى (فريداً) فالكلمتان مترادفتان فلماذا يغضب من تواجهه بأنه فريد . فريد في نوعه . فريد في علمه . فريد في حله أو فيما شئت . ؟ فالكلمة في ذاتها لا تتضمن قدحاً ولا مدحاً وإنما توجهها حيث شئت إذا خصصتها بإضافة أو غيرها . ألا وإن الصفات التي خلغها تأبط شراً على ابن عمه لحيدة جد حميدة . أدخل في حسابك ظروف الزمان والمكان وما يترتب عليها من تحول في السلوك ؛ تجدد الصفة الشخصية هي هي ولو أخذت بالضرورة لون البيئة أو نشاط الوسط الاجتماعي . فشمس بن مالك مثلاً رجل جلد ، صبور ، يفظ ، متحرك أبدأ ولو كان قد قدر له أن يعيش في أيامنا هذه ، لكان رجل أعمال من الطراز الأول . يمسى في أوروبا ويصبح في أمريكا ثم لا يلبث أن يستقل (نفائة) تحمله إلى آسيا ، ولكن الله خلقه في القرن السادس الميلادي لا في القرن العشرين ، وفي البادية لا في مدينة أوروبية أو أمريكية فكان دأبه أن يستقل ، بدل (النفائة) العصرية ، ناقة جمالية ، وأن يرتاد ، بدل المدن الآلهة الفلوات القاحلة . هو على أى حال نشاط تختلف أوجه باختلاف الملابس ، فشمس بن مالك قد يصبح (فورد) ، وفورد قد يصبح شمس بن مالك لو تبادلا ظروف الزمان والمكان .

قلت : خيال يسرح بنا أيما مسرح .

قال : أو يشطح بنا أيما مشطح ، أو قل سمادير رمضان ، ومرة أخرى لنعد إلى ما كنا فيه : إلى تأبط شراً عفا الله عنه .

قلت : كيف يعفوه عنه ، وهو ممن كانوا يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، فهو لم يك إلا صعلوكاً قاطع طريق ، أكبر همه الجريمة ، يأكل أموال الناس بالباطل ، ويقتل النفس التي حرم الله . ثم هو قبل هذا كله مشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قال : ومع هذا كله يغفر الله سبحانه وتعالى لتأبط شراً ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما كان لإجرامه ولا لإشراكه لينقض حكماً آخر جاء فى كتاب الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، وقد قتل تأبط شراً فى الجاهلية ، فهو من أهل الفترة الذين يعلم صبيان الكتاب أنهم ناجون من العذاب ، وهذه مسألة تتناول تأبط شراً وكثيرين غيره وهو حسبنا اليوم وكفى : كانت حياته عفا الله عنه جافة حازمة قاسية لم تعرف الهزل ولا الدعة ولا النعمة أليس هو القاتل : —

ولا أقول إذا ما خلعة صرمت يا ويح نفسى من شوق وإشفاق
لكننا عولى إن كنت ذا عول على بصير بكسب المجد سباق
فأنت تراه لا يهमे وصل غانية ولا صرما ، إذا أمكنت الفرصة ووات بها
ونعمت ؛ وإلا فلا توجع ولا حسرة فهو لا يعول على امرأة وإنما على رجل بعيد
الهمة بصير بكسب المجد سباق إليه .

قلت : أحسبها عقدة نفسية ، فأنا أعلم أنه كان يتعشق جارية ويتعقبها فلا
يسمعه الحظ ، ثم قيض له شيطان ساقها إليه فجاءته هى تسعى إليه ، جاءته تهادى
فى استرخاء وتكاسل أو كما قال :

تمشى إليك مشية حوقلة كشية الأرخ تريد العلة
يعنى تمشى متباطئة متثنية مشية البقرة عائدة إلى المورد بعد أن نهلت فهى
تريد العلة ، ولكنه كان ، مع بالغ أسفه غير مستعد للاستجابة فرجعت من حيث
أنت ، ولا والله ما نهلت ولا علت ، وأحسبكم تروون الرجز الذى يحل فيه
هذه الواقعة .

قال : نعم أرويه ولكنى لا أرى فيه ولا فى الواقعة ما يمكن أن يكون
جرثومة عقدة نفسية ، بل أنا بصفة عامة ، لا أقبل - إلا متحرزا كل التحرز -
ما يقوله أصحاب علم النفس فى العقد النفسية وغيرها من المسائل التى عرضوا لها
وظنوا أنهم جلوها فى حين أنهم أبهموها بل لقد افترضوا افتراضات ثم حججوها

حقائق ثابتة أثبتوها مقدمات جاءت نتائجها متوهحات يرفضها العقل بل ترفضها الفطرة قبل القياس العقلي كالشعر المكسور تمجه الغريزة الشعرية قبل وضعه في قالب التفاعيل .. هذا على أنك تعرف في غير مشقة ولا عسر : النفس الأماره بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة ، فليت القوم نحوا هذا النحو وخلاهم ذم .

قلت : ولكن علم النفس ارتفع إلى منزلة ما كان لينزل عنها وحسبه أنه علم .

قال : كونه علما موضع نظر ، أفليس أكثره نظريات لا يستطيع أصحابها أنفسهم الزعم بأنها ارتفعت إلى درجة القوانين ؟ .

قلت : أفقرأتم ما كتبه أعلام علم النفس والتحليل النفسى وبخاصة ما كتبه (سيجمون فرويد) .

قال : فهذا مثلاً رجل التوث به الغريزة فرد كل التصرفات الإنسانية إلى الغرائز بل إلى غريزة معينة ، مغفلا العقل أو سمع العقال إن شئت ، فهو الذى يقفك أو يعقل غريزتك إذا انطلقت الانطلاق الحيوانى البهيمى ، ولكن صاحبك (فرويد) هذا ينطلق ملتوياً مع غريزته إلى حد الزعم بأن بنى آدم ضخوا بالنفس والنفس فى سبيل أصول خلقية ليست فى واقع الامر إلا أوهاما ، لأنه لياسف ويتألم لبنى جنسه الذين خدعتهم القواعد الخلقية دهرأ طويلا حتى شرفت طلعتة السنية ، هذه الإنسانية التى تعذبت حتى جاءها المخلص فرويد آخر الدهر أو لعلى أخطأت شخص المخلص ، فعسى أن يكون آخر غير (فرويد) هو (أوجست كونت) صاحب الفلسفة الوضعية وإلغاء ما وراء الطبيعة ، ومن يدرى فلربما أخطأت فى الثانية ، فليس المخلص أوجست كونت ولا فرويد ، وإنما هو صاحب الدعوة الكبرى (ماركس) - بهؤلاء وأمثالهم فتنت الإنسانية خلال القرنين الماضيين أو الثلاثة فتنتها الكبرى ، ولكن يبدو أن الغمامة منقشة ، فإن الرسل المزعومين الذين انبعثوا من تلقاء أنفسهم بعد بعثة خاتم النبیین محمد عليه صلوات الله والملائكة والناس أجمعين ، أولئك الرسل كذب بعضهم بعضا ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، أولئك ذوو الآفات أرادوا الناس جميعاً على أن يكونوا زمنى أمثالهم .

قلت : على رسلك يا سيدى الشيخ ، من كفر فعليه كفره ، وليزيدهم ربك طغيانا وكفرا ، ومهما يكن شأن ملاحدة النصف الغربى من الكرة الارضية فإن أثر إلحادهم وأشككهم وأشكيكهم إلى آخر أوجه الفساد والإفساد فى أمور العقيدة وغيرها من شؤون العباد ، كان أثرا ضئيلا فى الإسلام والمسلمين ، فما كان سوادنا قط ولن يكون فيما أعتقد من أتباع الفلسفة الوضعية ولا غيرها من الفلسفات الجديدة ، سواء اتصلت بالمعتقدات أو بالسيرة الاجتماعية : تستطيعون أن تحدثوا عن فلان أو علان ممن خلبهم بريق الفوضوية الفكرية والخلقية من وجودية وغير وجودية من المذاهب الشاذة التى يعجز معتقوها أنفسهم أن يدافعوا عنها ، بل إن كثيرين منهم ليستحيون من أنهم إليها ينتمون ، فلا تتيبنهم إلا فى مناسبات معينة كما كان المنافقون الأولون يستبينون على عهد الرسول الامين إذا ذهب الخوف ، أو بتعبير أعم إذا تحققت الحال التى يتأكد لهم معها أنه لن يلحقهم ضرر ، ولن تقوتهم منفعة جراء ظهور نفاقهم ، إن فلانا وعلانا وأضرابهما لا يمثلون إلا قلة قليلة فى العالم الإسلامى كله لا يؤبه لها ولا يمتد بها . لست أعنى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأتانا نحن المسلمين فى أحسن حال ، وإنما أعنى أن الذين فسدوا منا بسبب المعرفة الجاهلة أو سمها الجهالة المتعالة قليلون يعدون على أصابع اليدين والرجلين ، فأما الفساد العام الذى شمل الأمة جمعاء فإن له علة وحيدة ليست فلسفة ولا شهوة ولا فاحشة أيا كان لونها مما تواطأت الناس على تسميته فواحش . . . علة وحيدة غفل المسلمون عنها - على خطورتها - مدى قرون طويلة أخذهم النوم فناموا عنها ثم ناموا وطالب لهم النوم فاستغرفوا فيه ثم استغرفوا ، ولكن جماعة من جملة النائمين استيقظت آخر الامر ، وهى الآن مشغولة وستظل مشغولة أبد الدهر أو يستيقظ النائمون فيصيحوا ويصيحوا ، أعنى أنهم يبرءون من داء النوم .

قال : ليس بمحاورك حاجة إلى الذكاء كي يدرك أنك لا تعنى بتلك العلة الوحيدة غير تفرق الكلمة التى مانهض الإسلام ولا استفهام على طريقته إلا لأنها كانت مجمعة .

قلت : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد

خوفهم أننا يعبدونني لا يشركون في شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . هذا وعد بل عقد شبيه بذلك الذي اشترى به سبحانه وتعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فكل مؤمن تطيب نفسه عن بذلها وبذل ماله في سبيل الله له الجنة ، وله أن يستبشر ببيعه الذي يقتضى ثمنه في الدار الآخرة ، ولكن الإسلام دنيا قبل أن يكون أخرى ، فكيف تنتظم أمورنا في الحياة الدنيا ؟ ذلك هو محل الوعد أو العقد سالف الذكر إيمان وعمل صالح ، ذاك هما الالتزامان اللذان شاء الله أن يلتزمهما المسلمون باعتبارهم هيئة اجتماعية ، أعنى أنه تكليف للجموع فإذا وفينا وأبرأنا الذمة فإن المقابل هو الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين فيها وإبدال الخوف أننا ، وثالله لقد برئت الذمة ، ونصر جنده وأنجز وعده . فكنا خلفاء الأرض وملأناها عدلاً بعد أن أتى عليها الجور أو كاد قبل أن يكرم الله العباد برسالة النبي الأسمى الذي وجده أهل الكتاب مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، ويضرب الدهر من ضرباته فإذا الخلفاء مستخلف عليهم ، وإذا الدين المتمكن موشك أن يهدم ، وإذا الأمن خوف والمسلمون يتخطفهم الناس من حولهم ، أفليست هذه حالنا حقيقة لا مجازاً ، فلماذا ؟ .

قال : الجواب يكاد يفصح عن نفسه دون حاجة إلى لسان أو قلم فاستمع إلى لسان الحال وخلاك ذم . فلماذا لمّاذا تلك التي قدمت ؟ إنه عقد أو وعد نفذ واستمر تنفيذه حتى أدخل به أحد الطرفين فكان جدد طبعي أن يستعمل الطرف الآخر حقه فيوقف التنفيذ . لا بد إذاً أن أحد الالتزامين أو كليهما - الإيمان والعمل الصالح - قد قصر أو وهن فليس من الجائز أن يخلف الله وعداً أو ينقض عقداً إلا أن يقتضى عدله الإلهي وقف التنفيذ أو ما هو أدهى وأمر .

قلت : كان أكثر المسلمين حتى في أيام خاتم الأنبياء والمرسلين منطبقاً عليه قول أصدق القائلين : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » فليس شك في أن الناس المستكلمة إنسياً يفتهم قلة في كل زمان : وآدم نفسه عهد الله إليه فنسى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » .

فما الذى طرأ على المسلمين حتى يأخذهم سبحانه وتعالى بما أخذهم به فى الدنيا قبل الآخرة فالمساجد مليئة ، والحاج يزداد عاما بعد عام ، وكذلك الحال فى سائر الطاعات التى تقع تحت المراقبة الحسية ، اللهم إلا أن تكون النفوس قد تغيرت فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قال : أولا يقع تحت المراقبة الحسية أن نرى المسلمين مجتمعين كلهم أو منشفة عصاهم ، دعنى من الصلاة والصوم - ولست أعنى بطبيعة الحال الإقلال من شأنهما - وإنما أعنى بعض ما قاله حجة الإسلام فى قرننا هذا - واعفى من ذكر اسمه (لقد كان الإسلام ولم تكن صلاة ولا صوم) . اجمع كلمة المسلمين تجدهم خلفاء الأرض وأعلامها فى الطول والعرض ، إن عزة الإسلام رهينة التقريب ، تقريب المتباعدين ، وهم إخوة المبددين أما ضعيفة ذليلة ، وهم الأمة الواحدة القوية الآية .

قلت :

مُنَى إن تكن يوما تكن أحسن المنى وإلا فقد غشنا بها زمنا رغدا

قال : منى وليست بالآمانى وتحققها وليد إرادتنا . لو أردنا لقدرنا ، ليرد كل من يعرف رسالة الإسلام أن يكون واحدا من الأمة الإسلامية تتحقق الأمانة وتحقق الراية الإسلامية كما كانت تحقق حين كنا ولا تسئل كيف كنا .

قلت : حين كنا ولا تسئل كيف كنا : شطر بيت لعله لتأبط شراً

فنحن فيه ... ؟

قال : أو هذه ألفاظ وتركيب يمكن أن يعزى إليه ؟ إنه لجهد ضائع إذا عجزت أن تميز أسلوب صعلوكنا الشهير فإلى فرصة أخرى نستند فيها باقى هذا الحديث ؟

من محوت مجمع اللغة العربية^(١)

مَعْمُ الْفَاطِ الْفَرَّانِ الْكَرِيمِ

— ١٩ —

دول

دولة دالت الأيام تداول دولاً . دارت وأدال الله منه : غلبه ونقل منه الدولة . والدولة والدولة : انقلاب الزمان ، وما يدول أى يدور للإنسان من الغنى والغلبة والجد ، جمعها دول ، وقيل الدولة فى الملك والنصرة ، والدولة فى الملك والمال .

وقيل : هى بالضم ما يتداول كالفرقة اسم ما يغترف ، وبالفتح مصدر بمعنى التداول ، ومنه : دكى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، ٧ / الحشر .

والمعنى كى لا يكون الشيء خاصة بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو غلبة جاهلية بينهم ، فإن الرؤساء كانوا يستأثرون بالنعمة ويقولون : من عزيز . أو كى لا يكون شيئاً يتداوله الأغنياء ويتعاورونه فلا يصيب أحداً من الفقراء .

تداول داول الامر تداوله مداولة : نقله الشيء من واحد لآخر لجعل الأيدى تتداوله ومنه : د وتلك الأيام تداولها بين الناس ، ١٤٠ / آل عمران . أى نصرها بينهم فتدبل لهؤلاء مرة ولهؤلاء أخرى .

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

د و م

دام يدوم ويدام دوما ودواما وديمومة : امتد عليه الزمان ، وأصل الدوم دام السكون ، يقال دام الماء : أى سكن ، والماء الدائم : أى الساكن ، وأدمت القدر ودومتها : سكنت غليانها بالماء ، وما ورد من هذه المادة في القرآن فهو على معنى امتداد الزمان ، ومنه : « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض » ١٠٧ / هود أى مدة دوامهما ، وهذه عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذلك ما لاح كوكب .

« والذين هم على صلاتهم دائمون » ٢٣ / المعارج . أى مواظبون على أدائها أو لا يلتفتون فيها ، ومنه الماء الدائم أى الساكن . وقد وردت المادة أيضا في ٧٥ / آل عمران ، ٢٤ ، ٥٦ ، ١١٧ / المائدة ، ٣٥ / الرعد ، ٣١ / مريم .

د و ن

دان يدون دونا : صار خسيصاً أو ضعف وقصر . ويقال للقاصر عن الشيء : دون دون ، والمعنى العام للمادة : الضعف والخسة والقصور والقرب . ودون وهي ظرف مكان لا يتصرف ، نقيض فوق ، ويكون بمعنى أمام ووراء وقبل وأقل وغير وبمعنى الاختصاص ، وبمعنى تجاوز الحد .

ومعناها العام : أقرب مكان من الشيء كعند ، إلا أنها تنفي عن دنو كثير وانحاط يسير سواء كان ذلك في المراتب الحسية أم في المعنوية . وقد استعمل في كل تجاوز من حد إلى حد ، ولو من غير تفاوت وانحطاط ، وهو بهذا المعنى قريب من غيره ، فكانت أداة استثناء ، ومستعمل بمن كثيرا وبالباء قليلا .

وقد ورد في القرآن استعمالها بمعانيها المختلفة .

١ — فدون بمعنى أقل في المواضع الآتية :

« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ٤٨ ، ١١٦ / النساء . أى ما كان أقل من الشرك ، وقيل هي بمعنى غير وسوى ، والمعنيان يتلازمان . « واذكر ربك في نفسك

تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول ، ٢٠٥ / الأعراف ، أى واذكرا ذكرا
أقل من الجهر . « ومن دونهما جنتان ، ٦٢ / الرحمن . أى وأقل منهما في المنزلة
والندر أو في القرب للنعيم . « منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، ١٦٨ / الأعراف
أى ومنهم أناس أو فرقة في درجات أقل من الصلاح ، فدون واقع موقع الصفة
لمحذوف والمشار إليه هو الصلاح المفهوم من الصالحين ، أو ومنهم منحطون
عن الصالحين ، ودون حيثنذ مبتدأ ببق مفتوحاً لتمكنه في الظرفية مع إضافته إلى
المبنى والمشار إليه هو الصالحون .

٢ — ودون بمعنى قبل في المواضع الآتية :

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ، ٢١ / السجدة
« فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ، ٢٧ / الفتح ، أو هى بمعنى غير ، أى فجعل من
غير تحقق مصداق الرؤيا من دخول المسجد الحرام الخ . وكذلك في ٤٧ / الطور ،
٥٨ / الكهف .

٣ — ودون بمعنى قبل أو جهة في المواضع الآتية :

« وجعلها تطلع على قوم لم تجعل لهم من دونها ستراً ، ٩٠ / الكهف :
أى من قبلها وجهها . « فاتخذت من دونهم حجاباً ، ١٧ / مريم . « ووجد من
دونهم امرأتين تزدودان ، ٢٣ / القصص . أى في مكان مما يلي جهته إذا قدم عليهم
أى من الجهة التى وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمة ، أو هى بمعنى قريبهم أو سواهم
وكذلك في ٩٣ / الكهف .

٤ — ودون بمعنى وراء في الموضع الآتى على أحد وجهين :

« وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ، ٤٧ / الطور . أى وراء ذلك كقول
الشاعر : (يريك القذى من دونها وهو دونها) أو هى بمعنى قبل .

٥ — ودون بمعنى الاختصاص وقطع الشركة في الموضعين الآتيين :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا

الموت ، ٩٤ / البقرة . د خالصة لك من دون المؤمنين ، ٥٠ / الأحزاب .
فدون هنا للاختصاص ، يقال هذا لى دونك ، أى لاحق لك به معنى .

٦ — ودون بمعنى أمام كما فسرت فى الموضع الآتى على أحد الوجوه :

د وادعوا شهداءكم من دون الله ، ٢٣ / البقرة . أى وادعوا الذين يشهدون
لكم بين يدى الله على زعمكم .

٧ — ودون بمعنى غير أو سوى فى الآيات الآتية :

د وادعوا شهداءكم من دون الله ، ٢٣ / البقرة . فسرت فى أحد الأقوال بمعنى
غير أى وادعوا من غير الله من يقيم لكم الشهادة . د وما لكم من دون الله من
ولى ولا نصير ، ١٠٧ / البقرة . أى من غير الله أو متجاوزين الله . وكذلك فى
١١٦ / المائدة ، ٣٧ / يوسف ، ٨٢ / الأنبياء ، ٢ / الإسراء ، ٨٦ / الصافات ،
٨٦ / النحل ، ٥٨ / النجم ، ١١٨ / آل عمران ، ١١٧ / النساء ، ٦٠ / الأنفال .

٨ — ودون بمعنى الأدون والدنى فى الموضع الآتى على أحد الأقوال :

د لا تتخذوا بطانة من دونكم ، ١١٨ / آل عمران . أى لمن لم تبلغ منزلته
منزلتكم فى الديانة أو من الأدنياء ، وقيل المعنى الاول بمعنى غير .

٩ — ودون المستعملة فى كل تجاوز من حد إلى حد هى الاكثر فى القرآن
وقد ورد فيها سوى ما تقدم من المواضع . مثل :

د وادعوا شهداءكم من دون الله ، ٢٣ / البقرة ، فى بعض الأقوال هى فى محل
نصب على الحال . أى متجاوزين الله . د وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ،
١٠٧ / البقرة ، أى متجاوزين الله . د وإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ،
٨١ / الاعراف . أى من متجاوزين النساء . د هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا
من دونك ، ٨٦ / النحل . أى ندعوهم متجاوزين إياك . د أم لهم آلهة تمنعهم
من دوننا ، ٤٣ / الأنبياء ، من دوننا صفة بعد صفة . أى مانعة لهم متجاوزة
منعنا وحفظنا ، وهكذا .

أَنْبَاءٌ وَأَرَاءُ

محمد على علوبة :

فقدت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية رجلاً من أقطابها البارزين هو المخفور له السيد محمد على علوبة ، طيب الله ثراه .

لقد كان هذا الرجل العظيم مثالا يحتذى في خلقه وشرف نفسه ، وقوة إيمانه وبسالته في نصرة الحق . عاش أكثر من ثمانين عاماً مرت بالعالم الإسلامي في خلالها أحداث جسام ، وبدت في آفاقه أضواء متعددة ، بعضها نور مبين ، وكثير منها برقٌ مُخْلِيبٌ ، وتهاقت على الأضواء المتعددة قلوب وأبصار ، لكنه - رحمه الله - ظل في مكانه الذي اقتعده كريماً على نفسه وعلى الناس ، وفيما لمبادئه حريصاً على مثله ، جاداً فيما يقنأول من الأمر طامّةً وخاصّةً ، دائب التفكير والعمل فيما يصلح أمته ويعلى شأنها ، لا يلوى على شيء ولا يخاف فيما يعتقد لومة لائم ، حتى كان في هذه العشرات المتابعة من السنين علماً هادياً ونجماً لامعاً يهتدى به السائر ، ثقة به واطمئناناً إليه ، وعرفاناً بعد التجربة بمكانته من الإخلاص والبصر والغيرة على الحق والقوة فيه .

وجماعة التقريب ورسالة الإسلام - ومكان الفقيد منها ، ومكان فكرتهما من نفسه المؤمنة ، كلاهما معروف لا يحتاج إلى تويه - تقفان من ذكره موقف الإكبار والاعتبار والدعاء ، محترفتين له بالفضل ، محسبتين إياه عند الله في الرعي الأول من الأبرار المجاهدين الصادقين : " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فهم من قضي نحبهم ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً " . .

من بحوث معهد الدراسات :

إن معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ماضٍ في طريقه بعون الله وتوفيقه ، وقد أقبل عليه الراغبون في التزود من البحوث الإسلامية إقبالاً شديداً على قرب العهد به ، وأصبحت بحوثه وآراء أساتذته تقابل من رجال العلم والفكر ، في مختلف الأندية والمجالس والمجلات العلمية في مصر وغيرها بالتبّع ، واتجهت إليه الأنظار اتجاهاً خاصاً .

ولما كانت مهمة هذا المعهد التي أخذ على نفسه الاضطلاع بها ، هي نشر الدراسات الإسلامية وتعميم الانتفاع بها في محيط جميع المهتمين بذلك ، وليس في قاعات الدراسة فحسب ، فإنه يسرنا أن نفصح في رسالة الإسلام مجالا لبحوثه ، فالعلم أخوة ورحمٌ موصولة ، ومن حق قرائنا علينا أن نتابع لهم كل وجه من وجوه النشاط حتى يشققوه ، ومن قبل وصلنا بينهم وبين أهم ثمرات المجموع اللغوي ، حيث واطبنا على نشر معجم الفاظ القرآن الكريم في مختلف مراحله .

ويرى قراؤنا في هذا العدد من رسالة الإسلام فصلاً من بحث ألقى في محاضرات متتابعة بالمعهد ، وسنوالى نشر بقية فصول هذا البحث وغيره في أعدادنا القادمة إن شاء الله ، حتى يستطيع قراؤنا في مختلف الشعوب الإسلامية ، أن يكونوا على صلة عملية بهذا المعهد الناشئ الذي نرجو له كل توفيق في خدمة الثقافة الإسلامية ، والبلاد الإسلامية ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .



الميزان في تفسير القرآن :

تفسير جديد للقرآن الكريم لساحة العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي من علماء الإمامية الاجلاء صدر منه جزآن يقع كل منهما في قرابة خمسمائة من الصفحات الكبيرة ، وقد طبع بطهران على ورق جيد وحروف طباعية حديثة .

قرأنا مقدمة هذا التفسير وبعض موضوعاته ، ونحن على نية أن نستوعب الجزأين قراءة وتدبراً إن شاء الله تعالى ، وقد وجدنا فيها قرأناه قوة علمية متعمقة

في البحث مع السهولة واليسر والبعد عن التشدد ، والتخفف من المذهبية الخاصة إلى حد بعيد والرجوع إلى القرآن نفسه بتفسير بعضه ببعض ، والنأي به عن الأقوال التي لا تصحح من الروايات الكثيرة المختلفة ، وعن الآراء التي ترجع إلى تأويل آياته حتى توافق نظراً علمياً ، أو تقليداً مذهبياً ، أو أصلاً كلامياً ، أو فلسفة خاصة ، أو تجديدأ حديثاً . . إلى غير ذلك مما تلححه في بعض التفاسير القديمة والحديثة .

ومما قاله في بيان منهجه : (نفسر القرآن بالقرآن ، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن ، ونشخص المصاديق ، ونتعرفها بالخواص التي تعطىها الآيات ، كما قال تعالى : (إنا أنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ، ولا يكون تبياناً لنفسه ، وقال تعالى : (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وقال تعالى : (إنا أنزلنا إليك نوراً مبيناً) وكيف يكون القرآن هدى وبينة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ، ولا يكفيم في احتياجهم إليه . وهو أشد الاحتياج ؟ وقال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وأى جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه ، وأى سبيل أهدى إليه من القرآن ؟) (١) .

ومن أبرز مزايا هذا التفسير أنه يعنى بعد شرح الآيات وبيان معناها ، يبحث الموضوعات الهامة ، والقضايا التي كثيراً ما شغلت الأذهان في القديم والحديث ، بحثاً مستمداً من آيات القرآن نفسها ، وقد قرأنا من هذا ما كتبه عند تفسيره لقوله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ، إذ بحث بحثاً جيداً في إعجاز القرآن من جهاته المختلفة في بلاغته وقوة أسلوبه ، وتحديه بالعلم ، وبالإخبار عن الغيب ، وبمن أنزل عليه القرآن ، وبعدم الاختلاف فيه ،

ثم تحدث عما يثبت القرآن من قوانين وسنن كونية ، كتصديقه لقانون العلية العامة وإثباته ما يخرق العادة ، ومن كون المؤثر الحقيقي في الأشياء بتمام معنى الكلمة ليس إلا الله عز سلطانه ، ومن أن القرآن يعد المعجزة برهاناً على صحة الرسالة لا دليلاً عاماً ، إلى غير ذلك من الجزئيات الهامة التي تضمنها هذا البحث الدقيق .

وإننا لنحيي المؤلف العلامة ، وندعو له بدوام التوفيق ، وأن يبارك الله للمسلمين في حياته ، وبالله التوفيق .

أطلس التاريخ الإسلامى :

يذكر القراء إن « دار التقريب » مهتمة بأن تيسر للباحثين في الشؤون الإسلامية معرفة عدد المسلمين في مختلف بقاع الأرض ، وأتانا نشرنا في العدد الثانى من السنة السابعة إحصاء توخى فيه « دار التقريب » الدقة على حسب معلوماتها وموازينها .

وبهذه المناسبة نذكر أن بين أيدينا الآن (أطلس التاريخ الإسلامى) الذى نقلته إلى العربية أخيراً مؤسسة « فرانكلين — بالقاهرة » بترجمة وتحقيق الأستاذ إبراهيم زكى خورشيد ، عن الطبعة الأولى التى ظهرت بالإنجليزية سنة ١٩٥١ .

وبهنا الآن أن نبادر فنقرر أن هذا الأطلس - من غير شك - تحفة علمية فريدة فازت بها اللغة العربية ، ففيه يلتقى المؤرخ بالجغرافى ، إذ يجد كلاهما العالم الإسلامى فى مختلف بلاد مرسومها بمواقفه وحدوده وسائر المعارف الجغرافية عنه ، فى مصوِّرات متلاحقة لكل قرن ، يفيد منها الجغرافى فى دراسته للجغرافيا التاريخية ، أى حالة كل قطر من الأقطار ، أو إقليم من الأقاليم ، فى العصور المتقدمة ، ويرى فيها المؤرخ صوراً ناطقة توضح حقائق التاريخ حتى تكاد العين أن تراها .

بيد أن ما ورد بهذا الأطلس عن عدد المسلمين فى العالم الآن ينقص كثيراً عما ذكرناه ، ونعتقد أن من أهم أسباب ذلك أن بعض البلاد الإسلامية لم يتحدد عدد سكانها بالضبط لأسباب مختلفة ، وأن بعضاً آخر مما يشترك فيه المسلمون

وغيرهم ، لا يعطى عدد المسلمين بالدقة ، بل ينقص هذا العدد عن واقعه كثيراً ، وسيظل هناك تفاوت في العدد ، واختلاف في تحديده ، مادام الأمر على ما وصفنا .

لهذا نحث الحكومات المختلفة على أن تتخذ من الوسائل ما يؤدي إلى ضبط التعداد بصورة حقيقية واقعية ، تفيد الباحثين فائدة واضحة ، بصرف النظر عن كل اعتبار آخر ، خدمة للحقيقة والبحث .

في جامعة د مونتريال ، بكندا :

أشرنا في العدد الماضي من رسالة الإسلام ، إلى ما بعث به فضيلة الدكتور محمد الهبي الأستاذ الزائر من الأزهر لجامعة مونتريال بكندا ، إلى دار التقريب ، عن صدق الدعوة في الأوساط العلمية الجامعية هناك .

وقد وصل إلى دار التقريب ، كتاب آخر من فضيلته رداً على الرسالة التي بعثت بها إليه متضمنة بعض المعلومات التي طلبها في كتابه السابق ، وقد تحدث فضيلته في هذا الكتاب عن بعض الجوانب العلمية التي اتصل بها البحث في هذا الموضوع بالجامعة وأن موضوع التقريب قد أخذ حظه من المحاضرات التي طبعته بعد إلقائها وأصبحت في متناول أيدي المهتمين بها ، ثم تقدم بهذا الاقتراح :

« لما كانت جماعة التقريب ، هي أول جماعة في تاريخ المسلمين منذ افتراقهم إلى شيعه وسنة أخذت تعالج من الوجهة العلمية والتاريخية ، الفجوة المذهبية بين المسلمين عامة ؛ فإنني أرى أن تضم إلى هذه الغاية الهامة غاية أخرى جامعية ، وهي إخراج دائرة معارف إسلامية مختصرة باللغة الإنجليزية تقوم على تصحيح الأخطاء الكثيرة في دائرة المعارف التي أخرجها بعض القساوسة واليهود المتعصبين باسم العلم والبحث ، عن الإسلام والمعارف الإسلامية ، وأصبحت في بعض النواحي مصدرًا مضللًا ، لكثير من المتقنين المسلمين في جميع أنحاء العالم ، ولغير المسلمين في العالم الغربي والشرقي ، فإنه طالما تستقل دائره المعارف هذه بتزويد العالم كله بالمعرفة الإسلامية فسيظل انحراف الفهم في العالم كله قائما وخطراً على الإسلام والمسلمين ،

ونحن نشكر للدكتور البهي - باسم دار التقريب - نشاطه المحمود في خدمة الدين والعلم والتأليف بين المسلمين ، ونعتقد أن « دار التقريب » ستعطى هذا الاقتراح حقه من الدرس والاهتمام .

رأى الإمامية في الغلاة :

بما لا يزال عالقا بأذهان كثير من العامة في البلاد الإسلامية ، ظنهم أن الشيعة كلهم غلاة يرون في أمير المؤمنين على أو في الأئمة من بعده رضى الله عنهم أجمعين ما هو كفر وارتداد عن ملة الإسلام ، من مثل أن النبوة صرفت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن كانت مسوقة إلى أمير المؤمنين على - أو أن الله يحل في أحد من خلقه ، أو أن الأرواح تتناسخ ، أو نحو ذلك - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، وحاشا لنيبه وأوليائه أن يكون هذا شأنهم أو العقيدة فيهم .

وفي دار التقريب الآن بحث مستفيض مخطوط ألفه لها ، تأييدا لفكرتها ، عالم إمامي معاصر هو فضيلة العلامة الجليل الحاج ميرزا خليل الكركنى يبين فيه رأى الإمامية سلفهم وخلفهم الذى أجمعوا عليه في هذه القضية الأساسية ، وهو كفر هؤلاء الغلاة وارتدادهم عن دين الله ، ووجوب حربهم والبراءة منهم ، وما ورد عن أئمة الهدى من أقوال حاسمة في ذلك .

هذا المؤلف الحديث هو الآن قيد البحث والدرس في دار التقريب لمراجعته والتعرف إلى مصادره ، وتهيبته للنشر مستقلا في فرصة قريبة إن شاء الله .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

- ١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أذى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .
- ٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .
- ٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم .
- ٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم واقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .



وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحد القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

١١٥	كلمة التحرير
١١٧	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت	تفسير القرآن الكريم
١٢٩	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة	المجتمع القرآنى
١٣٩	لسماحة العلامة السيد شرف الدين الموسوى	صلاة التراوىح
١٤٣	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة	كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم
١٤٨	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه	الأصول الثلاثة والأخوة فى الدين
١٥٢	للككتور عبد الواحد واقى	ليكورغوس والحسديون وأبوذر الغفارى
١٥٨	لحضرة الأستاذ القاضى محمد بن اسماعيل المرانى	الحرية العسكرية فى اليمن
١٦٢	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	فى التاريخ والأدب
١٧٢	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى	أسباب الاختلاف [بين أئمة المذاهب الإسلامية]
١٨٨	لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد المارى	مستقبل الشعر
١٩٦	للككتور محمد محمود غالى	عود إلى حديث الذرة
٢٠٤	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بربرى	قال شيخى
٢١٢		معجم ألفاظ القرآن الكريم
٢١٦		أنباء وآراء
	محمد على علوبه - من بحوث معهد الدراسات الإسلامية - الميزان فى تفسير القرآن -	
	أطلس التاريخ الإسلامى - فى جامعة مونتريال بكندا - رأى الإمامية فى الفلاة .	
٢٢٢		رجاء من التفرير
٢٢٣		من القانون الأساسى للجامعة التفرير

رَسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التفرير بين المذاهب لابن تيمية بالقطر

لخدمة أغراض الجامعة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون : ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثامنة
المجلد الثالث

ذو الحجة ١٣٧٥ هـ
يوليو ١٩٥٦ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة التوحيد

يصدر هذا العدد من رسالة الإسلام ، وأفئدة المسلمين في كل شعب تهوى إلى وفد الله من الحجاج والعمّار والزوّار ، أولئك الذين سمعوا رنين الأذان الذي صدّع به رسول الله إبراهيم ، تلبية لأمر الله عز وجل حيث يقول : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . لقد سرّت هذه الدعوة في أعماق التاريخ مسرى الدماء ، من الآباء إلى الأبناء ، حتى جاء خاتم النبيين فقررها بأمر الله ركناً من أركان دينه الخفيف ، وجعلها شعيرة مفروضة إلى يوم الدين : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

إن أركان الإسلام كلها توحى بوجوب التضامن والالتفاف حول غرض شريف واحد : فاللهادتان هما قلب الإيمان وأساس التوحيد والوحدة ، وعنوان اتفاق كلمة المسلمين على أنه ليس لهم إلا إله واحد ، ورسول واحد . والصلاة تطبيق ووحى لهذا الإيمان ، لأنها اتجاه إلى الله ، وحمد له ، ودعاء لرسوله وآل رسوله وعباد الله الصالحين . والصوم مظهر من مظاهر إظهار الإله الحق بالانخلاع له من الشهوات والرغبات ، ومظهر من مظاهر الوحدة الرائعة ، يجمع المسلمين حينما كانوا بجامعة سارية فيهم طول ليلهم ونهارهم . والزكاة تضحية لله ، توحى بما يريده لعباده من التعاون والترابط وأن يكونوا جميعاً أجزاء لبنيان واحد ، أو أعضاء لجسد واحد .

أما الحج فإنه لباب ذلك كله ، إنه كالخلاصة المركزة لجميع العناصر التي يقوم عليها بناء الإسلام ، ويحييها المسلمون حياة العزة والكرامة .

إن المسلمين جميعاً ، لا فرق بين شعب منهم وشعب ، ولا بين طائفة وطائفة ، يخرج الألوف منهم عن أوطانهم ، تاركين الإقليمية وراهم ، إلى إقليم واحد جعل الله فيه مناسكهم ، لا يشعر الواحد منهم إلا بأنه مسلم يدين بالله رباً ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، وبالقرآن حاكماً وإماماً ، وبالكعبة مُصَلِّ وقياماً ، ويلتقي شريعتهم وغريبتهم وعجميتهم وعربيتهم ، في رحاب هي لهم جميعاً ، لأن فيها مقدساتهم ومناجع تاريخهم ، ومشارف عزمهم ، يسكون فرحاً وهم عليها مقبلون ، وأسفاً وهم عنها مرتحلون . هل يذكر السنن - وهو في هذه الرحلة الروحية ، وأمام هذه المشاهد القدسية - أنه سنن ؟ وهل يذكر الشيعي أنه شيعي ؟ أم هم جميعاً مسلمون قرآنيون ، بسنة محمد طاملون ، وعلى محبة محمد وآله منطوون ؟ .

هل للسنة هناك بيت يطوفون به وللشيعية بيت ؟ هل هؤلاء مسمى ولا أولئك مسمى ؟ هل تقف طائفة في هذه الناحية من عرفات وطائفة في تلك ؟ هل يعتقد السنن وهو أمام القبر الطاهر أن هذا الرسول بعث إليه وحده من دون أخيه الشيعي ؟ أو هل يعتقد الشيعي وهو أمام المزارات المعظمة لآل رسول الله الاطهار وصحبه الأبرار ، أن هؤلاء الأبطال هم مُثله هو من دون أخيه السنن ؟ .

كلا إنهم جميعاً يحرمون إحراماً واحداً ، ويطوفون طوافاً واحداً ، ويقفون بعرفة ، وينزلون بمزدلفة ، ويرمون الجمار ، وينحرون ، ويدبحون ، ويقصدون إلى مسجد الرسول مشتاقين ، ويقفون أمام جدته الطاهر خاشعين ، ويزورون آله وصحبه معتبرين .

رباه ! هل ظن المسلمون أنك أردت لهم هذه الوحدة في مظهرها الرائع حين يحجون ، ثم أبحت لهم أن يتفرقوا شذر مذر وهم إلى أهلهم راجعون ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، ٩

محمد حيدر

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

لِحَصْرَةِ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَمِينِ د. الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَيْلُونِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

- ٢ -

الخطوة الثانية في التمهيد للكلام على سورة الأنعام :
 عود إلى سور الحمد في القرآن : مظهر الربوبية في الخلق
 والإيجاد ، وفي الهدى والإرشاد - وهذا سر استحقاقه تعالى
 للحمد واختصاصه به - مناهج السور الخمس في بيان هذا السر :
 منهج فاتحة الكتاب - منهج الأنعام - منهج الكهف -
 منهج سبأ - منهج فاطر .
 الخطوة الثالثة في التمهيد : موازنة بين سورتي الأنعام والأعراف -
 إجمال بعد تفصيل - سر مجيء الترتيب المصحفي على غير
 ترتيب النزول .

الخطوة الثانية في التمهيد للكلام على سورة الأنعام :

عرضنا فيما سبق إجمالاً لسورتين ، تمثل إحداهما منهج السور الأربع
 المدنيات السابقة على سورة الأنعام في الترتيب المصحفي ، وتمثل الأخرى منهج
 سورة الأنعام فيما عالجته من القضايا الأولى للدعوة المحمدية . وكان هذا هو الخطوة
 الأولى من الخطوات التي أردنا التمهيد بها للحديث عن سورة الأنعام . وقد لفتنا

الأنظار في سبيل ذلك التمهيد أيضاً إلى خطوة ثانية ، تتعلق بالموازنة بين سورة الأنعام وسور أربع شاركتها في المسكية ، كما شاركتها في الافتتاح بإثبات الحمد لله ، ومن : سورة الفاتحة ، وسورة الكهف ، وسورة فاطر ، وقد أطلقنا على هذه السور المبدوءة بإثبات الحمد لله ، عنوان : « سور الحمد في القرآن الكريم » .

عود إلى سور الحمد في القرآن : مظهر الربوبية
في الخلق والإيجاد ، وفي الهدى والإرشاد :

ولعلنا نذكر أننا عرضنا لهذه الموازنة ونحن بصدد الحديث عن الآية الأولى من سورة الفاتحة (١) ، وأن ما كتبنا هناك يتضمن أن لله في خلقه أنواعا من التربية .

أولاهما : تربية خلقية جسمية ، أساسها الخلق والإيجاد ، والتسوية والتصوير : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » . « فسواك فعدلك في أى صورة ماشاء ركبك » . « ثم سواك رجلا » ... إلى آخر الأمثال . وقد أمد الله هذه التربية بنهضة ما يحفظها ويقويها ويقبها ، فيسر وسائل الغذاء والكساء والإبواء .

وثانيتها : تربية خلقية عقلية ، أساسها منح قوى التفكير والإدراك الإنسانى العام التى بها يميز الإنسان الخير من الشر ، والنافع من الضار ، ويسير بها فى الحياة التى سخرت له على ضوء تلك المنحة الإلهية التى فضل بها على كثير من الخلق ، ومنح مركز الخلافة فى الأرض وكان عند ربه أهلا للخطاب الإلهى والمسئولية أمامه يوم البعث والجزاء « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .

وثالثتها : تربية تشريعية ، أساسها الأحكام والنظم التى أوحى بها إلى رسوله ، وأنزلها فى كتبه ، وبها ترسم الحدود ، وتوضح السبيل التى يرتضيها الله لعباده ، وبها ينكشف ما لا يعلم الإنسان باعتبار ما ركب فيه من قوى الشهوة

والغضب من الخطأ في إدراكه أو الطغيان فيه إذا ما ترك لعقله وتفكيره الإنساني . تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . . . وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً . . . إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً . . . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها . . . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وهكذا إلى آخر الآيات الدالة على التربية الإلهية التشريعية .

وهذه الأنواع بمجملتها ، هي جماع ما أنعم الله به على الإنسان ، وما من خير ينعم به عليه في جسمه أو عقله أو سعادته الفردية أو الاجتماعية إلا كان أثراً من آثار هذه النعمة الكبرى ، نعمة التربية المطلقة العامة التي انتظمت الإنسان من جميع جهاته ، وما من شر كان بعرض أن يقع الإنسان فيه فيلويه عن طريق الخير والسعادة ، ولكنه اتقاء وحيل بينه وبينه ، فلم منه وسلم من مغبته ، إلا كان أثراً سلبياً من آثار هذه النعمة الكبرى ، نعمة التربية المطلقة العامة .

وهذا سر استحقاقه تعالى للحمد واختصاصه به :

وإذن ، فالحمد والثناء ، الذى يجب أن تقابل به هذه النعمة الكبرى وأن يوجه إلى مصدرها ، لا ينفى في عقل عاقل ، ولا تقدير منصف أن يضاف إلى غير الله . فالحمد كله ، والشكر كله ، خاصان بمن هيأها وأفاضها وأحاط الإنسان بها ، وهو الله رب العالمين .

وبتقرير هذا الحق لصاحبه وهو الله سبحانه ، ولفئت الأنظار إليه ، بذكر آثاره ، وشق طريق التفكير فيها ، جاءت هذه السور الخمس تقرر في مبدئها ثبوت الحمد له سبحانه ، وقد جاء منها في النصف الثانى ، سورتا : سبأ وفاطر ، وجاء منها في منتصف القرآن ، سورة الكهف .

مناهج السور الخمس في بيان هذا السر : منهج فاتحة الكتاب :

ومع اشتراك هذه السور الخمس في الافتتاح بتقرير استحقاق الحمد لله على

هذه النعمة الكبرى، كان لكل سورة منها، منهج خاص فيما عرضت له من أنواع تلك النعمة، وقد جاءت الفاتحة بالنسبة لسايرها في هذا الشأن، كما جاءت هي لجميع القرآن بالنسبة لكل ما تضمنته، جاءت، أما تجمع فروع التربية وأنحاءها التي وزعت على السور الأربع، وتقاسمتها، فهي تقول: « الحمد لله رب العالمين، فربط استحقاق الحمد لله بربوبيته للعالمين، والربوبية المطلقة تنظم التربية الخلقية جسمية وعقلية، بالخلق والإيجاد، كما تنظم التربية التشريعية، بالوحي والرسالة، فكما لا خالق ولا مانع للعقل وقوى التفكير سواء، لا مشرع ولا مرشد ولا هادي سواء.

منهج الأنعام:

ونجى بعد الفاتحة سورة الأنعام، فتثبت أيضا استحقاق الحمد لله وحده، وتسير في طريق نوع من أنواع التربية العامة وهو نوع الخلق والإيجاد للكائنات وظواهرها « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، ثم تسير في وصف عظمة الله في آياته الكونية، في سمائه وأرضه، في نباته وحيوانه، وتعرض لاستدلال إبراهيم على وحدانية الله بظاهرة البزوغ والأفول للأجرام السماوية التي لا ينفك الإنسان عن رؤيتها وتقلب بصره فيها « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جنّ عليه الليل، رأى كوكبا، قال هذا ربي، فلما أفل، قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برى عما تشركون إني وجهى وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين.

وأخيرا تقول في نتيجة هذا السج الطويل: « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه

الابصار وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم
فن ابصر فلنفسه ، ومن عى فعلها ، وما أنا عليكم بحفيظ ، وكذلك نصرف الآيات
وليقلوا درست ولنبيته لقوم يعلمون ، .

منهج الكهف :

ثم تجيء بعد ذلك سورة الكهف فتأخذ روح التربية بالوحى ، الحمد لله الذى
أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيا لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر
المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ما كئيب فيه أبدا ، ثم تسير
فى طريق هذه التربية ، فتخفف من الضغط على نفسه صلى الله عليه وسلم بسبب
إصرار القوم على الكفر بها ، فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا
الحديث أسفا ، . . وائل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته
ولن تجد من دونه ملتحدا ، . وتذكر قصة الفتية الذين آمنوا بربهم ، وقصة
موسى وفناء مع العبد الصالح ، وقصة ذى القرنين ، الملك القوى العادل الذى
أنقذ الضعفاء من الطغاة المعتدين ، وكل هذه القصص مما لا سبيل إلى معرفته
والاعتبار بمغزاه ، إلا عن طريق الوحى وإنزال الكتاب ، ثم يكون ختام
السورة مقرر المنهج الخاص بنوع التربية ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى
أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك
بعبادة ربه أحدا ، .

منهج سبأ :

ثم تجيء سورة سبأ فتبدأ بإثبات الحمد لله أيضا ، وتأخذ نوعا من أنواع التربية
المطلقة ، يرجع إلى الملك ، والتنصرف الحكيم ، والتدبير المحكم ، الحمد لله الذى له
ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير يعلم
ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم
الغفور ، ثم يجيء ما فى السورة مقرر العلم الشامل ، والقدرة النافذة ،
والإرادة الحكيمة .

منهج فاطر :

ثم يحىء بعد ذلك سورة فاطر ، وهى آخر السور الخمس ، فتذكر استحقاق الله وحده الحمد ، وتجمع فى سبيله نوعى التربية ، الجسمية والسمائية ، ولكن على تفصيل لم يذكر فى سورة الفاتحة ، فتذكر خلق السموات والارض ، وتذكر رسل الوحي من الملائكة ، وتذكر أن الله مصدر الرحمة ، بيده إمساكها وبيده إرسالها ، ثم تسير فى ذكر بعض ظواهر الكائنات من إرسال الريح وإثارة السحاب وخلق الإنسان من تراب ، وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر ، واختلاف الناس والدواب فى الألوان ، ثم تذكر الذين ينقادون لتربية الوحي ، وترشد إلى أن ما أوحى به إلى محمد هو الحق المصدق لما بين يديه ، وأن الله يورث الكتاب من يصطفهم من عباده ، وهكذا تمزج التريتين : الخلقية والتشريعية فى منهجها ، واقرأ : « الحمد لله فاطر السموات والارض ، جاعل الملائكة رسلا ... ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ... والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميث ، فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور ... والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا ... يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخسر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ... ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرايب سود (١) ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ... والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ، مصدقا لما بين

(١) الجدد (بضم ففتح) جمع جدة بجمع مضمومة فดาล مفردة مفتوحة : هى الطرائق المختلفة الألوان وإن كان الجميع حجراً أو تراباً . والغرايب جمع غريب (بكسر الغين) : هى الشديدة السواد . والمعنى أن فى الجبال طرائق تخالف ألوان الجبال . بعضها أبيض وبعضها أحمر وبعض نالك أسود شديد السواد . كما أن الناس والدواب والأنعام ألوان مختلفة يابضا وحمرة وسواداً كذلك .

يديه إن الله بعباده الخبير بصير ... ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا
فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله .. إن الله بمسك
السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده .

* * *

هذه هي الخطوة الثانية من خطوات التمهيد للكلام على سورة الأنعام ،
وهي خطوة الموازنة بينها وبين زميلاتها الأربع التي اشتركت معها في الافتتاح
بإثبات الحمد لله .

الخطوة الثالثة في التمهيد : موازنة بين سورتي الأنعام والأعراف :

ومن الخير هنا بعد أن فرغنا من هذه الموازنة أن نسارع فنخطو خطوة ثالثة
نوازن فيها بين سورة الأنعام وسورة الأعراف التي تليها ، وهما سورتان مكيتان
اشتركتا في أصل الهدف ، وهو تقرير الأصول الأولى للدعوة القرآنية ، كما أنهما
أطول السور المكية في القرآن ، وكانت الأعراف الثانية منها في الترتيب المصحفي
من الخير أن نسارع بهذه الخطوة الثالثة لنفرغ من حديث الموازنة بين سورتنا
وغيرها مما يتطلب الوضع الموازنة بينهما ، ولا نجد بعد ما يدعونا إلى العودة
إلى حديث الموازنة ، وبذلك نخلص للحديث عما تضمنته السورتان فيما يتصل
بجوهر الدعوة إن شاء الله .

ولعلك إذا قرأت السورتين : الأنعام والأعراف ، كما قرأتها ، توافقني على
ما رأيت بين منجهما من فروق لا ينبغي إهمال النظر إليها عند من يتصدى
للحديث عنهما ، وهما هي ذى الفروق :

أولا : أن سورة الأنعام تبدأ كما عرفت بإثبات الحمد لله وحده ، وتقيم الحجة
على التوحيد مما يلبس الناس ويرون من مظاهر الخلق والإيجاد ، وتنكر عليهم
مع وضوح هذه الحجة كفرهم وعنادهم ، وإعراضهم عن الله ، أو تسوية غيره به
في العبادة والتقديس ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، وأن سورة الأعراف تبدأ

بتقرير التبليغ والتتويه بشأنه ، والأمر بالتزامه ، ثم تشفعه بالإنداز الديوى والآخرى ، ثم بالترغيب عن طريق التذكير بالنعم ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذره وذكرى للؤمنين ، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . . . وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون . . . ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش . . . يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا . . . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . .

ثانياً : أن سورة الأنعام تفصل فيما أحل الله وما حرم ، وتعرض لتصرف القوم بالحل والحرم على غير ما أنزل الله ، وتسيح طويلاً في ذلك ، وجعلوا الله بما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، الآية ١٣٦ - ١٥٠ ، في حين أن سورة الأعراف تجعل ذلك وتقف عند حد إنكار القول على الله بغير علم ، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . . .

ثالثاً : أن سورة الأنعام تذكر الرسالة وتورد شبه القوم فيها وتردها عليهم ، ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، ثم تذكر جملة من أسماء الرسل بمناسبة ذكرها لإبراهيم دون تفصيل لثبوتهم مع أقوامهم ، بينما تذكر سورة الأعراف مبدأ الرسالة ، ثم تفصل شأن جملة من رسل الله مع أقوامهم ، لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، الآيات ٥٩ - ١٧١

رابعاً : تذكر الأنعام الآثار الكونية الصادرة عن الله ، وتلفت بها الأنظار إلى وجوب توحيده في العبادة والولاية ، قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطمع ولا يطمع ، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ذلكم الله فأنا توفىكون ، قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء . . .

بينما تشكر سورة الاعراف الشرك عن طريق ما في معبوداتهم من نقص وعجز لا يتفق والمعبودية الصحيحة ، اُشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ،
الآيات ١٩١ - ١٩٨

خامساً : تعنى سورة الانعام بمعالجة نفس الرسول فتخفف وقع تكذيب القوم على قلبه درن أن تعرض لتفصيل شيء من أوصافه التي يقضى النظر فيها مع ما جاء به من الوحي أن يصدقه ويؤمنوا برسالته ، وتبر على نوع هذه الأوصاف كأنها معلومة لهم ، ولا حاجة تدعو إلى تذكيرهم بها ، ولقد استهزئ برسول من قبلك خاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ، ، قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، بينا تعنى سورة الاعراف بتفصيل ما يعرفون عنه صلى الله عليه وسلم من الأوصاف التي تقضى بصدقه وتصديقه ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، .

سادساً : تعرض السورتان الجانب الإنذار الأخرى ، ولكن سورة الانعام تذكره من جانب ما سيرون من العذاب ، وتعلمهم به كأنه واقع بهم ، ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، .

أما سورة الاعراف فإنها تذكره من جانب آخر ، جانب تحسرم وجانب التشفي من المؤمنين ، وترى هاتين الظاهرتين فيما تصوره السورة من محادثة الفرق الثلاث ، أصحاب النار ، وأصحاب الجنة ، وأصحاب الاعراف ، ، ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ . . . ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم

جمعكم وما كنتم تستكبرون... ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ، .

سابعاً : تعرض سورة الانعام للحديث عن الساعة بقدر ما تصور ما يصيبهم فيها من سوء ، قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءت الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، و قل أرأيتم إن أناكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ، .

أما سورة الاعراف فتعرض لها من جهة وقتها التي قضت الحكمة الإلهية بإخفائه عليهم وعلى جميع الخلق ، فينتجون إلى السؤال عنه وعن تحديده فتقطع عليهم الأمل في أن يعرفه أحد من خلقه ، فضلا عن ينكرها عناداً واستخفافاً ، يسألونك عن الساعة أيا نمرساها ، قل إنما عليها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، نفقت في السموات الأرض لا تأتكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حنى عنها قل إنما عليها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، .

ثامناً : ترسم سورة الاعراف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم طريق معاملتهم ، وتعنى بتوجيه الخطاب إليه في ذلك ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ، بينما لا تعرض سورة الانعام لشيء من ذلك ، وإنما تطلب منه أن يقف بنفسه وبتبليغه عند حدود ما أوحى الله إليه من محرمات ، و قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ، الآيات .

وأخيراً وهو تاسع الفروق التي حددناها أن سورة الانعام تبين سنة الله في تعاقب الأجيال ، و مجيء اللاحق منها خلفاً للسابق ، ويكون هذا التعاقب بما يدون لكل جيل شاهدا عدلا على من أحسن في خلافته وعلى من أساء فيها ، وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ، ثم تركه هكذا سنة عامة دون تفصيل أو تطبيق . أما سورة الاعراف فتذكر المثل الواقعية لتلك الخلافة بين أقوام معينين وأجيال متعاقبة ، فتقول لقوم هود : واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، و تقول لقوم صالح ، واذكروا

إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض ، وهكذا ترىنا بالمثل الواقعية أن الحياة من مبدئها إلى منتهاها ميدان واحد عام تتناوبه البشرية كلها بأجيالها المختلفة المتعاقبة ويتركه سلفها لخلفها ، والله مهيمن على الجميع ، يحفظ لكل جيل ما ترك في الميدان من خير وصلاح أو شر وفساد .

* * *

إجمال بعد تفصيل :

ونستطيع أن نجمل تلك الفروق في أن سورة الانعام تعنى بتفصيل الشبه التي وجهت إلى الدعوة ، كما تعنى بتفصيل البراهين الدالة على صدقها ، وبتفصيل ما أحل الله وما حرم ، وبتبكيك المعارضين فيما اتخذوه لأنفسهم من حق التحليل والتحريم . وأما سورة الاعراف فإنها وجهت عنايتها إلى تفصيل الإنذار بما أعد للمكذبين في الدار الآخرة ، وبما أصاب أسلافهم في الدنيا من عذاب .

ولعلنا إذا نظرنا في هذا الإجمال مع ملاحظة ما فاته من فروق ، نرى أن سورة الاعراف هي أول السورتين التي نزلت على القوم ، وأنها نزلت في صدر المراحل الأولى للدعوة ، فهي تعتمد على الأدلة التاريخية التي يرى القوم آثارها بأنفسهم في ذهابهم وإيابهم وتقلبهم في البلاد ، ولا شك أن ذلك هو الذي يناسب مبدأ الدعوة الذي لم تنتهيا فيه فرص التفكير للخصم المعاند حتى يقابل في عناده بالحجج والبراهين ، وقد كان هذا هو الواقع ، فإن سورة الاعراف هي أول سورة طويلة من السور المسكية التي عرضت لتفصيل أحوال الأمم السابقين مع رسلهم ، ولم يسبقها في هذا الشأن سوى ثلاث سور من المفصل ، عرضت كل واحدة منها لإجمال الحديث عن بعض الأنبياء والرسل ، وقد كانت سورة د ق ، أول هذه السور الثلاث التي عرضت للتذكير بمصير المكذبين ، كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق ، ثم جاءت بعدها سورة القمر ، ففصلت في هذا الجانب بعض التفصيل ، أنظر الآيات من ٩ - ٤٢ منها ، ثم جاءت سورة د ص ، .

فذكرت جملة من الرسل ، وكانت هي أول سورة عرضت في إجمال لقصة آدم ، ثم جاءت سورة الاعراف بتفصيل كثير مما أجملته هذه السور الثلاث في ناحية التذكير بأحوال الأمم السابقة .

سر مجي الترتيب المصحفي على غير ترتيب النزول :

بقي بعد هذا : السؤال عن الحكمة في تقديم سورة الانعام على سورة الاعراف وهو سؤال يتعلق بالترتيب المصحفي .

والواقع أن للترتيب المصحفي شأنًا آخر غير شأن ما يدعو إلى النزول ، يتصل ذلك الشأن بتأليف الكتاب بعد مراحل الدعوة التي استجاب لها فريق كبير استقرت أقدامهم وتكونت جماعتهم ، وصار الكتاب بهم كتاب أمة ، ترجع إليه في حفظ عقائدها ، واستخراج أحكامها ومبادئ حياتها الفردية والاجتماعية ، وليس من شك في أنه وضع جديد يستدعي ترتيباً غير ترتيب النزول الذي كان يراعى فيه حالة المدعوين ومعالجتهم لقبول الدعوة ، وهو الترتيب الذي نقل به القرآن إلينا نقلاً متواتراً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي يظهر به القرآن أنه كتاب المؤمنين .

ومن هنا نفهم السر في أن بديء القرآن بالسور المدنيات الطويلة ، ذات الأحكام التي كلف بها من استجابوا لدعوة القرآن وتكونت جماعتهم في ظله وتحت رايته ، ونسب الكتاب إليهم كما نسبوا هم إلى الكتاب ، ولعل هذا القدر من التوجيه في حكمة الترتيب المصحفي ومخالفته لترتيب النزول يفتح باب الهدى لمن يحاول مس هذا الترتيب الذي لم يكن إلا بإلهام إلهي ، تلقاه الرسول ، وملا قلوب أصحابه فالتزموه ، وحفظوا الكتاب وناقلته الأجيال على هذا الوضع دون تبديل أو تفكير في التبديل ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

ليكن شعارنا : المرتب بجانب المسجد

لحضرة صاحب السامعة العالم الجليل الأستاذ محمد التقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

إن علاقة الدين بالمجتمع كثيراً ما تتعرض لازمات وتطراً عليها تطورات .
فالمجتمع تارة يكون متمسكاً بدينه متحمساً له وكأن الدين عنده كل شيء .
وتارة أخرى يقع - نفس المجتمع - في فوضى خلقية ، وكأن لم يك بينه وبين
الدين صلة ، حتى أنه ليسخر من معتقداته السابقة ، ويعتبر المادة كل شيء
ولا شيء سواها .

إن الدين في الغالب يظهر في أحلك الأوقات وأشدّها حيرة . فعند ما تنحكم
الفوضى ، وتسود المادية ، وتنبد الفضائل ، ويُتسكّر للئيل ؛ يظهر الدين ، فيجمع
نفساً على عقيدة ، ويوحد كلمتهم ويوجههم إلى الفضيلة وإلى الخلق وإلى
المثل ، ويتخذ من مساوى المجتمع أدلة على الحاجة إلى الأخذ بتعاليمه ، ويحرص
في كل ما يأتي به على توجيه معتقيه إلى قوة فوق البشر تجزى الخير بالخير
والشر بالشر .

فإذا خرج باتباعه من الحيرة والفوضى ، ونظم الصلوات بينهم على أسس
من الفضيلة ، كان من الطبيعي أن يتكون منهم مجتمع سليم يتمتع بقوة روحية
وأدبية ، وفي مثل هذا المجتمع تهدأ النفوس وتنصل العقول ، وهدوء النفس
وانصقال العقل يمهّدان السبيل للعرفة ، بل إن الدين نفسه يوحى بالمعرفة
ويغري بها ، والدليل على ذلك أن رواد العلوم كانوا غالباً من رجال الدين .

والدين أول ظهوره فكرة تقدمية ، تلاقى - لمدة من الزمن - معارضة عنيفة من أنصار التقاليد البالية الذين يستمسكون بالقديم لأنه مألوف ، وفي المعارضة قوة ، وكم من أفكار إصلاحية تدين في بقائها ونجاحها للمعارضة ، فإذا استقر الدين وعرفه الناس ، هدأت العواصف حوله ، وضعفت المعارضة له ، وعندئذ يطمئن رجاله ، فيبطئون في السير اعتماداً على سابق الفوز ، أو يقعدون عن العمل اغتراراً بما بلغوا من مكانة ، ويكتفون بالدفاع عن ماضٍ مشرقٍ بدل أن يهتموا بما يدور حولهم في حاضر له ما بعده ، فإن الدنيا بطبيعتها متطورة ، وكل لحظة منها يمكن أن تكون مولد فكرة جديدة ، ولكل فكرة - مهما كانت - نهجها وأنصارها ، كما أن للفرائز آثارها ، وللغوضوية عشاقها ووهديها ، فالظروف تقبل ، والأفكار تتغير ، والمعارف قد تنطلق من مدارها الخلق وتضطدم بالدين إن غفل رجاله عن سنة التطور أو تخلفوا عن ركب الحياة . وبمقدار ما تتقدم المعارف تتضاءل رقابة رجال الدين وتضعف آثار معارضتهم ، حتى ينتهى الأمر بتقسيم المعارف إلى مدنية ودينية ، ثم تطفئ المدنية فتفرض أنظمتها على أخص شئون رجال الدين ، مثل الطلاق والنكاح وإجراء العقود ، وتجعلها دنيوية بحتة .

بهذا الأسلوب يأخذ العلم طريقه إلى رجال غير دينيين ، وتلاميذة أليوم هم رجال الغد - وعلى هذا الأساس يقوم الفصل بين العلم والدين ، وبين الجديد والقديم ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه يتطور إلى اعتبار الدين سداً في وجه التقدم العلمى ، ثم ينتهى بتحويل الفلسفة والأدب من خدمة الدين والمواطف الدينية إلى معاكسة الدين والنيل من رجاله ، وهنا يظهر التدهور الخلقى ، والاستهانة بالقيم ، وإنكار المثل ، وجحد العقائد ، وبذلك يتم الفصل بين القديم والجديد ، وينشأ التعصب للقديم ، والاقتنان بكل ما هو جديد ، وتسود الغوضى الأبيقورية .

إن الدين من غير علم - إن صح هذا التعبير - لا ينمو في ظله إلا الخرافات ، والعلم من غير دين لا يجر سوى النكبات والاضطراب والغوضى ، والمجتمع

اللا دينى ينتهى دائماً بالسقوط فى هاوية المادية ، ولكنه بكل أسف يجر معه الدين أيضاً .

هذه هى السيرة الطبيعية لازدهار الأديان وذبولها ، مالم تجد عوامل لها تأثيرها تساعد الدين على النمو أو تسرع به إلى الاندثار كالحروب والسياسات ، ومن هذا يبدو جلياً أن نقطة التحول الحقيقية تبدأ عند فصل التعليم عن الدين ، وكما كان رجالنا الأقدمون حكماء حين بنوا المدارس بجانب المساجد ، فإنه مهما تطورت تلك المدارس بتطور العلوم ، بقى الدين فى مركز الموجه وبقى السلطان فيها للفضيلة وللفضيلة وحدها ، والدين صمام الأمان للعلوم ، به لا تنحرف عن كونها نورا يضىء للبشرية ، ولا تنحرف إلى خدمة الشرور والآثام .

إن التجاوب بين الدين والمجتمع لا بد أن يأتى من دور التعليم ، وهناك حقيقة تؤيد ذلك لمستها بنفسى ورأيتها بعينى فى آخر أسفارى إلى الخارج . ففى قرية كبيرة أو بلدة صغيرة هى إحدى المراكز الجبلية التى يؤمها المصطفون ، رأيت قس القرية هو صاحب الكلمة فى مواطنيه وموضع التكريم والاحترام ، وكان كثير التودد إلى القادمين والمصطفين ، يزور كثيرين منهم ويعرض خدماته على الجميع ، سألته ونحن فى أحد شوارع البلدة بعد أن لمست ترحيب الشيوخ والشباب به ، عن سر هذا الترحيب ، فسا كان منه إلا أن أشار بيده إلى بناية قريبة وقال بالفرنسية ما معناه : هذه البناية كنيسة وبجانها مدرسة كما ترى ، فنحن نربى هؤلاء صغاراً ونربطهم بالكنيسة فينشأون متدينين ، فهم تلامذتنا ومريدونا .

هذا ما رأيته فى بلد لا دينى يكثُر فيه السياح — وللسياح تأثيرهم — ورغم هذا فقد نجح الرجل أيمناً نجاح فى ربط قلوب التلاميذ بالدين ، وهو فيما عمل لم يجاوز ما كان يعملهُ المسلمون قديماً من جعل المدرسة بجانب المسجد .

إن العالم الذى نعيش فيه ملئ بالآفكار الهدامة ، مشحون بالسياسات المختلفة

منها ما هي إلحادية صريحة ، ومنها ما تؤيد الدين في الظاهر وتهدمه في الحقيقة ، وقد يلبس الإلحاد مظهر الدين وتبرز الأخرى عداءها له حسب المصالح والآهواء .

وهذه السياسات هي التي ضخمت الخلافات بين المسلمين ، ولا تزال تغذى إلى الآن هذه الناحية ، تارة بنشر البحوث باسم الاستشراق ، وتارة بتشجيع النشرات المفرقة ، كما تظهر الامة الإسلامية بمظهر الامم المختلفة والحال أنها أمة واحدة .

فلماذا لا نقسح نحن بهذا السلاح ، فنتناول بالبحث ما يتناولونه لكي يقف المسلمون على الحقائق فلا يتأثرون بما يقرأونه للمغرضين من عملاء السياسات المفرقة وبذلك ندفع عن ديننا ما يشوه سمعته ، وندرا عن أمتنا ما يمزق شملها ؟ .

لماذا لا ندرس أحوالنا ، ونتعرف شئوننا ، ونحدد موقفنا من العالم ؟ .

لماذا يقف الكثير منا في بحوثهم عن الطوائف الإسلامية عند ما كتب قبل قرون عن الملل والنحل بما فيه من خبط وتشويه ، بدل أن نأخذ حولنا ونتعرف ما في مجتمعنا ونأخذ عن الواقع الراهن .

إن خطر هذه السياسات على مجتمعنا الإسلامي ظاهر واضح ، والحرب الأخيرة لا تزال آثارها - من انحلال خلق وتخلل - تعمل عملها ، والدين هو القوة الفعالة التي يمكن أن تنفذ البشرية مما تردت فيه ، ولكن المثل وحدها لا تسود إلا إذا حملها دعاة مخلصون يحملونها للناس ، ويبرزونها للأعين . ورجال الدين هم أهل هذه الرسالة ، والمستولون عن هذه الأمانة ، فإن توانوا أو قصروا فستظل السياسات تعبت بنا ، وتعمل عملها فينا ، وتفرق كلمتنا ، وتحطم كياناتنا ، وإذا كانت في الماضي القريب قد أوجدت فرقا وألصقتها بالإسلام زوراً ، فإنها في المستقبل سترميننا بما هو أدهى وأمر ، ولن ينجيننا من المصير المحتوم إلا أن نهب ونعمل لنصل ما انقطع بين العلم والدين ، وليكن شعارنا :

المدرسة بجانب المسجد ؟

المَجْمُوعُ الْفُرَاتِيّ

— ٤ —

الأمّة الإسلاميّة

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهره

وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — ذكرنا فيما أسلفنا من قول : خواص المجتمع القرآني ومزاياه ، وأشرنا إلى مجتمع الأسرة ، والمجتمع الصغير ، أو ما يسمى في لغة العصر الحاضر المجتمع المحلي ، وهو الذي كان يسمى في ماضي الإسلام بمجتمع القبيلة ؛ وقد ذكرنا أن هذه المجتمعات كلها وجدت في الإسلام لتكون أردافاً معنوية تمد المجتمع الأكبر بعناصر القوة ، وعناصر التأليف الرابط ؛ والمعاني الإنسانية والحلقة الجامعة في ظل دين الله تعالى الذي انبثق نوره من السماء .

والآن نتجه إلى القصد الأكبر من الوحي الحمدي ، وهو تكوين جماعة إنسانية فاضلة تبنى في تكوينها على الفضيلة ، وتربط العلاقات فيها بالأخلاق الفاضلة ، والمودة الواصلة ، وتكون العلاقة بينها وبين غيرها قائمة على العندالة والوفاء والمثل الإنسانية العالية .

٢ — وقبل أن نخوض في بيان هذه العلاقات التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي الفاضل لا بد أن نتكلم في الوحدة الإسلامية كحقيقة مقررة ثابتة في الإسلام ؛ ذلك لأن توالي القرون على تفرق المسلمين في بقاع الأرض أشياءاً ورفقا ؛

« كل حزب بما لديهم فرحون » ، جعل كثيرين ممن لا يفهمون الأمور على وجهها ولا يمحسون الحقائق ويردونها إلى أصولها يظنون أن حال المسلمين يتفق مع المقرر في الإسلام ، وأن تلك الفرقة القاطعة ؛ وذلك الاختلاف المفرق يتفق مع حقائقه ، وتقبله مقرراته ، وهكذا صار المنكور معروفاً ، والباطل مألوفاً ، وبذلك صار الإسلام غريباً ، وتحقق صدق ما تنبأ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » .

٢ — إن المسلمين أمة واحدة ، وما فرقهم إلا العصبية التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والاطباع والشهوات التي صرعت الحقائق ، وأخفت نور الإسلام ؛ أو التنازع على الملك والسلطان ، وضياع الشورى ، وفساد الحكم ، وقيام الظلم ، حتى شوه المفروضون حكم الإسلام ؛ وأحاطوه بطائفة من الوقائع ليطمسوا معالمه ، ويخفوا ضوءه المنير .

ولذلك وجب علينا أن نرد الأمور إلى نصابها ، فنقرر أن الإسلام لا يعرف إلا أمة واحدة هي أهل القبلة ، وأمة محمد ، وأمة الإسلام ، فالأقاليم الإسلامية كلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب تجمعها أمة واحدة ، ويظلمها وصف واحد ؛ فليس العرب وحدهم أمة ، ولا المصريون وحدهم أمة ، ولا الباكستانيون وحدهم أمة ، إنما هم جميعاً أمة واحدة ، ولقد قرر سبحانه وتعالى تلك الحقيقة الثابتة فقال تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

فالإسلام دين الوحدة الجامعة ، كما هو دين الوحدانية الكاملة ؛ ولقد عمل الإسلام على تقوية هذه الوحدة ، وحمايتها من كل عوامل التفرقة التي تفك العروة وتهدم البناء ؛ وتحمل أمر المسلمين منقسماً ، وجمعهم منجلاً ؛ ولذلك قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، وقال تعالى مقررّاً الأخوة الإسلامية العامة : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم » ، واتقوا الله لعلكم ترحون ، يأياها الذين آمنوا

لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلبسوا أنفسكم ، ولا تنازروا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

٤ — وإن أقوى ما يقوى الوحدة هو المودة التي تربط القلوب ، وتصل النفوس ؛ وأساس المودة هو النظام ، ولذلك وصف المسلمون بالرحمة التي تعتبر المودة مظهراً من مظاهرها ، فقال تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيأثم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً ، وإن السياج المتين الذي يحمي الجماعة إن لم تكن المودة هو العدالة ، فهي الحصن الحصين الذي تأوى إليه معاني الاجتماع القويم .

وإنه لا يذهب بالوحدة إلا أمور ثلاثة :

أولها : التكبر بغير الحق ، والاعتزاز بغير الله تعالى ، ولذلك دعا الإسلام إلى التواضع من غير ضعة ، كما دعا إلى العزة من غير كبرياء ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من تواضع لله رفعه الله ، وما ازداد عبد بعفو إلا عزاً ، ووصف المؤمنين بالنظام لإخوانهم ، كما وصفهم بالرحمة ، فقال تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم .

وثانيها : الظلم ، فإن الظلم يحل الوحدة ، ويوجد النفرة ، ويجعل كل واحد ينظر إلى الآخر نظرة الخائف الحذر ، أو نظرة العدو المتربص ، لا ألفة ولا ائتلاف ، ولا تلاقٍ ولا اتفاق ، ولذلك كان النهي عن الظلم نهياً عاماً لا يخص طائفة دون طائفة ، ولا جمعا دون جمع ، ولا جنساً دون جنس ، ولقد روى في الحديث القدسي عن الله تعالى أنه قال : « يا عبادي إني قد حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا ، ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « اشتد غضب الله على

من ظلم من لا يجد ناصراً غير الله ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « اجتنبوا دعوات المظلوم ولو كافراً ، فإنها ليس دونها حجاب ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الإسلام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً ، فقد برئت منه ذمة الله ، وذمة رسوله ، وهكذا يتصافر النهى عن الظلم ، لأنه الهادم لبناء المجتمع الإسلامى .

الامر الثالث : الذى يفك الوحدة الإسلامية ، وهو الذى فكها ، وانهارت بسببه دعائم بنائها هو العصبية ، والعصبية أساسها أن يحس المسلم بانتمائه لقبيلة أكثر من إحساسه بانتمائه للإسلام ، وأن يؤثر الدعوة إلى العصبية على الدعوة إلى العدل ، سواء أكانت العصبية هي القبيلة في دائرتها الضيقة ، أم اتسع معناها فشمل الإقليم ، أو شمل الجنس واللون ، فكل تمسك بالانتماء لقبيلة أو نسب أو جنس أو إقليم هو من قبيل التمسك بالعصبية ، وإيثارها على التمسك بعرا الحق والعدل ، ومبادئ الإسلام التى لا تفرق بين جنس وجنس ، ولون ولون ، والذى يتمثل فيها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

هـ — وإن الدعوة إلى العصبية أيا كان شكلها ومظهرها هي الداء الدفين الذى ذهب بوحدة الإسلام ، وفرق أمر المسلمين ، وما زالت تلك الدعوات هي التى توسع الهوة ، وتقطع أسباب الاتصال ، وتجعل بأس المسلمين بينهم شديداً ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، بل إنهم فقدوا في الوحدة الشكل والجوهر ، والمظهر والحقيقة ، وكان من المسلمين من يجهر بموالاته للذين يخربون الديار الإسلامية ، ويبيدون المسلمين ، من غير أى حركة مانعة ، ولا أى قوة دافعة ، حتى لقد استمرروا لحوم المسلمين ، كما تستمرى الذئاب دماء البشر ؛ وكما يستمرى الكلب المسعور دماء الأحياء .

ولقد نهى النبي الذى ما كان ينطق عن الهوى عن العصبية وشدد في النهى ، لأنه كان يتنبأ بأنها ستكون الداء الدوى الذى يصيب جسم الأمة الإسلامية ،

فيجمله أمشاجا متفرقة ، وأوزاعا متقطعة ، وقطعا في هذا الوجود متاثرة تنوشها سباع البهائم من كل ملة ، ومن كل قبيل ، ومن كل لون ، ولا نجد إلا كلمات جوفاء تنعق بها أصوات ، وتتحرك بها ألسنة ، كما تتحرك ألسنة البقر : لا يقصدون إلى معنى من معاني المحبة الإسلامية ؛ ولا الإخلاص المحمدي .

لقد عدد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النهي عن العصية ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . وعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم العصبية فقال : (العصبية أن تعين قومك على الظلم) . ولقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : (من نصر قوما على غير الحق ، فهو كالبعير الذي تردى ، فهو ينزع بذنبه) . وهكذا تواردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تنهى عن العصبية .

٦ — ولا مر ما كان النصر الإسلامي الأول على غير المنهاج الذي كان للنصرة في البلاد العربية ؛ ذلك أن الرجل كان إذا أراد النصر استنصر بقومه وقبيلته ، وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند ما هم قومه بقتله ، لم تكن نصرته بالبداهة من قومه وأصل عصبيته ، فقرش قومه ، وأصل عصبيته حاربوه ، وكان النصر من الأنصار الذين لم يكونوا قومه ولا قبيلته ، فكان النصر المؤزر غير مبني على عصبية ، بل كان مبنياً على حمية دينية ، وفضيلة إسلامية ، فكانت عزة الإسلام من الله ، لا من قبيلة ولا من عصبية ، إنه إذا كان من بيت النبي الهاشمي من ناصر كعلي وحزرة ، فقد كان منه من ناواه كأبي لهب ، بل إن العباس خرج محارباً في بدر ، وإن كان كارهاً ، وقد أسر ، ولم تمنعه قرابته من أن يؤسر ، وألا يفك لإساره إلا بغدية يفتدي بها نفسه .

وإن دل ذلك على شيء فإنه بلا ريب يوصي إلى أن عزة الإسلام لا تبنى على عصبية ، وأن عزته من الوحدة لا من التفرق ، وإنه ليوصي أيضاً إلى أن العصبية ستهدم بناء الوحدة إن وجدت دعواتها .

٧ - وكذلك كان ، فإن العصبية الجاهلية التي نبقت في آخر عصر الراشدين هي التي قطعت أوصال الوحدة الإسلامية ، وكان الملوك الذين تسموا بأسماء الخلفاء يقرونها حتى يجدوا من ثغرة الخلاف ما يحكمون به في الجماعة الإسلامية ؛ وينفذون منه إلى السلطان أو السلطة التي لا تعتمد على شيء من الحق والعدل ، بقدر ما تعتمد على الدهاء ، والعلم بسياسة التفريق والتخذيل وتوهين شأن الدين وإثارة ليقول قائل ملوك بني أمية : (إن ربيعة لا تزال غاضبة على ربها أن جعل نبيه من مضر) ولعل ذلك القول يحكى بعض خواطر فعله وخلجات نفسه ، لأن الله جعل نبيه من هاشم ولم يجعله من أمية .

ولقد انتقلت العصبية في القرن الثالث الهجري من عصبية القبيلة إلى عصبية الجنس والأرومة ، ثم إلى عصبية اللغة ، فوجدنا الأمم التي دخلت في الإسلام من غير العرب قد اتجهوا إلى إحياء قومياتهم القديمة ، وإحياء اللغات القديمة .

ولقد كان المسلم يسير من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، فلا يجد إلا لغة القرآن يتخاطب بها أهل الإسلام ، فكان الرحالة المسلمون يسرون من رياض الأندلس إلى الهند فلا يجدون مشقة في خطاب ، إذ اللغة العربية تجمع الألسنة المتفرقة ، فيشعر الجميع بأنهم أمة واحدة ، إذ اللغة تجمع الخواطر والثقافة والتفكير والمنازع النفسية ، وليست الأمم إلا ذاك .

وبعد أن انبعثت اللغات القديمة من مراقدها ، انبعثت معها عصبية جاعة ، وانقسامات جائحة ، بل اختفى فيها نور العلم الإسلامي الذي كانت اللغة العربية وعاءه الذي زخر بكل ألوان الفكر الإنساني والإسلامي ، وهل يعلم الناس أن فارس أصبحت لا تعرف العربية إلا في عدد محدود من رجالات العلم بها ؛ وهي التي أمدت الفكر الإسلامي بأبي حنيفة والجاحظ والبخاري والفارابي وابن سينا ، وجار الله الزمخشري ، ونظر الدين الرازي ، وشمس الأئمة الرضوي ، وغيرهم من أعلام الفكر الإسلامي والبيان العربي ، وهل يعلم الناس أن بلاد ما وراء النهر التي كان منها الصيرازي صاحب المذهب وغيره من أفاضل العلماء ، يسير فيها

الآن الفتى العربي فيكون غريب اللسان لا يجد من يخاطبه إلا بعض الفلة النادرة من العلماء .

من هذا الوقت الذي حيت فيه اللغات القديمة واندرت اللغة العربية تفرق المسلمون سداً بـدا ، لا جامعة تجمعهم ولا رابطة تربطهم ، وأخذت ذئاب الإنسانية تلتقمهم قطعة بعد قطعة .

٨ — هذه حال المسلمين في هذه الأيام ، مع أن العبادات الإسلامية تشير إليهم بضرورة الاجتماع ، ويمنع هذا الاختلاف ، ألا نذهب جميعاً إلى قبلة واحدة ، فهل يشعر المسلم في صلاته التي يسبح فيها حين يصبح وحين يمسى ، وفي اللعداة وفي العشى ، وحين يظهر ، أنه يتجه صوب المكان الذي يتجه إليه في هذا الأوقات ذاتها مئات الملايين من المسلمين المنبشرين في بقاع الأرض ، وهل يشعر أن الاجتماع الديني الذين يجمعهم على غير رؤية في عبادة الله تعالى مالك الأرض وما عليها ، والسموات وما فيها ، يرمز إلى الوحدة الجامعة ، ويؤمى إلى وحدة أهل الإسلام كما وجدت العبادة ، إن هذا تذكير يومى في كل يوم خمس مرات على الأقل ، يذكر المسلم بأنه جزء من كل ، وأنه لا بد أن تتلاقى الأجزاء في الحس ، كما هي متلاقية في المعنى ، ولكن العبادات فقدت معناها الاجتماعي في نفوس المسلمين ، كما فقدت معناها الروحي في نفوس الأكثرين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين .

٩ — وهذا الحج الذى أمر الله بالنداء إليه ليحضر الناس إلى بيته الحرام في ضيافته سبحانه ، إذ قال : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » قد فقد معناه أيضاً ، فهو في أصل شرعته اجتماع المسلمين من كل بقاع المعمورة في أرض الله المقدسة وحرمة الأمن إلى يوم القيامة ، وبيته الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس ، وفي هذا الاجتماع يتذكرون أمور المسلمين ، ويتدبرون أحوالهم المعيشية والاجتماعية والاقتصادية ، ويتفاهمون فيه على كل أمر يصون وحدتهم ، ويقوى جماعتهم ، ويرفع شأنهم ،

ويرد كيد أعدائهم ، والآن يجتمع المسلمون في الحج ؛ لا ليتعارفوا ؛ بل لتبين مظاهر تفرقهم .

إنها مبكيات محزنات أن يجتمع المسلم الباكستاني بالمسلم المصري فلا يستطيعان التفاهم إلا باللغة الانجليزية ، وهي لغة أمة قال رئيس وزرائها في آخر القرن الماضي إنه لا سلام لانجلترا وفي العالم القرآن يقرأ ، ويتلوه الملايين .

وأحيانا يكون التفاهم بين المسلمين باللغة الفرنسية التي هي لغة قوم يعملون الآن على إبادة المسلمين في الجزائر ، كما حاولوا من قبل لإبادتهم في مراکش ، ولكن رد الله كيدهم في نحرهم ، فأرادوا أن يتفرغوا للجزائر ، حتى إذا أبادوها منوا بمراكش أو تونس ؛ ولا منجاة إلا بأمر من الله ، وتوحيد شئون المسلمين ، ولكن سنة الله في خلقه أنه سبحانه لا يغير حال الاقوام إلا إذا غيروا نفوسهم من ذلة إلى عزة ، ومن ضلال إلى طلب للحق ، ومن خنوع للأقوياء الظالمين إلى مقاومة للطغاة العابثين ، فلقد قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال » .

١٠ — لقد وصفنا الداء ، وإن أول طرائق العلاج هو معرفة المرض ، فإنه إذا عرف المرض سهل وضع الدواء ، وإن الداء الذي اعتري المسلمين ففرق جماعتهم ، وجعلهم نزهة المفترسين ، ومطعم الطامعين ، ومرام المعتدين ، هو أنهم تركوا سنة السلف ، وفرقوا الجماعة ، وكانت أسباب التفريق هي ذلك الداء ، فأسباب الاجتماع هي الدواء ، وإن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ، وإن أولها كان جمعاً متحداً في ثقافة واحدة ، وفي لغة واحدة ، وفي اقتصاديات واحدة ، وفي جهاد واحد ، فلا يسلم المسلم أخاه المسلم ، وإنه إذا كانت أسباب الفرقة بينة معللة ، فأسباب الاتفاق لائحة ظاهرة ، وما علينا إلا أن نعمل على إيجاد الوحدة بعد الافتراق ، واتخاذ الأسباب التي سلكها السابقون بإحسان . وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .

كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وناصرتهم

لمفكرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

— ٤ —

ذكرنا في العدد الماضي أن الأخوة الإسلامية لعبت دوراً عظيماً في تاريخ المسلمين ، وقد لعبت هذا الدور وجوداً وعدماً ، فحين كانت قوية ونامية أثّرت اتحاد المسلمين وتناصرهم ، فكانوا كتلة واحدة يردون عدوان أعدائهم ، ويحتفظون ببلادهم وكيانهم ، وحين كانت ضعيفة هزيلة أثّرت تفكك المسلمين وتخاذلهم ، فأخذهم أعداؤهم أفراداً ، وتغلبوا عليهم أشلاء ، واقتطعوا بلادهم قطعة قطعة .

وقد جعلنا الاندلس مثلاً للحالتين ، ولكننا أجبنا القول لإجمالاً ، ولم نذكر الأشخاص والوقائع ، وقد رأينا أننا لو فصلنا القول بعض التفصيل ، وذكرنا الوقائع وأسماء الأشخاص كان ذلك أبلغ في القول ، وأجدى في العظة ، وأعون على أن يفهم المسلمون موقفهم ، وأن يكونوا بصراء بأمسهم ويومهم وغدهم .

افتتح المسلمون الاندلس فبدؤوا أقوياء ، وقامت لهم بها دولة ذات حضارة ومنعة ظلت بضعة قرون .

ولما سقطت هذه الدولة القوية انقسمت الاندلس إلى دويلات صغيرة حتى كان لكل بلدة أو عدة بلاد أميرها المستقل ، متخذاً لقب الملك أو الأمير ، فكان بنو عباد أمراء لإشبيلية وما جاورها ، وكان الإدارة أو بنو حمود في جنوب

أسبانيا وحالفهم أمير غرناطة ، وكان بنو ذى النون في طليطلة وما جاورها وأواسط أسبانيا ، وكان بنو عامر في بلنسية ومرسية ، وكان بنو هود سادة سرقسطة .

وقد قال شاعرهم يصف هذا التفرق وهذا الانقسام :

ما يزهدنى في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب بملكه في غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وكانت هذه الإمارات تجيش بالأطباع بعضها في بعض ، وكانت الحرب لا تضع أوزارها بينهم ، وكان الأقوى يغزو الأضعف فيستجير الأضعف بجار له أقوى وربما استجار بملوك الفرنجة ، ولكنه كان يدفع الثمن غالبا حريته وهزته وأخيراً كان يسلم لإلهم بلاده .

خالفوا نظام الاخوة الإسلامية وما يجب لها ، وانتهكوا دستورها ، كان من دستورها أن كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، وإذا اتقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، وكان المقتول في النار لأنه كان حريصاً على قتل أخيه .

وكان من دستور الاخوة الإسلامية أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، خالفوا هذا الدستور وكانوا مع من سواهم بدأ عليهم ، فقد كانوا يتحالفون مع ملوك النصارى على جيرانهم من المسلمين ، وإن سقوط طليطلة ليدين لنا كثيراً من المخازى التي ارتكبتها أمراء المسلمين ، وكيف أنهم عاونوا على ضياع ملكهم وثل عرشهم ، وكانوا أعظم أثراً في جلب الخراب على أنفسهم من أعدائهم النصارى .

إن الذى افتتح طليطلة هو الفونسو ملك قشتالة ، وكانت تجمعه بنى ذى النون أصحاب طليطلة روابط متينة من الصداقة ، وكان سببها أن أخاه سانشو طارده وتمتعه ، فلجأ إلى بنى ذى النون في طليطلة فوجد عندهم ملجأ حصيناً ، وأضيقوا عليه حمايتهم حتى نجا من أخيه ، ولما آل إليه الملك عقد مع ملك طليطلة معاهدة

وقد أقسم أن يعاون أبناء ذى النون على الاحتفاظ بملكهم ، وقد غدر باليهود المعقودة ، والموائيق المكتوبة ، وحاصر أصدقاءه الذين حموه من أخيه في طليطلة عند ما واثته الفرصة ، وكان لجوئه إلى طليطلة معينا له على فتحها لأنه أصبح عارفا بها وبمسالكها وبالأماكن الضعيفة التى تولى منها ، فكان ملوك طليطلة بحمايتهم الفونسو يشحنون المدى التى سيذبحون بها ، ويصنعون القيود التى سيكبلون فيها .

هذه واحدة ، والثانية أن المعتمد بن عباد ملك لإشبيلية كان شديد الطمع فى أن تخضع له الأندلس المسلمة كلها ، وكان فى ذلك الوقت يريد أن يملك غرناطة وسرقسطة وبطليوس ، ولن يستطيع ذلك وهو يخاف الفونسو ملك قشتالة ، فسمى لعقد معاهدة معه فأرسل مفوضه الوزير ابن عمار ففاز بعقد هذه المعاهدة ، وقد تعهد فيها الفونسو أن يعاون أمير لإشبيلية بالجند المرتزقة فى حرب جميع أعدائه من المسلمين ، وتعهد المعتمد فى مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال ، وألا يعترض مشروع الفونسو فى افتتاح طليطلة ، وهكذا ضحى المعتمد ابن عباد بمعقل الأندلس فى نظير أن يفوز ببعض إمارات .

ولقد اقتنع المعتمد بعد ، أنه بمعاهدته تلك كان يعين ملك النصارى على نفسه وعلى جميع المسلمين فى الأندلس ، فإنه رأى الفونسو ما كاد يفتح عاصمة القوط القديمة طليطلة فى السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ ، وعادت إلى حظيرة النصرانية بعد أن مكثت فى حكم الإسلام ثلاثمائة واثنين وسبعين سنة ، حتى اتخذها عاصمة مملكة وقطعت نفسه إلى احتلاك غيرها حتى ما كان تحت يد ابن عباد فجرع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وعاد بالوم والتعنيف على وزيره ابن عمار الذى عقد هذا الحلف ، وقبض عليه وألقاه فى السجن ثم قتله بيده ، ولكن هذا الجزع لم يرد فائتا ، فقد نفذ القضاء ، وأعانوا عدوهم على أنفسهم ، وجدعوا أنوفهم بأيديهم وخربوا بيوتهم بأيديهم وأبدى أعدائهم المتحفرزين .

أخذ الفونسو بعد ذلك يوغل فتحاً فى بلاد المسلمين ، وهنا رأى أمراء المسلمين الخطر المحدق بهم ، ورأوا شبح السقوط مائلا بين أعينهم فاتحدوا لأول مرة فى

تاريخهم الطويل ، ولما كانت قواهم مجتمعة لا تكفى لرد النصارى فقد اتفقت كلمتهم على أن يستعينوا بالمرابطين ملوك إفريقيا ، وأن يستجدوا بإخوانهم المسلمين فكتبوا كتاباً ووقعوه إلى ملك المرابطين يوسف بن تاشفين ، وقد ذكروا فيه أن انهيار سلطان المسلمين في الأندلس لا يرجع إلا إلى تفرقهم وتحاذلهم ، وأنه بينما يقوى النصارى بالاتحاد ويتزعون أراضى المسلمين ومعاقلم بالعنف والخديعة ، وبالوعيد والوعد ، وبالسيف والإقناع ، إذ يقوى المسلمون تنضب يوماً بعد يوم وقد غصت المساجد بالقساوسة من أعداء الدين ، ونشرت الصليبان فوق المنائر التى كان يؤذن فيها من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع بالقداس بعد أن كان يدهى للصلاة ويحتمون كتابهم بقولهم : إن يوسف قد غدا ، معقد الآمال ، وإنهم يعتقدون أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام .

وصل الكتاب إلى زعيم المرابطين ، وكان مؤمناً قوياً بالإيمان ، وكان محنكاً قد حنكته السنون ، ووعظته التجارب لحفزه إيمانه ، إلى نجدة لإخوانه المؤمنين وحملته تجاربه إلى أن ينظر فى العواقب ، وإلى أن يأخذ بالثقة لجيشه الذى سيرى به إلى جزيرة الأندلس ، فطلب من أمير إشبيلية أن يعطيه حصن الجزيرة ليضع فيه حامية مخصصة لتكون ملجأ له إذا هزم ، ويكون على اتصال دائم بملكه فى إفريقيا ، فتردد فى ذلك المعتمد بن عباد ، ولكن حدث فى أثناء ذلك أن الفونس أرسل إلى المعتمد يطلب الجزية كعادته ، وأرسل يهودياً ينقدها فيرد الزائف ويأخذ الصحيح ، وقد اشتط اليهودى فرد على المعتمد بعض ما أداه بحجة أنه زائف فلجأ إلى السفير ، فقال : أعط بدلهما سفناً تجرى فى البحر ، فاستشاط المعتمد غضباً وقتل اليهودى والسفير وثلاثمائة كانوا معه ، ثم ندم على فعلته ، ورأى أن الفونس لا بد مننقم منه فجعل بتسليم الحصن إلى يوسف بن تاشفين ، وكان ابنه يعارضه فى الانجاء إلى المرابطين ويخوفه العاقبة ، فقال له يا بنى : إني لأوثر أن أرى الجمال عند يوسف بن تاشفين على أن أرى الخنازير عند الفونسو ، ثم أرسل إلى ابن تاشفين بالموافقة على تسليم حصن الجزيرة ، وفى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ من الهجرة

عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة ، وما كادت السفن تنشر قلاهما حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً : اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاً للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه . .

وتقول الروايات إن البحر ما لبث أن هدأ وسارت السفن في ريح طيبة حتى عبر يوسف إلى شاطئ الأندلس ، وليس يعنينا إلا هذا الدعاء الذي دعا به يوسف والذي يدل على قوة الإيمان ، وعلى أنه كان خالص النية في نجدة المسلمين ، وأنه كان لا يريد مالا ولا ملكاً جديداً ، وإنما حفزته هذه العقيدة الإسلامية الراسخة ، وإن استصروكم في الدين فعليكم النصر . .

بينما المسلمون في الأندلس قد ملأ قلوبهم الرعب من مهاجمة الفونسو لحصونهم وتوقعهم النكبة ، وإذا بجيش المرابطين يهبط الأندلس كما تهبط العافية على جسد السقيم ، يأخذ يوسف في ترتيب الجيوش ، ويأمر الجيوش الأندلسية بأن تأخذ مواقعها ويرحل هو بجيشه حتى ينزل بسهل يسمى الزلاقة على قيد بضعة أميال من بطليوس .

وكان الفونسو قد جمع جموعه واصطلمح مع ملوك النصارى الآخرين وعاونته جنود من جنوب فرنسا ، وتقابل الجيشان في هذا الموضع ، وكان كلاهما يقدر بمائة وثمانين ألف مقاتل .

وقد أرسل يوسف إلى الفونسو يخبره بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، فأرسل إليه يخبره أن اليوم الخميس وغداً الجمعة وهو عيدكم ، وبعد غد السبت وهو عيد اليهود ، وبعده الأحد وهو عيد النصارى ، والموعود يوم الإثنين ، ولكن المعتمد بن عباد كان يعلم غدر الفونسو فأخذ الحيلة ولم يستم إلى هذا الوعد ، وإذا بجيش الفونسو يهاجم في صبيحة يوم الجمعة ، فلم يباغتهم ولم يأخذهم على غرة ، والتحم الجيشان ، وكان يوسف قد ألقى بعشرة آلاف فارس من جيشه

في المعركة بقيادة قائده الشجاع داود بن عائشة ، و رابط بسائر جيشه خلف ربوة فلم يعلم به الفونسو وظن أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها ، فبذل أقصى وسعه ، وثبت له المعتمد بن عباد مع جيشه وأبلى بلاء حسنا ، وقد راع الأمراء الأندلسيين منظر جيوش النصارى وهم في دروعهم الحديدية ينقضون بسيوفهم كالبرق الخاطف فلأذوا بالفرار ، وثبت المعتمد وجيش المرابطين بقيادة ابن عائشة حتى حى القتل وكثرت جيوش النصارى ، فانهزم المعتمد بجيشه وتبعه الفونسو وأيقن بالنصر فبذل أقصى جهده .

وفي هذه الآونة الحاسمة ألقي يوسف ببقية جيش المرابطين في المعركة فانقضت على معسكر الفونسو وأحدثت به فتكت بجميع حراسه واستولت على جميع ما فيه من نفائس ، وأحرقت الخيام والمتاع ، وبينما الفونسو يطارد المنهزمين ولأذا به يقع على حرسه منهزما ، فلما أخبروه الخبر ترك مطاردة الأندلسيين وارتد من فوره لينقذ عسكره ، ولكن يوسف انقض في جيشه المظفر على النصارى ، وكان يشجع المجاهدين بقوله وفعله ، فكان يقول : « يا معشر المسلمين اصبروا لقتال أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة » .

وقد كان في مقدمة الصفوف يخوض المعركة بنفسه حتى نفق تحته ثلاث أفراس ، وقاتل المرابطون في ذلك اليوم قتال من لا يخافون الموت ومن يريدون الاستشهاد كذلك قاتل النصارى قتال الياثس حتى سقطت عشرات الألوف قتلى ، وغمر الدم ساحة الحرب ، ثم بدت طلائع النصر عند دخول الليل فركن الفونسو مع خمسمائة فارس من جيشه إلى الفرار ، أما باقي الجيش فقد حصده الموت حصدا ، وتقدره الروايات بمائة وثمانين ألفاً من القتلى .

هذه هي موقعة الزلاقة ، وكانت في الثاني عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩ هـ ، وقد أزاحت كابوس الموت عن المسلمين ، وأخرت سقوط الأندلس أربعائة سنة .

ما هذه الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام :

ما هذه السفن تعلق من بر العدو وتمخر البحر حتى ترسى بالأندلس ، عليها الرجال المدججون بالسلاح وفيها الخيول العتاق وفيها الزاد والعناد والشبكة والرماح ، ما مقصدها ؟ ما غرضها ؟ هل تريد فتحاً وضم أملاك جديدة إلى ملك قديم ؟ .

إنها الأخوة الإسلامية دعت هؤلاء القوم المسلمين إلى أن يتركوا أوطانهم وأن يخاطروا بأرواحهم وأموالهم لنجدة إخوان مسلمين لم يروهم من قبل ، وليس بينهم وبينهم وشيجة من لحم ودم ، وإنما بينهم وبينهم هذه الوشيعة الروحية من عقيدة وإيمان .

استخاثوا بهم فأغاثوهم ، واستنصروهم فنصروهم ، لم يتوانوا ولم يبطئوا ، وكيف يتوانون وكتابهم الكريم يقول : « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، ورسولهم الكريم يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله ، ذهبوا فأزاحوا العدو الجاثم بكللكه على صدورهم ، وطرّدوا الموت المحقق فولى والموت خزيان ينظر هذه الأخوة الإسلامية التي ندعو إليها ، هذه الأخوة الإسلامية التي نريد إحياءها وتعهدنا حتى تكون فرجا إذا دجت الكروب وادلهمت الخطوب ؟

مَنْ يَأْتِي لِيَسْتَعِزَّ

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه
رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

من لا يعمل لا يأكل :

لو احتاج إنسان إلى النفقة لأنه لم يجد عملاً ، أو وجده وعجز عنه لمرض أو شيخوخة جاز أن يأخذ حاجته من الزكاة ، وأن يطالب أقرباءه بالنفقة إن كانوا من ذوى اليسار ، أما إذا قدر على العمل وتركه تكاسلاً فلا يُعطى من الزكاة ، ولا يُحکم له بالنفقة على أحد ، لأن في ذلك تعصياً له على الكسل ، وإغراءً بالبطالة . وفي الحديث أن رجلين أتيا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألاه من الصدقة ، فقال : « أعطيكما بعد أن أعلمكما ، أن لا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب » .

وعند ما هاجر الرسول وأصحابه من مكة إلى المدينة ، اقتسم أهل المدينة المهاجرين ، فأبى الإمام على أن يكون كلا على أحد ، وعمل في بستان يهودى بأجر زهيد يأكل منه ويتصدق ، وعمل الرسول الأعظم عند خديجة ، واشترك في حفر الخندق ، وبناء المسجد . فعلى الذين ينتسبون إلى النبي وأهل بيته ألا يسألوا الناس ، وهم بقدرهم على العمل كي يثبتوا أنهم يشبهون السادة الاطهار ولو بدرهم من قنطار ، إن مبدأ من لا يعمل لا يأكل أقره الإسلام قبل أن يهتدى إليه أرباب القوانين الوضعية بمئات السنين .

كل شيء نظيف وصحيح :

قال الإمام جعفر الصادق : « كل شيء نظيف حتى تعلم أنه قذر .. كل شيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام » ، أى إذا أردت أن تأتى بعمل ، وخشيت أن يكون محرماً ، يجوز لك أن تفعله حتى يتبين أن فيه مفسدة تستدعى تركه والاجتناب عنه ، أما إذا أتيت بعمل جائز وبعد الفراغ منه شككت : هل أتيت به على وجهه ، أو تركت بعض ما يعتبر فيه من جزء أو شرط فلا تلتفت ، وابن على أنك فعلته كما يجب حتى يثبت العكس ، وإلى هذا أشار الصادق بقوله : « كل ما شككت فيه عما قد مضى فامضه كما هو ، هذا بالقياس إلى عملك أنت ، أما بالقياس إلى عمل غيرك وحكمك عليه بالصحة أو الفساد فابن على صحته حتى تتأكد من فساده ، على هذا إجماع الفقهاء . قال الإمام على : « ضع أمر أخيك على أحسنه ، إذن كلما فعله غيرك أو فعلته أنت ، أو تريد أن تفعله فهو في حكم الإسلام نظيف وحلال وصحيح حتى يثبت العكس » .

وللغاية من هذا المبدأ التيسير وانتظام التعايش والتعاشر بين الناس ، إذ لو انعكس الأمر وكان كل شيء حراماً وقذراً وفاسداً حتى نعلم أنه حلال وصحيح لحدثت الفوضى والاضطراب ، ولما تم للناس أمر من أمورهم العامة والخاصة .

الرضا لا يحلل الحرام :

جاء في الحديث الشريف : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . المؤمنون عند شروطهم إلا شرطاً حلالاً حراماً أو حرم حلالاً » ، قال الفقهاء : لا تختص هذه القاعدة بالصلح والشرط ، بل تشمل جميع أبواب الفقه ، فأية معاملة تقع على عمل محرم في الشرع كالسرقة والزنا ، أو على عمل مباح بذاته ، ولكنه يستتبع الحرام كالبيع والإجارة يؤديان إلى الربا والاستغلال ، فأية معاملة تؤدي إلى ذلك فهي باطلة ، وبمجرد التراضى لا يجعل الحرام حلالاً ، لأنه تعاون على الإثم ، ويتفرع على هذا المبدأ مسائل :

(١) إذا استأجر إنسان عقاراً من غيره ، واتفقاً معاً على أنه إذا حصل

خلل فيه يتداركه المستأجر ، ويضمنه من ماله وإن لم يكن هو السبب لهذا الخلل ، قال فقهاء الإمامية : لا يجب الوفاء بهذا الشرط ، لأن المستأجر أمين لا ضمان عليه ، وكذا لا يصح الشرط على أن لا يضمن المستأجر إذا كان سببا لحصول الخلل ، وإلى هذا أشار العلامة الحلي في كتاب التذكرة باب الإجارة : « ما لا يجب ضمانه لا يصح بالشرط مضمونا ، كما أن ما يجب ضمانه لا ينتفى ضمانه بالشرط » .

(٢) قال الشيخ الطوسي وغيره من فقهاء الإمامية : « إذا تشارك اثنان في التجارة ، واتفقا على أن يكون لأحدهما من الربح أكثر من الآخر تكون الشركة باطلة ، وهذا إذا تساويا بالعمل ورأس المال . وكذا لا يجوز أن يشتري رجل حامل بضاعة من ماله الخاص ، ويتفق هو ورجل وجيه على أن يكون البيع باسم الوجيه ترويحاً للساعة ، ويعطيه جزءاً من الربح .

(٣) يجوز أن يدفع الإنسان مالا إلى غيره ليتجر به على أن يكون الربح بينهما ، ولكن لو حصلت الخسارة تكون على صاحب المال وحده ، وقال السيد محسن الحكيم مرجع الطائفة في كتاب مستمسك العروة الوثقى باب الإجارة : « لو اتفق العامل وصاحب المال على أن تكون الخسارة عليهما معاً لا يعمل بهذا الاتفاق ، لأنه مخالف لكتاب الله وسنة الرسول ، لأن الخسارة عرضت على المال دون أن يكون للعامل دخل في ذلك ، فتعريضه ظلم حتى مع الرضا » .

والخلاصة أن الرضا لا يجعل الحرام حلالا ، فإذا رضى الإنسان أن يُشتم أو يُضرب أو يدفع الربا أو يُستأجر على عمل محرم ، فريضه ليس بشيء .

كل إنسان خلاصه بيده :

إن هدف الإسلام أن يحرر الإنسان من الظلم والجهل والخرافات ، ومن كل قيد لا يفرضه العقل ، فأى مسلم يؤمن بما يباهه العقل فهو جاهل بدينه ، وإن قضى حياته في دراسة الدين وعلومه ، وبديهة أن العقل يأبى أن يكون لإنسان سلطان على إنسان بنحو من الأنحاء ، وقد اعتبر الإسلام هذا مبدأ من مبادئ التشريع ، فكل راشد عاقل مستقل بأعماله ، ولا يتوقف صحة شيء منها على رضا

قريب أو بعيد ، سواء أكان عملاً دينياً أم دنيوياً ، فإذا تاب الإنسان من خطيئة يقبل الله منه بدون شفيع ، كما يقبل صلاته وصيامه وحججه وزكاته بلا واسطة جامع أو كنيسة ، وأجاز الإسلام أن يأتم الفقيه والمملك في الصلاة بابن الشارع إذا كان من أهل الإمامة والتقوى ، حتى واجبات الميت ، كتغسيله ودفنه والصلاة عليه لا يشترط أن يباشرها رجل دين ، فيصح أن يتولاها كل من يحسن الإتيان بها على وجهها ، وكذا الزواج والطلاق يوقعهما المرید بنفسه دون أن يستعين بأحد .

إن مصير كل إنسان متوقف على عمله ، وخلاصه بيده لا بيد الصالحين ورضام عنه ، وشفاعتهم له .

إن تعاليم الإسلام من ألفها إلى يائها تهدف إلى تحرير الإنسان من عبادة الإنسان ، والعبادة لا تنحصر في الصوم والصلاة ، فكل من ربط عمله بإرادة غيره وانقاد له فقد عبده ، وأشرك مع الله إلهاً آخر ، قال صاحب مجمع البيان في تفسير الآية ٣١ من سورة التوبة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، إن الإمام الصادق قال : أما والله ما صاموا ولا صلوا لهم ، ولكنهم أحلوا لهم حراماً ، وحرّموا لهم حلالاً فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون . وقال عدي بن حاتم : أتيت رسول الله ، وهو يقرأ هذه الآية فقلت له : لستنا نعبدهم ، فقال : أليس يحرمون ويحللون ، فتحرمون وتستحلون ؟ قلت بلى ، قال : فذلك عبادتهم .

وبالتالى ، فإن التشريع في نظر الإسلام لا يناط بفرد من الأفراد ، ولا بهيئة من الهيئات ، وإنما يناط بالمصلحة والمفسدة ، فكل ما فيه مفسدة تستدعى تركه فهو محرم ، وكل ما فيه مصلحة ملزمة تستدعى فعله فهو واجب ؟

العزوبة في اليهودية والسيخية والإسلام

لخضرة الاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

تنظر اليهودية إلى الزواج على أنه واجب ديني لسكل قادر عليه ، ويقرر فقهاء اليهود أن جريمة من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه تعدل جريمة القاتل ، لأن كليهما « يطفىء نور الله » وينتقص ظله في أرضه ، ويبعد رحمته عن إسرائيل ، بل لقد ذهب كثير منهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فأروا أن من يبلغ العشرين وهو أعزب يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج (١) .

ومن أهم الأسباب التي جعلت اليهود يعلون من شأن الزواج إلى هذا الحد أن تخليد اسم الأسرة وتخليد شعائرها ووظائفها الدينية وتوثيق صلتها بالرب ، كل ذلك كان يتوقف في عقيدتهم على إنجاب البنين ؛ وليس ثمة وسيلة مشروعة لإنجاب البنين إلا الزواج ، وفي هذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم «كاتبه عن زكريا : « وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتى عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب » .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الشرعية نفسها إذا لم ترزق بذكر تتنازل للجارية زوجها أو جارتها عن فراشها ابتغاء أن يأتي منها زوجها بابن يخلد ذكرى الأسرة . ومن الغريب أن من كانت تأتي به الجارية من ثمرات هذا الفراش كان يعدّ ولداً للزوجة الأصلية لا للجارية التي ولدتها . فكانت الزوجة هي أمه الشرعية ؛ على حين أن الجارية كانت تعتبر مجرد أداة استخدمت لإنجابها . وقد طبق هذا النظام على إسماعيل الذي جاء به إبراهيم من جاريته هاجر قبل أن ترزق زوجته الأصلية سارة

بأنها إسحق ، وطبق على « دان » ، و « نفتالي » ، اللذين جاء بهما يعقوب من جاريته بيلهة قبل أن ترزق زوجها الأصلية راحيل بيوسف وبنيامين (١) .

ولم يشذ عن ذلك من فرق اليهود جميعاً إلا فرقة الحسدبين (٢) فقد كان من أم مبادئ هذه الفرقة ، حسب ما يحدثنا يوسف المؤرخ الشهير : « الرغبة عن جميع متع الجسم ، والنظر إليها على أنها شرور ، واعتبار التبتل (٣) من أمهات الفضائل ؛ ومن ثم حرموا على أنفسهم الزواج » ، (٤) .

* * *

ومع أن هذه المبادئ الحسدبية لم يكن لها أثر كبير في الديانة اليهودية نفسها ، ولم تطبق إلا في نطاق جماعة الحسدبين وحدهم ، وفي مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال في الديانة المسيحية التي جاءت من بعد ذلك ، فقد ساد في المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج ، وأن الحصور (٥) أدنى إلى الله من يقرب النساء . وفي هذا يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل قورنثوس : « إن من يزوج ابنته يأت عملاً طيباً ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير (٦) . . . » وإنه من الخير للرجل أن يظل أعزب ، إلا إن خاف الوقوع في

(١) سفر التكوين إصحاح ١٦ وإصحاح ٣٠ آيات ١ — ١٤

(٢) انظر بحثاً في هذه الفرقة والفرق اليهودية الأخرى في مقال لنا بالعدد الثاني من السنة الثامنة من هذه المجلة ، صفحتي ١٥٥ ، ١٥٦

(٣) تبتل إلى الله وتبتل بتمديد التاء : انقطع وأخلص ، أو ترك النكاح وزهد فيه .
١٠١ . قاموس . وبهذا المعنى الأخير سنستعمل هذا الفعل ومشتقاته في هذا المقال .

(٤) Josephe : De Bello Judaico, 11, 8, 2 (٤)

(٥) الحصور من لا يأتى النساء وهو قادر على ذلك والمنوع أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن . ١٠١ . قاموس ، وبالمعنى الأول وحده سنستعمل هذا الوصف في هذا المقال .

(٦) الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل قورنثوس ، إصحاح ٧ ، آية ٣٨

الخطيئة (١) . . . وإنتي لآنصح للأيامى (٢) من الرجال والنساء أن يقتنوا بي فيظلوا على ما هم عليه ، فإن لم يقو أحدهم على العفة فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج ؛ فلان يتزوج خير من أن يكون وقوداً لنار جهنم ، (٣) .

ويعلق ترتوليان (٤) على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس الرسول فيقول : « إن الأفضل من حالتين لا يلزم أن يكون خيراً في ذاته . فلأن يفقد الإنسان عينا واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيهِ ، ولكن فقد عين واحدة ليس من الخسر في شيء ، فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم ؛ ولكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معاً ، فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار ، وإن قصارى ما يحققه الزواج أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذلل له السبيل إلى منزلة الإشراف ، ويتيح له أن يأتي بالمعجزات . فجسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء ، والقديس يوحنا المعمدان (يحجي بن زكريا Jean Baptiste) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم في سفر الخلود آثروا التبتل وحثوا الناس عليه ، وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى (٥) أن تعبر البحر هي وجميع من كن يسرن خلفها من النساء ، فاتفق لمن فيه طريق ييسر وانتهين إلى الساحل الآخر سالمات ، والقديسة البتول « تسكلا » قد ألقي بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجمت الأسد أمامها ورقدت تحت قدميها بدون أن

(١) المرجع السابق لإصحاح ٧ ، آيتي ١ ، ٢

(٢) الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة . والجمع فيها أيامى ، اه مصباح .

(٣) الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل قورنثة ، لإصحاح ٧ ، آيتي ٨ ، ٩

(٤) من كبار فقهاء الكنيسة المسيحية (١٦٠ — ٢٤٠ ميلادية) .

(٥) وهي التي ورد ذكرها في القرآن في قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » .

تمسها بسوء (١) . . . ولقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء ، لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء . . . ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهرا حصورا ، ولتكاثر النوع الإنساني بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ، ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين ، (٢) .

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسئلة في الدين بالضرورة ، أى التى لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها ؛ حتى إن جمع مديولانفس المسيحي قد حكم في أواخر القرن الرابع الميلادى على الراهب جوفينيان بالطرد من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحي الذى يقرر أن التبتل خير من الزواج (٣) .

وقد ذهب فرقة المارسيينيين (وهى فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون) (٤) إلى ما هو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريماً باتاً على جميع أفرادها ،

(١) تذكر القصص المسيحية أن القديسة تـسـكـلا كانت من السابقات الأوليات إلى اعتناق المسيحية في القرن الأول الميلادى على يد الرسول بولس ، وأن الله قد نجحها بمجزة من كثير من أنواع العذاب التى امتحنها بها الوثنيون ليثبتوها عن عقيدتها ، ويحتفل المسيحيون بذكرها في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر .

(٢) Terrullien, De Monogamia 3 - هذا ولا يوافق سان توماس الإكويني على الفقرة الأخيرة التى ذكرناها من عبارة تـرـتـولـيـان ، بل يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسي ، ولكن هذا الاتصال - فى نظر توماس الإكويني - لم يكن فى بدء الخليقة منطويا على اللذة الجنسية التى امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة .

(٣) Ibid 390 .

(٤) ولد مارسيون هذا ببلدة سينوب (ميناء على البحر الأسود فى تركيا) فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، وكان أبوه قسيساً ، ونشأ هو قسيساً كذلك ، ولكن حكم عليه بالطرد من الكنيسة لمذهبه المنحرف عن أصول المسيحية ، ويقوم مذهبه على اعتقاد أن العالم السفلى من صنع الإله العادل Dien Juste أو الإله ديميجورج وهذا الإله هو الذى =

كما فعلت فرقة الحسدبين من اليهود، وأوجبت على كل متزوج يرغب في اعتناق مذهبها من الذكور أو الإناث أن يفترق عن زوجته؛ وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده . ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب ، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى ، وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان في المذهب الكاثوليكي . ففد العصور المسيحية الأولى كان يخطر على القسيس أن يتزوج امرأة متوفى عنها زوجها ، كما كان يخطر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته . وفي أوائل القرن الرابع الميلادي أصدر مجمع إلفيرا (في أسبانيا) قراراً بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة . وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمراً بوجوب العزوبة وتحريم الزواج على جميع القسيسين والرهبان كبارهم وصغارهم ، حتى لا تتدنس صفاتهم الكهنوتية بالاتصال الجنسي ، ومع أن هذا القرار قد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة في كثير من المناطق المسيحية ، فإنه لم يكده ينتهى القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نظاماً مقررأ في الكنيسة الكاثوليكية ، ومطبقاً على جميع القسيسين والرهبان من الرجال والراهبات من النساء .

ويذهب الظاهريون من فقهاء المسلمين وعلى رأسهم داود الأصفهاني وابن حزم إلى أن الزواج فرض عين على كل مسلم قادر عليه وعلى مختلف أعبائه . فهو للمسلم

== اتخذ من بني إسرائيل شعباً مختاراً وأنزل عليهم التوراة ، ولكن سلطان هذا الإله قد انتهى عند ما ظهر الإله الخير Dien Bon متمثلاً في المسيح وخلص الإنسانية من خطاياها ؛ فيعتقد بطلت كل أعمال الإله السابق ، ومن ثم يقوم هذا المذهب على أطراح العهد القديم « كتب اليهود المقدسة » فيجلته وتفاصيله ، أما العهد الجديد « كتب المسيحيين المقدسة » فإن هذا المذهب لم يعترف منه إلا بسفرين : أحدهما إنجيل لوقا ، والآخر رسائل الرسول بولس . ولم يعترف بهذين السفرين نفسيهما إلا بعد أن أدخل عليهما تعديلات كثيرة - وعلى الرغم من الحرب الشعواء التي شنتها الكنيسة وشنها المحافظون من كتاب المسيحيين على هذا المذهب ، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير في إيطاليا وإفريقيا ومصر ، وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ، ثم أخذ يضمحل بعد ذلك حتى انقرض انقراضاً تاماً .

في نظرهم ، بمنزلة الصلاة والصوم وما لهما من الفروض العينية ، حتى إنهم ليعرون أن من تركه مع القدرة عليه وعلى أعبائه يكون إثمه إثم من ترك ركنًا من أركان الدين الإسلامي . ويستدلون على ذلك بعدة آيات وأحاديث ورد فيها طلب النكاح بصيغة الأمر ، ذاهبين إلى أن الأمر المطلق للفرضية والوجوب . وذلك كقوله تعالى : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء ، وقوله : « وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتزله عرش الرحمن ، وقوله : « من استطاع منكم الباءة (١) فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء ، (٢) ، وقوله : « تناكحوا تكثروا فإنني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ، وقوله : « النكاح سني فمن رغب عن سني فليس مني ، (٣)

وحتى معظم فقهاء المسلمين الذين لم يذهبوا إلى حد القول بفرضية الزواج على الإطلاق ينزلونه منزلة تقرب من منزلة الواجب ، ويقولون بوجوبه إذا خشى الفرد الوقوع في المحرم ، فلا خلاف بينهم في أن العزوبة تتنافى مع الأوضاع الإسلامية الصحيحة ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « من تزوج فقد أحرز نصف دينه ، ويقول : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له بخير ، والولد الصالح لا يكون إلا ثمرة لزواج مشروع .

وأما ما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام من أحاديث ترغب الناس في التبتل ، كقوله : « خيركم من لم يتزوج بعد المائة أو بعد الألف ، - أى من التقويم الهجرى - فهي أحاديث موضوعة تتعارض مع روح الإسلام وتعاليمه . ويظهر أنها تعبر عن اتجاهات مسيحية تسربت إلى بعض بلاد المسلمين ، أو عن اتجاهات الغلاة من المتصوفين ؟

(١) الباءة والباء النكاح ، وبوأ تبويثاً نكح . اه القاموس ؛ والمعنى من قدر منكم على أعباء الزواج فليتزوج .

(٢) يطلق الوجداء على رضى عروق الخصية من غير إخراج فيكون شبيهاً بالخصاء ، لأنه يكسر المبهمة ، اه . المصباح ؛ والمعنى من لم تكن له قدرة على أعباء الزواج فليصم ، فإن في الصيام إضعافاً للزوات ، ووقاية للعفة ، وصيانة للنفس من الوقوع في المحذور .

(٣) انظر في ذلك بدائع الصنائع للكاساني ، كتاب النكاح ج ٢ ص ٢٢٨

فِي التَّارِيخِ وَالْأَدَبِ

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوي الأستاذ في كلية اللغة العربية

— ٤ —

حلوان — خندف :

استوعب حديث (حلوان) المقال المتقدم كله ، للاستطراد فيما اتصل بحلوان مما استبقى ذكره في سجل الخالدين بصحائف التاريخ ، وقد التزمت في نهايته إتباعه بحديث آخر عن أخته (خندف) ، وذلك أنه قد سبق التمهيد بالحديثين مرتبين كذلك بعد الفراغ من تسطير ما يتعلق بأُمهما (ضرية) ، وبهذا سيكون موضوع اليوم خاصاً بخندف .

خندف :

إن خندف قد أدركت شأو أمها ضرية وأخيها حلوان ، في شيعة اسمها في عهدهما واستدامته في الآخرين بعدها مثلهما ، فلئن أتيح لأمها حظ البقاء لاسمها مقروناً بالتعريف لحماها الذي ظل القرون الطوال قائماً في الجاهلية والإسلام ، وتردد التنويه به في عهد جعفر المتوكل على الله على ما سلف ، وما أدري إلى أي وقت بقي ؟ فلعله طال عهده بعدئذ إلى حين ، ولأخيها تسجيل اسمه على حلوان الفرات مضافاً مع هذا إلى التمييز به في نسله المبارك فيه المستمر إلى الإسلام ، فكان منه بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، على ما نقلنا لك هناك ، إذ لا حاجة إلى سرد أسماء كثيرة منهم يمتنون إليه بصلة الأبوة لهم . لئن أتيح لأمها وأخيها ما عرفت ، لقد قيض الله لخندف كذلك الخلود الأبدى بإطلاق اسمها على بنيتها من اليأس ، فن تفرع منهم الأحقاب الممتدة من يومها إلى العصر العباسي

الثاني - كما تقدم في شعر أبي الطيب المتنبي - إذ أحدث النظام العارض فيه المرتبط بالدويلات القضاء على ما كان يراعى في العصيات قبلاً ، ولكل زمن اتجاهه .

على أنه قد فات الإلماع إلى أن ذلك اللقب استقر الالتفات إليه أنه أحد أبوى قصى الكريمين اللذين تغنى بالانتساب إليهما في بيتيه الماسيين ، فبينما حينذاك أن الحقيقة التاريخية تطل علينا منادية بالإفصاح عن أمرين لا بد منهما : أن ذلك العلم الذى ذاع وملا الأسماع عارض عليها وانطوى وراءه علم ميلادها الموضوع لها من أبويها (ليلي) ، وأن ذلك العلم بعدئذ زحم علم زوجها في التمييز لبنيها ومن توالده منهم ، بل استأثر به على مر الأيام واختص أن يكون علم القبائل من البنين ، والعشائر من الأحفاد ، والبطون والانقاذ والفصائل من حفدة الأحفاد ، فأطلق على كل من تناسل من اليأس وخندف بنو خندف . كما وقع التغيير في علم أخى اليأس ، وهو الناس ، فامتاز علم قيس على الناس ، وصار مآل العلين إلى مصير واحد وهو الاختفاء وراء ما اشتهر اسكل منهما من العلين الجديدين ، ولتتبين الأمر جلياً فهاك ما كان ، لترى إلى أين صار .

شيلة مضر : اليأس والناس

إن مضر أحد بنى نزار الأربعة ، والباقون : ربيعة وإياد وأنمار ، قد تزوج جرمية ديدن العرب في الزوج إلى القربات للنجابة ، فولد لها اليأس والناس ، وما لبثا حتى انتشر نسلهما وملا الأصقاع ، فكانت منه جبهة العرب الذين احتازوا معظم الجزيرة ، وضربوا خيامهم في سرتها وأطرافها ، وضرب بهم المثل في الكثرة والبأس والنجدة ، مع رعايتهم قرابة العمومة والاحتفاظ بها كلما حزب الأمر وشتت الغارات ، ومع اختفاء اسمي أبويهما واستبدال علين آخرين اشتهرا على الألسنة ، وطبعا الاستبدال مناسبات اتفاقية تطراً فينفذ حكمها دون معارضة وصدمتها حدث أيا كان ، وكثر ما كان ذلك في كل عصر وحين ، وبين ظهرانينا أمثلة لا تحصى ولا تستقصى .

كان البدل في الناس (قيس علان) وسبق بإسهاب بيان ما قيل فيه ، والبدل

في اليأس (خندف) وهنا الوفاء بالوعد للإفادة عن الأمرين في هذا العلم : بيان طوره على العلم الوضعي لها في ميلادها ، وسبب تغلبه في بنيتها على علم أبيهم .

خندف وبنوها :

من الأحاديث الآتية عرف أن اليأس تزوج ليلي ، وفي حديث لليوم نضيف أنهما أعقبا ثلاثة : عامر وعمرو وعمير . ولقد ساق القدر ظروفًا استوجبت التغيير في أسمائهم ، كما استوجبت أخرى تغييراً في اسم أبيهم ، وهكذا الدهر ذو غير ، يضاف إلى هذا البحث في السبب المقتضى تغليب جانب الأم على الأب .

فانضوى الأبناء تحت لواء علم أمهم ، وانطوت راية أبيهم دونهم .

وما أشق التتقيب عن معلومات يد الدهر صانعتها . فإنه يستتبع تصفح الماضي مع الوقوف عند المناسبات حتى يعثر على الأسباب التي تأتي كثيراً عفواً في أوانها ، وفي النقول الآتية ما يكفل الإجابة عن الأمرين معاً : التغيير في اسم الأم وأبنائها وإيثار اسم الأم على الأب في التعريف بالأبناء .

النصوص الواردة :

في سيرة ابن هشام : د ولد اليأس بن مضر ثلاثة نفر : مدركة بن اليأس ، وطابخة بن اليأس ، وقعة بن اليأس ، وأمهم خندف امرأة من اليمن ، وهي خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة . . . وكان أمهم مدركة عامراً وأمهم طابخة عمراً ، وزعموا أنهما كانا في إبل لها يرعيانها ، فاقتنصا صيداً ، فقعدا عليه يطبخانه ، وعدت عادية على إبلهما ، فقال عامر لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ ، فلحق عامر بالإبل فجاء بها ، فلما راحا على أبيهما حدثاه بشأنهما ، فقال لعامر : أنت مدركة ، وقال لعمرو : أنت طابخة . .

قال السهيلي : د وفي الخبر زيادة ، وهو أن اليأس قال لامهم (ليلي) . . . وقد أقبلت تخندف في مشيها : مالك تخندفين ، ؟ .

فسميت خندف ، والتخندفة في اللغة : سرعة المشي ، وقال لمدركة : وأنت

قد أدركت ما طلبنا ، وقال لطابخة : وأنت قد انضجت ما طبختنا ، وقال لقمعة : وهو عمير : وأنت قد قعدت فانقمعتا .

وخندف التي عرف بها اليأس هي التي ضربت بها الأمثال بحزنها على اليأس ، وذلك أنها تركت بنها وساحت في الأرض تبكيه حتى ماتت كذا . . . وقال الزبير : وإنما نسب بنو اليأس لأنهم حين تركتهم شغلا بحزنهم على أبيهم رحمهم الناس ، فقالوا هؤلاء أولاد خندف الذين تركتهم وهم صغار أيتام حتى عرفوا بني خندف (١) .

وفي اللسان مادة (خندف) الخندفة مشببة كالهرولة ، ومنه سميت - زعموا - خندف امرأة اليأس بن مضر بن نزار واسمها ليلي ، نسب ولد اليأس إليها وهي أمهم . . . كانت خندف امرأة اليأس اسمها ليلي بنت حلوان غلبت على نسب أولادها منه ، وذكروا أن إبل اليأس انتشرت ليلا تفرج مدركة في بغاتها فردها فسمي مدركة ، وخندفت الأم في أثره ، أي أسرع فسميت خندف واسمها ليلي بنت عمران بن الحلاف بن قضاعة ، وقعد طابخة يطبخ القدر فسمي طابخة ، وانقمع قمعة في البيت فسمي قمعة ، وقالت خندف لزوجها : ما زلت أخندف في أثركم ، فقال لها : فأنت خندف ، فذهب لها اسما ولولدها نسبا ، وسميت بها القبيلة ، وظلم رجل في أيام الزبير بن العوام فنادى بالخندف ، تفرج الزبير ومعه سيف وهو يقول أخندف إليك أيها الخندف ، واقه لأن كنت مظلوما لأنصرتك . . .) .

وفي القاموس مادة (الخندوف) : « وولد اليأس بن مضر عمرا وهو مدركة ، وعامرا وهو طابخة ، وعميرا وهو قَمْعَة ، وأمهم خندف كزبرج وهي ليلي . . . وكان اليأس خرج في نُجْمَة فنfert إليه من أرنب ، تفرج إليها عمرو فأدركها ، وخرج طامر فتصيدا وطبخها ، وانقمع عمير في الخباء ، وخرجت أمهم تسرع فقال لها اليأس : أين تخندفين ؟ فقالت : ما زلت أخندف في أثركم ، فلقبوا : مدركة وطابخة وقمعة وخندف . . . »

(١) الروض الأثف « ذكر ولد نزار بن معد » ج ١ ص ٦١

وقتل السيوطي : « وفي أمالي ثعلب : نذت لإبل لليأس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان ، فندت أولاده في طلبها ، وهم ثلاثة : عامر وعمرو وعيبر ، فأدركها عامر فسمى مدركة ، وأما عمرو فاقتصص أربنا واشتغل بطبخها وقال ما زلت في طبخ فسمى طابخة ، وأما عيبر فانقمع في البيت فسمى قمة ، فلما أبطأوا على أمهم ليلى خرجت في أثرهم ، فقال الشيخ لجارية لم يقال لها نائلة : تفرصني في أثر مولاتك أي أسرعي ، فقالت ليلى ما زلت أخندف في أثركم أي أهروول فسميت خندف ، وقالت نائلة : أنا قرفصت في أثر مولاتي ، فقال الشيخ : فأنق قرفاصة ، (١) .

غير أنه بعد الرجوع إلى أمالي ثعلب ظهر التفاوت بين المنقول والمنقول عنه في زيادة أثبتتها السيوطي . ولعل هذه الزيادة سببها عليه القصد من زيادة الإيضاح في الخبر . ولتعلم ذلك جلياً أضع بين يديك عبارة الامالي المنقول عنها بحروفها ، قال ثعلب : « ومدركة وطابخة أخوان طلبا لإبلهما فصادا أربنا ، فقال مدركة لطابخة : اطبخ لنا صيدنا هذا إلى أن أتني عليك الإبل فطبخها طابخة ، وثني عليه مدركة الإبل ، فلما أتيا أمهما قالوا : فعلنا وفعلنا ، قال : فلقب طابخة وهذا مدركة ، فذهبا طابخة ومدركة ، وأمهما خندف ، (٢) .

وفي شرح شواهد شرحي الشافية للبغدادى الشاهد التاسع والأربعين بعد المائة « وقل ابن المستوفى في تسميتها خندف وجها آخر ، قال : فقد هم اليأس يوما فقال لها : اخرجي في طلب أولادك ، فخرجت وعادت بهم ، فقال لها اليأس : أنت خندف ، .

عساك علمت علم اليقين - بعد أن قرأت النصوص الواردة في إحلال قيس عيلان محل الناس والاجتزاء به دونه في تمييز فروعه من غيرهم ثمة في العدد الثاني

(١) الزهرج ٢ ص ٢٦٩

(٢) أمالي ثعلب ج ٢ ص ٥٧١ طبع دار المعارف .

من السنة الماضية ، وفي اشتهار خندف بدلا من اليأس والاستغناء بها دون الحاجة إليه في الإرشاد عن ذريته هنا في هذا المقال - أنه ناب قيس وخندف في التعريف بما تناسل من ابني مضر شعوباً إلى فصائل عن الناس واليأس على مر العصور ، ولا سيما في المصاولات والمقاولات بين الفريقين ، ومن ثم كان المضى حيناً يتساقى بالاعتزاز إلى هذين الأبوين ، ويطير بهذين الجناحين عند الوتام والإجابة لعامل القربى بين بني الأعمام ، وحيناً ينحاز إلى أبيه فتظهر المقابلة بين هذين الأبوين من الفرعين ، ولكل من الأمرين داعيه الخاص .

يقول نصر بن سيار المرتفع نسبة إلى مدركة بن خندف :

أنا ابن خندف تمنى قبائلها للصالحات وعمي قيس هيلانا (١)

ويقول المبرد في التغميم بقدر الأقرع بن حابس التيمي المرفوع نسبة إلى طابخة بن خندف ، وعيينة بن حصن الفزاري المنتهى إلى قيس عيلان : « وكان الأقرع في صدر الإسلام سيد خندف ، وكان محله فيها محل عيينة بن حصن في قيس ، (٢) .
خندف وقيس هما ملتي أولاد مضر .

بنو قيس - بنو خندف :

يستنصر القيسي القيسين ، والخندفي بالخندفين إذا شجر النزاع بين بني العم ، وإن جد الشقاق بين بني مضر وبين ربيعة أو غيره ، فبنو العمومة في صف واحد ينزعون في قوس واحدة تلقاء غيرهم ، فالمناصرة في الأخوة فالعمومة فالجد الأهل وهكذا على ما هو مركز في الطباع البشرية .

وهذه العصية البغيضة في الدين الحنيف خفت صوتهما وكنت في النفوس الفترة الأولى في صدر الإسلام ، إذ أن دولة بني أمية أحييت التقاليد العربية ،

(١) البيت في جهرة الأنساب ص ٩ ، ونصر والي خراسان من عهد هشام بن عبد الملك وترجمته في خزنة الأدب الشاهد السابع عشر بعد المائة .

(٢) الكامل شرح الرغبة ج ٣ ص ٤٢

وبعث دفين نوازح الحزبية ، فرجعت النمرة الأولى التي كانت قبيل الإسلام جذعة ، فتغنى بها الشعراء - وهم السنة قبائلهم الذادون عن حياضهم - وطفقوا يرددون مواقف أسلافهم المشهورة منسوبة إلى أصولهم الممجدة - كل يرفع راية القبيلة التي ينحاز إليها ، ويحثو في وجه مناهضة التراب ، وقد أثر الهجاء بالتفضيل في النفوس أيما تأثير ، فكم من قبيلة رفع الشعر أو وضع .

اعتزاز الشعراء بأصلهم الخندفي أو القيسي :

كثر الشعراء المجيدون في دولة بني أمية ، وبلغ الشعر ذروة الجلالة والفصاحة ، غير أن الشعراء اختلفت ميولهم القبلية تبعاً لاختلاف بيئاتهم العربية ، والتطاحن فيما بينها للسبق في حظوظ الحياة ، وقد زاد اختلاف الشعراء التدابر بين القبائل ، وأجج نار الاحقاد والاضغان ، كثيراً من الأحيان . فقد يثير الشاعر الخندفي المسلم من خندف كما يوقظ الشاعر القيسي المتسامح من قيس ، كما ينه المنتسب إلى عشيرة عشيرته لمناهضة عشيرة أخرى قد تكون خندفية أو قيسية مثلها وهكذا .

لجرير مثلاً ، التيمى الخندفي ، إذا احتربت بنو قيس وبنو خندف ، فإنه يسلمط لسانه على قيس ويشيد ببطولة خندف ، وإن عرف عنه الاحتفاظ بكرامة الأب (قيس) لأن جريراً له خثولة في قيس ، لذا كان يعمد حينئذ إلى ذكر القبيلة وحدها دون تعميم في القيسيين ، وإذا تلاهى المضربون والربعيون فإنه يسلمق الربعيين بلسان حديد ، ويحسب المجد واقفاً عند بني قيس وخندف ، وإذا اختتم بنو خندف فإنه يدع النسب العالي ويتحيز لمن يهوى . وهكذا شأنه : بلبس لكل حالة لبوسها .

وكذا الفرزدق التيمى الخندفي يجرى في هذا المضمار لاقتضاء الظروف اللون باللون الذي يقتضيه الحال ، بيد أنه كان عنيفاً في حملاته على قيس ، فصب جام غضبه على رموسهم في الوقعات التي نشبت بينهم وبين الخندفيين ، لأميرين : الأول : لمناصبته العداء لجرير الذي كان يعدد مآثرهم في مواقفهم ، والتهارش بين

الشاعرين دفعهما إلى غمط الحقيقة واختلاق المعايير ، والثاني : لأن أبويه ينتسبان
خندف ، فالنسب العالي عنده ما ارتفع إليهما .

أما الأخطل التغلبي الربعي فإنه موزع الثورة ، فكان يرغب على أن ينال من
من قيس حيناً ، ومن خندف حيناً آخر ، وربما تناول الشعبين ، وإن كان
الفرزدق عنده أثيراً ، فالصداقة الشخصية لا تطغى عليها العداوة العامة العصبية ،
وصدق الفرزدق في هذه الحكمة :

وكل رفيق كل رجل وإن هما تعاطى القنا قوماهما : أخوان

هؤلاء الشعراء الثلاثة ومعاصروهم أفرطوا في التمسك بأصولهم القديمة
العهد ، فرددوا في أشعارهم خندف وقيساً وبطونهما لاى داع ، وما أكثره في
حسابهم ، ولا يحمل الاستكثار من أمثلة في ذلك ، فلاقتصر على قليل كنموذج
يكشف عما وراه على نمطه تماماً للفحول من الشعراء .

أبرز الشعراء في هذه الحلبة :

لعل أكثر الشعراء تعلقاً بالمفاخرة بها هؤلاء الثلاثة : جرير ، والفرزدق ،
والأخطل ، وسأذكر نبذة عن كل منهم :

جرير :

طالما مجد خندف واستنصرها واستظهر بها ، وأكثر مواقفه التي احتسب
فيها بخندف كانت ترتبط بالمناسبات مع هؤلاء الثلاثة : الفرزدق والأخطل والراعي
فإن هؤلاء أقضوا مضجعه ، وتوافروا على الفتك به بكل ما أوتوا من قوة عشيرة
وبسطة مال وسلطة لسان ، لكنه لم تلن لهم قناته وكان الجزاء لهم منه أوفى .

يقول للأخطل مع النيل من قبيلته تغلب من قصائد طويلة ، نذكر منها
ما يختص باسم القبيلة فقط :

ستعلم أن أصلى خندف حبلى أفضل الحسب الكريم
نزلت بفرع خندف حيث لاقت شؤون الهام مجتمع الصميم

يا بن الحبيثة ربحا من عدلت بنا ؟ أم من جعلت إلى قيس إذا ذخروا ؟
قيس وخندف أهل المجد قبلكم لستم إليهم ولا أتم لم خطر

إذا حل بيتي بين قيس وخندف لقيت قروما لم تُدَيِّث صعاها
كذلك أعطى الله قيساً وخندفا خزائن لم يفتح لتغلب بابها

قضى لي أن أصلي خندف وعضب في عواقبه السمام
إذا ما خندف ذخرت وقيس فإن جبال عزي لا ترام

غثرتُ بقيس وافتخرت بتغلب فسوف ترى أي الفريقين أربح ؟
وما زال ممنوعا لقيس وخندف حتى تتخطاه الخنازير أفيح
إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تدر من أين تسرح ؟

ويقول للفزدق الذي كان يتنقصه بميله لقيس وارتيمائه في أحضانهم ، وما ذاك
من الفزدق إلا عن قلى منه لقيس ، وإثارة لحفيظة خندف على جرير - بما فيه
الكفاية لرد المكيدة .

تُحَضِّضُ يا بن القين قيساً ليجملوا لقومك يوما مثل يوم الأراقم
إذا حدثت قيس على وخندف أخذت بفضل الأكثرين الأكارم
أنا ابن قروع المجد قيس وخندف بنوا لي جامداً رفيع الدعائم
فإن شئت من قيس ذرى متنع وإن شئت طودا خندف المخارم
ألم ترني أردى بأركان خندف وأركان قيس نعم كهف المراجم
لقد حدثت قيس وأفناء خندف على مرهب حام ذمار المحارم

ويقول له أيضاً معرضاً بهواه للأخطل :

وقد لحق الفزدق بالنصارى لينصرم وليس به انتصار
تخاطر من وراء حمى قيس وخندف عز ما حى الذمار

ويقول للراعي النمرى لما اعتدى عليه ، ونمير قبيلة من كبريات قبائل قيس

وحجرة من جمرات العرب الثلاث . وقد قدح فكره وأورى زنده ، فأبدع القصيدة المعروفة بالفاحشة ، وسارت بعض أبياتها مسير المثل . وانتسب في ملاحاته مع النهرى إلى خندف ، فقال منها مخاطباً له :

تنح فإن بحرى خندفى ترى فى موج جرّيته عابابا
علوت عليك ذروة خندفى ترى من دونها ربّابا صعابا

الفرزدق :

يقول فى احتبائه بخندف من قيس :

ترفع لى خندف - والله يرفع لى - ناراً إذا خمدت نيرانهم تقد
وفى المباهاة بهما :

إذا ذخرت قيس وخندف والتقى صمبابهما إذ طاح كل صميم
وفى هجاء قيس وإيعادها :

أنا ابن خندف والحامى حقيقتها قد جعلوا فى يدى الشمس والقمر
يا قيس عيلان إني كنت قلت لكم يا قيس عيلان ألا تسرعوا الضجرا

وإذا حاول الباحث أن يرى لفيفاً من الشعراء متعاصرين فى الجاهلية والإسلام تبادلوا التنافس فيما بينهم وفيما بين أصولهم يمنية ومضرية ، قيسية أو خندفية هكذا فإنه غير واجد عدداً يعتد به كذلك إلا فى هذه الفترة التى استعرت فيها نار الأحقاد بين الفريقين ، ومن وقف على الأسباب التى أقامت مروان بن الحكم خليفة على المسلمين بعد معاوية الثانى ، وهيات له انتزاع الخلافة من عبد الله بن الزبير بعد أن تمت له فى الحجاز والعراق ومصر وبعض الشام مع موازنة المضربين له ، أدرك وجهة المروانيين فى ميلهم إلى اليمنيين ، وإيثارهم لهم فى كبر الولايات والوظائف ، فإن اليمنيين أخوال يزيد بن معاوية يحرسون على بقاء الخلافة فى بنى أمية لاستبقاء سلطانهم فيها ، فلولاء اليمنيين لثمت الخلافة لابن الزبير ، ومن هذا الحين اندلعت السنة النيران بين العنصرين ، فبينما يحسب المضربون أنهم أرباب الدولة وعنصر

الخلافة، إذ يحسب اليمينيون أنهم أصحاب النفوذ فيها، وذوو السلطان في شئونها، فالتسعت الفجوة، وتأثرت نار العداوة، وتعارضوا ما تقضى به العين، ويشجى به الحلق، وضرب على أوتارهم الشعراء حتى طفح السكيل، فن التقريب الحق أن تعتبر حقبة الدولة المروانية هي الحقبة التي ارتفع فيها نجم جندف، وصافح اسمها آذان الشعوب الإسلامية ذلك الحين.

إفراط الشعراء المضريين في تمجيد الخنديين في خلافة المروانيين:

نهى الإسلام عن التعصب البغيض، فلم يكن للقديم ذكر في صدر الإسلام، وكان معاوية حكماً سياسياً فرأى أن صلاح دولته يتطلب العنصريين، فعمل على إبداء اليمانيين وصاهرم بزواجه ميسون بنت بحدل الكلبية حتى لا ينفرد به عنصره المضري ويطمع يوماً ما في القضاء عليه، وانقضت مدته بسلام، وتورط ابنه يزيد في جرائمه، وتخلّى عن تحمل الخلافة بعد توليها معاوية الثاني، فكان ما كان مما أشرنا إلى شيء منه، فبعث الدفين من التعصب منذ كان مروان الأول.

فروان رجل داهية، وماضيه في خلافة عثمان مشنوء، ولولاه ما تألب عليه الأمصار، وقتلوه قتلة تقشعر منها الأبدان.

لقد تغيرت حالة الدولة، وتحلل الناس فيها من رقابة الوازع الديني، وتغلبت عليهم المطامع الدنيوية، وانفك قالة السوء من عقالمهم، وألغى الشعراء اللاودية التي يهيمون فيها، يمدحون ويثلبون، فينفحون.

ينفحون عن تربطهم به وشيعة القرابة أو حافز الحياء، ويذيعون من يناصبهم العداوة، وفي عتير هذا الصراع استهدفوا للتراشق بالنبال بعضهم لبعض، ثم تطور الحال بهؤلاء الشعراء في الإمعان بمجادة خندف حتى أطلقوها على خلفاء بني أمية وذلك لبعث الحمية المضرية في نفوسهم إلهاماً لهم وتنبها على استحقاق المضريين من قيس وخندف للأعمال في الدولة وقصر الولاية عليهم في الدولة دون اليمانيين، وبخاصة ولاية العراقيين، درة الولايات الإسلامية وكبراهم في تلك الآونة، وحدث هذا الاتجاه وكثر الالغظ فيه عند ما عهد سليمان بن عبد الملك إلى يزيد

ابن المهلب بن أبي صفرة الأزدي النخعي بولاية العراقين ، فإنه أول من نال هذا الجاه العريض ، لبث يزيد والياً عليها على كره في كثير من نفوس رجالات الدولة ، ولهذا أراد عمر بن عبد العزيز فور توليه الخلافة محاسبته للتسكيل به لولا فراره منه ، ومعالجة المنية للخليفة ، فلما ملك الخلافة يزيد بن عبد الملك لم يسع يزيد بن المهلب إلا مناصبته العدا ، والخروج عليه ، بل المحاولة لانتزاع الخلافة من بني أمية إلى بني المهلب والبنين ، ولكن طاش سهمه ووقع صريعاً في الميدان في حديث طويل ، سنذكر عنه كلمة قصيرة بعد ، فلما انتكث قتله ودالت دولته ، وخفت صوت المهالبة بعد أن ملئوا الأسماح ، وأرهبوا المنطوقين على الحقد عليهم حيناً من الدهر - انطلقت بعدئذ السنة الشعراء من عقابها ، ونفثوا ما في صدورهم من كراهة وحقد ، وتلاقى سهامهم في الاتجاه صوب غرض واحد وهو قذف اليمانيين بالمثالب ، واتهامهم بالعداء القديم للضريين وانتهاز الفرص لقلب الأوضاع ، وقد خفف هذا الالتفات من حدة العراك الأولى التي كانت تنور بين الشعبين : القيسى والخندقي ، أو بين القبيلتين منهما ، وما أكثرهما إلى أواخر الدولة المروانية .

وقبل ذكر شيء مما قيل في ذلك يحسن أن يقدم عليه طرف من سيرة يزيد ابن المهلب إذ كان سبب هذا التحول ، والحديث عن المهالبة طويل يلزم تأخيرها إلى المقال التالي إن شاء الله ؟

بَيْنَ الْفِرَازِ وَعِلْمِ النَّفْسِ

لمحاضرة الطائفة الفاضلة الأستاذ عبد الوهاب محمود

إن هذا القرآن كتاب هدى وبيان ، ولن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ، ومخاطبة القلوب ، ومناجاة الأرواح .

فالنظام الصائب إليه ، والفهم الصحيح له ، لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية أدار عليها بيانه ، مستدلاً وهادياً ومقنعاً ومجادلاً ومثيراً ومهدداً .

فالقرآن الكريم قد راعى قوانين نفسية عن مظاهر الاعتقاد ومسارب الانفعال ونواحي التأثير ، وآثار من هذا ما أبد به حجته ، وأظهر دعوته ، وهو في ذلك يسير من شئون النفس الإنسانية ، ويتغلغل في شعابها وجوانبها ، عالم بهتد إليه العلم حديثاً ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن ليس من وضع محمد النبي الأمي ، وإنما هو من صنع خالق القوى والقدر .

من ذلك قوله تعالى في سورة سبا : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا . ما بصاحبكم من جنة . إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

لقد كشفت لنا هذه الآية عما عرفه العلم حديثاً وسماه : « العقل الجمعي » ، يقول جستاف لوبون العالم الاجتماعي :

إن للاجتماع روحاً خاصة به ، وصفات نفسية تمتاز بها الجماعة حيث تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ، ويعملون بكيفية تتخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشير ويفكر ويعمل بها كل واحد على انفراده .

فالجماعة دائماً دون الفرد إدراكاً ، ولكنها من جهة المشاعر مندفعه متوقدة ومن أهم خصائص الجماعات قابليتها للاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الإدراك وملكة النقد والتطرف في المشاعر .

فهذا كله يلقي ضوءاً على ما جاء في الآية من التعبير « مثني وفرادى ثم تفكروا » فأمر الله نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يتوجه إلى المشركين ، ويقول لهم : لأنني ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هي أن تقوموا مجتهدين متدبرين في الأمر بإخلاص لوجه الله ، ومتفرقين حين تفكيركم وترويضكم اثنين اثنين أو واحداً واحداً ، فإن في الاجتماع تهوئش الخاطر ، وتخليط الآراء ، والخضوع لروح الاجتماع ، والانسياق مع العقل الجمعي ، فتضيع الحقيقة وينطمس وجه الصواب ، ويتغلب تهريج الجماعة على صواب الفرد ، فإذا ما فعلتم ذلك وفكرتم على هذه الصورة التي نهتكم إليها الآية ظهر لكم أن صاحبكم على حق ، وأنه ليس بمجنون ، بل هو أرجح الناس عقلاً ، وأصدقهم قولاً ، وأذكاهم نفساً ، وأجمعهم للحكالات البشرية ، فوجب إذن أن تصدقوه في دعواه ، وتؤمنوا بما أنذركم به من عذاب شديد .

ومن ذلك ما في تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » فقد ثار حول هذه الآيات خلاف من الأصول البعيدة والأسس الغائرة من البناء القرآني .

فهذا فريق يحتج بها على نزول القرآن بالمعنى لا باللفظ ، وأن اللفظ من عند الرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ لا ينزل على القلب إلا المعاني ، وهذه مزلفة إلى إنكار أن يكون لفظ القرآن معجزاً .

ومنكر هذا النزول المعنوي يضطر إلى تناول النزول على القلب ليعين معدن العقل هو القلب أو الدماغ ، وهو ما يعرض له الفخر الرازي في تفسيره ، ويورد في ذلك آراء القدماء والمحدثين والاستدل لسل رأى .

إلا أن الزخشري يدركه التوفيق فيفطن من ذلك إلى خاطرة نفسية دقيقة يكشف بها غبار الموقف ، إذ يعلق قوله تعالى : « بلسان عربي مبين » بالفعل « نزل » ويجعل المعنى هكذا : « نزل باللسان العربي لتذره » ، لأنه لو نزل باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلاً ، ولقالوا ما نصنع بما لا نفهم ، فيتمتع الانذار به ، وفي هذا الوجه أن تنزله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتفهّمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، فقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات ، فإذا ما كلّم بلغته التي أُنشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلفاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كلّم بغير تلك اللغة - وإن كان ما هراً بمعرفتها - كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها ، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه بلسان عربي مبين .

فبذلك المنهج النفسى في فهم حال المتكلم بلغة الأم ، وحال المتكلم بغيرها كشف الزخشري ظلمة الموقف ، وهو أن الأمر حتى جعل الاحتجاج بالآية على النزول بالمعنى دون اللفظ يبدو واهناً ضعيفاً .

وليس يحتاج إلى فهم الجوانب النفسية بإزاء الآيات التي يثور حولها مثل هذا الخلاف فقط ، بل في الآية التي لا خلاف فيها مطلقاً قد ترفع الملاحظة النفسية إلى أفق باهر السناء ، خليق بذلك الإعجاز الذي تحدى به الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

يقول علماء النفس إن عقدة النقص أو مركب النقص - كما يسمونه أحياناً - هو الشعور بالنقص في ناحية من النواحي التي يحاول الشخص بطريقة لا شعورية أن يعوضها بمجهود عظيمة يبذلها ليثبت تفوقه في ناحية أخرى .

فمن كان متفوقا مثلاً في الناحية العقلية ، فإنه يميل إلى الخط من قدر القوة الجسمية ، والجبان غالباً ما يستهزئ بالشجاعة ويصغر من شأنها ، والبخيل يعتقد أن الكريم أخرج أبله غير حازم ، والمنافق يعيب ويستهزئ بالمؤمن ليُخفي ما في نفسه من مركب النقص ، ويُقهر الشعور بالضعف والقصور .

وعلى ضوء هذا الجانب النفسى نفهم سر قوله تعالى في وصف المنافقين : « ولإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » .

ومن أعراض عقدة النقص قلق مبعثه شعور بالخوف من افتضاح أمره واكتشاف نقصه ، فيتخذ لذلك مسلكاً يعوض به نقصه ويخفي به قلقه ، وهذا هو سر الحلف والتأكيد فيما حكاه الله عن المنافقين . فقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله » .

ففي هذه الآية جملة تأكيدات لتعويض شعورهم بالنقص ولتستر خوفهم من فضيحة أمرهم .

أول تلك التأكيدات قولهم : « نشهد ، قال أبو حيان في تفسيره (المحيط) « نشهد ، يجرى بجرى اليمين ، ولذلك 'نَلَقَى' بما يُنَلَقَى به القسم ، فقالوا : « إنك لرسول الله » .

ثانيها : (إن) في صدر جملة جواب القسم .

ثالثها : (اللام) في خير (إن) .

رابعها : الجملة الاسمية .

وراء كل هذه التأكيدات تحصن المنافقون ليخفوا شعورهم بالنقص ، ولذلك قال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » فلم تواطىء قلوبهم ألسنتهم ، وهم كاذبون حتى أمام أنفسهم ، ولأنما لجئوا إلى الحلف ليتخذوا منه جُنة يستترون بها ، ومسلماً يعوضون به شعورهم بالنقص ، فقال تعالى : « اتخذوا أيمانهم جُنة » .

ومن أعراض عقدة النقص التظاهر بالكمال والبعد عن النقص ، وهذا واضح في جواب المنافقين للؤمنين ، قال تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ، فالتهمة هنا الإفساد في الأرض ، فكان الجواب الطبيعي لرد هذه التهمة أن يقولوا : نحن لا نفسد في الأرض ، ولكنهم تظاهروا بما هو أسمى من ذلك ، ووصفوا أنفسهم بالكمال والإصلاح ، فضلا عن تبرئهم من الإفساد ، فقالوا في صيغة التأكيد والحصر : « إنما نحن مصلحون ، ولا عمل لنا إلا الإصلاح .

وهكذا كلما عرضنا القرآن على الجوانب النفسية ، ونظرنا إلى سنته من آفاق الحياة الإنسانية ظهرت أسرارها وأشرقت أنواره وسحرت آياته واستبدت بالعقول عجائبه وتملكت القلوب بحاسن بلاغته .

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » ٢

أَسْبَابُ الْإِخْلَافِ بَيْنَ أُمَّةِ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لفضيلة الشيخ محمد محمد المدني الاستاذ بطبقة الشريعة بالازهر

- ٢ -

مَصَادِرُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَأَسْبَابُ الْإِخْلَافِ فِيهَا

القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للشرعية الإسلامية ، وكل ما عداهما لا بد من استناده إلى أحدهما .

أسباب الاختلاف التي يهتكم فيها الكتاب والسنة :

(أ) الاشتراك اللفظي : اختلافهم في المراد بالقرء في آية العدة - اختلافهم في المراد بقوله تعالى : « أو يفؤ الذي يده عقدة النكاح » - اختلافهم في قبول شهادة القاذف بعد توبته .

(ب) التردد بين المعنى اللغوي والمعنى العرفي . تحقيق في ذلك وقانون عام لهباب الدين القرافي .

(ج) التردد بين الحقيقة والمجاز : اختلافهم في المراد من قوله تعالى : « أو يفؤا من الأرض » وقوله تعالى : « وثيابك فطهر » وتعليق طريف لابن حزم متصل بهذا .

(د) العموم والخصوص : هل خطاب الذكور في المريمية يعم الإناث - فصل بمنع لابن حزم في مخاطبة النساء ، كالرجال ، بكل ما في المريمية .

للشريعة الإسلامية مصدران رئيسيان ، كل حكم فيها لا بد من استناده إلى أحدهما ، إما مباشرة أو بواسطة استناده إلى شيء يستند إلى أحدهما .

وذلك لأنها شريعة إلهية لا مُشرع فيها إلا الله ، إما بكلامه الذي يبلغه رسوله ، وإما بالأحكام التي يقررها أو يبينها الرسول بوحى صادر إليه من الله ، فإذا رأيت أصلاً يذكر بجانب هذين الأصلين كالإجماع أو القياس أو المصالح أو العقل أو كذا أو كذا ، مما اتخذ مصدراً لإثبات حكم ، فاعلم أن هذا الأصل مستند في تقريره والاعتماد عليه إلى الكتاب أو السنة ، وكل أصل لا يستند إلى الكتاب أو السنة فلا يعتد به ، ولا يكون أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية .

وعلى ذلك فالطريق الذي سلكه ، أو يسلكه ، المتعرف لحكم الشريعة الإسلامية في شيء ما ، هو البحث عنه في كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أن يحده في أحدهما مباشرة ، وإما أن يجد ما يدل عليه في شيء مستند إليهما من إجماع أو قياس أو عقل أو غير ذلك من الأدلة التي اعتبرت مستمدة منهما ، ومستندة إليهما ، غير أن الفهم في كثير مما جاء به الكتاب الكريم أو السنة النبوية يختلف ، لأنهما جاءا باللغة العربية ، واللغة العربية لها خصائصها في اللفاظ والأساليب ، ومنها تعدد معاني اللفاظ على سبيل الاشتراك ، وترددها أحيانا بين الحقيقة والمجاز ، وتصرف العرف في بعضها إلى غير ذلك .

وتفرد السنة مع هذا بأنها متفاوتة في ثبوتها وطرق هذا الثبوت ، فتحتاج إلى عناية في تمييز ما يصلح الاحتجاج به عما لا يصلح .

والأدلة الأخرى المستندة إليهما ، بعضها منازعٌ فيه ، وكذلك شأن القواعد الأصولية أو الفقهية التي اتخذت ضوابط للفهم والاستنباط ، فإن كثيراً من هذه وتلك يدخل الخلاف في أصله أو في تطبيقه .

وعلى هذا يمكننا أن نرجع أسباب الخلاف إلى ما يأتي :

- (١) الأسباب التي تتعلق بفهم القرآن السنة .
- (٢) الأسباب التي تخص السنة .
- (٣) الأسباب التي تتعلق بالقواعد الأصولية أو الفقهية .
- (٤) الأسباب التي تتعلق بأدلة التشريع الأصلية غير الكتاب والسنة .

وسيلنا في هذه الدروس أن نتحدث عن هذه الأقسام إن شاء الله تعالى
بالقدر الذي يتسع له الوقت ، مع إيثار ما هو أهم من غيره .
وليس الغرض الاستيعاب ، ولكن فتح المجال أمام الطلاب ، فعليهم أن
يدخلوه بأنفسهم باحثين مستكملين ، وباقة التوفيق .

(١) أسباب الاختلاف التي يشترك فيها الكتاب والسنة :

القرآن الكريم والسنة القولية جاء باللغة العربية ، وهذه اللغة كما قلنا لها
خصائص في الوضع والاستعمال :

ففيها ألفاظ مترددة بين معان مختلفة ، إما بسبب تعدد الوضع - أي أن
اللفظ الواحد قد وضع لأكثر من معنى ، أو التركيب الواحد قد يفهم بأوجه
متعددة من الفهم - ولما لدوران التعبير اللفظي أو التركيبي بين الحقيقة والمجاز ،
أو بين المعنى الأقوى والمعنى العرفي .

وقد يعبر بالعام يراد به ظاهره من العموم .

وقد يعبر بالعام يراد به الخاص .

وقد يستفاد المعنى من اللفظ المنطوق ، وقد يستفاد معنى من وراء هذا
المنطوق . . إلى غير ذلك .

وقد عنى علماء الأصول ببيان ذلك ، وبحثوا كلامه بحثاً دقيقاً ، ووجد بين
الباحثين خلاف في كثير منه ترتب عليه خلاف في الفهم والاستنباط ، وتقدير
الاحكام الفقهية .

(١) فمن هذا أن اللغة العربية قد تطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى ،
وقد يراد بالتعبير فيها صالحاً لأن يراد به أكثر من معنى ، لذلك لا بد للناظر الذي
يصادفه مثل هذا أن يجتهد في تعرف المعنى المراد ، ويلتمس ما يبدله عليه ويجعله يرجعه .

(١) فنلا لفظ « القرء » : تطلقه اللغة العربية على كل من الحيض والاطهر ،
وفي ذلك يقول صاحب القاموس : « والقرء - ويعضم - الحيض والاطهر : ضد ،

ونقل البَطَلَيْسِيُّ عن يعقوب بن السكيت وغيره من اللغويين أن العرب تقول : اقْرَأَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا طَهُرَتْ ، واقْرَأَتْ إِذَا حَاضَتْ .

ومن الأول قول الأعشى الأكبر (واسمه ميمون بن قيس) :

أَفَى كُلِّ حَامٍ أَنْتَ جَائِشٌ غَزْوَةٌ تَسْعُدُ لَأَقْصَا مَا عَزِيمَ عَزَائِكَ
مَوْرَثَةٌ مَالًا وَفِي الْحَيِّ رَفْعَةٌ لَمَّا شَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نَسَائِكَ
يريد أنه لا يفرغ - بسبب الغزو - للنساء ، فتضيق قروءهن أى أطهارهن ،
لأن الأطهار هى أوقات اتصال الرجال بالنساء .

ومن الثانى قول الراجز :

يَا رَبِّ ذِي ضَفْضَيْنِ عَلَى قَارِضٍ يُرَى لَهُ قَرَّةٌ كَقَرَّةِ الْحَائِضِ
وعلى هذا فهو لفظ مشترك بين معنيين ، وقد ورد فى القرآن الكريم حيث
يقول الله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » .

ولا خلاف بين العلماء فى أن المراد به فى الآية أحد هذين المعنيين ، لا مجموعهما ،
ولكنهم اختلفوا فى تعيين المراد منهما ، وقد نقل صاحب « نيل الأوطار » ،
المذاهب فى ذلك عن صاحب البحر إذ يقول :

« فمن أمير المؤمنين على ، وابن مسعود ، وأبى موسى ، والعترة ، والحسن
البصرى ، والأوزاعى ، والثورى ، والحسن بن صالح ، وأبى حنيفة وأصحابه :
المراد به فى الآية الْحَيْضُ » .

وعن ابن عمر وزيد بن ثابت ، وطائفة ، والصادق ، والباقر ، والإمامية ،
والزهرى ، وربيعه ، ومالك ، والشافعى ، وفقهاء المدينة ، ورواية عن أمير المؤمنين
على رضى الله عنه : أنه الأطهار .

قال ابن رشد : والفرق بين المذهبين أن من رأى أنها الأطهار قال : إنه إذا
دخلت الرجعية فى الحيضة الثالثة لم يكن للزوج عليها رجعة وحلت للأزواج ،
ومن رأى أنها الحيض لم تحمل عنده حتى تنقضى الحيضة الثالثة .

وقد استدل الذين يرونها الاطهار ، بما نقل عن ابن الأنباري اللغوي المعروف من أن القرء الذى هو الحيض يجمع على أقراء لا على قروء ، وعلى ذلك جاء الحديث : « دعى الصلاة أيام أقرائك » .

ومما استدلوا به أيضاً القاعدة التى تقول : إن العدد يُذكر مع المؤنث ، ويؤنث مع المذكر كما فى قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، والحيضة مؤنثة ، والطهر مذكر ، فلو كان المراد الحيض لقال : « ثلاث قروء ، فلما قال : « ثلاثة قروء » علمنا أنه يعد أشياء مذكرة وهى الاطهار .

ويتعقب البَطْلِيُّوسى هذا بقوله : « وهذا لا حجة فيه عند أهل النظر ، وإنما لم يكن فيه حجة لأنه لا يُنْكَر أن يكون القرء لفظاً مذكراً يُعْنَى به المؤنث ، ويكون تذكير « ثلاثة » حملاً على اللفظ دون المعنى ، كما تقول العرب : جاءنى ثلاثة أشخاص وهم يعنون نساء ، والعرب تحول الكلام تارة على اللفظ ، وتارة على المعنى ، ألا ترى إلى قراءة الفراء : « بلى قد جاءتكِ آياتى فكذبت بها ، بكسر الكاف والتاء وفتحهما .

واستدل الآخرون بأحاديث فيها التعبير بالحيض فى هذا المقام ، كحديث عائشة : « أمرت بريرة أن تعد بثلاث حيض ، وحديثها الآخر : « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان ، وحديث ابن عمر : « عدة الحرة ثلاث حيض ، وعدة الأمة حيضتان » .

ومما تمسك به القائلون بأنها الحيض أن العدة إنما شرعت لتبئين براءة الرحم ، وإنما يكون هذا التبين بالحيض لا بالطهر .

قال ابن رشد فى كتابه « بداية المجتهد » ، بعد أن ذكر ما يحتاج به كل فريق : ولكلا الفريقين احتجاجات طويلة ، ومذهب الحنفية - أى القائلين بأنها الحيض - أظهر من جهة المعنى ، وحجتهم من جهة المسموع متساوية أو قريب من متساوية (١) .

(٢) ومثل ذلك ، أنهم اختلفوا : هل للأب أن يعفو عن نصف الصدق في ابنته البكر إذا طلقت قبل الدخول أو ليس له ذلك .

وسبب اختلافهم هو الاحتمال الذي في قوله تعالى : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » .

وذلك أن لفظة « يعفو » تقال في كلام العرب بمعنى : « يُسقط » ، وبمعنى : « يَهَب » ، كما أن عبارة : « الذي بيده عقدة النكاح » ، يحتمل أن يكون المراد بها « الولي » ، ويحتمل أن يكون المراد بها « الزوج » ، فإذا أُفسرت « يعفو » بمعنى « يُسقط » ، فإنها تكون مناسبة للأب ، لأن تركه النصف الذي تستحقه ابنته ، إسقاط ، وإذن يكون هو المراد بقوله تعالى « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » .

وهذا قول جماعة منهم : إبراهيم ، وعلقمة ، والحسن ، ومالك ، والشافعي في القديم .

وقد دعاهم إلى هذا أن الله تعالى قال في أول الآية : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة » فنصف ما فرضتم ، فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب ، ثم قال : « إلا أن يعفون » ، فذكر النساء ، ثم قال : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » ، فهو صنف ثالث ، فلا يرد إلى الزوج المتقدم إلا إذا لم يكن لغيره وجود ، وقد وجد وهو الولي ، فهو المراد .

أما إذا فسر « يعفو » بمعنى « يهب » ، فإنه حينئذ يكون مناسباً للزوج ، لأنه هو الذي إذا دفع كل المهر - وليس عليه إلا نصفه - فقد وهب النصف الآخر ، وبذلك يكون هو المراد بقوله تعالى : « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » .

وقد أسند هذا القول إلى علي ، وشریح ، وسعيد بن المسيب ، واخاره أبو حنيفة ، والشافعي في مذهبه الجديد .

وقد روى الدارقطني عن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة من بني نصر ،

فطلقها قبل أن يدخل بها ، فأرسل إليها بالصدّاق كاملاً وقال : أنا أحق بالعفو منها - قال الله تعالى : « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » ،

وأيدوا ذلك بحديث رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ولّى عقدة النكاح هو الزوج » .

ولإذن تكون الآية - على هذا - قد جعلت العفو تارة من الزوجة بأنها تسقط حقها إذا شئت ، وتارة من الزوج بأنه يجب النصف الآخر لمن طلقها إذا شاء (١) .

فقد تبين أن أساس الخلاف بين المختلفين في مسألة « القرء » ومسألة « العفو » راجع إلى الاحتمال الذى وجد في التعبير بلفظ مشترك صالح لأن يراد به أكثر من معنى ، فاحتاج الحمل على أحدهما إلى قرينة تعين عليه وترجمه ، وهذا ما فعله كل من الفريقين .

(٢) ومن ذلك أنهم اختلفوا في فهم قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون » ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم .

وذلك أن هذه الآية قررت عدة أحكام مترتبة على القذف ، ثم جاءت باستثناء ، فالأحكام هي : (١) الجلد المفهوم من قوله تعالى : « فاجلدوهم ثمانين جلدة » ، (٢) وعدم قبول الشهادة المفهوم من قوله تعالى : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » ، (٣) وكون القاذف فاسقاً ، وهو مفهوم من قوله تعالى : « وأولئك هم الفاسقون » ، وقد جاء الاستثناء بعد هذه الجمل المتعاطفة ، فهل يعود إليها كلها ؟ أو يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ؟ .

فقال شريح القاضى ، وإبراهيم النخعى ، والحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، وأبو حنيفة : يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، وبذلك لا تكون الآية مفيدة أن التوبة من القذف ترد للتائب ما كان مُنْعَمَ من مركز الشهادة ، بل يظل القاذف بعد التوبة غير مقبول الشهادة .

وقال جمهور العلماء : يعود الاستثناء إلى كل الجمل ، غير أننا علمنا أن التوبة لا تسقط حقوق العباد ، فلم نُعمل الاستثناء في استحقاق القاذف الجلد ، ولم نقل بسقوط حد القاذف بتوبته ، فيبقى بعد ذلك : الفسق ورد الشهادة ، وكلاهما يرتفع بتوبة القاذف ، وبذلك تكون الآية دليلاً على قبول شهادة القاذف إذا تاب .

ويروى عن الشعبي أنه قال : الاستثناء من الأحكام الثلاثة ، إذا تاب وظهرت توبته ؛ لم يُحمد وقبلت شهادته وزال عنه التفسير ، لأنه قد صار ممن يُرضى من الشهداء ، وقد قال الله عز وجل : « وإني لغفار لمن تاب ، الآية (١) » .

وقد أيد الفريق الأول مذهبهم بمعنى عقلي : هو أن رد الشهادة من تمام الحد والعقوبة ، فإن الله جعل على القاذف نوعين من العقوبة ، عقوبة بدنية ، وهي الجلد ، وعقوبة أدبية ، وهي الحرمان من مركز الشهادة ، فبما أن التوبة لا ترفع الجلد لأنه حق من حقوق للعباد ؛ فكذلك لا ترفع العقوبة الأدبية التي هي رد الشهادة ، لهذه العلة نفسها .

ومن الفريق الثاني من قال : تقبل شهادته في كل شيء إلا في القذف ، وكذلك من حُذِر في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته بعد التوبة فيما حُذِر فيه ، وذلك قول مطرّف وابن الماجشون ، وروى العتيبي مثله عن أصبغ وسحنون من المالكية ، ونقله الوّار عن مالك (٢) .

وهذا أيضاً تحكيم لمعنى عقلي ، هو أن الذي حُذِر في شيء من قذف أو زنا أو خمر أو لعان ، يكون في شهادته شبهة من حيث تعلق رغبته النفسية ، ولو لم يشعر ، بأن يوجد في مجتمعه من يحمّد مثله ، ليخفف ذلك من حزنه على ما أصيب به ، فإن الاشتراك في المصائب يهونها ، وتلك نظرة تدل على أن فقهاءنا يدخلون في اعتبارهم هذه المعاني النفسية ، أو الاجتماعية ، وما يشبهها .

وينقد ابن رشد المالكي مذهب الحنفية ومن وافقهم ، فيقول : إن ارتفاع

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٧٩ طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) الوّار (كسحاب) لقب زكريا بن يحيى الفقيه المصري - المصدر السابق وحاشيته ص ١٨٠

الفسق مع استمرار رد الشهادة أمر غير مناسب في الشرع ، أى خارج عن المعهود فيه ، لأن الفسق متى ارتفع قبلت الشهادة .

ويقول الشعبي لم : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته ! ويقول الزجاج : ليس القاذف بأشد جرماً من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته .

ومما يتصل بالخلاف في ذلك أن الحنفية - وبوافقهم على ذلك من المالكية ابن القاسم وأشهب وسُخْنُون - يقولون : إن القاذف يظل مقبول الشهادة حتى يحد ، فإذا حد ردت شهادته أبداً ولو تاب ، أى أن رد الشهادة لا يثبت بمجرد القذف ، ولكن بالحد على القذف ، ومنطقتهم في ذلك أن صلاحيته للشهادة ثابتة من قبل ، فلا تسقط إلا بالحد ، أى بتمام العقوبة ، ومن ناحية أخرى فإن المعنى الذى تسقط به شهادة إنسان هو نزول مستواه الأدبي في مجتمعه ، وهذا لا يكون إلا بالعقوبة الفعلية ، وهى تمام الحد .

ولكن مخالفتهم لا يرضون عن هذا ، فيقول الشافعى رضى الله عنه : هو قبل أن يحد شرٌّ منه حين يُحد ، لأن الحدود كفارات ، فكيف ترد شهادته في أحسن حاله دون أخسهما ؟

ويقول ابن حزم في هذا المعنى ، وفيما تقدم من تفرقة المالكية بين شهادته فيما حد فيه ، وشهادته في غير ما حد فيه :

« والعجب من أصحاب أبي حنيفة في تركهم ظاهر الآية وميلهم إلى رأيهم الفاسد فإن نص الآية إنما يوجب ألا تقبل شهادته بنص القذف ، وليس في ذلك أن شهادته لا تسقط إلا بعد أن يحد ، فزادوا في رأيهم ما ليس في القرآن ، وخالفوا الآية في كل حال ، فقبلوا شهادته أقس ما كان قبل أن يحد ، وردوها بعد أن طهر بالحد ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام في كثير من الحدود أن إقامتها كفارة لفاعلها ، وهم أهل القياس يزعمهم ، فهلا قاسوا الحدود في القذف على الحدود في السرقة والزنا . - أى أن الحدود في السرقة أو في الزنا تقبل شهادته ، فالحدود في القذف ليس أسوأ حالا منهما ، وإلا لكان القذف بالزنا أشد من ارتكاب

الزنا نفسه - ثم يقول ابن حزم : « وقد شاركهم المالكيون في بعض ذلك فردوا شهادة المحدود فيما حد فيه وأجازوها فيما لم يحد فيه » (١) .

(ب) وقد يكون الاختلاف راجعاً إلى تردد اللفظ - مفردا كان أو مركبا - بين أن يكون مقصوداً به المعنى اللغوي ، أو معنى عرفي اشتهر فيه .

مثال ذلك اختلاف ابن القاسم وأشهب من المالكية فيمن قال : « واقه لا آكل رموسا » .

وذلك أن لفظ الرموس في اللغة صالح لأن يراد به كلُّ الرموس دون تفرقة بين رموس الأنعام ورموس الأسماك مثلاً ، ولكن العرف القولي جرى على أن لفظة الرموس إذا ذكرت بجانب الأكل فالمراد بها رموس الأنعام خاصة ، فلا يكاد الناس يركبون لفظ (أكلت) مع الرموس إلا وهم يقصدون رموس الأنعام بخلاف لفظ (رأيت) ونحوه ، فإنهم يركبونه مع رموس الأنعام وغيرها .

فالعبرة التي حلف بها الحالف إن حملت على معناها اللغوي ، فإنه يحنث إذا أكل شيئاً من رموس الأنعام أو من رموس غيرها ، وذلك هو رأى ابن القاسم ، وإن حملت على المعنى العرفي الذي نقل التعبير إليه ؛ فإنه لا يحنث إلا إذا أكل شيئاً من رموس الأنعام خاصة .

وابن القاسم وأشهب لا يختلفان في أصل القاعدة ، وهي تقديم النقل العرفي على الوضع اللغوي ، ولكنهما يختلفان في كون هذه العبارة ، وهي : (لا أكلت رموسا) قد غلب عليها المعنى العرفي حتى أصبح هو المتبادر منها ، فابن القاسم يسلم استعمال أهل العرف لذلك ، ولكنه يقول إن هذا الاستعمال لم يصل إلى الغاية الموجبة للنقل ، وأشهب يرى أنه وصل إلى هذه الغاية ، وفي ذلك يقول شهاب الدين القرافي :

« وضابط النقل أن يصير المنقول إليه هو المتبادر الأول من غير قرينة ، وغيره هو المفتقر إلى القرينة ، فهذا هو مدرك القولين ، فاتفق أشهب وابن القاسم على أن النقل العرفي مقدم على اللغة إذا وجد واختلفا في وجوده هنا ، فالكلام بينهما في تحقيق المناظر » (٢) .

وقد بين القرافي هذه المسألة في كتابه الفروق ، وأتى لها ببعض الأمثلة التي توضحها وتبين أن العرف القولي يحكم على الوضع اللغوي ، ويعتبر ناسخاً له ، ومن قوله في ذلك : « وبهذا القانون تعتبر جميع الأحكام المترتبة على العوائد ، وهو تحقيق مجمع عليه بين العلماء ، لا خلاف فيه ، بل قد يقع الخلاف في تحقيقه : هل وجد أم لا ... وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام ، فهما تجدد في العرف اعتبره ، ومهما سقط أسقطه ، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمره ، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك ، فلا تُجسِّره على عرف بلدك ، واسأله عن عرف بلده ، وأجبره عليه ، وأفت به دون عرف بلدك والمقرر في كتبك ، فهذا هو الحق الواضح . والجمود على المنقولات أبداً ضلالٌ في الدين ، وجهل بمقاصد علماء المسلمين ، والسلف الماضين ، (١) .

وتألفه إنها الوصية ثمينة ، وأساس متين من الأسس التي يبنى عليها الائتلاف ، وعدم الشطط عند الاختلاف .

* * *

(ج) ومن أسباب الخلاف في الفهم : أن الكلمة قد تكون مترددة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، فيحملها مجتهد على معناها الحقيقي ، ومجتهد على معناها المجازي ، مستعيناً كل منهما بما يدل على ما رأى ، ويرجحه له .
ومن أمثلة ذلك :

(١) أنهم اختلفوا في المقصود من النبي في قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُنَقَّطَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَسُوا مِنَ الْأَرْضِ » .

منهم من قال : المراد المعنى الحقيقي للنبي ، وهو الإخراج من الأرض ، وذلك أنه لم يجد في نظره مانعاً من إرادة الحقيقة وهي الأصل الذي يصار إليه ويترجع المراد من الالفاظ به حين لا تصرف عنه قرينة ، لجعل إخراج المفسد المحارب من الأرض التي ارتكب فيها جرائمه ، عقوبة من العقوبات ، ورآها عقوبة جرت

بمثلا عادة الشريعة وورد الحديث بها في مثل « وتغريب عام » ، وأشار إليها القرآن في مثل قوله تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ، حيث سوى بين النفي والقتل ، ثم هي تشبه عقوبة الضرب في أنها عقوبة معتادة معروفة ، فلا مانع إذن من حمل اللفظ على معناه الحقيقي ، وإرادة هذه العقوبة ، وهذا ما قال به جمهور الفقهاء .

أما الخنفة فقد رأوا أن هناك ما يصرف عن إرادة المعنى الحقيقي ، واعتمدوا في ذلك على معنى عقلى ، وذلك أن النفي إن أريد به الإخراج من الأرض ، أى من جميعها ، لم يكن ذلك ممكنا إلا بالقتل ، والقتل عقوبة تقدمت فلا يكرر ذكرها ، وإن أريد به الإخراج من أرض الإسلام إلى أرض الكفر فلا يصح ، لأنه لا يجوز الزج بالمسلم إلى دار الكفر ، وقد وجدنا الشريعة تنهى عن إقامة الحدود إذا ضرب المسلمون في أرض العدو ، خوفا من أن تلحق الم حدود أنفة فيهرب إلى أرض الكفر ويفتن في دينه ، وإن أريد بالأرض أرض أخرى إسلامية غير التي ارتكب فيها جريمته ؛ لم يتحقق الغرض المقصود من كف أذاه عن المسلمين ، إذ هو إنما ينتقل من وسط إسلامى إلى وسط إسلامى آخر ، ومن هنا قالوا : المراد بالنفي معناه المجازى وهو السجن ، لأن فيه عقوبته وكف أذاه ، وهو يشبه النفي في أن كلا منهما لإبعاد عن المجتمع ، وإقصاء المجرم عنه ، والعرب تستعمل النفي بمعنى السجن ، قال بعض الشعراء يذكر حاله في السجن :

خرجنا من الدنيا ونحن من آهلها فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجان يوما لحاجة عجينا وقلنا : جاء هذا من الدنيا ١١

(٢) اختلفوا في فهم قوله تعالى : « وثيابك فطهر » هل يدل على وجوب إزالة النجاسة أولا دلالة له على ذلك ؟ وخلاصة الأمر في ذلك أن العلماء متفقون على أن إزالة النجاسة مأمور بها شرعا لورود أدلة كثيرة غير هذه الآية تفيد ذلك ، ولكهم اختلفوا : هل ذلك الأمر الوارد في الأدلة على سبيل الوجوب ، أو على سبيل التذنب الذى يعبر عنه أحيانا بكونه « سنة مؤكدة » .

فبالأول يقول جمهرة العلماء .

وبالثاني يقول مالك وأصحابه .

وقد وقعت المناقشة في هذا الفرع بين المختلفين ، وكان من عناصرها هذه الآية : فمن حمل التعبير فيها على المعنى الحقيقي لتطهير الثياب المحسوسين ، رأى فيها دليلاً على وجوب إزالة النجاسة ، أما المالكية فيقولون : إن هذا تعبير على سبيل الكناية يراد به تطهير القلب ، فهو كما يقال : فلان طاهر الذيل ، كناية عن العفة ، وفلان كثير الرماد : كناية عن الكرم ، وتحو ذلك ، وعلى هذا فلا دخل له في الموضوع ، ولا حجة به .

وعما نذكره على سبيل الطرافة - لما فيه من تصوير شدة بعض الفقهاء أحياناً - ما علق به ابن حزم الظاهري - وهو بصدد الكلام على ورود المجاز أو عدم وروده في لسان الشرع - إذ يقول :

«... وقد ذكر رجل من المالكيين - يلقب بـ «خويزمندان» (١) - أن للحجارة عقلاً ، ولعل تمييزه يقرب من تمييزها ! ويقول : إن من الدليل على أنها تعقل قوله تعالى : « وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله » ، فدل ذلك على أن لها عقلاً ... أو كلاماً هذا معناه ... وأعجب العجب أن هؤلاء القوم يأتون إلى الالفاظ اللغوية فينقلونها عن موضوعها بغير دليل فيقولون : معنى قوله تعالى « وثيابك فطهر » ، ليس الثياب المعهودة ، وإنما هو القلب ، ثم يأتون إلى ألفاظ قام البرهان الضروري على أنها منقولة عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر ، وهو إيقاع الخشية على الحجارة ، فيقولون : ليس هذا اللفظ منقولاً عن موضوعه ، مكابرة للعيان ، وسعياً في طمس نور الحق ، وإقراراً لعيون الملحدين الكاذمين لهذا الدين ، وبأبي الله إلا أن يتم نوره ، وبالله تعالى التوفيق . اه كلام ابن حزم .

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله المالكي الأصولي من أهل البصرة ، توفي

في حدود الأربعمئة - اقرأ الأحكام لابن حزم وحواشيه ص ٣٣ ج ٤ وما بعدها .

(د) ومن أسباب الخلاف في فهم القرآن والسنة أيضا : أن اللغة العربية قد يرد فيها العام مراداً به عمومه الشامل لكل ما يطلق عليه اللفظ ، وقد يرد فيها العام مراداً به بعض ما يدل عليه وهو العام المخصوص .

(١) وقد يكون ذلك واضحاً لا يخفى على أحد ، فلا يُخْتَلَفُ في معناه مثل قوله تعالى : د وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، فهذا من العام المراد به ظاهره ولا خصوص فيه ، ومثله قوله تعالى : د يأبى الناس لما خلقناكم من ذكر وأنثى ، أما قوله تعالى : د ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، فهو بحسب اللفظ عام ، ولكن يراد به خصوص المطيعين غير ذوى الأعذار ، ومثله قوله تعالى : ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، .

(٢) وقد يكون المراد من اللفظ العام خفياً فلا يُدْرَى هل يُحْكَمُ بعمومه أو بخصوصه ، فمن الناس من يجريه على العموم حتى يتبين أنه مخصص ، ومن الناس من يقول هو خاص حتى يتبين عمومه ، ومن الناس من يوجب البحث قبل الحكم بأنه عام أو خاص ... الخ .

(٣) وما يتصل بذلك اختلافهم فيما إذا ورد الأمر باللفظ الموضوع للذكور هل يكون خاصاً بالذكور دون الإناث حتى يقوم دليل على دخول الإناث فيه ؟ أو يدخل فيه الإناث من أول الأمر حتى يأتي دليل على أنهم غير داخلات ؟ .

فالذين يقولون بالاول يعتمدون في قولهم هذا على أن اللغة فرقت بين الحديث عن الذكور والحديث عن الإناث ، وجعلت لكل لفظاً خاصاً به ، فسكاً لا يجوز أن نفهم من الحديث عن النساء باللفظ الموضوع لهن شموله للرجال بنفس اللفظ ؛ لا يجوز كذلك أن نفهم من الحديث عن الرجال باللفظ الموضوع لهم شموله للنساء بنفس اللفظ ، ولكن نلتزم شمول الحكم للنساء من أدلة أخرى .

والذين يقولون يدخل الإناث فيما ذكر عن الرجال حتى يتبين أنهم غير داخلات ، يعتمدون في ذلك على أن اللغة العربية إذا اجتمع الرجال والنساء غلبت

الرجال وتحدثت عن الفريقين باللفظ الخاص بالرجال ، والشريعة عامة والرسول مبعوث بها للرجال والنساء جميعا ، فالأصل في كل خطاب بها أن يوجه إلى سائر المكلفين والمسكفات ، وإن جاء الخطاب للرجال خاصة ، لكن إذا تبين أن النساء غير داخلات في هذا الخطاب فاللفظ حينئذ خاص .

وابن حزم من القائلين بالثاني :

ويترتب على هذا كثير من الاختلاف في الفروع .

ومن كلام ابن حزم في ذلك وهو يناقش مخالفه (١) : « فإن قالوا : فأوجبوا عليهن التفار للتفقه في الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، - أى بعموم قوله تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » . وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ونحو ذلك من الخطاب الموجه إلى الرجال - « قلنا - وبالله تعالى التوفيق : نعم هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال ، وفرضه على كل امرأة التفقه في كل ما يخصها كما ذلك فرض على الرجال : ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم وما يحرم من المآكل والمشرب والملابس وغير ذلك كالرجال ولا فرق ، ولو تفقحت امرأة في علوم الديانة للزما قبول نذارتها ، وقد كان ذلك : فهو لا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وصواحيبه ، قد نقل عنهم أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهم ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلنا في ذلك ، فمنهن سوى أزواجه عليه السلام : أم سليم ، وأم حرام ، وأم عطية ، وأم كرز ، وأم شريك وأم الدرداء ، وأم خالد ، وأسماء بنت أبي بكر ، وفاطمة بنت قيس ، وبسرة ، وغيرهن ، ثم في التابعين عمرة وأم الحسن ، والرباب وفاطمة بنت المنذر وهند الفراسية - أو القرشية - وحبيبة بنت ميسرة ، وحفصة بنت سيرين ، وغيرهن ، ولا خلاف بين أحد من المسلمين قاطبة في أنهن مخاطبات بقوله تعالى : « وأقيموا

(١) الإحكام لابن حزم ص ٨١ ج ٣ وما بعدها .

الصلاة وآتوا الزكاة ، و . من شهد منكم الشهر فليصمه ، و . ذروا ما بقى من الربا ، و . حرمت عليكم الميتة والدم ، و . الذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكان يومهم ، و . وأشهدوا إذا تباعتم ، و . لله على الناس حج البيت ، و . أفيضوا من حيث أفاض الناس ، و . هل أنتم منتهون ، و . ابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، و . وسائر أوامر القرآن ، وإنما لجأ من لجأ هذه المضايق في مسألة أو مسألتين ، تحكوا فيهما وقلدوا فاضطروا إلى مكابرة العيان ، ودعوى خروج النساء من الخطاب بلا دليل . . وقد قال الله تعالى : . وإنه لذكر لك ولقومك ، وقال أيضاً : . وأنذر عشيرتك الأقربين ، فنادى عليه السلام بطون قريش بطناً بطناً ، ثم قال يا صفية بنت عبد المطلب ، يا فاطمة بنت محمد ! فأدخل النساء مع الرجال في الخطاب الوارد كما ترى . . وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت : . كنت أسمع الناس يذكرون الخوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان يوم من ذلك ، والجارية تمشطني ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : . أيها الناس ، فقلت للجارية : استأخرى عني ، قالت إنما دعا الرجال ولم يدع النساء ، فقلت : إني من الناس . .

«... واحتج بعضهم بقوله تعالى : «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» فالجواب وبالله تعالى التوفيق . إنه لا ينكر التأكيد والتكرار ، وقد ذكر الله تعالى الملائكة ثم قال : «وجبريل وميكائيل» وهما من الملائكة ، ويكفي من هذا ما قدمنا من أوامر القرآن المتفق على أن المراد بهما الرجال والنساء معاً ، بغير نص آخر ، ولا بيان زائد إلا اللفظ . وكذلك قوله : «واستشهدوا شهيدين من رجالكم» ، بيان جلي على أن المراد بذلك الرجال والنساء معاً ، لأنه لا يجوز في اللغة أن يخاطب الرجال فقط ، بأن يقال لهم : «من رجالكم» . وإنما كان يقال من أنفسكم . وبالله تعالى التوفيق .

تَعْلِيلُ خَطَايَا لَيْسَرِ الْإِسْلَامِ

لخضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعیدی

الأستاذ بكلية اللغة العربية

ورد في كلام بعض شراح الأحاديث ما يفيد أن علة يسر الإسلام وسهولته ؛ هي أن الله تعالى علم ضعف المسلمين وقلة احتياهم للتكاليف والمشاق فرفع عنهم الآصار والأغلال التي كانت على من قبلهم بظلمهم وبغيهم ، والتي كانوا يحتملونها ويقدرّون عليها لقوتهم وشدة أيدهم .

فهل هذا صحيح ؟ هل علة يسر الإسلام وسهولته حقاً ما عليه الله تعالى من ضعف المسلمين ضعفاً نسبياً خلقياً عن الذين سبقوهم ؟ وهل كان اليهود والنصارى أقوى من المسلمين ؟ وهل يصح أن نبث في المسلمين هذا الشعور بالضعف ولا نشعرهم بالقوة ؟ وهل يصح أن نفعل عما يكون لهذا من الأثر السيء في نفوسهم ، لأن من يشعر في نفسه بالضعف يرضخ للذلة والمهانة ، فتستهين بهم الأمم وتطمع في ضعفهم ، وتستولي على بلادهم وأراضيهم ، ولا يجدون إلا أن يرضخوا لحكمهم لأن دينهم بمقتضى ذلك الشرح الخاطيء يضعهم في صف الأمم الضعيفة ، وحكم الفطرة والتاريخ أن يرضخ الضعاف للأقوياء ، لأن الضعاف يعجزون عن مجاراتهم في القوة ، فلا يكون لهم مكان في التاريخ إلا صفوف الأمم المتخلفة .

هل يصح شيء من هذا ؟ اللهم لا . وباشقاوة أمة ينتشر بين أفرادها هذا الشعور بالضعف ، وقد كان يكفينا ما يشعر به عامتنا وأشباههم خطأ من أن اغبرنا الدنيا ولنا الآخرة ، فقد ضيع علينا هذا الشعور الخاطيء لعامتنا وأشباههم دنياها ،

وما الدنيا إلا قنطرة الآخرة ، فلما ضاعت بهذا دنيانا ضاعت معها آخرانا أيضا .
فلا يصح أن نزيد الطين بلة بتوجيه يسر الإسلام ذلك التوجيه الخاطيء .

ولا شك أنا إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا الأمر في ذلك على العكس بالنسبة
للسلمين ومن سبقهم من اليهود والنصارى ، فلنرجع إلى التاريخ عند نشأة الإسلام
بين عرب الجاهلية ، ونشأة اليهودية بين بنى إسرائيل في مصر وصحراء سيناء ،
ونشأة النصرانية في فلسطين وحكامها من الرومان .

لقد نشأ الإسلام بين أمة لم تكن لها صناعة إلا الحرب ، تعيش في صحرائها
بعيدة عن تسلط الدول المجاورة لها عليها ، اللهم إلا على بعض أطراف من جزيرة
العرب ، كانت فيها دويلات عربية ، مثل دولة المناذرة بالعراق ، ودولة الغساسنة
بالشام ، وكان لدولة الفرس شيء من النفوذ في الدولة الأولى ، وللرومان شيء من
النفوذ في الدولة الثانية ، ولكنها كانت على كل حال دولا لها ملوكها من العرب ،
ولهم عز الملوك وسطوتهم وسيطرتهم ، وكانوا ينظرون إلى ملوك الفرس والرومان
نظر الند للند ، لأنه كان من ورائهم أمة عزيزة الجانب ، كثيرة العدد ، مشهورة
بالقوة والشجاعة ، وكان كل من ملوك الفرس والرومان يتجه إليهم في الحروب
المتواصلة بينهم ، فيستعين ملوك الفرس بملوك المناذرة ومن إليهم من العرب في
العراق وما جاوره من بلاد العرب في الجنوب ، ويستعين ملوك الرومان بملوك
الغساسنة في الشام وما جاوره من بلاد العرب في الشمال ، فتشترك العرب في تلك
الحروب مع أمم الفرس والروم ، وتقف جيوشها بجانب جيوشهما في الحرب ،
وهذا إلى تلك الحروب الداخلية التي كانت لا تنقطع بين قبائل العرب ، وجعلت
كل فرد في أمة العرب بطل حرب .

أما اليهودية فقد نشأت أولا في مصر بين بنى إسرائيل ، وكانوا يعيشون فيها
غرباء لا حول لهم ولا قوة ، قد استبد بهم فرعون واستعبدهم ، وسخرهم في الأعمال
التي كان المصريون يترفعون عن الاشتغال بها ، ثم طغى وبغى عليهم وبائع في الطغيان
والبغى ، كما قال تعالى في الآية - ٣ - من سورة القصص : " إن فرعون علا في الأرض

وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، فهذه الطائفة التي كانت يستضعفها ويظلمها إلى ذلك الحد - حد قتل الأبناء واستحياء النساء - هي طائفة بنى إسرائيل ، فأرسل الله تعالى إليها موسى عليه السلام لينقذها من هذا الذل ، ويخلصها من حكم فرعون الظالم ، وينشئ لها دولة صغيرة في غير مصر ، لأنها لا تقوى أن تتغلب على المصريين ، وقد بلغوا ما بلغوا من استعبادهم لها ، واستبدادهم بأفرادها ، وظلمهم لهم إلى ذلك الحد السابق ، فطلب موسى عليه السلام من فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل لينشئ لهم هذه الدولة الصغيرة ، فأبى فرعون أن يرسلهم معه ، وأبى إلا أن يبقوا تحت حكمه في ذلك الضعف ، يقاسون فيه ما يقاسون من ضروب الذل ، ويلاقون فيه ما يلاقون من أنواع المهانة ، فلم يجد موسى عليه السلام إلا أن يهرب بهم إلى سينا ، وقد تبعهم فرعون ليردهم إلى مصر ، فأنجاهم الله منه بمعجزاته ، لا بقوة منهم استعملوها في الدفاع عن أنفسهم ، لأنهم لم يكن لهم في تلك الحال التي قاسوا فيها ما قاسوا قوة ولا حول ، ولكنهم لم يكادوا يصلون إلى سينا حتى شعروا بمعجزهم عن إنشاء هذه الدولة الصغيرة ، وإخراج من كان فيها من أهلها ، وكان موسى عليه السلام قد بعث منهم اثني عشر نقيبا ليتعرفوا عليها قبل أن يسيروا لفتحها ، كما قال تعالى في الآية - ١٢ - من سورة المائدة : : ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم ، الآية - فلما وصلوا إليها وشاهدوا أهلها أدركهم الجزع والفرع ، ونسوا ميثاق الله عليهم ووعدده بفتحها لهم ، وقوله لهم (إني معكم) ومن يكن الله تعالى معه فلا غالب له وإن بلغ في القوة ما بلغ ، لأن قوة الله أقوى من كل قوى ، وهو واهب القوة للأقوياء فلا يمكن أن تغلبه قوتهم وهو الذي وهبها لهم ، ففسواكل هذا ، وأخذوا حين رجعوا إلى قومهم يهولون لهم في أمر من شاهدوهم في الأرض التي وعدها الله تعالى لهم ، فزادوهم ضعفا على ضعفهم ، حتى خارت نفوسهم ، وأدركهم من الجبن ما أدركهم ، وقد أخذ موسى عليه السلام يذكركم بوعد الله تعالى لهم ، وبما كان له

من نعم عليهم ، ليعبد ضعفهم إلى قوة ، وجنبتهم إلى شجاعة ، وبأسهم إلى أمل ، كما حكى الله تعالى عنه في سورة المائدة .

ولكنه يئس منهم بعد أن أظهروا هذا الضعف البالغ ، وكان أن طاقهم الله تعالى بتحريم هذه الأرض عليهم أربعين سنة ، حتى يذهب ذلك الجيل الذي نشأ في ظل الاستعباد والاستبداد ، وأرهقه ظلم فرعون وطغيانه فيه ، وينشأ جيل آخر لم ينشأ في ظل الاستعباد والاستبداد ، فيمكنه أن يقوم بفتح هذه البلاد ، كما قال تعالى بعد الآيات السابقة : « قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .

وأما النصرانية فقد نشأت نشأة أضعف من نشأة اليهودية ، إذ لم يدن بها على عهد عيسى عليه السلام إلا أفراد قلائل من بني إسرائيل ، وكان بنو إسرائيل في ذلك الوقت واقعين تحت حكم الرومان ، فكان أولئك الأفراد الذين دانوا بالنصرانية ضعافا كل الضعف ، لأنهم كانوا من شعب مستضعف بحكم أجنبي ، وكان ذلك الشعب يضطهدهم وينابذهم العداء ، ويستعين عليهم بذلك الحاكم الأجنبي ، حتى اضطروا إلى مداراته انقاء لغضبه ، وقد سألوا عيسى عليه السلام عما يفعلونه مع قيصر الرومان ، فقال : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ولهذا كانت النصرانية شريعة زهد في الدنيا ، لأنها لم يكن لها أمل مع قلة من دان بها في دنيا تقيمها ، تغلب فيها أولا على ذلك الشعب المحكوم بحكم أجنبي ، ثم تغلب فيها ثانيا على ذلك الحاكم وأن لها هذا ولم يدن بها إلا أفراد ضعاف قلائل ، وملك الرومان قد شمل ما لا يعد من البلاد والأقطار في ذلك الوقت ، فانتهى أمرهم مع عيسى عليه السلام بتسليمه لأعدائهم ، وكان الذي دل عليه أهداهم واحدا منهم ، ولا نهاية أضعف من هذه النهاية ، ولا أتباع أضعف من أولئك الاتباع الذين سلخوا في نبيهم ، ولم يتحرك لنصرته واحد منهم ، بل كان واحد منهم هو الذي دل عليه أهداهم .

ولنعد إلى المسلمين الذين يقال إن الله تعالى لهم ضعفهم فيسر لهم شريعتهم ،

ورفع عنهم الآصار التي كانت على من قبلهم لقوتهم ، فإن الله تعالى لم يختبرهم لإنهاء ملك صغير في بقعة من الأرض كما اختار بني إسرائيل ، بل اختارهم ليستخلفهم في الأرض جميعها ، وليكون لهم فيها ملك كبير يشمل أكثر بقاع الأرض كما قال تعالى في الآية - ٥٥ - من سورة النور : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية - فكانوا عند وعد الله تعالى لهم ، لم يمنوا ولم يضعفوا في يوم من الأيام ، ولم يجنبوا عن القتال حيناً ندبوا له كما جبن بنو إسرائيل ، بل كان أن قام النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر يستشيرهم في القتال ، فقام المقداد بن الأسود من المهاجرين فقال : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لو سرت بنا إلى برك الغماد - موضع على ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوب المدينة الغربي - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . وقام سعد بن معاذ من الأنصار فقال : قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضضته معك ، وما نكره أن تلقى العدو بنا غداً إنا لصبُّر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك ههنا ما تقرُّ به عينك فسر على بركة الله .

فياق هذه القوة التي لا نظير لها ، والتي لم تكن تفوقها قوة أرضية في ذلك الوقت ، لقد أخذت تقود الإسلام من نصر إلى نصر ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت إلا وقد دان له جميع بلاد العرب ، ثم قام خلفاؤه من بعده فصاروا في سبيله ، وقد تحرش بهم ملوك الفرس والروم حيناً رأوهم قد قضوا على ما كان لهم من النفوذ السابق في بلاد العرب ، فلم يضعفوا أمام تحرشهم بهم ، بل قابلوا ما كان لهم من قوة العُدَد والعدَد بقوة الإيمان ، فغلبوهم بهذه القوة التي لا تغلب ، وقضوا على ملك الفرس في الشرق ، واستولوا على جميع البلاد الشرقية

التي كان الروم يستولون عليها ، من الشام ، إلى مصر ، إلى جميع بلاد المغرب ، ثم أخذوا يغزونهم في عقر دارهم ، ويستولون على بعض بلاد أوروبا من الأندلس وغيره ، حتى كان لهم ما وعدهم الله به من الخلافة في الأرض ، وانتشر الإسلام في جميع البقاع ، فعرفه القاصي والداني من سكان الأرض ، وبهر نوره جميع أهل الأديان ، وصارت له قوة مادية وأدبية يحسب الآن في سياسة الدول حسابها ، وسيكون الفوز بإذن الله في النهاية لها .

فما هو إذن التعليل الصحيح ليسر الإسلام ؟

والجواب إن الإسلام جاء ديناً وسطاً بين الشدة واللين ، لأنه دين أريد به أن يكون صالحاً لكل الناس ، ملائماً لكل زمان ومكان ، ليكون خاتمة الشرائع السماوية ، وينتهي به التشريع الإلهي ، فلا بد أن يكون ملائماً لكل الفطر ، داخلاً في حدود الطاقة البشرية للأفراد ، وليس لهذا قياس إلا أن يقف عند ذلك الحد الوسط ، فلا يسرف في جانب الشدة حتى يخرج عن حدود الطاقة ، ويكون عسراً لا يسراً ، ولا يسرف في جانب اللين حتى لا يكون تكليفاً ، بل يكون إباحة لا تكليف فيها .

والشرائع إنما تقاس بمقدار صلاحيتها للناس في ذاتها ، لأن درجاتها في الرقي تابعة لمقدار صلاحيتها ، فكلما زاد مقدار صلاحيتها زاد مقدارها في الرقي ، ولا شك أن الشريعة الإسلامية قد بلغت الغاية في هذه الصلاحية ، لأنها جاءت وسطاً في تكليفها ، فقربت من كل الفطر البشرية على اختلافها ، وصارت في طاقة كل فرد من غير إرهاق وعنت : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

مُسْتَقْبَلُ الشِّعْرِ

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على العماد

المدرس بالأزهر

— ٢ —

شعراؤنا لا يقرءون ، هذه هي المشكلة الخطيرة في حياتنا الأدبية ، ولست أعني مجرد القراءة ، ولا القراءة التافهة ، وإنما أعني القراءة التي تعين على تقويم اللسان ، ونصاعة الأسلوب ، والسعة في التعبير والتصوير ، ولن تكون هذه القراءة التي يغرم بها المتطلعون للفن عندنا وسيلة إلى شيء من ذلك ، إن الحياة تعجلهم ، والرغبة الملحة في الصيت العاجل تعوقهم عن الجهد والمثابرة والدعوى والصبر الطويل ، للمطالعة والدرس ، والاستظهار والمضغ ، وحسن التخيير ، ومنهم ذو الرأي الفاتل ، والعمل الفاشل ، والتفكير العجيب ، مما يصرفهم عن المنابع الثرة ، والأصول القويمة التي تعمل في تكوين الملكة ، وتساعد على تربية الذوق ، وتوصل إلى الغاية .

قلت - مرة - لبعض أولئك : رحم الله أياما مضت ، ما عدنا نأمل أن نرى أمثال فلان وفلان - وعددت له جماعة من أصحاب الآداب الرفيعة ، والأساليب العالية - فقال : لا أمل في عودة هؤلاء وأمثالهم ، فسكانه رأى الارتياح باديا على وجهه إذ وافقني على امتداح من ذكرت من الأدباء ، فأردف يقول : لا أمل في عودتهم لأن النثر والشعر يتقدمان بخطى فسيحة ، وعودة أمثال هؤلاء نكسة لا نرضاها ولا نأملها ، ولا نستريح لها ، فإذا كان هذا رأيهم في هذه الآداب

فأرى أنهم يحاولون أن ينسجوا على منوال أسلافهم ، وأن يقتدوا بهم فيسلكوا الطريق التي سلكوا ويستعينوا بالوسائل التي استعانوا بها ، على أن الذين يعترفون لهؤلاء بالفضل والتبريز يستهينون بالاطلاع على متخير الآداب ، ولا سيما الآداب العربية القديمة ، فرأى غير قليل من عشاق التجديد أن هذا الآداب العربية زائفة وبهرج لا وزن له ، آداب خالية من الخيال الممتع ، والتعليق المثير ، والمعاني المرقصة حتى لينادى أديب كبير - أو على الأقل جعله طول مكثه في مغامرات الأدب كبيراً - فيقول في غير تورع ولا حياء في كتاب ينشره على الناس باسم الآداب : (الآداب العربي هباء كله ، لا يغني عن الناس شيئاً ، لأن ألف سنة تحول بيتنا وبين أعلامه والافذاذ من رجاله ، فصلتنا بهذا الآداب مقطوعة أو كالمقطوعة) .

ومهما يكن من شيء ، فإن جبهة المتأدبين في أيام الناس هذه يطلبون الشهرة ، ويغفلون عن وسائلها ، وما عرفوا أنه لا يمكن أن تسمع الأيام بأديب فذ حتى يعاني من المصاعب في الدرس والتحصيل ما يعيا بحمله الوداعون الكسالى المترفون ، لأنني ما قرأت ترجمة شاعر كبير ، أو كاتب خطير إلا رأيت صاحب ثقافة عميقة ، واطلاع واسع ، وثروة ضخمة من الشعر والنثر يدخرها في صدره . ويطول بنا الحديث لو أخذنا في ضرب الأمثال ، فلنشر إلى ثقافة أبي العلاء المعري ، وإلى ثقافة أبي الطيب المتنبي الذي وَّجَّه إليه هذا السؤال من عالم كبير : (كم لنا من المجموع على وزان فعلي ؟) فأفكر المتنبي قليلاً ، ثم قال : ثلاثة . قال السائل : فغبرت دهرًا طويلاً أبحت لها عن رابع فلم أجد .

وقد روى المقرئ في نفع الطيب عن ابن زيدون الشاعر الأندلسي الكبير : « أن ابنته توفيت وبعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقيل : لأنه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدي : وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى النهاية ، إلى أن قال بعد أن وازن بينه وبين واصل بن عطاء في تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول في حقه : « أقل ما كان في تلك الجنازة - وهو

وزير - ألف رئيس ممن يتعين أن يشكر له ، ويضطر إلى ذلك فيحتاج في ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير للغاية ، لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده .

ولست أقول إن سعة الاطلاع ، وكثرة القراءة تخرج شاعراً أو أدبياً ، ولكن إذا وافقها الطبع الموهوب ، والاستعداد الفطري ، كانت من أكبر العون على إنتاج أدب خالد ، أما إذا وجد الطبع وصادف كسلاً عقلياً ، فإن القريحة لا تجد الوسائل التي تسعفها عند ما تحاول أن تفيض ، وليس من شك في أن اللغة أداة الإبانة ، ووسيلة الأداء ، وكلما اتسع محصول الأديب من مفرداتها وتراكيبها ، أدى خواطره وأفكاره أحسن أداء ، وصاغ منه أقوم صياغة ، وأظهرها في أروع معرض ، وشتان بين أديب يسرح بخاطره في حقل فسيح من أساليب الكلام ، ويستطيع أن يميز بين ما يأخذ وما يدع ، وآخر تواتيه الفكرة فيعوزه حسن الأداء ، ويضيق أمامه مجال التعبير .

وإذا كان المتأدبون ينعمون بهذا الكسل المترف ، ويعزفون عن القراءة والدرس ، ويستقلون الآداب القديمة ، فإن جنابة مناهجنا ، وسلوكنا في التدريس لا تقل عن جنائيتهم على أنفسهم ، وذلك أن آخر ما تفكر فيه في معاهدنا ومدارسنا ، بل وجامعاتنا ، هو النصوص ، والإكثار منها ، وحمل الناشئة على استظهارها ودراستها دراسة مستثيرة واعية هاضمة ، والمعلولون يعرفون معنى ما أقول ، ولا يستطيع مكابر منهم أن ينكر أن درس المحفوظات لا يأخذ من العناية ما هو جدير به .

وأما أنا ، فإني أعرف من إهمال الطلاب ، وإهمال أساتذتهم في هذا الشأن ما يتضال دونه كل خيال .

هذه واحدة . . وأما للثانية فهي اندفاع كثير من شعرائنا وراء المذاهب الغربية ، يتمجدون بها ، ويتمذهبون ، ويفاخرون ، ويحاولون أن يكونوا نماذج لهذه المذاهب ، والخطب في ذلك جليل ، فإن شعراءنا المحدثين الذين جعلوا

يعيون شوقياً وحافظاً ومن إليهما بأنهم مقلدون أو على حد تعبير بعضهم (مجترّون) لأنهم أطلّوا النظر في الأدب العربي ، وحافظوا على عمود الشعر ، هؤلاء الشعراء ذهبوا يقلدون — وبغير تبصر — الأدب الغربي في اتجاهاته ، وأخيلته ، ومعانيه ، حتى لاحظ بعض النقاد أن حركات التجديد التي نشأت في الأدب العربي المعاصر إنما تستمد في - الغالب - وحيا من الآداب الاجنبية .

ويتجلى لنا هذا التقليد الرائع في سلوك شعرائنا حيال المذاهب الأدبية القربية ، فإن لهذه المذاهب حدودها ورسومها ، ومقدماتها ونتائجها ، فإذا صنع هؤلاء المجددون ؟ . نظروا في هذه المذاهب نظرات عابرة ، وراحوا يقلدونها ، ويدعون أنهم يصددون عنها ، دون أن يتعمقوا فهم أسرارها ، واكتناه مراميها ، وأكثرهم لم يفهم عن هذه المذاهب شيئاً ، أو فهم منها الجانب الردي . ولكن كيف يصل إلى قمة الشهرة والخلود ، وهو لا يدين لمذهب من تلك المذاهب ، وقد ظهر في المفكرين الغربيين من ينكر هذه المدارس كلها ، ويعتبرها قيوداً للفن والفكر ، ويرى أن كل أديب ينبغي أن يسبح في بركة نفسه ، وأن يغرد على الأغصان التي يطيب له التغريد عليها ، كما يرى أن من الأسر والإرهاق للأديب أن يدور حول غيره ، غير منطلق كما يرضى الأدب . فما أشبه هذه المدارس الأدبية بأقفاص للعصافير (١) .

وعلى الرغم من ذلك فقد أبى شعراؤنا ولا سيما الناشئون منهم إلا أن يندفعوا وراء هذه المذاهب ويكونوا من سدتها ، ويرون أن السجن في أقفاص مذهب غربي نحر لا يعد له الانطلاق في الآفاق الفسيحة من طبيعة النفس ومواهبها .

على أن الداء الدوى أن فهمهم أو بالحرى فهم أكثرهم لهذه المذاهب - كما أسلفت - ناقص مبتور ، ولتأخذ - مثلاً - الرمزية ، نقرأ عن أصلها وحقيقتها ، وما كان يعنيه أصحابها الأولون منها ، فنجد أنها مذهب يعتبر الشعر ما انبعث من قرارة النفس ، ورفع إلى ذروة السماء وكان موسيقياً قبل كل شيء ، ونقرأ بعض

الفصائد الرمزية المترجمة كقصيدة (البعث) لزعيم الرمزية في فرنسا (استيفان مالارميه) وكقصيدة (الغراب) للشاعر (إدجار آلان بو) فنجد فيها جمالا وروعة ، وعمقا في التفكير ، وصدقا في الشعور ، ونحس بروعة الإيجاء ونفاذه ، ثم نكرر راجعين لنقرأ لشعراء الرمزية عندنا ، فنجد غموضاً والتواء ، وتطالعنا أفكار مهوشة مضطربة ، في رؤوس أحب أصحابها التعبير عن أفكارهم بالشعر ، ولم يؤتوا ملكته ، ولا أعدوا له عدته ، ولم يعطهم الله شعور الشاعر ولطف حسه ، وصفاء نفسه ، فاستعاضوا عن ذلك بالانتماء إلى المذهب الرمزي ، ولا يكلف ذلك من يريد إلا أن يكتب في رأس قصيدته ... أو مصييته التي يجب أن ينزلها بالقراء كلمة (من الشعر الرمزي) وأن يلقي صحفياً أحق ينشرها له !

وكل الذي قرأناه إلى الآن من هذا الشعر الرمزي قطع هي أبعد عن الموسيقى من بعد السماء عن السحاب ، وبعد أصحابها عن الشعر ... إنها رطانة بحروف عربية ... وشعر ، ولكن لا شعور فيه ، ولا موسيقى ، ولا حياة ، (١) .

وقد شاعت عند النقاد قصيدة لأحد الشعراء الذين يدنون بالمذهب الرمزي ، أو يتمسحون به ، على وجه الدقة ، وهي مثال صريح واضح للكلام الغامض المهم ، الذي بين لفظه ومعناه - إن كان له معنى - مسيرة أربعائة عام ، ولصاحب هذه القصيدة مسرحية رمزية أيضاً ، قال فيها أحد النقاد : « إنها غامضة يعسر فهمها على أدق الأفهام ، وهذه بعض أبيات من القصيدة ، وعنوانها (إلى زائرة) :

لو كنت ناصمة الجبين	هيات تنفضني الزيارة
ماروعة اللفظ المبين	السحر من وحى الإشارة
ظل على وهج الحنين	رسمته معجزة العبارة
خط تساقط كالخزين	أرختي على العزم انكساره
غيبت في العجب الدفين	معنى براعته البسكرة
درّاً يفوت الناظرين	ونمضت تهديني بحماره
خطوات وسواس رزين	وهب تعميه الطهارة

وأنا أخالف الأستاذ الزيات التي يعلق على هذه القصيدة ومثيلاتها بقوله :
« وسأدع لك الوقت لتتحن صبرك على كشف هذه الرموز ، وحل هذه الأحاجي ،
ولن أسألك عما فهمت ، فإنك أن أجبت فإن جوابك لن يزيد على جوابي ،
وإن أخطأت فإن خطأك لن يختلف عن صوابي (١) » .

أخالفه ، لأنني فهمت البيت الثاني وإن كنت فهمته بعد أن درست المذهب
الرمزي ، وعرفت حقيقته ، فإذا هي مثبتة في هذا البيت ، وهذا ليس بعيب على
الشاعر ، فإن واجبنا أن ندرس كل شيء إذا أردنا أن نفهم الشعر ، وأما الأبيات
الأخرى فعلى الرغم من أنني راجعتها في أكثر من كتاب ومجلة ، أؤكد أن فيها
تحريفات كثيرة ، بل أظن أن التحريف لحق كل كلمة ، بل كل حرف من حروفها ،
وعليتنا أن نطلب لها خبيراً في التزويرات ليردها إلى أصلها !

ويتصل بهذه الرمزية ، وإن لم يكن منها ، نوع آخر من الشعر ، يسميه أصحابنا
« الشعر الفلسفي » ، فإن أصحاب هذا الشعر ، وإن لم يكونوا حين نظموا - فيما
أعرف عنهم - يدينون بالرمزية أو يفهمون عنها شيئاً ، إلا أن الغموض
والمعاية ، والإلغاز ، هذه الفواجع التي تظهر في شعر الرمزيين من شعرائنا ،
تظهر أيضاً في كثير من شعر هؤلاء (المتفلسفين شعراً) ويعبر أحدهم عن هذه
الفلسفة الشاعرة ، أو عن هذا الشعر المتفلسف ، بأنه التصوير الهادى الغامض ،
فالهدوء والغموض هما اللذان يثيران في الشاعر خاطر التصوير ، بل خاطر التعبير ،
وهو يهرب من الضجة كما يهرب من الوضوح ، فإذا اضطرب لملاستهما ، فهو يعيش
فيهما ، ولكن لا يعبر عنهما ، وسأضطرب هنا - حين أمثل - لذكر أبيات لشاعر
صديق ، أحترم شعره ، وأعرف فيه الوضوح والدقة في التعبير ، والروعة في
التصوير ، ولكنه حين تفلسف جاءنا بالغموض والإلغاز .

، قصيدة عنوانها (أنا) جاء فيها :

أظنك يا دنياى لا تعرفينى فياخية المسعى وباضيمه المنى

كفاني من الحذلان أن تجهديني وإن كان عند الله لا فرق بيننا
وما أنت يا هذا . ومن أنت ياترى؟ فقال لها نفس تسميتني (أنا)
إذا رمت يا دنياي أن تعرفيني فقد رمت أمراً ليته كان ممكنا
وما أنت إلا أنت في كل موطن ولكنني أشياء من بيننا (أنا)
كأنى لا أشبهك أو تشبيتي أساساً وتكويناً وترباً ومعدناً
فوا أسفا إن كنت لا تعرفيني وإن كنت لا تدرين يا نفس من أنا
أحبك يا نفس فهل تعشقتيني أظنك يا نفس تحبين غيرنا (١)

ثم نعود إلى مذاهب الأدب ، وارتكاس شعرائنا في فهمها فهما خاطئاً ، ومحاولاتهم التقيدها ، والجرى وراءها ، فترى كيف أنهم صفقوا للمذهب الذي يطلق عليه (مذهب الفن للفن) وتبجح بعضهم به ، وروج له ، وجعله مبرراً لما ينظم من شعر مسف ، مليء لحشاً وهجراً ، ونشر هذا الشعر في ديوان يستطيع كل ناشئ أن ينظر فيه ، فيرى الألفاظ الفاجرة ، والعبارة الخليعة الرقيقة ، وحجتهم حين تنسك عليهم هذا الشعر المثير للغزائز ، الحافز على اقتراف المنكرات حجتهم التي يجبهونك بها (الفن للفن) .

هذا الوهم الذي يبيح لشاعر صغير ناشئ ، أن ينشر في ديوان صغير خمس قصائد عنوان كل منها (جسم غادة) ويبيح لشاعر كبير ، بل لشعراء ، أن ينشروا في دواوينهم قصائد يصفون فيها ما يسمونه (بالليالي الحمراء) بل الذي يبيح لشاعر درس الدين ، وراح في المدارس يدرسه ، أن يصف في شعر منشور في إحدى المجلات الكبرى أدق ما يكون بين فتى وفتاة ، حين تسعفهما خلوة ...

غلط في الفهم ، وتماد في البناء على هذا الغلط ، ثم تبجح بعد ذلك وأصرار على هذا السلوك المشين .

والدكتور محمد مندور يحدثننا عن هذا المذهب قائلاً : وبالرغم من نشأة الفن للفن هذه النشأة التاريخية المحدودة كثورة ضد استخدام الفن كوسيلة التعبير

عن الذات ودعوة للرجوع بالفن إلى حقيقته الجمالية ، ومقاومة الهلولة والابتذال في الشعر ، ثم اقتصار هذا المذهب بحكم طبيعته على فن الوصف - نقول بالرغم من كل هذا فإن عبارة الفن للفن قد اتخذت في عالم الأدب ومعاركة عدة معان دخيلة على مدلوله التاريخي ، وانتشرت هذه العبارة في العالم العربي الحديث ، ودارت حولها - ولا تزال تدور - معارك حامية .

لقد ظن البعض أن الفن للفن معناه التحلل من قواعد الأخلاق في الإنتاج الأدبي ، بل أسرف البعض في الظن حتى قال : « إن الفن للفن ينتهي إلى الأدب الإباحي الذي يزعم أنه لا يهتم بغير الفن ، سواء اتفق هذا الفن مع الأخلاق والمواضعات الاجتماعية أو تنافى معها ... فذهب الفن للفن لا يدعو إلى الخروج على قواعد الأخلاق ، بل لا يتعرض للمشكلة الأخلاقية على الإطلاق (١) » .

الهندسة والطاقة الذرية

للمهندس الدكتور محمد محمود غالى

مدير عام مصلحة النقل السابق

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية - ليسانس العلوم الحرة - دبلوم المهندسخانة

تابع القارئ على صفحات «رسالة الإسلام» بحوثنا عن عالم الذرة بعد أن ألقينا عن هذا العالم العجيب أكثر من عشرين محاضرة عامة بين بغداد والقاهرة والإسكندرية ، وبلغت مقالاتنا فى هذه المجلة الرفيعة ثمان مقالات لم تكن فى أعداد متتابعة ، إنما كانت فى فترات تأثرنا عند كتابتها بالأحداث العلمية تارة ومطالعائنا تارة أخرى . وكنا كلما دفعت الكشوف العلمية المدنية خطوة إلى الأمام استعرضنا هذه الكشوف فرحين مبتهلين ، وكلما أُنذرتنا بأخطار لا تبعث على الطمأنينة والسلام نَهَبْنَا إليها ملعين جوعين ، ولعل مقالاتنا : « الذرة من أجل السلام » و « التسابق الهيدروجينى » مثالان لهذا الشعور بين الفرح والامل ، وبين الضجر والوجل - وكنا نجد الحياة فى الكتابة ، وليس أحب إلى النفس من ساعة أخلو فيها للقارئ ، ولا إلى القلب من شعورى أن هناك قراء يتابعوننا فيما نكتب ويشاطروننا رأى فيما نذهب إليه - وتناولنا أحيانا سير العلماء ، وليس ذلك عندى إلا لأنهم اقترنوا بوثبات للعلم ليست هينة ، ووثبات أحداث وسُجُودت تغييراً كلياً فى مستقبل البشر وتاريخه ، ولعل القارئ استطاع أن يدرك ذلك فى مطالعته الأخيرة لمقائنا عن العالمة الكبيرة إيرين كورى التى فقدناها أخيراً والتى باتت جزءاً من التاريخ ، وهى التى وضعناها عن جدارة بين المحسنين الذين أدوا لجيلنا أجل الخدمات ، والذين هم فى الواقع على حد ما ذهبنا إليه بناء القرن العشرين .

ولقد ذكرنى هذا العرض الذرى على صفحات « رسالة الإسلام » ، وذكرتنى مقالاتى الثمان التى أتينا على ذكرها بتلك المقالات التى جاوزت الأربعين التى نشرتها فى مجلة الرسالة منذ أكثر من ١٥ عاما ، حيث تابعا وصف العالم من الذرة على ضآلتها إلى الكون على اتساعه وعظمه ، أو تلك التى نشرتها فى مجلة الكاتب المصرى منذ أكثر من عشر سنوات حيث حاولنا أن نتفهم التفجير الذرى الاول قبل أن تصلنا عنه النشرات العلمية ، وحيث تناولنا بالبحث تارة نواة الذرة ، وتارة ما يدور حولها من كهارب ، أى الكترونات .

وأمس طالعت مقالى الأخير عن إيرين كورى فشمعت بالحنين لأن الخصر من جديد بعض الاحداث العلمية التى لم يتسع المجال لها عند كتابة هذا المقال ، وهى الاحداث التى أدت فى الواقع إلى التفكير فى الطاقة الذرية والتعرف عليها ، وقد تعمدت فى الوقت ذاته أن تكون كتابتى هذه المرة لطائفة من المشغولين بالعلم هم زملاؤى المهندسين ، فعلى أكتافهم نسير العلوم الذرية من اليوم فى طريق السلام ، هذا الطريق الذى طالما تمنيناه ، والذي يشمر به كل من تتبع مقالاتى العديدة عن الذرة ، وتابع كبتى أو محاضراتى عنها ، ولى من مقال اليوم غرضان :

الاول : شعورى أن الكثرة من زملاؤى المهندسين يفتقرون إلى معرفة الذرة لذا أعرض بعض المسائل الهامة التى أدت إلى التفكير فى الطاقة الذرية ، وأوضح المجال العلمى الذى وضع العلماء فيه أسسها السليمة .

الثانى : أن أحفز زملاؤى المهندسين لا لمعرفة المواضيع الذرية لحسب ، وإنما للعمل للذرة فى سبيل السلام ، فلا يتخلف زملاؤنا من أهل مصر والشرق عن ركب الحضارة ، وأن يكون تعاونهم فى هذا السبيل من أجل البناء والتعمير ، لا بغرض الهدم والتدمير .

* * *

سأحاول إذن فى هذه السطور أن أتابع مع زملاؤى المهندسين أهم نواحي الميراث العلمى فى موضوع الذرة ، ويقينى أننا نستعرض معهم أعظم ما ورثه

الإنسان من معرفة ، هذه المعرفة التي جعلت في مقدور المهندس أن يضع يده اليوم على طاقة لم يمهدها من قبل ، فبعد أن كان يستخدم الطاقة الحرارية من الفحم والبترو ، أو الطاقة التي يستغلها من مساقط المياه ، أصبح يُستخر اليوم طاقة جديدة تخرج من نواة الذرة ، حيث تمكن العلماء من تحويلها إلى طاقة حرارية ، وبالتالي كهربائية ، وهكذا أصبح على المهندس أن يقوم بدور كبير في بناء حضارة جديدة ، وإقامة سلام دائم .

هذا الدور الكبير للمهندس هو الذي نلقت النظر إليه سبباً بعد أن أمكن استخدام هذه الطاقة في شكل قنابل ذرية وأخرى هيدروجينية جعلت أمر قناء الحياة كلها من على الأرض للإنسان والحيوان والنبات في متناول أيدي الغنيين .

ولا شك أنه قد حدث تطور في المعرفة في أواخر القرن الماضي بعد التعرف على المواد المشعة ، وأوائل هذا القرن بعد ظهور النظرية النسبية .



كلنا يعلم اليوم كيف أفاد ألبرت أينشتاين من تجربة ميكلسون ومورلي ومن معادلات لورانتز في السرعة ، أراد ميكلسون ومورلي سنة ١٨٨٧ أن يقيس سرعة الضوء في الاتجاه الذي تسير فيه الأرض ، وفي الاتجاه العمودي عليه ، وقد دُهِش كما دُهِش علماء زمانه بعدم وجود فرق بين هاتين سرعتين رغم سير الأرض ، ولو أن الأرض كانت ثابتة لتحتّم أن تكون سرعة الضوء واحدة في جميع الاتجاهات ، أما وأن الأرض تسير حول الشمس فكان لا بد أن يكون هناك فارق في السرعة في اتجاه سيرها وفي الاتجاه العمودي عليه ، وكان للنتيجة السلبية التي وصل إليها ميكلسون ومورلي دخل في أزمة علمية كبرى ، وكان على العلماء أن يجدوا تفسيراً لهذا التناقض ، فإذا بأينشتاين يجد هذا التفسير ، وبعد ربع قرن من التجربة المتقدمة وذلك بتعديل نظرتنا للزمان وللحين بوضعه نظرية النسبية سنة ١٩٠٥ ، هذه النظرية التي كان من أهم نتائجها أن المادة والطاقة شيء واحد ، وأن كمية من المادة تعادل قدراً من الطاقة ، وأن قانون التعادل بسيط بحيث أن الطاقة تساوي كتلة المادة

مضروبة في مربع سرعة الضوء ، والذين يودون من زملائنا أن يطبقوا هذه القاعدة على كيلو جرام من المادة مثلا يتحول إلى طاقة ، وليكن كيلو جرام من الماء أو النحاس أو اليورانيوم فإنهم يجدون أننا نحصل من هذه الكتلة البسيطة على ٢٣٥٠٠ مليون حصان ساعة .

لقد كان أينشتاين موقفا فيما ذهب إليه ، فقد كان معروفا وقبل نشرته الخالدة التي نشر فيها فكرة النسبية بشأن سنوان أن المادة تتحول إلى طاقة منذ أن لاحظ « بكارل ، سنة ١٨٩٧ أن اليورانيوم يشع ، ومنذ تجارب ماري سكلودوفسكا « مدام كورى ، عند ما كشفت البولونيوم بمفردها ، والرايوم مع زوجها بيير كورى ، بحيث تم لها ولزوجها مع بكارل ، وقبل كشف أينشتاين بشأن سنوات أعظم عمل علمي ظهر في القرن التاسع عشر .

وتقدمت الناحية النظرية للعلوم الذرية بأن وضع « ماكس بلانك ، سنة ١٩٠٥ نظرية الكم المعروفة ، وبما أضافه العالم الدنمركي « نيلز بوهر ، لهذه العلوم ، فقد جمع سنة ١٩١٣ بين نظرية الكم وخطوط الطيف مفسرا بطريقة مبتكرة أدق الأحداث العلمية داخل الذرة التي ثبتت بوسائل لا تقبل الجدل أنهما على صلاتها عالم شمس كامل يتركب من نواة وسطى معقدة هي بمثابة الشمس يدور حولها الإلكترونات كالكواكب ، وهذه الإلكترونات تدور أيضا حول نفسها كما تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وتلتزم هذه الكواكب في العناصر الثقيلة سبع سموات أو مدارات لا تتعداها ، على أن قطر هذا العالم كله أى الذرة في مجموعها من شمسها إلى كواكبها هو واحد على عشرة مليون من المليمتر - أما قطر النواة داخل الذرة فهو واحد على مليون المليون من المليمتر ، ومع صالة النواة هذه فهي تتركب في عنصر اليورانيوم مثلا من ٢٣٨ جسيما .

وتقدمت العلوم التجريبية فعرفوا أن نواة الذرة تتكون من بروتونات

ونيترونات . أما البروتون فجسم موجب الشحنة ، وهو نواة ذرة الهيدروجين وكتلته تساوى ١٥٠٠ مرة تقريبا قدر كتلة الإلكترون الدائر سالب الشحنة ، وأما النيوترون فجسم لا شحنة له ، وكتلته تساوى تقريبا كتلة البروتون .

وتختلف العناصر بعضها عن بعض باختلاف كتلة فواتها ، أى عدد ما بنواتها من بروتونات ونيترونات ، وعدد ما حولها من الإلكترونات ، فللهيدروجين بروتون واحد والإلكترون واحد يدور حوله ، ولنواة اليورانيوم ٩٢ بروتونا ، ١٤٦ نيوترونا يدور حولها ٩٢ إلكترونات بعدد ما بداخلها من بروتونات ، وتقذف المواد المشعة الطبيعية من تلقاء ذاتها ، ومن داخل نواة ذراتها ثلاث قذائف ألفا باسم الحرف الأول من الحروف الإغريقية ، وهى نواة الهيليوم (بروتونان ونيترونان) وقذائف الكترونية يسمونها بيتا الحرف الثانى من هذه الحروف ، كما تقذف أشعة سموها باسم الحرف الثالث من الحروف ذاتها أى أشعة جى ، وقد أمكن تحول العناصر بعضها إلى بعض بتعريضها لهذه القذائف ، وتم لرذرفورد سنة ١٩١٩ أول هذه التحولات عند ما استطاع أن يحول النيتروجين إلى أكسجين ، لحقق بذلك حلم جال بخاطر كيميائيى القرون الوسطى .

* * *

ثم جاءت خطوة إيرين كورى (كريمة مدام كورى) وزوجها جوليو بخلق النظائر المشعة ، وذلك بتجاربهما الخالدة على الأليونيوم واكتشاف تحوله إلى فوسفور مشع تلك التجارب الخالدة التى نالا من أجلها جائزة نوبل ، وسنحاول استخدام بعض هذه النظائر فى عمل تجارب قد تؤدى إلى منع التماسل فى دودة القطن والقضاء عليها نهائيا ، وقد نشرنا ذلك حديثاً فى ندوة الذرة المنعقدة فى ١٦ و ١٧ و ١٨ يونيه سنة ١٩٥٥ ، كذلك فى بحث قدمناه فى المؤتمر العلمى العربى الثانى الذى انعقد فى شهر سبتمبر من السنة ذاتها .

* * *

وفى ديسمبر سنة ١٩٣٨ حدث أن تمكن أوتوهان الألمانى من قذف نواة

البليتونيوم (اليورانيوم ٩٤) بالنيوترونات البطيئة فانشطرت النواة إلى قسمين كبيرين وأقسام صغيرة وخرجت منها طاقة كبيرة .

وقد بين جوليكوري مع زميلين له ، هما : هليان وكوارسكي أن النواة التي دخلها نيوترون واحد خرج منها ثلاث نيوترونات متطوعة دخلت بدورها في ٣ نويات أخرى مجاورة فأخرجت تسعة نيوترونات ، وهذه دخلت في ٢٧ نواة أخرى وهكذا ، بحيث تصبح النويات المنقسمة في كسر ضئيل من الثانية ملايين الملايين ، وهكذا من نيوترون واحد تستمر السلسلة ، ولما كانت كتلة المادة المتبقية من كل نواة أقل من كتلة النواة قبل عملية الانقسام ، وأن الفرق في الكتلة تحول إلى طاقة كان مجموع الطاقة من ملايين النوى عظيم جدا ، وبهذا وضع العلماء أيديهم على الطاقة الذرية ، وتمكنوا من عمل القنابل الذرية الأولى ، كما تمكنوا من كسر جراح خروج الطاقة دفعة واحدة ، وعمل مايسمونه اليوم الأفران الذرية ، وقد تم لهم عمل القنبلة الذرية بجمع كمية من البليتونيوم وهو اليورانيوم ٢٤٠ ، أو جمع كمية من اليورانيوم ٢٣٥ بكمية كافية ، كمية في حدود مايسمونه الحجم الحرج ، وهو الحجم الذي يحدث في حدوده التفاعل المتسلسل المتقدم الذي يؤدي إلى الانفجار ، وكذلك تم لهم بناء أفران ذرية ، وذلك بوضع بما يسمونه المبطئات من الماء الثقيل أو الكادميوم بين قطع من اليورانيوم وجعلوها متحركة بيئة للسيطرة على هذا التفاعل والحد منه ، وفي روسيا توصلوا منذ يونية سنة ١٩٥٤ إلى تحويل الحرارة الناتجة من هذه الأفران ، أي الناتجة من طاقة التسلسل الذرية إلى طاقة كهربائية ، وكانت قدرة أول فرن من هذا النوع خمسة آلاف كيلوات .

* * *

ولقد فطن د جان بيران ، من السوربون منذ سنة ١٩٢٩ ود هانس بيته ، في أمريكا سنة ١٩٣٨ إلى أن الضوء والحرارة في الشمس هما نتيجة لتفاعل ذرى حادث من تجمع أربع ذرات من الهيدروجين لتكوين ذرة واحدة من الهيليوم كتلتها أقل من كتلة الأربع ذرات ، وأن فرق الكتلة تحول إلى طاقة وفق نظرية

أينشتاين . ويبدو أنه بالالتجاء إلى نظائر الهيدروجين الديتريوم والتريتيوم يمكن الباحثون في السنين الأخيرة من تفجير القنبلة الهيدروجينية ، وليس لهذه حجم حرج ، فالقنبلة الهيدروجينية التي فجرنا أخيراً تساوى قنبلة هيروشىما ألتي مرة ، بحيث أن قنبلة واحدة يمكن أن تقضى على الحياة في منطقة واسعة كالوجه البحرى بما في ذلك القاهرة والاسكندرية ، منطقة يسكنها ١٥ مليون من البشر الكادحين الآمنين .

وقد طالعنا أخيراً عن بعض المحاضرات التي ألقاها علماء روسيا في هارفرد المركز الذرى البريطانى لمناسبة زيارة زعماء الاتحاد السوفيتى لانجلترا ، وعلينا نقلاً عن الجرائد الفرنسية أن بعض المعامل في روسيا اليوم تشغل في درجة حرارة بلغت بضعة ملايين الدرجات ، ولنا أن نستنتج من ذلك أنهم في طريقهم للانتفاع بهذا التحول الهيدروجينى الجديد وتلك الطاقة العظيمة في الأغراض السلبية.

والآن ونحن في معرض إيراد بعض النواحي التي لم تتناولها على صفحات رسالة الإسلام ، ولا في محاضراتنا للعديدة أو مؤلفاتنا ، فإنه جدير بالذكر أن أذكر لزملائى المهندسين أنه في أكتوبر سنة ١٩٥٥ تمكن لورانتز أول مخترع للسيكلترون في أمريكا ، وذلك باستخدام سيكلترون جبار قوته ستة آلاف مليون إلكترون فولت من أن يحول الطاقة إلى مادة ، فقد ترك بروتونا موجباً أكسبه سرعة فائقة بواسطة السيكلترون ليصطدم بصفيحة من النحاس فتولد من الصدمة بروتونا سالبا ، أى مادة جديدة وهو البروتون السالب الذى تنبأ به الذريون النظريون في معادلاتهم ، وهذا البروتون السالب الجديد تحول بسرعة إلى ميزون ثم تحول الميزون من جديد إلى طاقة ، وهذه الطاقة عظيمة جدا ، وكما يكون الأمر خطيرا لو أنه بعملية أخرى نجعلها اليوم يتحول عدد كبير من البروتونات العادية أى الموجبة وهى الموجودة في كل مادة في الوجود إلى طاقة ، ولو أنه حدثت سلسلة بروتونية كسلسلة أوتوهان ، أى حدثت عدوى في تحول البروتونات إلى طاقة لما أصبح لنا في عقيدتى وجود على ظهر الأرض ، وهكذا تتأرجح البشرية

بين استخدام الطاقة الذرية لأغراض الحرب والدمار ، واستخدامها لأغراض السلم والعمار ، بل إننا أمام ما يستجد من تجارب العلماء ومفاجآت الطبيعة في خوف مستمر ووجل دائم .

في كتابي الثاني « ما ذا نخبئه نواة الذرة للإنسان » الصادر في سنة ١٩٤٩ ، كتبت على غلافه العبارة الآتية :

« ستعلم وأنت تطالع هذا الكتاب أن البشرية قد خطت مع بكارل منذ نصف قرن ، ومع أوتوهان حديثا خطوتين حاسمتين ، فإما مدنية فوق التصور نصبح فيها كلانك نستطيع ما لا نستطيعه اليوم ، وإما مفاجأة محزنة قد ينمحي معها الكوكب الوديع الذي نعيش عليه . »

هذا ما كتبت منذ ثمان سنوات ، والحق أننا ألفينا أنفسنا على كوكب وديع يغلب على الظن أن الدنيا فيه كانت يوما كدنيا الشمس حيث تبلغ الحرارة داخلها حوالى ٢٠ مليون درجة ، وعلى سطحها ستة آلاف ، ولكنه تغير وتكيف بحيث سمحت الظروف عليه بالحياة التي نعرفها ، ولا ندرى على وجه التحقيق كيف بدأت هذه الحياة ، ولعل أهم ما فيها هو الإنسان ، ذلك الكائن أو الحيوان الاجتماعى المتنقل كما عرفه « برجسون » هو مصدر الخطر على هذا الكوكب السيار هذا الإنسان الذكى المفكر هو مصدر الفناء لنفسه وللـكوكب الذى يعيش عليه ، وهما هى الشواهد تزداد عندى يوما بعد يوم - إن تحول بروتونى فى شكل سلسلة دون رابط وإن لم تحدث إلى اليوم ، أو سلسلة كسلسلة أوتوهان تحدث فى العناصر الخفيفة كالماء أو الاكسجين يمكن أن تعيد هذا الكوكب إلى طاقة ، وهى لا تعيده هذه المرة فى فترة طويلة تبلغ الألفى مليون سنة كذلك الفترة السابقة التى تكون فيها ، بل فى ثوان معدودة أو فى كسر ضئيل من الثانية .

إن كثرة العلماء لا يشاطروننا هذا الرأى مستندين إلى أن السلسلة الخطيرة لم تحدث إلا فى العناصر الثقيلة كاليورانيوم ، ولكن احتمال حدوثها فى العناصر

الخفيفة بأساليب لا نعرفها اليوم أمر يوضع في نظرى محل الاحتمال ويُنظر إليه بعين الاعتبار .

* * *

وهكذا سارت الأمور وتتابعت الأحداث ، ولنا أن نتأمل الآن كيف أنه من مسألة خاصة بمسير الكوكب الذى يحملنا حول الشمس ومن مناقشة سرعة إحدى ظواهر الكون - الضوء - مرة في الاتجاه الذى يسير فيه هذا الكوكب ، ومرة في الاتجاه العمودى عليه ، كيف أنه من عدم وجود فارق في السرعة يضع الإنسان أسس النسبية ويخرج من مسألة فلسفية بمسألة واقعية ، ذلك أن المادة ما هي إلا صورة من صور الطاقة ، وأننا نستطيع أن نعيدها سيرتها الأولى ، وقد أعادها العلماء فعلا وحولوا المادة إلى طاقة كما حولوا أخيرا الطاقة إلى مادة .

هذا التحول عظيم وخطير ، وعلينا وعلى المهندسين على الخصوص واجب اليوم هو أقدم الواجبات أن ندخل هذا الباب الجديد لا لعمل القنابل الذرية الناتجة من عملية التسلسل المعروفة ومن انشطار نواة الذرة ، ولا لصناعة القنابل الهيدروجينية الناتجة من عملية التجمع لبعض النظائر الخفيفة والتحول الذرى ، كذلك التحول الحادث في الشمس ، وإنما لاستخدام هذه الطاقة أو تلك لأعمال السلام ولخير بنى الإنسان ؟

من بحوث مجمع اللغة العربية^(١)

معجم ألفاظ القرآن الكريم

— ٢٠ —

د . ي . ن

- دان** (١) دان يدين ديناً : أخذ الدين ودانته يدينه ديناً : أعطاه ديناً . لازم ومتعد . وأدانته : أعطاه وأقرضه إلى أجل . وتدين : أخذ ديناً أو صار ذا دين .
- دين** والدين : ماله أجل ، والموت ، وكل ما ليس حاضراً . واجمع ديون وأدين . مثل أعين وقد ورد (الدين) في : « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ٢٨٢/البقرة ، وفي ١١ ، ١٢/النساء .
- دن** (ب) دان يدين ديناً : نأله وعبد وأطاع وأنقاد .
- دن** (ج) دانته يدينه ديناً : حاسبه وقضى فيه وجزاه .
- دين** فالدين على هذا هو الطاعة بالجزاء والشرعة التي يقضى ويطاع بها .
- والأقرب أن تكون صيغة (دين) أصلاً لصيغة (دين) لأنها أدنى إلى السهولة . ويرجح ذلك أن كلمة (دين) تطلق في بعض مدلولاتها على كل ما ليس حاضراً ، فمقول أن تكون (دين) بمعنى طاعة أو جزاء مأخوذة من (دين) بمعنى غير الحاضر ، لأن أساس الأديان كلها الإيمان بأمر وراه هذا الوجود المحسوس الحاضر ، وبجزاء مؤجل ، والخشوع والخضوع والالتقياد للمعبود كما

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

ينقاد المدين للدائن . وقد كان الدائن يسترق المدين العاجز عن الدفع في بعض الشرائع وكان يقال لدى العرب للعبد (مدين) ومنه ؛ « فلولا إن كنتم غير مدينين مدينين ترجعونها ، ٨٦ / الواقعة ؛ أى مديونين معبدين ، ولأن مرادف (التدين) وهو (التعب) مأخوذ من كلمة (عبد) .

وما ورد في القرآن من (دان . ج) هو ما يأتي ؛

« مالك يوم الدين ، ٤ / الفاتحة ؛ أى الجزاء ، « وإن الدين لواقع ، ٦ / الذاريات ، « إذا متنا وكنا ترابا وعظاما ألنا لمدينون ، ٣٧ / الصافات . مدينون أى ألنا لمبعوثون ومجازون .

وكذلك في ٣٥ / الحجر ، ٨٢ / الشعراء ، ٢٠ / الصافات ، ٧٨ / ص ، ١٢ / الذاريات ٥٦ / الواقعة ، ٢٦ / المعارج ، ٤٦ / المذثر ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ / الانفطار ١١ / المطففين ، ٣٥ / النور ، وما عدا ذلك فهو العبادة والطاعة للشرعة وخلوص السريرة عما يندرج تحت معاني (دان . ب) مثل ؛ « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ١٢٣ / التوبة ؛ فالدين هنا ؛ الشرعة والعقيدة والآداب « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا . . . أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، هو عام فيما لا يختلف باختلاف الأمم والعصور من توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر .

« قل الله أعبد مخلصا له ديني ، ؛ أى تألمى وطاعنى وسريرتى . « وذلك دين القيمة ، . الأمة المستقيمة وعبادتها ؛ « لكم دينكم ولي دين ، لكم عبادتكم ولي عبادتى . وهكذا .

والتدين والمداينة ؛ المعاملة بالدين ومنه في موضع واحد « إذا تدانيتم بدين تدان إلى أجل مسمى فاكتبوه ، ٢٨٢ / البقرة ؛ أى إذا تعاملتم وداين بعضهم بعضا .

ذ . أ . ب

ذوب يذوب ذآبة وذئب وتذأب ؛ خبث وصار كالذئب خبثا ودهاء . والذئب ؛ كلب البر جمعه أذؤب وذئاب وذؤبان والآئى ذئبة . وهو من فصيلة ذئب

الكلب ولذلك يتم التلاحق بينهما . وذؤالة ؛ علم جنس له كشعالة للثعلب وأسامة
للأسد وقد ورد في ؛ د وأعاف أن يأكله الذئب ، ١٣ / يوسف ، كذلك في
١٤ ، ١٧ من هذه السورة .

ذ . أ . م

مذموم ذأمة يذأمه ذأماً ؛ حقره وذمه وطرده وخزاه . فهو مذموم ؛ والذأم ؛
الغيب يهزم ولا يهزم .
ومنه في موضع واحد ؛ د قال أخرج منها مذموماً مدحوراً ، ١٨ / الاعراف ؛
أى مذموماً محمداً مطروداً .

ذ . ب . ب

ذباب ذب فلان يذب ذباً ؛ اختلف فلم يستقم في مكان واحد . وذبه يذبه ذباً ؛
دفعه وطرده . وذب عنه ؛ دفع عنه والذباب ؛ يقع على المعروف من الحشرات
الطائرة وعلى النحل والزنابير ونحوها . واحدته ذبابة وجمعه أذبة وذبان . وسمى
بذلك إما أخذاً من الفعل الأول لأنه يتحرك حركة مختلفة مترددة فلا يستقيم
في مكان ، وإما من الفعل الثاني لأنه ملحاح يُذب ويُدفع ويُطرد .
وقد ورد (الذباب) في ؛ د لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم
الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه د ٧٣ / الحج وهو هنا ؛ واقع على الحشرة المعروفة .
وذذب الشيء ؛ حركة حركة مختلفة مترددة ، والذبذبة تردد الشيء المعلق في
الهواء ، أو هي حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ، ثم استعير لكل اضطراب وحركة .
والذال الثانية أصلية عند البصريين أو مبدلة من باء عند الكوفيين .

مذبذبين مذبذبين مذبذبين ؛ ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ،
١٤٣ / النساء ، أى مترددين مضطربين مائلين تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين
أو مترددين مدفعين عن هؤلاء وهؤلاء .

ذ ب ح

ذبح ذبح كنع ذبحاً وذباحاً ؛ شق وفتق ونحر وخنق ، وذبح ؛ طأطأ رأسه للركوع

والذبحه والذباح ؛ أن يتورم الحلق حتى ينطبق ولا يسوغ منه شيء ويمنع التنفس فيقتل ، فذبح الحيوان مأخوذ من الذبح بمعنى الشق والفتق والنحر ، ومن التذبيح وهو طأطأة الرأس ، لأن الذابح يطأطئ رأسه ، ورأس الحيوان ضد النحر ، ومنه ذفبحوها وما كادوا يفعلون ، ٦٣ / البقرة ، وقد ورد الثلاثي كذلك في ٧١ / البقرة ، ٣ / المائدة ، ١٠٢ / الصافات ، ٢١ / النمل .

ورد في ذُبَّحَ أبناءهم ، ٤ / القصص ، أى يذبح بعضهم لإثر بعض ، التفعيل يُذَّبِّحُ للتكثير ، وورد كذلك في ٤٩ / البقرة ، ٦ / إبراهيم .

والذَّبْحُ ؛ المذبوح ، وقد وردت في ذفديناه بذبح عظيم ، ١٠٧ / الصافات ، ذُبَّحَ أى وفديناه بحيوان يذبح بدله .

ذ خ ر

ذخر الشيء يذخره ويذخره ذُخْرًا واذخره اذخارًا ؛ اختاره واتخذته وأعدّه للعقبى ، وأصله اذخره ، وقد ورد الفعل في موضع واحد ، وأنبئكم بما نأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، ٤٩ / آل عمران .

أى ما اتخذتموه وأعدتموه للعاقبة ، أصله : تذخرون أبدلت التاء ذالا ، ثم أدغم الذالان ثم أبدل المشدد ذالا .

ذ ر ء

ذراؤه الخلق بذراهم ذرءا ؛ خلقهم على وجه الاختراع وأظهر أشخاصهم وبهم وكثرهم ، ومنه (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) ٧٩ / المؤمنون أى خلقكم وبشكم فيها بالتناسل ، (جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه) ١١ / الشورى ، أى يكثركم وبينكم ، وكذلك ما ورد في ١٣٦ / الأنعام ، ١٢ / النمل ، ٢٤ / الملك ، ١٧٩ / الأعراف .

ذ ر ر

ذرة ذر الله الخلق في الأرض يذرّم ذرا ؛ نشرم ، وذر الشيء يذره ؛ أخذه بأطراف أصابعه ثم نثره .

والذر ؛ صغار النمل ومائة منها تزن حبة شعير ، الواحدة ذرة ، وقيل الذرة ليس لها وزن ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة .

ومنه (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ٤٠/النساء ، وكذلك وردت في ٦١/يونس ٢٢، ٣ / سبأ ، ٧، ٨ الزلزلة .

والذرية ؛ إما من الذر بمعنى النثر والتفريق ، لأن الله تعالى يذرهما في الأرض وينشرهما ، وإما من الذره بمعنى الخلق والإظهار وحذف منها الهمز ، وقيل أصلها الصغار من الأولاد ذكراناً أو إناثاً ، وأية كانت تقع على الصغار والكبار عرفاً ، وتستعمل للواحد والجمع وأصلها الجمع ... وجمعها ذرارى .

وقد وردت هذه الكلمة في اثنين وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم مفردة ومجموعة ومعناها السابق .

ذ ر ع

ذرع الثوب يذرّعه ذرها : قاسه بالذراع ، والذراع اليد من كل حيوان ، لكنها من الإنسان اسم الجارحة من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى من الأنامل . وذراع القياس ست قبضات معتدلات وتسمى ذراع العامة . سميت بذلك لأنها نقصت قبضة عن ذراع الملك وهو بعض الأكاسرة . والذراع مؤنثة وقد تذكر . جمعها أذرع وذرعان . والذرع : مد الذراع . ومنه ذرع البعير في سيره أى مد ذراعه وفرس ذريع وذروع : واسع الخطو .

ذراع ومن معنى القياس : ذرعها سبعون ذراعاً ، ٣٢ / الحاقة . ويقال ضاق بالامر ذرها : أى لم يطقه ولم يقو عليه . والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه

نال مالا يناله القصير الذراع ، فضرب مثلاً في العجز والقدرة . ومنه : « وضاق بهم ذراعاً ، ٧٧/هود ، ٣٣/العنكبوت .

وقد وردت الذراع مثناة في : « وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد ، ١٨/الكهف

ذ ر و

ذرت الريح الشيء تذروه ذرواً ، وأذرت وذرت : أطارته وبددته وأذهبت . تذور وذرا هو بنفسه ، وذريت الطعام : خلصته من تبته . والاول هو الذي ورد في القرآن في ثلاثة مواضع : « فأصبح هشيأ تذروه الرياح ، ٥٥/الكهف : أى تفرقه وترفعه من مكان وتجيء به وتذهب .

« والذاريات ذروا ، ١ / الذاريات : أى الرياح التى تذرو التراب وغيره وتفرقه وتبدده بعد رفعه عن مكانه وقيل : أى النساء الولود فإنهن يذرون الأولاد على تشبيه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح .

ذ ع ن

ذعن كفرح ، وأذعن : خضع وذل وأقر وأسرع في الطاعة وانقاد ومنه في موضع واحد : « وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، ٤٩/النور أى خاضعين منقادين مقربين مسرعين .

ذ ق ن

ذق الرجل وضع يده تحت ذقنه . والذَّقْن والذَّقْن : مجتمع اللحيين من أسفلهما . ويطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً وكذا يطلق على الوجه تعبيراً بالجزء عن الكل .

وجمه أذقان ومنه : « ويخرون للأذقان سجداً ، ١٠٧ / الإسراء وقد ورد كذلك في ١٠٩ / الإسراء ، ٨ / يس .

ذ ك ر

ذَكَرَهُ يَذْكُرُهُ ذِكْراً وَذِكْراً وَذِكْراً : حفظه في ذهنه أو استحضره فيه ذكر عن إدامه حفظ أو عن نسيان ، أو أجراه على لسانه .

فالذكر ؛ يراد به ؛

١ — الملكة الذهنية التي يستطيع الإنسان بها أن يحفظ ما عرفه وأدركه فلا يضيعه .

٢ — استحضار الشيء المحفوظ في الذاكرة إلى القلب أو اللسان سواء كان ذلك عن نسيان أم عن إدامه حفظ .

٣ — إجراء أى شيء على اللسان سواء كان محفوظاً في الذهن أم كان شيئاً جديداً عارضاً .

وقد يطلق الذكر ويراد به ؛

٤ — الكتاب فيه تفصيل الدين ووضع الملل . غير أن هذا معنى عرفي وليس كالمعاني الثلاثة الأولى فإنها لغوية . والذكرى ؛ كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر .

١ — فما ورد في القرآن من معنى الحفظ قوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) ٦٣ / البقرة ، ١٧١ / الاعراف . (واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) ٣٤ / الأحزاب .

٢ — وما ورد في معنى الاستحضار إلى الذهن والقلب هو الأكثر ، وقد يحتمل بعضه معنى الإجراء على اللسان ، ومنه (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) ٢١ / الأحزاب . (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) ٣٥ / آل عمران . (فستذكرون ما أقول لكم) ٤٤ / غافر . (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة) ٢٠٥ / الاعراف . (رجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ٣٧ / النور . (ولقد يسرنا القرآن للذكر) ١٧ / القمر . (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) ٦٨ / الانعام (أو يذكر فتنتمهم الذكرى) ٤ / عبس . (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) ٣٥ / الأحزاب . (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) ٨٥ يوسف .

٣ — وما ورد في معنى إجراء الشيء على اللسان على أنواع :

(أ) تارة يقصد منه مجرد النطق بالشئ ، ومنه (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً) ٥ / الزخرف . (فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكراً) ٧٠ / الكهف . (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) ١ / الإنسان .

(ب) وتارة يقصد به التعبد والدعاء والصلاة ، مثل (واذكر اسم ربه فصلی) ١٥ / الأعلى . (واذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ٢٨ / الحج . (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً) ٨ / المزمل . (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) ٤ / المائدة . (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ٤٥ / الزمر .

(ج) وتارة يقصد به التشريف والثناء والصيت مثل : (واذكر في الكتاب مريم ، ١٦ / مريم ، (واذكر عبدنا داود ، ٥٦ / ص ، (واذكر أخا عاد ، ٢١ / الأحقاف ، (وإنه لذكر لك ولقومك ٤٤ / الزخرف ، (ورفعنا لك ذكرك ، ٤ / الشرح ، (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، ٤٦ / ص .

(د) وتارة يقصد به الأزرار والتحقير مثل : (أم هذا الذي يذكر آلهتكم ، ٣٦ / الأنبياء أى يعيها ويسفها وكذلك : (قالوا سمعنا قئ يذكرهم يقال له إبراهيم ، ٦٠ / الأنبياء .

٤ — أما ورود الذكر في معنى الكتاب الذي فيه تفصيل الدين فمنه : (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ، ٦٩ / الأعراف ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، ٩ / الحجر ، (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، ٣٤ / الأنبياء ، (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، ١٠٥ / الأنبياء .

ذكر يذكر تذكيراً : حمله على الذكر . والتذكيرة : ما يذكر به . ومنه : (أن فضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ٢٨٢ / البقرة ، (فذكر إنما أنت مذكر ، ٢١ / الغاشية ، (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ، ٥٧ / الكهف ، (كلا إنه تذكيرة فمن شاه ذكره ، ٥٤ / المدثر ، (إن كان كبير عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، ٧١ / يونس .

[للسادة بقية]

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

- ١ - نرجو من الكاتب الإسلامي أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أي كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .
- ٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة في الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .
- ٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للوُدّة بينهم وبين إخوانهم .
- ٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً في الشؤون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام في هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر في العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطه .

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٢٢٧	كلية التحرير
٢٢٩	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت	تصبر القرآن الكريم
٢٤١	لحضرة صاحب الساحة الأستاذ محمد التقي القسى	ليكن شعارنا : المدرسة بجانب المسجد
٢٤٥	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره	المجتمع القرآنى
٢٥٣	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفة	كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم
٢٦٠	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه	من مبادئ الإسلام
٢٦٤	للدكتور على عبد الواحد وافى	العزوبة فى اليهودية والمسيحية والإسلام
٢٧٠	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	فى التاريخ والأدب
٢٨٢	لحضرة الأستاذ عبد الوهاب حـوده	بين القرآن وعلم النفس
٢٨٧	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد الدنى	أسباب الاختلاف [بين أئمة المذاهب الإسلامية]
٣٠٣	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصميدى	تعليل خاطئ لیسر الإسلام
٣٠٩	لفضيلة الأستاذ الشيخ على العمارى	مستقبل الشعر
٣١٧	للمهندس الدكتور محمد محمود غالى	المهندسة والطاقة الذرية
٣٢٦		معجم ألفاظ القرآن الكريم
٣٣٤		رجاء من التقريب
٣٣٥		من القانون الأساسى لجامعة التقريب

مَجَلَّةُ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ

مَجَلَّةُ إِسْلَامِيَّةٌ عَالَمِيَّةٌ
تُعَدُّ رَعْنُ دَارِ الْقُرْآنِ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْقَاهَرَةِ

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون : ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثامنة
العدد الرابع

ربيع الأول ١٣٧٦ هـ
أكتوبر ١٩٥٦ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن کریم“

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة التحرير

يطيب لبعض القادة وأهل التوجيه في الغرب أن يصوروا نهضة الشرق لاسترداد حقوقه ، واستعادة كرامته ، بصورة العصية الدينية ، فيقولوا : هؤلاء هم المسلمون يريدون أن ينبعثوا كرتة أخرى ليغزوا المسيحية في عقر دارها ، ويفرضوا تعاليم الإسلام بالقوة على الناس أجمعين .

وعن هذا الروح صدرت بعض البيانات الفرنسية ، فكانت تتحدث عن الجزائريين بعنوان « المسلمين » ، إيهاماً بأنهم إنما يحاربون عن عصبية إسلامية ، كأنهم هم الذين يغزون فرنسا في بلادها ، وكأن عليهم أن يقبلوا الذل والخضوع للمستعمر الغاصب ليثبتوا له أنهم ليسوا بمتعصبين .

إن العالم يعرف ، والتاريخ يشهد ، مَنْ هم الذين يشيرون الحروب باسم الدين ، وما هي الحروب الصليبية التي جمعوا لها الأموال والأجناد والعتاد منذ قرون تنطق بالعصية الحقاء ، وتفويض بالحق على المسلمين ، والرغبة في تفويض صرح الإسلام ، وبتزعمها رجال الكنيسة فيعقدون لها المؤتمرات والجامع ، ويؤلبون لها الدول باسم الخوف على المسيحية .

إن الإسلام منذ بعث الله به خاتم النبيين ؛ كان هدفاً لأخس المؤامرات ، وأخبث المكائد : أرادوا أن يحولوا بينه وبين العقول والقلوب ، لأنهم يعرفون قوته وسداد منطقته ، وأنه سيسلبهم نفوذهم وسلطانهم ، وسيُبدل الضعفاء والمستبعدة من طغيانهم وتسخيرهم ؛ لذلك آتلفت عليه أهواؤهم المتفرقة ، ورأينا أهل الكتاب من يهود ونصارى يصدّون عن سبيله ، ويعملون دائبين على زلزالته

والتشكيك فيه ، وقد وصل الأمر بهم إلى أن ظاهروا أهل الشرك والوثنية من العرب على محمد وأصحاب محمد ، وزعموا لهم أنهم أهدى منهم سبيلا ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

فلم يكن بدُّ للإسلام من أن يدافع عن وجوده وبقائه ، ومن أن يزيل الصعاب والمراقيل التي توضع في طريقه ، وهو لذلك يقرر أن حروبه إنما هي للدفاع « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وأن غايتها هي كفالة الحرية الدينية في جو مطهر من الفتنة والصدّة عن الحق ، وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين .

وقد مضت القرون بعد القرون ، وموقف الإسلام من أعدائه ، وموقف أعدائه منه ، على ما وصفنا : هم يحاربونه في السر والعلن خوفاً من قوته وملامته شريعته للحياة ، وهو يدافع عن نفسه ، وقد يضطر في سبيل هذا الدفاع إلى أن يهاجم خصومه ، وحينئذ يقولون حرب دينية .

إن الإسلام دين تقدمي ، يريد للبشر حياة سعيدة متكافئة خالية من الظلم ، مستقرة على دعائم المساواة والعدل ، فبهات أن يرضى عنه دعاة الاستغلال والاستعمار ، والذين يحبون أن يظل الشرق في عماية ليقودوه ، وفي خضوع ليسخروه ، فهم لا يخافون من الإسلام إلا هذا ، ولا يحاربون في الإسلام إلا هذا ، وإن علينا - نحن المسلمين - أن ندرك أن أعداءنا يريدون أن يرمونا عن قوس واحدة ، فهم يحركون العواطف الدينية في شعوبهم ، زاعمين أن الإسلام دين تعصب وهدم ، فإذا كانوا يحاولون أن يتسكتلوا على باطلهم ، فما أجددنا أن نلتفت حول حقنا ، وأن ندافع عن كيانتنا ، والله المستعان على ما يصفون ؟

محمد بن عبد الله

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْحَبِشَةِ صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذِ الْجَلِيلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ شَلُوتِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

- ٣ -

تذكير بالخطوات التمهيدية السابقة - صفحة عامة لما تضمنته
سورة الأنعام - القضايا الكبرى التي شغلت العقول : قضية
الألوهية - قضية الوحي والرسالة - قضية البعث - الآيات الأربع
الأولى تقرر هذه القضايا - كل ما جاء بعد ذلك تفصيل لهذه
القضايا : أمثلة من السورة - استطراد بالإشارة إلى طرق القرآن
في الاستدلال على قضية البعث - عود إلى ما قبل الاستطراد -
التحريم والتحليل ليس من شأن البهر - القرآن يفند الشبهة
القديمية في الاحتجاج بالقضاء والقدر - الوصايا العشر -
ختم السورة .

تذكير بالخطوات التمهيدية السابقة :

تكلمنا في العديدين السابقين على خطوات ثلاث مهدنا بها للكلام على سورة
الأنعام . وكانت الخطوة الأولى : الموازنة بين منهجها ومنهج السور الأربع المدنية
التي سبقتها في الترتيب المصحفي . وكانت الخطوة الثانية : مقارنة منهجها بمنهج
سور أربع من المبكى شاركتها في البدء باستحقاق الله وحده الحمد والثناء ، وهن :
سورة الفاتحة ، وسورة الكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر .

وكانت الخطوة الثالثة في الموازنة بينها وبين سورة الاعراف التي سبقتها في النزول وتلتها في الترتيب المصحفي ، وفي هذه الموازنة سقنا ما تيسر لنا من فروق بين منهج الانعام والاعراف فيما عرضت له كل منهما ، كما عرضنا بمناسبة ذلك للحكمة - حسب إدراكنا - في مجيء الترتيب المصحفي على غير ترتيب النزول .

صفحة عامة لما تضمنته سورة الانعام :

والآن ، نقدم لقارئ (رسالة الإسلام) صفحة عامة عما تناولته سورة الانعام وعن أساليبها التي اتخذتها في سبيل تركيز عناصر الدين عند الله . وقد قلنا إن سورة الانعام عرضت لهذه العناصر الدينية الأولى ، وهي القضايا العالمية الكبرى التي شغلت العقل البشري منذ أن نظر ، وكشفت له جهات النظر عن مشاهداته الكونية ومعقولاته في الآفاق والنظام العالمي ، وقد كانت هذه القضايا من قديم ميدانا لاختلاف النظر ، واختلاف ما يدين به الإنسان في خلق العالم وفي منشئه وحاضره ومستقبله ، والواقع أن هذه القضايا هي التي تحاول نتائجها الإجابة عن أسئلة ثلاث تتفاعل في صدر الإنسان ، وكثيرا ما يقف العقل البشري أمامها حائراً مضطرباً ، ولا يصل فيها إلى كلمة الحق ، وإلى القول الفصل إلا عن طريق الوحي المرشد ، والنظر العقلي السليم الذي يوفق الله إليه من يوصمه من الزلل واقتفاء الهوى والشهوة .

القضايا الكبرى التي شغلت العقول :

وهذه القضايا هي :

- (١) قضية الألوهية وعبادة الله وحده .
- (٢) قضية الوحي والرسالة .
- (٣) قضية البعث والجزاء .

وقد تناولت السورة هذه القضايا التي لو عرفتها البشرية حق المعرفة ، وآمنت بها حق الإيمان لتخلصت من ظلمات المادة الفاتلة ، وعرفت قيمتها في الحياة ،

ووصلت بها إلى أقصى درجات السعادة ، وحققت حكمة الله في خلق الإنسان ،
وفي إرسال الرسل إلى الناس على أكمل الوجوه وأنما وأرضاها عنده سبحانه وتعالى .
وقد جاء في تضاعيف هذه السورة تصوير متكرر بعبارات مختلفة وأساليب
متعددة في هذه القضايا الثلاث .

قضية الألوهية :

فن تصوير قضية الألوهية : « قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات
والارض ، . « قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ، . « قل إني
نهيئت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، . « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا
ولا يضرنا ، . « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على
كل شيء وكيل ، . « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين
لا شريك له ، . « قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء ، .

قضية الوحي والرسالة :

ومن تصوير قضية الوحي والرسالة : « وأوحى إلى هذا القرآن لا يذكر به
ومن بلغ ، . « إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، . « اتبع ما أوحى إليك من ربك ،
« وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل
من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ، . « الله أعلم حيث يجعل رسالته ، .

قضية البعث :

ومن تصوير قضية البعث : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، .
« وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ،
« لكل نبال مستقر وسوف تعلمون ، . « ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله
المملك يوم ينفخ في الصور ، . « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون ، .

هذه نماذج من تصوير سورة الأنعام للقضايا الثلاث التي دار حديثها حولها
وهو تصوير يحمل توجيهاً واضحاً وقوياً إلى الحجّة والبرهان ، تصوير حَسْبِ

المنصف في نظره وتدبره أن ينظر ويتدبر فيتفهمه على وجه الحق ويدرك إشارته وإيماءه .

الآيات الأربع الأولى تقرر هذه القضايا :

وقد بدأت سورة الأنعام فركزت اتجاهها نحو هذه القضايا الثلاث بآياتها الأربع الأولى ، فقررت في أولها : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ، ما يوجب النظر فيه توحيد الله سبحانه في الألوهية ، وأثبتت له في سبيل ذلك استحقاق الحمد بحقيقته الشاملة لجميع أنواعه وصوره ، وأهابت بالمعقول إلى أنه هو الذى خلق العالم العلوى والعالم السفلى في مادته وجوهره في أعراضه وخواصه وآثاره ، وإذن فليس أحد غيره يستحق شيئاً من الحمد والثناء ، لأنه هو وحده مصدر النعم كلها ومصدر الخير كله ، وليس شيء مما ينتفع به الناس من أرضى أو سماوى إلا وهو أثر قدرته ، ومن فيض نعمته ورحمته ، فهو إذن المنعم على الإطلاق ، وهو إذن القادر على الإطلاق ، والمتصرف على الإطلاق ، والمدبر والمهيمن على الإطلاق ، ولا يصح في عقل أن يتجه بالعبادة والتقديس إلى غير من عظم سلطانه ، ونفذت قدرته وعمت نعمته ، وما أبعد هؤلاء الذين تنكبوا طريق الوجدان السليم والعقل المستقيم ، وعدلوا أو تشككوا في هذا الوضع البين الواضح ، وعبدوا غير المنعم القادر ، واتخذوا من خلقه أندادا يعبدونهم من دونه « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

وقررت ثانية الآيات الأربع ما يوجب الإيمان بقضية البعث والجزاء : « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » . وإذا كان الله هو الذى خلق الإنسان من طين وعاقب عليه أطوار الخلق ، وسار به في طريق النشوء والارتقاء ، حتى وصل إلى درجة الكمال العقلى التى بها يتصرف في السكائن ، والتى بها يسخر في منافعه الأرض والسموات ، فكيف يترى هذا الإنسان ويشك في أن له نشأة أخرى ، هى حياة البعث والجزاء ، حياة الكمال

المطلق الذى تتجلى فيه صفات الرحمة الإلهية والفضل الإلهى بأوسع معانيها ، وما أبعد امتراء الإنسان عما يقتضيه العقل من ذلك ويحكم به النظر ، ثم أنتم تمترون .

وتقرر الآية الثالثة خاصة الألوهية من العلم الشامل وعموم القدرة ، وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وعموم القدرة وشمول العلم هما الأساسان فى فهم الحق بالنسبة إلى الألوهية وبالنسبة إلى البعث والجزاء وبالنسبة إلى الوحى والرسالة .

ثم تجيء الآية الرابعة فتقرر أن الله آيات يبعث بها أنبياءه إلى خلقه ، وهى آيات الشرائع والأحكام ، وآيات الخلق والافتقار ، ولكن الناس مع وضوح هذه الآيات تأخذ بهم فتنة الحياة عنها ، فيعرضون ويكذبون وهى الحق الذى تشهد به فطرم ، وجاءهم من ربهم ، ثم تنوعدهم الآية على ما كان منهم من إعراض وتكذيب واستهزاء . وما تأنيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأنهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .

كل ما جاء بعد ذلك تفصيل لهذه القضايا : أمثلة من السورة :

على هذه الآيات الأربع التى ركزت بها السورة فى أولها جهة الحق فى الألوهية والبعث والجزاء والوحى والرسالة ، أخذت السورة فى تفصيل الحجج وتصريف الآيات ، تهز بها العقل البشرى وتدفعه إلى النظر ، وتؤكد له هذه المطالب مع عرض موقف المكذبين بها المعرضين عنها ، ومن هنا جاء كل ما فى السورة إما متصلاً بالسموات والأرض أو متصلاً بالإنسان أو متصلاً بالوحى أو متصلاً بالبعث ، انظر إلى قوله تعالى : « قل لمن ما فى السموات والأرض ، . . وله ما سكن فى الليل والنهار ، . . وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، . . إن الله فائق الحب والنوى ، . . فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، . . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، . . أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شئ ، . . أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، . .

كل هذا ونحوه عرضت له السورة تفصيلا لنعم الله وآثار قدرته فيما يختص
بالسماوات والأرض وفيما يختص بنعمه على الإنسان .

ثم انظر قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » . « وهو الذى يتوفاكم
بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة
حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » . « قل من ينجيكم من
ظلمات البر والبحر » . « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم
أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » . « وهو الذى
أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع » . « وهو الذى جعلكم خلائف
الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » .

كل هذا مما عرضت له السورة تفصيلا لنعم الله فى الإنسان وإرشاداً إلى
آثار قدرته فيه وسلطانه عليه .

ثم انظر قوله تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » . « قل
لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع
إلا ما يوحى إلى » . « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من
دونه ولى ولا شفيع » . « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال
الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا
لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه ما يلبسون ،
« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قل من أنزل
الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ » . « وهذا كتاب أنزلناه مبارك
مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » . « وإذا جاءتهم آية قالوا
إن نؤمن حتى نقول ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

كل هذا عرضت له السورة بيانا للحكمة رسالته إلى البشر ، ومهمة رسله ،
وبيانا لما عرض للعابدين من شبه وأوهام ، صرفتهم عن قبول الحق والاعتراف
برسالة الله إلى خلقه .

وانظر بعد ذلك إلى قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، . . . » . . . ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، . . . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، . . . قد خسر الذين كذبوا بلفاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، . . . » . . . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيسكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ، . . . يا معشر الجن والإنس ألم يأنكم رسل منكم يقضون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، . . . كل هذا عرضت له السورة تقريراً لقضية البعث ، وبياناً لما سيسجلونه على أنفسهم حينما يصيرون إلى دار الجزاء ويرون بأعينهم آثارها فيهم .

استطرد بالإشارة إلى طرق القرآن

في الاستدلال على قضية البعث :

ومن الخير أن نشير هنا إلى أن للقرآن الكريم طرقاً شتى في الاستدلال على قضية البعث ، فهو يستدل عليها بخلق السموات والأرض « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، . . . » . . . أولم يروا أن الله الذي خالق السموات والأرض ولم يعى بخلقهم بقادر على أن يحيي الموتى ، ويستدل بخلق الإنسان : « يأيتها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، ويستدل بقياس الخلق الثاني على الخلق الأول : « أفبعيننا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ، . . . » . . . فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ، . . . قل يحياها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، . . . وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، ويستدل بإحياء الأرض بعد موتها : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا

عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، ويستدل بأن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته ، حتى يظهر المسيء من دنس النفس ، ويكون أهلاً لرحمة الله الكاملة ، وهذان شأنان هامان ، إذ كثيراً ما يرتحل الناس عن الدنيا دون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه ، ودون أن يسئل طريق النقاء لمن دَسَّى نفسه ، وإذن فلا بد من دار أخرى : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنقص والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » . « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، ويستدل بأن الإعادة التي يستبعدوها المعاندون لا تتوقف إلا على العلم والقدرة ، وهما عند الله من مرتبة ذاته العلية ، لا يعزب عن علمه شيء ولا يعجزه شيء : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » . « ولما خلقنا الإنسان ولعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

وهنا نوع آخر من الاستدلال على البعث عرضت له كثيراً سورة الأنعام يقطع النظر فيه عن كل ما تضمنته هذه الأنواع من توجيه النظر إلى العلم والقدرة وإلى ما تقتضيه العدالة والحكمة ، وإنما يعرض شأن البعث باعتباره أسراً كائناً ليس موضع إنكار ، ولا محلاً لريب ، وتصور فيه مواقف المنكرين ، وما سيكونون عليه في ذلك اليوم ، وكان القرآن يقول لهم في هذا النوع : « أريحوا أنفسكم من الإنكار ، وأريحوا الرسول من جدل المناقشة ، وتعالوا فاعرفوا الواقع الذي سيكون ، وهذا هو الآخري بكم ، وما يجب أن تعرفوه ، وأن يرسم على صفحات قلوبكم ، وانظر في هذا مثل قوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون

من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولاكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون .

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العيني لمظاهر البعث الذي يأخذ بالقلب ، ويثير الوجدان .

عود إلى ما قبل الاستطراد :

وفي تضاعيف هذا العرض للقضايا الثلاث تعرض السورة في صور مختلفة لموقف المكذبين من الرسل وأن التكذيب سنة قديمة وفي هذا تعالج نفس الرسول من اليأس وضيق الصدر بتكذيبهم لإياه ، وتبين له حسن عاقبه ، وسوء عاقبتهم : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبي المرسلين ولقد استمرى برسلك من قبلك خاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ، يملؤ زبد الباطل فيخني في ظلمته الحق ، حتى إذا ما تنبه أهل الحق واطمأننت قلوبهم لإليه ، وانفعلت نفوسهم به ؛ تبددت ظلمة الباطل وانطفأت فقاقيعه ، وتجلي الحق وأخذ سلطانه ، واندحر الباطل وتوارى تلبسه فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، سنة الله ولا تجد لسنة الله تبديلا .

وبينا نرى السورة تصرف الآيات والحجج في هذه القضايا الثلاث على النحو الذي أرشدنا إليه ورسمنا خطوطه نراها تعرض لكل ما تذكر هذه النتيجة البينة الواضحة « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . .

التحريم والتحليل ليس من شأن البشر :

ثم نتابع السورة فنجدها تتناول بعض تصرفاتهم التي كانت أثراً من آثار الشرك في التحليل والتحريم لما خلق الله من الحارث والانعام وتبين لهم خطأهم الواضح في هذا التصرف الذي تأباه طبيعة الأشياء أنفسها ، وتبين لهم أن التحليل والتحريم ليس من شأن البشر وإنما هو من شأن الخالق الحكيم الذي يعلم خصائص الأشياء وخلق كل شيء لغايته وجعلوا الله عما ذرأ من الحارث والانعام نصيباً فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا شركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون . . وقالوا هذه أنعام وحارث حبر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ، تشرح الآيات انحرافهم في التحليل والتحريم وتجعله في مستوى اعتدائهم على أولادهم بالقتل . . سفهاً بغير علم ، ثم تقف كل ذلك بالتفنيد والإبطال : . . قل . أذكركم حرم أم الإثنيين أم ما اشتملت عليه أرحام الإثنيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . .

وفي هذا السياق تبين السورة ما حرمه الله من الطعام وتحصره في أربعة أصناف . . قل لا أجد فيها أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ، (١) .

القرآن يفند الشبه القديمة في الاحتجاج بالقضاء والقدر :

ثم تعرض السورة في سياق التحدث عن تصرفهم بالتحليل والتحريم للشبه التي كانوا يتمسكون بها في تبرير شركهم وفي التحليل والتحريم من دون الله ، وهي الشبه البشرية في قديم الزمان وحديثه فيما يتعلق بالإيمان والكفر ، والطاعة

(١) انظر هذا المحصر في الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، والآيات الأولى من سورة المائدة ، والآية ١١٥ من سورة النحل لتعلم أنه قرر في مكي القرآن ومدنيه .

والمعصية ، وموقف الإنسان أمام التكليف الإلهي ، وما ارتسم في نفسه من معنى القضاء الإلهي ، عرضت السورة لهذه الشبه وأجابت عنها بما يضع الحق في نصابه ، ويقطع على صاحبها حبل التمسك بها ، ويحول بينه وبين ما يريد أن يضع نفسه فيه من أماكن التحلل من المسؤوليات ، والإلقاء بكل ما يرتكب من كفر وفسوق وعصيان على كاهل القدر الذي أساء فهمه ، تجيب عنها بما يبرز العدل الإلهي في أسمى معاني العدل ، ويصور الحكمة الإلهية في أسمى معاني الحكمة : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » ، يستدلون بشركهم وتحريمهم ما حرموا على أن الله رضىه وأمر به أو على أنهم كانوا بمشيئته شركهم وتصرّفهم ، مجبورين على الشرك والتحريم ، فهم قد فهموا أن المشيئة إما أمره طالبة ، أو قاهرة مدبرة ، وعلى كلا الوجهين فهم يرون بزعمهم هذا أنهم معذورون ولا ذنب لهم في الشرك ولا في التحريم ، وقد حكى الله عنهم في سورة النحل ، وفي سورة الزخرف - وهما قد نزلتا بعد سورة الأنعام - أنهم قالوا ذلك بالفعل (١) .

وهذه شبهة لا يزال أثرها عالقا بالنفوس إلى اليوم ، يعتذر بها المفسدون ويجادل بها المبطلون ، وقد ردتها السورة عليهم من جهات ، ردتها بأن أمثالهم السابقين قد كذبوا الرسل فأشركوا بالله ، وحرموا ما لم يحرمه الله ، واعتذروا بالمشيئة كما اعتذروا ، ومع ذلك عاقبهم الله على شركهم ، فلو كانت المشيئة حقا لما عاقبهم الله على ما ارتكبوا بناء عليها ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، وردت عليهم بطلب ما يثبت صحة ما يدعون من رضى الله بالشرك أو قهرهم عليه ، هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، وهو في واقعه نفي لأن يكون عندهم ما يثبت ذلك ، ومن ضرورة نفي العلم بما يثبت أنه ما اتبعوا فيه إلا محض الظن الناشئ عن التخمين والوهم ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .

وردت عليهم بأن العلم الحق الذي يجب أن تتلقوه هو ما تضمنته آيات الله من حجته البالغة ، قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ، والحجة البالغة

(١) انظر الآية ٣٥ من سورة النحل ، والآية ٢١ ، ٢٢ من سورة الزخرف .

هى أن الله كلف وواعد وأوعد ، وذلك يقضى بالاختيار فيما يفعلون ، وبأن الله غير راض بما توعدهم عليه ، وأنه لو شاء هدايتكم لخلقكم غير مستعدين للذخالة والعصيان وكنتم كالملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . ولكنه ترككم وما خلفكم عليه من اختيار ، وكلفكم بناء على ما منحكم من قوة وإرادة ، ورتب جزاء المحسن على إحسانه وجزاء المسيء على إساءته ، وأن علم الله بما سيكون من عبده - باختياره - ليس فيه جبر ولا إلزام ، كما أنه لا يدل على الرضا والأمر ، نعم : الله قادر على أن يسلب العبد قدرته على المعصية فلا يعصى أبداً ، وأن يسلبه قوة الطاعة فلا يطيع أبداً ، ولكن ليس ذلك من سنة الله فى الإنسان الذى خلقه ومنحه العقل وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين .

الوصايا العشر :

ثم تفتن السورة من الحديث فى التحليل والتحرير فرصة لدعوتهم إلى ما حرم الله فى وصايا عشر ترجع إلى العقيدة وإلى الأموال والأنفس والمعاملة والفواحش والعدل والوفاء بالعهد ، ثم تكون الوصية العاشرة : د وأن هذا صراطى مستقيماً فانبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . .

ختام السورة :

ثم تنغم السورة بعد أن تقطع أعذار المشركين وتوعدهم على الإعراض عن الحق بآية فذة تكشف للإنسان عن مكانته عند ربه فى هذه الحياة ، وأنه خليفة فى الأرض ، وأن الله جعل عمارة الكون تحت يديه وتتعاقب عليه أجياله ، وأنه تعالى قد فاوت فى المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة ، وهى الابتلاء فى مواقف هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كمال المقصود من هذا الخلق وذلك النظام : د وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم . .

أما بعد - فهذه سورة الأنعام فى منهجها وحجاجها ، وإلى العدد المقبل إن شاء الله ٢

حَقُّ اللَّهِ وَحَقُّ الْعَبْدِ

لمضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد مهدي مغنبة

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

الحق نوعان : حق الله ، وحق العبد ، ونريد بحق الله معنى عاما يشمل العبادة كالصلاة والصيام والحج ، والعقوبات كحد السرقة والقذف والشرب ، ويشمل التعزير أيضا (١) والكفارات والمصالح العامة التي لا تخص أحدا بعينه ، وما إلى ذلك مما لا يجوز العفو عنه والإبراء منه والصلح عليه . ونريد بحق العبد ما يخص شخصا بعينه كالدين والدية والقصاص والضمان ، وما إلى ذلك مما يجوز العفو عنه والإبراء منه والصلح عليه .

ولو اتجه الحقان على شخص ، وتعدر عليه تنفيذهما معا بحيث لا يستطيع إلا عمل أحدهما ، فهل يقدم حق الله أو حق العبد ؟ وتسهيلا للمعرفة لا بد من تحديد المورد الذي يقع فيه التزاحم والتصادم بين الحقين . وليس من شك أن التزاحم لا يتحقق إلا في اتحاد المحل ، أما إذا وجد أحدهما دون الآخر فلا نزاع ولا صراع ، فالذي يضره الصوم لا يجب عليه أمران : مراعاة الصحة والصيام ، ثم يقدم الأول على الثاني ، وإنما تجب عليه مراعاة الصحة فقط ، أما الصوم فلم يجب أصلا ، إذن ليس هناك إلا حق العبد ، لأن الله لم يشرع حكما فيه ضرر أو حرج على الناس ، ما جعل عليكم في الدين من حرج ، وبهذا نجد تفسير

(١) الفرق بين الحد والتعزير أن الحد عقوبة قدرها الشارع ونص عليها صراحة ، أما التعزير فهي عقوبة لم ينص عليها المشرع ، بل ترك أمر تقديرها للحاكم ، فإن شاء حبس ، وإن شاء ضرب ، وإن شاء اكتفى بالتقريع بالكلام .

ما اشتهر على الألسن : (مراعاة الأبدان خير من مراعاة الأديان) أى أن جواز الإفطار للتضرر من الصيام هو من الدين في الصميم ، فلفظة من البيان ، ولفظة خير لم يقصد بها التفضيل ، وإنما أريد بها ضد الشر . وكذا لو كان للإنسان مال يكفيه الحج ، وعليه ديون للناس فإن الواجب ، والحالة هذه ، هو وفاة الدين فحسب أما الحج فلا يجب لعدم الاستطاعة ، فلا يقال : وجد حقان لله وللعبد ، ثم قدم حق العبد ، وبكلمة : إن الحقين لا يتزاحمان إلا إذا بلغ كل منهما مرتبة التنفيذ ، وإليك المثال : لو رأى المصلى ماله مشرقاً على التلف ، وتوقف حفظه على قطع الصلاة الواجبة بحيث إذا مضى في صلاته ذهب المال ، وإذا قطعها استطاع أن يحفظه ، فهذا المورد ونظائره يجتمع فيه الحقان ، ويجرى الترجيح والتقديم .

ومن تتبع كلمات الفقهاء يرى أنهم في بعض الموارد يقدمون حق العبد ، وفي بعضها يقدمون حق الله ، وفي مكان ثالث يساؤون بينهما ، ولا يرجحون أحدهما على الآخر ، فن موارد تقديم حق العبد المثال المتقدم ، وهو قطع الصلاة لحفظ المتاع ، فقد روى عن أهل البيت عليهم السلام أن المصلى (يقطع صلاته ، ويحجز متاعه ، ثم يستقبل الصلاة) ومنه إذا توفى رجل ، ولم يترك سوى مائة دينار ، وعليه ديون للناس تستغرق المبلغ بكامله ، وقد أوصى أن يستتاب عنه لأداء ما فاته من الصلوات الواجبة بأجرة من تركته ، فهنا يقدم وفاة الدين على الوصية (١) .

ومن أمثلة تقديم حق الله على حق العبد : لو كان عليه دين سابق ، ثم ملك شيئاً فيها الخمس ، فإذا وفى بها الدين ذهب الخمس ، وإذا دفع خمسها بقى عليه قسم من الدين ، وهنا يقدم الخمس ، لأن فيه جهة عامة .

ومن أمثلة التساوى بين الحقين : لو استطاع الحج ، ثم أهمل حتى توفى قبل أن يحج ، وعليه ديون للناس ، وترك مبلغاً من المال لا يفي بالدين والحج بحيث

(١) قال العلامة الخلى في كتاب التذكرة باب الوصية : أن السنة منعوا من الوصية بالصلاة عن الميت ومن التبرع بها عنه ، وقد أجاز الإمامية ذلك مستلذين بأحاديث عن أهل البيت بلغت حد التواتر .

لو أنفق المال في سبيل أحدهما بقى الآخر . والحكم هنا التخيير بين وفاء الدين ، والاستتجار للصالح بدون ترجيح (١) .

ومن هنا يتبين خطأ القول بأن حق العبد أهم من حق الله ، ومقدم عليه ، وربما كان الباعث على هذا القول الحديث الشريف : « الذنوب ثلاثة : ذنب يغفر ، وذنب لا يغفر ، وذنب لا يترك ، فالذي يغفر ظلم الإنسان نفسه ، والذي لا يغفر ظلم الإنسان ربه ، والذي لا يترك ظلم الإنسان غيره » . ولكن هذا الحديث لا يدل من قريب أو بعيد على التفاضل والترجيح بين الحقوق ، وإنما يدل على أن بعض الذنوب يمكن فيها التساهل والتسامح ، وبعضها يؤخذ مرتكبها على كل حال .

لا يوجد في الشريعة الإسلامية قاعدة عامة تستتبع تقديم حق العبد مطلقاً وفي جميع الحالات ، وإنما يختلف التقديم والتأخير باختلاف الموارد ، فقد يقدم حق الله ، وقد يقدم حق العبد ، وقد يتساويان . نعم ، الغالب أن تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إلا فيما ندر ، كمن أراد أن يبذل جميع ما يملك في مشروع عام ، ويبقى فقيراً معدماً .

وخير وسيلة لمعرفة الأهم من الحقين النص الثابت وإجماع الأمة ، فإن وجد أحدهما تعين الأخذ به ، وإلا فالمعول على الفطرة والعقل السليم الذي عبر عنه الشيخ الأنصارى بأنه شرع من الداخل ، كما أن الشرع عقل من الخارج (٢) .

إن الإنسان كما يميز بين النافع والضار ، وبين الصالح والطالح يدرك أيضاً الأصلاح والانفع ، وأى عاقل لا يدرك أن لإنفاق تلك الجواهر والنفائس المدفونة في روضة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار ، أى عاقل لا يدرك أن لإنفاقها حياة طيبة وعيش أفضل خير عند الله ألف مرة من بقائها في الظلمات تنتظر التلف أو النهب ، فلقد حدثنا التاريخ عن نهب الكعبة الشريفة ، واختلاس جواهر الروضة النبوية ، ونفائس حضرة الإمام الحسين بن الإمام على ،

(١) مستمسك العروة الوثقى لمراجع الطائفة السيد محمد الحكيم ج ٧ ص ٦٩ الطبعة الأولى .

(٢) كتاب فرأى الأصول المعروف بالرسائل باب القطع .

كما حدثنا الحجاج عن الجعافل الجرارة من المتسولين يطاردون بمجموعهم الحاج ، ويحاصرونه من كل جانب ، لأجل قشر الفاكهة وفتات الطعام ؛ نجود بالمسادة على المقابر ، ونبخل بها على الأحياء ؟ وما كان النبي وأهل بيته - وهم الذين حاربوا المترفين ، ومن يكنز الذهب والفضة - أن يرتضوا هذه الزخارف ، وملايين الجلياع العراة المصدورين حول قبورهم تكابد الأهوال .

تتقدم الحياة في كل مكان إلا في الامسكة المقدسة ، مع أن أهلها أولى الناس بالحياة ، لأنهم في أشرف دار ، وأعظم جوار ، لأنهم في مكان انبعث منه الحرية والنور ، وانطلقت القوى تهدم الشر ، وتزول الظلم والفساد ، بهذا كانت تلك الديار أسمى من كل دار لا بالجواهر واللائي .

وقد انفقت كلمة المذاهب الإسلامية على تحريم نقش المساجد وتزيينها بالذهب لأنها بدعة وإسراف ، وذهب الكثير من الفقهاء إلى تحريم زخرفتها بالنقش والتصوير ، لأن الرهبة والجلال في أسرار العظمة وتواضعها وصفاتها ، لا في البهاج والمظاهر .

ثم هذه النذورات تلقى النساء على قبور الأولياء ، أين مكان هذا العمل من الدين والشرع ؟ ! تنذر المرأة حليها أو ثيابها أو مبلغاً من المال لصاحب المقام إن حملت أو شفى طفلها من عاتق ، حتى إذا تحققت أمنيتها هرولت إلى القبر ، وألفت عليه بأعز ما تملك ، أما مصير هذه النذورات فإلى المتولى وأهله يتصرفون بها كيف يشاؤون لا يسألهم عنها سائل ، ولا يحاسبهم عليها محاسب ، كأنها من عملهم وكسب أيديهم .

لقد أراد الناذر من نذره أن يعمل خيراً يرضى الله وصاحب القبر ، ولكنه اعتقد خطأ أن الخير يتحقق بوضع المال على القبر ، أى أن الخطأ والاشتباه من الناذر حصل في التشخيص والتطبيق ، أما القصد فسلم والإرادة صحيحة ، فعلى الناذر إذا تحقق مراده أن ينفق مائذره في سد حاجة ترضى الله والرسول وصاحب القبر وصالح المؤمنين ، أى ينفقه في السبيل الذي يختاره صاحب القبر لو كان حياً .

المُجْتَمِعُ الْفَرَّانِي

- ٤ -

علاقة المسلمين بغيرهم في الحرب وفي السلم

لخضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهره

وكيل كلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ - إن المتتبع لنصوص القرآن الكريم ، والمأثور من الحديث النبوي الشريف يرى حقائق واضحة تسود معاملة المسلمين لغيرهم ، وهي الحاكمة المميزة بين العمل الذي يقره الإسلام والعمل الذي لا يقره الإسلام في المعاملات الدولية - وتلك الحقائق خمس : هي العدالة ، والمعاملة بالمثل ، والفضيلة ، والوفاء بالعهد ، ونصر الضعيف من غير نظر إلى جنسه أو لونه أو دينه ، ويدخل في هذا الباب حماية الحريات الإنسانية وخصوصاً حرية الاعتقاد ومنع الفتنة في الدين ، والاضطهاد لتحويل عقيدة الشخص قهراً غير مختار ، حتى يكون التدين لله ، والتدين الحر أساس لكل خير ، وحماية من كل شر ، ولتنشر إلى كل واحدة من هذه الحقائق بكلمة معلة وإن لم تكن مفصلة .

٢ - (١) العدالة :

قامت كل علاقة إنسانية في الإسلام على أساس من العدالة ، واعتبار الناس جميعاً سواء ، وأنه لا تفاضل بينهم أمام الأحكام - وإن كان ثمة تفاضل في الأعمال وفي الجزاء عليها إن خيراً أو شراً ، وإن شرّاً أو فحشاً ، وإن نصوص القرآن الكريم

في ذلك كثيرة متضافرة ، وأوضحها في معاملة المخالف المحارب - بالعدل ، قول الله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » وقوله سبحانه في الأمر العام بالعدل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ولقد ذم القرآن اليهود الذين كانوا يعدلون فيما بينهم وبأ تكون حقوق غيرهم من ليسوا يهوداً ويقولون : « ليس علينا في الأميين سبيل ، وإن تحقيق العدالة بكل معانيها هي المقصد الاسمي للاديان ، وذكر القرآن أن العدل هو الأمر الذي اجتمعت عليه النبوات والديانات السابقة كلها ، فقد قال سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وفي الجزء الأخير من النص الكريم إشارة بيّنة إلى أنه إذا كانت حرب يجب أن تكون لتحقيق القسط بين الناس لا لتوسيع حوزة التفاوت بينهم بتسليط الغالب على المغلوب ، فالهروب يجب أن يكون الباعث عليها عدلاً ، ويجب أن تكون في نتيجتها تحقيق العدالة بين البشرية .

٣ — ولقد وردت الأحاديث النبوية متضافرة على العدل ومنع الظلم مع العدو والولي ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله كتب على نفسه العدل فلا تظالموا أي لا يظلم بعضكم بعضاً ، واعتبر النبي من يعاون الظالم في ظلمه خارجاً على الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم فقد خرج من الإسلام ، وإن بر الإنسان بقومه وجنسه أو بني وطنه لا يسوغ له بحال من الأحوال أن يعاونهم على الظلم ، وقد صرح بذلك محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد سأله أبي بن كعب : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ قال : لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ، فالعصبية الظالمة منهي عنها ، وقد ورد النهي في مثل قوله : « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية » .

ولقد دعا النبي الذين يتعصبون لأقوامهم وأوطانهم ألا ينصروها وهي ظالمة ، واعتبر الناصر لقومه على الظلم كن يتردى في ركية من النار فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

« مثل الذي يعين قومه على الظلم كمثل البعير المتردى في الرثكى ، فهو ينزع بذنبه ، وإن ذلك التشبيه صادق كل الصدق في زمننا ، فإن مبالغة القادة والزعماء في نصرة أقوامهم بالباطل ليلتهموا الأرض والآنفس ، قد جعل العالم يتلفى في أتون من نيران الحروب حتى إذا أطفأ الله ناراً أجاج ابن الأرض أخرى ، وذلك بسبب النصرة الظالمة للأقوام والتعصب المردى للأوطان وإهمال كل حق للإنسان .

٤ - (٢) المعاملة بالمثل :

دعا الإسلام إلى العدالة المطلقة التي لا تعرف قريباً موابياً ، أو بعيداً معادياً ، ودعا إلى قانون عادل في معاملة المسلم لغيره ، سواء أكان مسلماً أم كان غير مسلم ، وسواء أكان التعامل بين الأفراد أم كان بين الجماعات والدول ، وذلك القانون العادل هو قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم : (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) وبمقتضى هذا القانون العادل في ذاته كان على المسلم أن يعامل من يعتدى عليه بمثل هذه المعاملة ، وإذا كان الاعتداء ظلماً فرئده عدل ، ولذا كان القانون المعاملة بالمثل قانوناً إسلامياً عادلاً ، وقد جاء في القرآن الكريم : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » ومن أجل ذلك شرع القتال في الإسلام ، فقد شرع على أنه أساس لدفع الاعتداء ، فقد قال تعالى : « وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

ونرى في هذا النص دلالة على أمرين جليبين :

أحدهما : أن القتال في الإسلام إنما أبيع لرد الاعتداء بمثله ، فهو لا يقاتل إلا الذين يعتدون على أهله ويقاتلونهم .

الأمر الثاني : أن 'بلا حظ' من 'يرد' الاعتداء أنه أبيع له القدر الضروري للدفاع ، فلا يصح له أن يعتدى فلا يتجاوز حد الدفاع ، ولا يعتدى في دفاعه ، فيقتل من لا يقاتل ، أو يسعى لإفساد الأرض ، وإهلاك الحرث والنسل .

ولهذا المبدأ وهو المعاملة بالمثل أباح الإسلام استرقاق أسرى الحروب ، ولم يبعه في غير ذلك ، فإن محاربيه كانوا يسترقون الأسرى ، وذلك كان أقل ما يصيب

عليهم من عذاب ، فقد كانوا يذبحونهم ويقتلونهم بالجوع ويمثلون بهم ، وما كان الإسلام يبيع شيئا من ذلك حتى مع الذين حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد أباح الإسلام الاسترقاق في الحروب كضرورة حربية في حال الحرب ، فلا رق في سواها ولنطبق قانون المعاملة بالمثل في أضيق حدوده ، ولقد عامل الرقيق بأرق معاملة رآها تاريخ الإنسانية .

٥ — (٣) الوفاء بالمهد :

جاء الإسلام داعياً إلى السلام ، وإن كان أشد ما يبغضه الاستسلام ، ولذلك كان إذا جنح محاربه إلى السلام العزيز الكريم سارع إليه ، فقد قال تعالى : « وإن جندهوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

وإن السبيل إلى استقرار السلام هو المعاهدات السلبية ، وإن هذه المعاهدات لا تستمد قوتها من نصوصها فقط ، بل من نية عاقدتها على الوفاء ، ولذا حث القرآن على الوفاء بالمهد ، واعتبر اخلاف اليهود من علامات النفاق ، ونقل هنا نصاً واحداً من نصوص القرآن الكريم في هذا الباب وإنها لكثيرة جداً ، لقد قال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً (١) إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالأئمة نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً (٢) تتخذون أيمانكم دخلاً (٣) بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة (٤) ، إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه » .

(١) في هذه العبارة إشارة إلى أن من يعقد عهداً تحت اسم الله أو يمين ، فعنى ذلك أنه قد اعتبر الله كفيلاً في الوفاء ، وأن من يخون بعد ذلك لا يكون قد خان من عاهده فقط بل يكون قد خان الله أيضاً .

(٢) معنى هذا النص أن الذي ينقض عهده يكون كذلك المرأة التي أخذت تعمل وتجتهد في غزلها ثم تفك بعد ذلك ، وفي ذلك إشارة إلى أن العهد قوة ومن ينقضه فهو ضعيف النفس وإلى أن السلم الذي تقررره اليهود مطلب أسنى لا يصح أن ينقض ليطلب من جديد ،

(٣) أى تتخذون اليمين للفسخ والخديعة .

(٤) أربى : أى أكثر وأغنى .

تختلفون ، ولو شاء الله لجمع لكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء
ولنساءن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتنزل قدم بعد
ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ، ولا تشتروا
بعهد الله ثمناً قليلاً ، إنما عند الله خير لكم إن كنتم تعلمون .

إن الناظر نظرة عميقة إلى هذا النص الكريم المقدس ، يجده يشير إلى ثلاثة
أمور جلية :

أولها : أن الباعث على الغدر في الدول هو الرغبة في أن تكون أمة أربى
من أمة ، أى أكثر عدداً وأقوى قوة ، وأكثر موارد وثروة ، وإن ذلك إن اتخذ
الغدر طريقاً قد يأتي بتقيضه ، ولذا قال في هذا النص : (ولا تتخذوا أيمانكم
دخلاً بينكم) أى طريقاً للغش ، فتنزل قدم بعد ثبوتها ، وتذهب القوة والحصانة
التي أوجدها العهد ، ولا يدري إلا الله ما يكون نتيجة لهذا الغدر الآثم .

الامر الثاني : أن الله سبحانه وتعالى خلق بنى آدم من أصل واحد ، ولو شاء
لجمعهم أمة واحدة متحدة الجنس ، واللون ، واللغة ، والمعرفة ، ولكن خلق هذه
الأمور ليميز الإرادات الإنسانية التي تتجه نحو السمو والعلو عن الإرادات
الأرضية التي تكون لصيقة بالأرض وأهواء النفس ، وبذلك يسير الناس في هذا
المعترك الإنسانى ، وقد أرفقت قوام ، وصقلت مداركهم ، وكانت لهم إرادات
نحو الخير وإرادات نحو الشر ، ويجزى الله المحسن إحساناً وعاقبة المسيء ما تسوءه .

الامر الثالث : الذى يشير إليه النص الكريم هو أن السلم المستتب الذى
تنظمه المعاهدات الدولية ، ويكون هو أساسها هو المقصد الأسمى والمطلب الأعظم
واندك شبه سبحانه وتعالى الذى ينقض العهود بعد توكيدها بالتي تنزل غزلاً لها ،
خيوطه مطلب ومأرب لها ، تم تنقض ذلك الغزل بعدها .

٦ — وبهذا يتبين أن القرآن إذ يدعو في كثير من نصوص عامة إلى الوفاء
بالعهود بين الآحاد والأمم ، ويخص العهود التي تكون بين الأمم بنص خاص بها ،
وهو النص الذى ذكرنا ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حث في طائفة كبيرة

من الأحاديث على الوفاء بالعهود عامة ، وعلى الوفاء بالعهود التي يعقدها رؤساء الأمم في تنظيم العلاقات الدولية خاصة ، ولقد كان يقول صلى الله عليه وآله وسلم : (ألا أخبركم بخياركم ؟ خياركم الموفون بعهودهم) وكان يقول : (أنا أكرم من وفى بعهده) ويقول : (أنا أحق من وفى بعهده) وقد عقد عهدا مع المشركين على ألا يقاتلوه ، ثم ذكر له أنهم على نية أن يقاتلوا ، فقال عليه الصلاة والسلام : وفوا لهم ، ونستمع الله عليهم .

٧ — (٤) الفضيلة :

إن العلاقات الدولية سواء أكانت نعمة حرب أم كانت نعمة سلم بعهده أم بغير عهد ، فإنه يجب أن تسود الفضيلة هذه العلاقات فإن قانون الأخلاق قانون عام يشمل الأبيض والأسود والأحمر ، ويشمل الناس في كل الأقطار والأمصار ، لا فرق بين جاهل وعالم ، وإن ما هو شر إن صنعت مع ابن وطنك يكون حتما شرا إن صنعت مع محاربك ، لأن المعاملة بمقتضى قواعد السلوك الفاضل حق لكل إنسان يستحقها بمقتضى هذه الإنسانية التي هي وصف مشترك بين كل أبناء آدم ، ولذلك نجد القرآن الكريم كلما أمر بالجهاد كان بجواره الأمر بالتقوى ، وتقوى الله تعالى قوامها الاستمسك بالفضيلة ، فنلا نجد النص الذي نقلناه ، والذي يوجب المعاملة بالمثل قد اقترن بالأمر بالتقوى إذ يقول سبحانه : (فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) أى أن المعاملة بالمثل يجب أن تكون في دائرة الفضيلة الإنسانية ، فإذا كان العدو يمثل بالقتلى فإنه لا يسوغ للمسلمين أن يمثلوا بالقتلى كما يفعل ، والمشركون في غزوة أحد قد مثلوا بعم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حمزة بن عبد المطلب ، ولم يفكر عليه السلام في أن يمثل بأحد من قتلاهم ، بل كان ينهى عن المثلة : فيقول عليه السلام : (إياكم والمثلة ولو بالكلب) وإذا كان يجمع الأسرى ويظلمهم فإنه لا يصح لجيش الفضيلة أن يجمع أسيرا أو يقتله عطشا ، بل أوصى القرآن به خيرا واعتبر إطفاءه فضيلة من أكبر صفات المؤمنين ، وإذا كان العدو ينتهك الأعراض فإنه لا يسوغ

للمسلم أن يجاريه في انتهاك الحرمات ، وإن كان العدو المحارب يقتل الذراري والذين لا يقاتلون ولا رأى لهم في القتال لا يصح أن تجاريه ، وإنه قد بلغ حرص الإسلام على المعاملة بالفضيلة والعدل أن حرّم التعامل بالربا في دار الحرب للجارين كما حرّمه في دار الإسلام بالنسبة للمسلمين ، وأقرأ وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجيش أرسله ، فهو يقول :

(انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ، ولا تَسْغُلُوا (١) ، وضمو غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين) ولقد قال عليه السلام لجيشه ، وقد بلغه قتل بعض الأبطال : ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا ذرية . ويقول صلى الله عليه وآله وسلم في وصية ثالثة لجيوشه :

(سيرا باسم الله في سبيل الله ، وقتلوا أعداء الله ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تفروا ولا تملوا ولا تقتلوا وليدا) ويوصى بالأسير ألا يقتل ، فيقول : (لا يعترض أحدكم أسير أخيه فيقتله) .

وكان عليه السلام ينهى عن قتل النساء والعمال ، وقد رأى امرأة مقتولة في إحدى الغزوات التي غزاها خالد بن الوليد ، فقال مستفكرا : ما كانت هذه لتقاتل وأرسل إلى خالد يقول له : (لا تقتل ذرية ولا عسيفا) (٢) .

وهكذا نجد الهدى الإسلامي يقيد القتال بالفضيلة ، فيمنع الاعتداء في القتال ابتداء ، وفي أثناءه ، وفي نهايته ، فلا قتال مع من لا يعتدي على الإسلام ، ولا قتل لمن لا يقاتل إذا نشبت الحرب ، ولا اعتداء بعد انتهاء الحرب ، بل معاملة رفيقة لمن كانوا في أيدي المسلمين من الأعداء ، ولم يأخذوهم إلا بعد أن انحنوا في الأرض .

وإنه في السلم يجب أن تسود الفضيلة ، فلا تنتهك حرمات المخالفين ، ولا يباح فيهم ما لا يباح مع المسلمين ، حتى إن الربا يحرم في معاملة المسلمين ، فيحرم أيضاً في معاملة المسلم مع غير المسلم .

(١) أى لا تخونوا . (٢) العسيف : العامل المنصرف لزراعة الأرض أو لأى عمل آخر

ولقد حث الإسلام على المودة تربط بين المسلم ومن يخالفه ، فقد جاء لتقوية الصلات ، ولم يحىء لقطعها ، ووصف المؤمنين بأنهم يصلون ما أمر الله به ، ووصف المشركين بأنهم يقطعون ما أمر الله به ، وتلك هي الفضيلة والطريقة المثلى .

٨ - (٥) نصر الضعيف وسد حاجته :

هذا هو أساس التعاون الإسلامى ، فلا تعاون إلا إذا لوحظ حق الضعيف ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (أبقونى فى ضعفائكم ، فإنما تصرون وترزقون بضعفائكم) وحث الإسلام على معاونة الضعيف من غير نظر إلى دينه لأن الضعف يجب أن أسد خلته أيا كانت نخلة صاحبه ؛ وليس لمسلم أن يعيش متملئا ويعيش جاره من أى دين كان طاويا .

ولقد عمل الإسلام على نصر الضعفاء فى السلم وفى الحرب ، فلم يسغ لحاكم المسلمين أن يذل غير المسلم ، وقد قرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن من كلف ذمياً فوق طاقته فقد برىء منه عليه الصلاة والسلام ، وقرر الإسلام أن الدولة الإسلامية عليها أن تكفى من يكونون فى حاجة من غير المسلمين الذين ينضون تحت لوائها ، ويخضعون لحكمها ، ويروى أن عمر بن الخطاب رأى شيخاً ضريراً يتكفف الناس ، فسأله عن حاله ، فعلم أنه من أهل الذمة ، فقال الإمام العادل : (ما أنصفناك أخذنا منك الجزية صغيراً ، وضيعناك كبيراً ، وأجرى عليه وظيفة دائمة من بيت المال .

ولم يكن الأمر مقصوراً على من كانوا فى ظل المسلمين ، بل تجاوزهم إلى الذين يناوئون المسلمين ، وإنه ليروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلغه أن قريشاً أصابهم أزمة جائحة ، وذلك فى مدة المودعة بينه وبينهم ، فأرسل إلى أنى سفيان ابن حرب الذى كان زعيم الشرك لإبان ذلك خمسمائة دينار ليشتري بها قمحاً ، ويسد به خلة فقراء قريش .

هذا فى حال السلم ، أما فى حال الحرب ، فإن الإسلام ماكانت حروبه

إلا لرد الاعتداء ، ولكف أذى الملوك عن رعاياهم ، ولذلك كانوا يجدون في حكم الإسلام إنقاذاً ورحمة لم يكونوا يستمتعون بهما من قبل .

والإسلام كان يعمل على نصر الضعفاء من الدول والقبائل ، ويعاهد على منع الاعتداء على الضعفاء ، فقد كانت هدنته مع قريش تتضمن تعهد قريش له ألا يعتدوا على خزاعة ، فلما اعتدوا عليها غضب ، ونبذ إليهم عهدهم لأنهم نقضوه ، وظنوا أنه يمالئهم على هؤلاء الضعفاء وهم مشركون مثلهم ، ولكنه صاح صيحة الحق يقول : (لانصرت إن لم أنصر بني كعب بما أنصر منه نفسي) ولما روجع في ذلك قال مقالة المعزّم المصمم : (والله لأغزون قريشا ، والله لأغزون قريشا ، والله لأغزون قريشا) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤيد كل حلف يكون أساسه نصر الضعيف ، ولقد حدث ، وهو في نحو الخامسة والعشرين حلف سمى حلف الفضول تعاهدت فيه طائفة من قريش لتنصرن الظالم على المظلوم مارسا ثبير وحراء ، وما بلّ بحر صوفة ، وكان ذلك في دار عبد الله بن جدعان ، ولقد ذكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن أقام دولة الإسلام ، فقال : (لقد حضرت في بيت عبد الله ابن جدعان حلفاً ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت) .

هذا هو الإسلام يعتبر الإنسانية كلها أسرة واحدة يعاون فيها القوى الضعيف ، والعالم الجاهل ، فيتحقق قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .
[انتهى البحث]

أيها أصالح لحالنا الدينية والاجتماعية

التوحيد ، أو التقريب والتعريف ، أو التفريق

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ ابن العربي - طهره الله

مضى على فكرة التقريب زمن قصير ، ومع ذلك نراها قد خطت في خلاله خطوات واسعة نحو التقدم والانتشار ، وإن ذلك لبشرنا بتقدم أكثر وانتشار أوسع إن شاء الله تعالى ، فقد تبقى الفكرة الدينية أو الاجتماعية أو السياسية طيلة قرون وأعصار لا تجد في خلالها منبثاً خصباً مهما كان القائمون بها حرصاً على إنمائها وتوسيع نطاقها ، أما إذا صادفت ظروفًا وأحوالاً تساعد على ازدهار والتوسع فسرعان ما تنبت وتنمو وتورق وتزهر وتقوم على ساق وتعطى أكلها كل حين. على أن مساعدة الظروف والأحوال وحدها لا تكفي في نمو أية فكرة دينية أو اجتماعية أو غيرها ما لم يقم بإنمائها رجال مفكرون مخبرون دارسون حالة المجتمع ، واقفون بمواضع الحاجة من الأمة ، كما أن السكائنات الحية لا تنكاد تنمو وتزدهر سريعاً ما لم يتدخل في شئونها من يحسن تربيتها والقيام بأمرها ، علاوة على ما يلزمها من مساعدة البيئة والمناخ .

فقد كانت فكرة التقريب لا تزال تدور في خلد نهباء الأمة والمصلحين من الفريقيين ، ولم تزل تتعرقل مساعيهم بما يقع في سبيلهم من العقبات السكاداء ، وما يصادفهم من العثرات التي تحول دون تقدم أية فكرة إصلاحية تعود بالنفع الجزيل للأمة الإسلامية ، أما وقد صادفت رجالاً مفكرين يقومون بإزالة تلك العقبات بما أوتوا من دربة وحنكة وقوة وجهد فلا بد لها من هذا التقدم والانتشار.

وأريد ، في هذه العجالة ، بيان الخطة التي يخطتها - أو لا بد أن يخطتها - زعماء التقريب ، إذ نرى كثيراً ممن لا يحيطون بخبراً بمرامي الفكرة لا يزالون يتساملون عن الغاية التي تنحو نحوها ، والأهداف التي ترمى إليها جماعة التقريب زاعمين أنهم يحاولون توحيد المذاهب الإسلامية الأمر الذي يجعل هؤلاء واثقين

باستحالة ههما كان القائمون به مولعين بتحقيقها ، في حين أن هذا الزعم لا نصيب له من الحقيقة ، وبمعزل عن الصواب ، وإن بين ما يحاول زعماء التقريب وما يراه بعض ذوي الأغراض أو غير المتعمقين ، من أنهم يحاولون توحيد المذاهب بونا شاسعاً ومسافة بعيدة ، وذلك ما أوجد فينا رجالاً لا يحبذون الفكرة بحجة أنها تحاول توحيد المذاهب ، وذلك ما لا يستطاع ولا يصلح لحال الأمة ولا بلام نزاعاتها ، ويكون عبارة عن إبداع أمر ثالث يفاير آراء كلا الفريقين ، ويجعلهما يتفقان على دحضه أو على الأقل على عدم الاعتناء بشأنه ، ونحن أيضاً ممن يضمون صوته إلى أصوات هؤلاء ونقول : عبثاً يحاول من يعمل لتوحيد المذاهب واصطناع فكرة ثالثة واسطة بين هذا وذاك ، فإن ذلك ما يتبرأ منه كلا الفريقين كما يتبرأ منه أصحاب التقريب أنفسهم ، ويتبعد عنه دعاة الفكرة (١) .

وكثيراً ما يقرع سمعنا نعرات من مخالفي التقريب أنه أيهما يريد ؟ جمل الشيعة سنة وهو ما يتبرأ منه الفريق الأول ، أو السنة شيعة وهو ما يتبرأ منه الآخرون ؟ فبأي شيء يحصل التقريب ، وفي الحق أنه لا يروم شيئاً من ذلك ، بل يتبعد عنه كل البعد ، وإن أولئك الذين ينسبون أمثال تلك المزاعم هم المخالفون لسد هذه الهوة الواسعة بين الفريقين ، تلك التي جرت عليهم الويلات ، وجعلتهم العوبة في يد الأقوياء . فلندع هذا التوحيد الداهم جانباً ونولى وجهنا شطر أمر آخر هو الغرض الاسمي لتلك الجماعة ، وهو الذي يسعى إليه حماها ، أعني التقريب بتمام معنى الكلمة - كما يظهر من لفظه - وهو الدعوة إلى أن يحتفظ كل من الفرق الإسلامية بمبادئها ونزعاتها وأعمالها على اختلافهم في ذلك ، ثم لا يمنعهم ذلك كله من القيام بأمور عامة تعود على المجتمع الإسلامي بالخير وتجعلهم أمة واحدة يكون لها ما يكون لكل فرقة وعليها ما عليهم من الشؤون الاجتماعية .

(١) إذن فمحاولة الجمع بين الخلافة والإمامة وتأويل كل منهما بما يرجع على الآخر وجعلهما على أمر واحد يتفق فيه الفريقان ، كما تكلف له بعضهم محاولة غير مجدية في حل المشاكل مع ما فيه من عدم قبولها لهذا الحل ، وكذلك الأمر في بعض الفروع كالحكم بالتخيير في الفسل والمسح على الرجلين جمعاً بين الفريقين فإن ذلك ما لا حاجة إليه ، وهب أنا جعنا في مسألة يمكن الجمع بينهما فإذا فعل في مباحث آخر لا يمكن مثل هذا الجمع .

وكثيراً ما نجد اختلافاً في أكثر الشئون في أية وجهة سواء في المسائل والملابس والأزياء والآراء ، ويوجد فيهما حماة للقديم وحماة للجديد (١) ولا نجد أى مشاغبة بينهما مع اختلافهما في تلك الشئون ، بل ولا موجدة من أحدهما على الآخر ، ونجد الأمر كذلك في المباحث العلمية والفلسفية ، فليس من اللازم على من يتخذ رأياً في الفلسفة وبروق في نظره أن يقوم بهدم ما سواه بكل قوة وجهد ، مصطحباً ذلك بالثتم والسباب ، فيكون ذلك انحرافاً عن الشائع بين أصحاب النظريات والآراء والمعتقدات في مناظراتهم .

وهنا نصل إلى نقطة واحدة تتركز فيها الأهداف الإصلاحية فيما نحن بصدده وهو أن يكون الإمامي مثلاً على رأيه في المبادئ والفروع حسبما تصل إليه فكرته ويهتدى إليه دليله ، والشافعي مثلاً على رأيه كذلك حسبما تأدى إليه نظره ، وكذلك سائر الفرق ، ثم لا يمنع ذلك من الاستدلال النزيه عن شوائب الأغراض بآراء فريق آخر والإدلاء برأيه ، كل ذلك غير مصحوب بما يتعدى فيه عن حريم الأدب والنزاهة (٢) ، وكل لها من نظير في المسائل والمشاكل العلمية ، فترى أحدهم يقتنع بما يقيم في موقفه إزاء خصمه من الدلائل ويذلل قهاري جهده في تدعيم دلائله بما يسوق الخصم إلى القبول ، بينما نجد من بعض هؤلاء من لا يتعب نفسه في إقامة الدليل لإقناع خصمه ، بل يكتفى بما يناله لسانه وقلبه من الشتم بما لا يلائم نهج المناظرة ، ولا شك أن الطريقة الأولى أقرب إلى النجاح من الأخرى التي تبعد عن المرمى كل البعد .

وهناك أمر آخر يقرب من التقريب في الأهداف التي يتوخاها دعاة الفكرة ويقع في الدرجة الأولى من الأهمية ، بل هو كالدعامة له ، وبه ينقطع كثير من المنازعات التي تقع بين الفريقين ألا وهو (التعريف) أى التعريف والبيان لكل فريق بما يعتقده الآخرون ، فقد حدث كثيراً أن أحد الخصوم يقوم بهدم النظرية

(١) لعلنا نلم بهذا الخلاف بين القديم والجديد في عدد آخر .

(٢) كالتريفة التي اتخذها العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين في المباحث المختلف فيها بين الفريقين .

التي تقع مورداً للنقض والبحث من دون أن يعتمد في ذلك إلى ركن وثيق في تحقيق الدعوى ولا رجوع إلى المراجع الصالحة لذلك ، بل يستند إلى كذب وافتراء ، فن اللازم على التقريب أن يُعرف المراجع المعتمد عليها عند كل فريق كي لا تتقلب الدعوى إلى ما لا يقربه الخصم (١) ، ويرشد إلى المظان التي جرى البحث فيها عن يليق بهذا البحث من غير المتطرفين ، كما يرشد إلى من يتوافق رأيهم في مسألة من علماء الفريقين (٢) .

ويقابل الأول (التوحيد الذي نوهنا عنه) في التطرف التفريق أى توسيع تلك الهوة العميقة التي حدثت في القرون الأخيرة بين الامتين ، ومزقت الأمة الإسلامية كل عزم ، وجعلتهم شعوباً مختلفين كأنهم لا جامع يجمعهم ، وليسوا أمة واحدة ، وربما كان الاتصال من فريق إلى أمة غير مسلمة أقرب منهم إلى فريق آخر من المسلمين ، وذلك مما يؤسف له أشد الأسف فوجد كثيراً من هؤلاء يقيمون أثر الاحقاد والدفائن التي مرت عليه القرون ونسجت عليه عناكب النسيان ، وينهضونها من مراقدها كي يجددوا تلك المشاغبات التي نحن الآن في غنى عنها ، فقد آن لنا - ونحن في ذلك الموقف الحرج في أمس الحاجة إلى ما يجمع شمل المسلمين ويلم شعهم ويقم أودم ويوحد صفوفهم ويجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً - أن تثوب إلى رشدنا وننبذ تلك الاحقاد والضغائن التي أكل الدهر عليها وشرب ، وأن نلبى دعوة الله عز وجل في كتابه الكريم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » ، فنحن الآن إلى الوفاق والوئام أحوج منا إلى الخلاف والتفريق الذي يقوم به كثير من منظاهرون أنهم بذلك يؤدون خدمة للإسلام « ألا إنهم في مربة من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط » .

(١) وقد كان المرحوم السيد رشيد رضا يسند إلى الإمامية أحكاماً من دون أن يراجع إلى مداركها الصحيحة ، بل بما ينشر عنهم أو يأخذ من المراجع غير المعتمدة عندهم .

(٢) حيث أنه قلما يوجد رأى في الفقه من أحد الفريقين لا يوافق مع رأى فقيه آخر

في فرقة أخرى .

كيف يستفيد المسلمون وحمدتهم وناصرتهم

لمفكرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عرف

عضو جماعة كبار العلماء

— ٥ —

مفرقة المسلمين في دينهم أفضت بهم إلى شيء من البغض والتخاذل وعدم التعاون كأنهم ينتحلون أدياناً مختلفة .

ومن أسباب التفرق في الدين سبب خفي لا يظن إليه كثير من الناس ولا يتحرزون منه ، وهو يعلم مما يأتي :

إن كل دين يحىء بنذ عقائد وعادات وقيم ، وإحلال أخرى محله ، وللعقائد القديمة تشبث بالنفوس لأنها تأصلت فيها وعمقت بها جذورها ، وقد يظن الظان أنها محيت وفرغ منها ، وإذا هي تبرز عند أدنى مناسبة وتبين مع الإهمال وعدم الالتفات .

إنه قد يتغير السطح الظاهر ، ولكنها تبقى كامنة في الأعماق والصدور ، ولذلك توصى الأديان بالتحرز من العقائد القديمة والاحتياط وسد الذرائع إليها لكلا تعود وترجع كما كانت جذعة ، وهي لا ترجع بصورتها الماضية التي كانت عليها ، ولكنها ترجع بصور أخرى وأشكال مخالفة ، ولكن الجوهر واحد ، والحقيقة متفقة ، فيعلم العارفون بروح الدين ذلك فينفرون منها وينهون عنها ، ويجهله العامة وأشباه العامة ، فلا يجدون بها بأساً ويعتقونها ديناً ، ومن هنا يقع الاختلاف في الدين والتفرق فيه .

وقد نبه القرآن على هذا الأصل الذي ذكرناه وهو قوة المعتقد القديم ورسوخه في النفس وظهوره عند عدم الاحتياط ، ومحضرنا موضعان نبه الله فيهما إلى ذلك ، أولهما قوله تعالى : د وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتوا على قوم

يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبراً ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، فبنو إسرائيل لم تجف أقدامهم من البحر الذى نجاهم الله منه وأغرق عدوم فيه ، حتى قالوا حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ولكن نبينهم كان فيهم فوعظهم وبين لهم سوء ما يطلبون ، قال : إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبراً ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

هذا هو الموضع الأول . وثانيهما قوله تعالى : وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ، قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فراجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفتال عليكم العهد أم أردتم أن يهل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم ففقدناها فكذلك أتى السامرى فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أف عصيت أمرى قال يَبْنِئُوْهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قَالَ فَا خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ، قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لنسفنه فى اليم نسفاً إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً ، كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً .

تشير هذه الآيات إلى عبادة بنى إسرائيل العجل حين غاب عنهم نبيهم موسى وأخلف فيهم أخاه هارون وأخرج لهم السامرى عجلاً جسداً له خوار فقال هذا

إلهكم وإله موسى . ونحب أن نبين هنا أن بني إسرائيل كانوا قبل ذلك يعيشون في مصر ، وكان المصريون يعبدون العجل أبيس ، فلما جاء موسى بالتوحيد آمن به بنو إسرائيل ، ولكنهم عند أول فتنة عادوا إلى المعبود الذي يشبه معبود المصريين .

وكما ظهرت قوة المعتقد القديم في بني إسرائيل في الحادثتين اللتين ذكرهما القرآن ، كذلك ظهرت في الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم في حادثة ذكرها ابن هشام في سيرته :

قال في أثناء عزوة حنين : حدثني ابن شهاب الزهري عن سنان عن أبي واقد ابن الحارث بن مالك قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، قال فسرنا معه وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا سدره خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الله أكبر قلتم - والذي نفسي بيده - كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال لأنكم قوم تجهلون ، اتركبن سنان من كان قبلكم .

كان العرب في الجاهلية أهل شرك يعبدون الأصنام ، ويجعلون منها شركاء لله ، فجاء الإسلام بالتوحيد ونفى الشركاء ، وإبطال عبادة الأصنام ، وقد شرع أحكاماً كثيرة لسد ذرائع العودة إلى الشرك .

وقد كان أهل العلم من الصحابة يعلمون قوة المعتقد القديم ورسوخه وظهوره عند الدواعي والمناسبات ، فكانوا يقفون حراساً على المعتقد القديم لئلا يبرز وكانوا يسدون الذرائع إليه ، في السيرة النبوية للسيد أحمد زيني دحلان ، والشجرة التي كانت البيعة تحتها بلغ عمر أن ناساً يصلون عندها ويطوفون بها ، يخاف رضى الله عنه من اتساع الأمر وظهور البدعة وأن تعبد كما تعبد الأصنام فأمر بها فقطعت .

وفي الألوسى في تفسير سورة الفتح : « المشهور أن الناس كانوا يأتونها فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله . »

وقد كان الإسلام منذ أوله يلاقى من تأصل جذور العصبية القبلية في العرب ما يلاقى ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سياسة قوية ثابتة في العمل على استئلال هذه النزعة من القلوب ، وفي التعجيل بדרء أخطارها حين تطل برأسها وذلك أن من مبادئ الإسلام الأساسية أن : « الحق أحق أن يتبع » ، وأن أخوة الدين قاضية على قرابة النسب ، وأن التقليد واتباع الآباء والتعصب لهم لا يتفق وما يجب على المؤمنين من إنصاف الحق والخضوع له ، وتطلبه من أى أفق يمكن أن يظهر منه .

فوجدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقف بين الأوس والخزرج حين تثور بينهم نائرة العصبية ، فيصلحهم ويذكرهم ويعظهم ويبين لهم ما يريد الشيطان أن يوقعه بينهم من العداوة والبغضاء ، ووجدناه يهتم بذلك اعظم الاهتمام ، ولا يؤخره شئ ولا يقدم عليه شئاً ، ولا يقر له قرار حتى يطفى نيرانه بحكته وقوته .

ووجدنا القرآن الكريم يوجه إلى هذا الامر الخطير في كثير من آياته ، ويذكر المؤمنين بالنعمة الكبرى : نعمة التأليف بين قلوبهم ، وبأن الشيطان يريد أن ينزغ بينهم حتى يحرمهم هذه النعمة ويفسدها عليهم ، فيفسد عليهم أمرهم كله .

ووجدناه ينهى على الكفار تمسكهم بما ورثوا من العقائد والعادات عن آبائهم ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، ويضرب الامثال من سير الانبياء والرسل الذين كانوا لا يلتفتون عن سبيل الحق ، ولا يعاينون بما يقاسون في سبيل ذلك من عنت المتعصبين الجاهلين .

كل ذلك لأن الإسلام وجد البيئة متأثرة بالماضى القريب ، ووجد جذوراً قد غاصت في أرضه يجب أن يقتلها ، وأن يميمت جميع فروعها .

فلو درس الإسلام دراسة استقصاء ، وروعى هذا المبدأ الذى قدمناه لرفع الخلاف في المسائل التى شطرت الامة الإسلامية شطرين ، ولحى كثير من البدع ، وطمس على كثير من الخرافات ؟

بين الإنسانية الرفيعة ، والحيوانية الوحشية :

نظام البغاء وصمة في تاريخ بني الإنسان

للمفكرة الاستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

من أشد النظم الاجتماعية فساداً ، وأبعدها عن مقومات الشرف والفضيلة ، وأكثرها مجافة لمناجح الاجتماع الإنساني السليم ، وأدناها إلى الحيوانية الوحشية ، وأدعاهما إلى إشاعة الفوضى وانتشار الفجور ، نظام البغاء الذي يعد بحق وصمة عار في تاريخ بني الإنسان .

فقد أقرت الشرائع والتقاليد لدى كثير من الشعوب المتحضرة والبدائية نظام البغاء ، ومن الغريب أن انتشر هذا النظام - إن صح تسميته نظاماً - أوسع من انتشاره عند غيرها .

فالعهد القديم يحدثنا عن البغايا من الإماء وغيرهن ، وعن البغاء على أنه نظام معترف به ومنتشر انتشاراً كبيراً لدى قدماء العبريين ، ويذكر أن كثيراً من آباء بني إسرائيل ومن عليه القوم أنفسهم كانوا يغشون أحياناً منازل المومسات ، وأن هؤلاء كانت لمن أجور معلومة ، ويتنص سفر اللاويين على أنه لا يجوز للآب أن يخص ابنته للبغاء (١) ؛ وهذا يدل على أن فريقاً من بني إسرائيل في هذا العهد كانوا يفعلون ذلك .

وكان هذا النظام منتشراً كذلك عند العرب في الجاهلية . ففي حديث عائشة عن أنواع النكاح قبل الإسلام أنه : كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع من جاءها ؛ وعن البغايا ، وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون

علماً ؛ فن أرادهم دخل عليهم ؛ فإذا حملت إحداهم ووضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا القافة (وهم المهرة في القيافة . والقيافة فن كان منتشراً عند العرب يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذي انحدر الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه وحجمها ولون بشرته ... وما إلى ذلك) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به (أى اتصل به) ودعى ابنه لا يتمتع من ذلك . . غير أن العرب كانوا يحتقرون البغايا ومن يتصل بهن ؛ فما كان يباح في الغالب لعربية أن تتمن البغاء ؛ بل كاد يكون ذلك مقصوراً على الإمام ؛ وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة من المدائن والقرى ومضارب خيام البادية ، وينصبن على بيوتهم رايات تكون آية على مهابتهم ، وكان لا يذهب إلين إلا سفلة الناس وسوقتهم ، ويذهبون إلين في الظلام ، يحرون أطراف مآزرهم وراهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال . ولذلك أطلق على البغايا اسم المظلمات ، كما كان يطلق عليهم اسم الممينات . وكان من جوامع كلهم في المدح : (فلان لا يرخى لمظلمة إزاره) وفي ذلك تقول العوراء بنت سبيع في رثاء .

أبكى لعبد الله إذ حشيت قبيل الصبح ناره (١)

طيان طاوى الكشح لا يرخى لمظلمة إزاره (٢)

وقد ظل البغاء منتشراً عند مشركى العرب حتى بعد ظهور الإسلام . فقد كان لعبد الله بن أبي ست جوار خصصهم للبغاء وضرب عليهم الضرائب ، فشكا بعضهم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فنزل قوله تعالى : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، (٣) .

(١) حش ناره : أى أوقدت . وهذا مثل أرادت به أنه قتل قبيل الصبح ، فضربت لقتله مثلاً بإيقاد النار ؛ والعرب تقول : أوقدت نار الحرب إذا هاجت .

(٢) الطيان : صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع . والعرب ترى من السيادة ألا يشيع الرجل . وطاوى الكشح : أى ضامر . ليس بضخم الجفنين .

(٣) سورة النور آية ٣٣ ، انظر تفسير البيضاوى ، وليس الفرض من الشرط تقييد الخطر كما لا يخفى ، وإنما الفرض منه مجرد وصف الحالة التى نزلت فيها الآية وبيان مبلغ تجاوز من فعل ذلك .

وكان كثير من سراة اليونان في العصور القديمة يستخدمون إمامهم كذلك في البغاء للانتفاع بأجورهن ، وقد أقر المشرعون أنفسهم هذا الضرب من الاستغلال الخسيس ؛ بل إن بعض حكوماتهم قد أخذ ينافس الأفراد في هذه التجارة ، فقد نظم صولون نفسه - وهو كبير مشرعي أثينا وحاكمها - شئون البغاء الرسمي ، وأنشأ منازل خاصة للبغايا ، واشترى عدداً كبيراً من الإماء ووفرهن على هذه المنازل لتنفع الدولة بأجورهن ، وبجانب هذا الصنف المبتذل من المومسات كان يوجد في أثينا صنف آخر من البغايا ، كن يعرفن باسم : « البغايا الراقيات » ، وكن يمترن بجملهن الباهر ، وذكائن الوقاد ، وكن موضع تقدير كثير من الناس ؛ بل كان عظماء الرجال أنفسهم يحرصون على الاتصال بهن ، وكن يعتبرن من الطبقات الراقية في المجتمع (١) .

ومع أنه كان ينظر في روما للبغايا نظرة احتقار ، وكانت أسماؤهن تدون في القوائم العامة للتنشير بهن ، فإن البغاء كان منتشرأ انتشاراً كبيراً في معظم المدن الرومانية ، ولم يصدر أمر صريح بتحريم البغاء إلا في السنة التاسعة عشرة بعد الميلاد ، على أن هذا التحريم لم يكن عاماً ، وإنما كان مقصوراً على الحرة المنحدرة من أبوين رومانيين ومن تكون زوجة لروماني أصيل (٢) . ومعنى ذلك أنه كان يباح لغير هاتين الطائفتين من النساء امتحان البغاء .

وكان كثير من اليابانيين يخصصون بناتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن ، فيلحقوهن بمنزل من منازل الفسوق حيث يقضين حياتهن كلها أو فترة منها ، وما كان يجوز للبنات أن تعصى أباهن ولا أن تعترض على أمره (٣) . ويضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى كبيرة العدد في اليابان تتألف من اللائي يسلكن هذا الطريق بمحض اختيارهن ومن ثم انتشر البغاء في اليابان انتشاراً مروّعا وبلغ ضحاياه عشرات الألوف ، حتى إن الحكومة الحااضرة لتجد صعوبة في القضاء عليه أو تخفيف مضاره .

(1) V. Westermarck : Idées Morales, 11,413

(2) Ibid

(3) Westermarck, op. cit. 1, 604 ; Letourneau ; La Sociologie 362

وقد جرت عادة بعض الأزواج في الصين أن يقدموا زوجاتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن، ولذلك ورد في تشريعهم المعروف بالأوامر Ordonnances أنه إذا أكره رجل امرأته على البغاء ليبتغي من وراء ذلك عرض الحياة الدنيا، وانتحرت المرأة حتى لا تقترف هذا المنكر، وجب أن يقام لها على مقربة من منزل أبيها نصب تذكاري على هيئة (قوس النصر) (١).

وكان كثير من الدول المتحضرة في العصور الحديثة - حتى الدول الإسلامية نفسها - تمر البغاء الرسمي (عملياً)، وتسن له اللوائح والقوانين، وتنتفع حكوماتها بما تجنيه من المومسات من رسوم وضرائب، ولا يزال هذا النظام معمولاً به في بعض هذه الأمم إلى الوقت الحاضر، وقد كان نظام البغاء الرسمي معترفاً به في مصر نفسها إلى عهد قريب، حتى بعد أن تقرر في دستورها السابق أن دينها الرسمي هو الإسلام بل لقد تبجح بعض الكتاب - ولا يزال بعضهم يتبجح إلى الآن - بالدفاع عنه بعد إلغائه ومطالبة الحكومة بإعادة النظر في تحريمه لانتفاء بعض الأضرار الصحية وانتفاء البغاء السري على حسب ما يزعمون.



وبجانب هذا البغاء - السياسي أو الاجتماعي - يوجد نوع آخر من البغاء يطلق عليه اسم: «البغاء الديني» أو «البغاء المقدس»، لأنه كان يعد شعيرة من شعائر الدين، أو وسيلة لإرضاء الآلهة والتقرب إليهم، وقد عثر الباحثون على عدة مظاهر لهذا النظام عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند البدائيين.

فعند قدماء العبريين كانت توجد طوائف من النسوة يزاولن البغاء في المعابد (٢) وكان يعتقد أنهن يحملن الخير والبركة لمن يتصل بهن، وظل هذا التقليد الديني سائداً إلى أن حرمه «مفر التثنية» (٣).

(١) Westermarck, op. cit. 11, 411

(٢) هوشع Osee الإصحاح الرابع آية ١٤

(٣) التثنية لإصحاح ٢٣ آية ١٧

وعند قدماء الكنعانيين كانت توجد طائفة من النسوة يطلق عليهن اسم :
« كيد يشولح ، Kedesholh » وقفن أنفسهن على خدمة المعبد ووهبن جسومهن
للبغاء المقدس (١) .

ومن أشهر أنواع « البغاء المقدس » ، عند الشعوب المتحضرة ما كان يجري عليه
العمل في بابل في معابد الإلهة ميليتا Mylitta (وهي في شخصيتها ووظائفها
أساطيرها تماثل الإلهة أفروديت عند اليونان والإلهة فينوس عند الرومان
والإلهة عشترت عند الفينيقيين (٢)) وقد أفاض المؤرخ اليوناني هيرودوت
في وصف هذا النظام ، فذكر أن كل بنت تولد في هذه البلاد كان يجب عليها مرة
في حياتها أن تذهب إلى معبد الإلهة « ميليتا » ، حيث تقدم نفسها لرجل أجنبي عن
البلاد . فكانت تجلس في ساحة المعبد حتى يمر بها أجنبي ويضع على ركبها قطعة فضية
من النقد داعياً في أثناء ذلك ، أن تباركها الإلهة ميليتا وتشملها برعايتها ، ثم يصحب
الفتاة بعيداً عن الساحة المقدسة ليقضى معها إربته . وكانت قطعة النقد تعتبر مقدسة
بمجرد وضعها على ركة الفتاة ، وما كان يباح للفتاة أن ترفضها أو ترفض دعوة
صاحبها ، وكان ينظر إلى هذه الاتصالات على أنها ضرب من العبادة الدينية تقدمها
الفتيات لإلهتهن « ميليتا » ، أو نوع من القربان يتقربن به إليها ، وكان يعتقد أن
هذا الضرب من العبادة وهذا النوع من القربان من أحب العبادات والقربان إلى
الإلهة ، وأنه مصدر خير وبركة للفتاة نفسها ، كما تدل على ذلك العبارة التي كان
يقولها الأجنبي وهو يلقى بقطعة النقد على ركبها « لتباركك الإلهة وتشملك برعايتها »
(حسب رواية هيرودوت) وبعد أن تؤدي الفتاة واجبها هذا كانت تنقلب إلى
أهلها فرحة بما آتتها الإلهة من فضلها ؛ وثمة كانت تتلقى تهنئات أهلها وأصدقائها
وتعمرها هداياهم الثمينة (٣) .

ولهذا التقليد البابلي أشباه ونظائر في كثير من بلاد اليونان في عصورها القديمة

(١) Westermarck, op. cit, 428

(٢) انظر كتابنا في « النظم الدينية عند قدماء اليونان » .

(٣) Westermarck, op. cit, 429, 430

وخاصة في أثينا وفي قبرص وقورنثة وبيبلوس Byblos . ففي قبرص كان يجب على العذارى أن يذهبن إلى ساحل البحر في أيام معلومات ليقدمن بكارتهن قربانا للإلهة أفروديت (١) . وفي معبد الإلهة أفروديت بقورنثة كان يوجد عدد كبير من النسوة يزاولن البغاء المقدس (٢) . وتروى الأساطير اليونانية أن بعض مدن اليونان كانت إذا اشتبكت في حرب يندّر أهلها للإلهة أفروديت أن يخصصوا بناتهم للبغاء المقدس في معابدها إذا أمدتهم بعون منها فخرجوا منتصرين على أعدائهم (٣) وجرت عادة سراة اليونان في مملكة أثينا وغيرها أن يخصصوا بعض إماءهم للبغاء في معبد من معابد الإلهة أفروديت ، على أن يخصص دخلهن من هذه المهنة لصندوق المعبد نفسه . وقد انتشرت هذه الطقوس في مختلف بلاد اليونان ، واعتبر تقديم الإماء على هذا النحو من صالحات الأعمال التي يتقرب بها الناس إلى الإلهة حتى لقد كان الأغنياء وقواد الجيش يندرون لهذه الإلهة عددا من هذا الصنف من الإماء إذا تحقق لهم مأرب أو انتصروا في حرب ، فكثير من جراء ذلك عدد هذا الصنف من الفتيات حتى ضاقت عليهن معابد هذه الإلهة بما رحبت . وقد أطرى هذه الأعمال كبير مؤرخيهم « سترابون » وعدّها مشروعات وطنية جليلة لأنها - على حد قوله - تجذب الأجانب للبلاد فينفقون فيها أموالهم ، فتنتعش بذلك اقتصادياتها ، ويعمها الرخاء ، ويزداد دخلها القومي .

وفي القرن التاسع عشر نفسه كان لا يزال يوجد في كثير من معابد الهند عدد كبير من البغايا يزاولن مهنتهن لصالح المعابد نفسها ويخصصن لها دخلهن من هذه المهنة . وكان هؤلاء النسوة موضع تقدير وإجلال من خاصة القوم وعامتهم ، بل كنّ وحدهن اللاتي يسمح لهن بالتعلم في الهند (٤) . وفي عهد بوذا نفسه كانت رئيسة البغايا اللاتي من هذا النوع موضع احترام كبير في بلدة فيزالي Visali ولم يسقنكف « بوذا » نفسه أن ينزل في دارها (٥) .

(1) Ibid. 429

(2) Letournean, op. cit. 367

(3) Westermarck, op. cit. 429

(4) Letournean, op. cit. 363

(5) Ibid

قال شيخنا

محاضرة الطالب الفاضل الامام أحمد محمد بربري

قال شيخنا :

يا عيسد ما بك من شوق وإيراق	ومر طيف على الأهوال طراق
يسرى على الآين والحيات محتفيا	نفسى فداؤك من سار على ساق
إنى إذا خلة ضنت بنائلها	وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق
نجوت منها نجأتى من بحيلة إذ	ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقى
ليلة صاحوا وأغروا بي سراهمو	بالميكتهين لدى معدى بن براق
لا شئ أسرع منى ليس ذا عذر	وذا جناح بجنب الريد خفياق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى	بواله من قبض الشد غيداق

العيد ما اعتاده من شؤونه ، وإنما هى الشوق والاراق والطيف السارى على
 الأهوال ... على التعب حافياً وعلى الحيات ، ولكنه يرد نفسه عن هواها ،
 ويصرفها عن تلك الخليلة التى تعض ولا تجود إلا بطيفها أو خيالها ... إن وصلها
 لأحذاق .. منقطع أو ضعيف يشبه أن يكون عدما .. ألا فاصرمها وانج منها
 كما نجوت من « بحيلة » ليلة « خبت الرهط » حيث أغروا بك عدائهم فعدوا
 وعدوت عدواً والهاً مجنوناً إلا أنه فى قبضتك تتحكم فيه فترسله متدفقا غيدا قاً ..
 فلا شئ أسرع منك لا الظلم ولا النسر يخفق جناحه بأعلى الجبل . لقد نبذتهم
 وراءك - هؤلاء العدائين - فلم يلحقوا بك ليقنلوك وينزعوا سلبك .

قلت : أراه يفخر فى غير مفتخر ، فإزاد على أن ولى الدبر ، وليس بمنجيه
 من النذالة - وإن نجا - أن يكون نسرا أو ذكر نعام ، ولعله ما أخطأه التوفيق

إذ شبه نفسه بالنعامة ، ولو أنه طوى وجه الشبه ونشر غيره ، فغير ذى بال هنا أن يعدو عدواً سريعاً ، وإنما ذو البال أو وجه الشبه أنه كان رقيقاً يولى الدبر ثم يفتخر .

قال : رويدك بعض غلوائك ، فليس الحزم أن تقف أبداً وقفة واحدة لا تتغير ، ولكنه في أن تلبس لكل حالة لبوسها . وليس في طاقة الفرد أن يغلب الجماعة ، وإنما شأن الجماعة د ولو قلة ، أن تغلب الجماعة د ولو كثرة . د كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، وفي سياسة الحرب القرآنية لا يؤمر الفرد أن يثبت للجماعة ولو قليلة ، وإنما تؤمر الجماعة القليلة أن تثبت للجماعة الكثيرة وتنتصر عليها بإذن الله د إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً ، فالواحد وحده لا يكلف قتال عشرة ، ولكنه مع تسعة صبر يكلفه ويغلب العشرة فتكون الجملة مائة لكل واحد عشرة .

قلت : أعرف أحوالاً وقف فيها الفرد للجماعة ، فهذا مالك بن أبي كعب يأخذ عليه عدوه الطريق ، ومع مالك زوجه فيقولون له : استأثر فلا يفعلها ولا يفر ، بل يقاتلهم حتى يقتل ويقول :

لعمري أيها لا تقول حلياني ألا فر عني مالك بن أبي كعب

قال : ولقد وجب أن يقاتل ويؤت ولا يسلم الظعينة سبية . ولو كان تأبط شراً في مثل ظرفه لفعل فعله ، ولو كان هو في مثل ظرف تأبط شراً لفر ولا عليه أفلم يأن لك أن تفقه أن الحزم هو أن تلبس لكل حالة لبوسها ؟

قلت : بل أعرف فرداً غاب الجماعة ، فهذا هوراس ، واحداً يغلب د كيرياس ، جماعة : كانت مبارزة نذبت لها روما أشقاء ثلاثة د الهوراسيين ، ونذبت لها ألب أشقاء ثلاثة كذلك د الكيرياسيين ، فقتل د كيرياسيان د هوراسيين ، وقتل هوراسي كيرياسياً ، فأصبح في الميدان ثلاثة واحد في مواجهة اثنين - هما أقل الجمع فهم جماعة - ففر الهوراسي ، وإنما فر ليكر فقد تعقبه الكيرياسيان كل في وجه ، وهكذا تفرقا ففكر على أحدهما فقتله ثم ألحق به الثاني .

قال : وهكذا لم يواجه الفرد الجماعة - على أنها أقل الجمع - وإنما خدع الآخرين ففرق بينهما فهو ضعيف تجاههما معاً قوى تجاه كل منهما منفرداً .

قلت : لكأنكم عربتم تعبير « كورنى » .

قال : أو لم يكن لك في التاريخ الإسلامى غناء عن قصص « كورنى » و « راسين » وأساطير « لافونتيه » ؟ إنه ليحضرنى مثلاً قصة أبى بصير عتبة ابن أسيد بعد صلح « الحديبية » إنك لتعلم أنها كانت محنة أبة محنة حتى لقد قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ يعنى يوم الحديبية ... يأمر الرسول علياً كرم الله وجهه أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فيقول سهيل بن عمرو : والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة « يعنى مسيلة » اكتب باسمك اللهم . ويقول الرسول : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فيقول : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولا صددناك عن البيت الحرام ، ولكن احبها واكتب محمد بن عبد الله فيأبى الإمام أن يمحوها فيمحوها رسول الله نفسه وبعد لآى يتم الصلح على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاهم من المسلمين لا يردوه . وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام .

ويقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة فرمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلى ، قال الرسول : إنا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيل : إذاً لا أصالحك على شيء أبداً ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : فأجره لى ، قال ما أنا بمجير لك ، قال بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل ، ثم جعل يجره ليرده إلى قريش ، فقال أبو جندل : أى معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما أقيت ؟ - وقد كان عذاباً شديداً - قال الرسول : احتسب أبا جندل فإن الله جاعل لك ولئن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . وبأذن الله أن يحجى الفرج والمخرج على يدى أبى بصير . بينما الرسول بالمدينة بعد أن عاد إليها إذا هو

بأبي بصير وكان ممن حبسوا بمكة فكتبوا فيه إلى الرسول وبعثوا في طلبه رجلين قدما وقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا بصير إنا أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغاه ذا الخليفة ، نزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين إني لأرى سيفك هذا جيدا ، فاستله الرجل وقال أجل إنه والله لجيد لقد جربت به ثم جربت ، قال أبو بصير أرني أنظر إليه فأخذه منه فضربه به حتى برد ، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو ، فقل الرسول ويلك ما لك ؟ قال قتل صاحبي وإني لمقتول فما برح حتى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف ، فوقف على رسول الله وقال بأبي أنت يا رسول الله أوفى الله ذمتك لقد رددتني إليهم فأعاني الله تعالى عليهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ويؤلمه مسعر حرب لو كان معه أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه يرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر وبلغ المسلمين المستضعفين بمكة قول الرسول : ويله مسعر حرب لو كان معه أحد فخرج منهم جماعة إليه . وانفلت أبو جندل فلاحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلا فما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يكف عنها أيدي هؤلاء المستضعفين . فن أتى منهم رسول الله فهو آمن ولا يرد .

قلت : وفيهم نزلت - فيما يروى أصحاب التفسير - : وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم .

قال : قد تكون فيهم نزلت ، فأما عن تأبط شر فإنه يوالى حديثه :

ولا أقول إذا ما خلعة صرمت يا وحب نفسي من شوق وإشفاق
لكننا عولى إن كنت ذا عول على بصير بكسب المجد سباق

إذا قطعت فلتقطع ، فهو إن تتبعها نفسه حسرات ، وإن يدعو ويلا وثبورا ،
لأنها امرأة ، وليس للرجل أن يعول على امرأة ، وإنما على رجل بصير بكسب

المجد سباق إلى غاياته عنيف يرجع صوته مجلجلا بالامر والنهي فيما يعرض له ولرفقته من عوارض العيش .

قلت : لا يعول على امرأة . . نفعة جاهلية مردولة لسكانها من غير الآدميين ولكأن الرجل بالقياس إليها أعلى درجة والله يعلم أنهما شقيقان عدلان ، ولكنه الجور الاجتماعى جعل الرجل فوق المرأة من حيث الوضع ، وإن لم يكونا كذلك من حيث الطبع ، على أنه ظلم أن له أن ينجلي ، وقد انجلي بالفعل إلا فى النذر اليسير من البيئات البدائية التى سنؤول حتما إلى الفناء وعلى آثار من ذهب العفاء .

قال : أما أن الرجل فوق المرأة فليس ذلك فعل الوضع الاجتماعى كما تقول ، ولكنه الطبع كما شاء الله أن يكون ، سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فالرجال قوامون على النساء ، ولهم عليهن درجة ، تلك هى الحقيقة مجردة من تزويق النسائين وتميق المنافقين ، فأما أن تكون ضريبه لا تنقص عنه ولا يزيد عليها شيئا فذلك هو الوضع الاجتماعى التصورى المخافى لصورة الوجود الحقيقى . . غالبوا الطبيعة ما شئتم ، ومددوا بأسبابكم إلى السماء ، ثم اقطعوا ما قدرتم ، فسا غالب الفطرة مغالب إلا بآباء بالحبيبة وسوء المصير .

قلت : إذا جاءت الطبيعة بصورة ينفر منها الذوق ، فإنى أستطيع بوسائلى الصناعية أن أهذب الصورة وأحسنها وأنقلها من جفاء الوحشية إلى رقة المدنية .

قال : إنك تستطيع أن تنسق الطبيعة متصفا معها لا مناقضاً لإياها ، فالثرة التى تتضج فى ستة أشهر يمكن أن يتم نضجها فى ثلاثة متى سلطت على أمها المنشطات ، ولكنك إذ تفعل إنما تعين الشجرة وتزيدها غذاءً يجعل لك الثمرة .

قلت : بل أستطيع أكثر من هذا ، أستطيع أن أكرهها على أن تغير من طبعها فأعمد إلى جذورها النازلة طبعاً فأفرغ ما تحتها من تراب وأجعله إلى أعلى وهكذا أدفع الجذور دفعا إلى أن تتخذ غير طريقها الأسمى ، ثم أعمد إلى فرع الشجرة فأكرهه على أن ينزل إلى الدرك الأسفل وحقه فى الأصل الدرك الأعلى .

قال : أما الجذور فإنها لن نسمو إلا لثنتى فترجع إلى دركها الأسفل ، وأما الفرع فإنه لن يهبط إلا بقدر ما تنشأ له جذور يعتمد عليها ليذهب إلى دركه الأعلى فأنت ترى وسائلك الصناعية ووسائل معدوقة لا يبقى منها آخر الأمر إلا التواء هنا واءوجاج هناك ، فبذلك الشئون الاجتماعية إذا عالجتموها علاجاً ينبو عن طبائع الأشياء تتمخص لكم فى النهاية عما شئتم من التواء واءوجاج ، واست أدرى وإيم الحق لم تبغونها عوجاً .

قلت : إنها لنظرية اجتماعية ضالة ، تلك التى تحسب المجتمع كائناً يشبه أن يكون كائناً عضوياً له عيان وأذنان ويدان وساقان وروح وجسم إلى آخر ما هنالك مما يترتب عليه الخطأ فى التطبيق إذا اعتل الجسم الاجتماعى مثلاً ورجعنا إلى الطبيب الاجتماعى نستأديه تذكرة الدواء . إن المعانى غير المباني والخلط بينهما غير ممكن ، فلماذا لا نواجه الأمور كما خلقها الله دون أن نضرب الأمثال ، فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأتم لا تعلمون ، .

قال : صدق الله العظيم . ولو ذات سوار لطمتنى ، أو قل رمتنى بدائها وانسات ، لكأنى أنا الذى صدق على إبليس ظنه فغيرت خلق الله .

قلت : لقد انتهى عهد كانوا يغيرون فيه خلق الله ويتسكون آذان الأنعام .

قال : ولكن إبليس منتظر إلى يوم الوقت المعلوم ، وما أحسب الوقت المعلوم قد أظننا ، ولا أحسب إبليس قد تاب وأناب فلم يعد يوسوس فى صدور الناس ويأمرهم أن يغيروا خلق الله ، وإذا لم تكن الناس تبك آذان الأنعام الآن فإنها تبك أشياء أخرى كثيرة وتغير خلق الله ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، .

قلت : فكيف أغير خلق الله ؟ .

قال : حين يقول عز من قائل : الرجال قوامون على النساء . وللرجال عليهن درجة ، وتقول أنت : النساء قوامات على أنفسهن يعدن الرجال ، وليس لهم عليهن درجة ، أفليس هذا أبعد مدى فى محاولة تغيير خلق الله من أن تبك آذان

الانعام ، أقول محاولة تغيير خلق الله فالحقيقة الواقعة أن تغيير خلق الله ليس في حيز الإمكان .

قلت : إن الآية من القرآن الكريم لتصلح حجة لكلا الطرفين المتخاصمين ، فالرجال قوامون على النساء إذا تحقق فضلهم وإنفاقهم عليهن ، فإذا كانت هي ذات الفضل والإنفاق على الرجل أفیظل قواما عليها ، وإذا أجببت إيجاباً أفلا تكون معبرا عن غير الواقع عملاً ، إذ العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ؟ إن في مجتمعنا الحديث لطائفة كثيرة من النساء الفضليات اللواتي برزن في ميدان الخدمة العامة والخاصة ، وأصبحن عن جدارة موجبات ومديرات لأعمال ذات خطة في الحياة ، وقد تكون الواحدة منهن زوجاً لرجل نكرة في الرجال ، أفلا تسمعون أسماء كثيرة لسيّدات مشرقا ولا تسمعون أسماء أزواجهن إلا أن تضاف إليهن أفترون سيّدة هذا شأنها حرية أن يقوم عليها رجل نكرة هي أداة تعريفه ؟ .

قال : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساتهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ... وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، .

أفليس هذه آيات بينات محكمات حاكيات لسلوك النساء المسلمات فيما شئت من مجتمعات ... أو ترى المرأة التي تحيا تحت ظل هذه الأحكام مستطبعة أن تبرز في ميدان الأعمال العامة والخاصة ، فتتزوج رجلاً هي أداة تعريفه وذات الفضل والإنفاق عليه ، وبالتالي هي القوامة عليه ؟ إن آيات « النور » و « الأحزاب » هي الأصول التي تنفرع عنها الأحكام الخاصة بالمرأة : حقوقها والتزاماتها ، فإذا أهملتم هذه الأصول فغير منطقي أن يكون الرجال قوامين على النساء ولهم عليهن درجة ، والذكر مثل حظ الأنثيين ، إلى آخره .

ما ذا يا هؤلاء أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون .

قلت : مهلا سيدى الشيخ ، ولماذا تلغون حرية الناس وتريدونهم على أن يلتزموا تفسيركم القرآن ، إنهم ليفهمونه على خلاف فهمكم ولكل فقه .

قال : فأنا أرفض فقه أولئك الذين لا يفقهون ، لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، فى أحوالها الثلاث إنها عندهم حال واحدة سواء رفعت تشرب أو نصبتها أو جزمته . قل لأحدهم وأنت صادق : إني قاتل أبيك أو إني قاتل أباك ، فليس يدري أيعترف أنت بالقتل أم به تتوعد ، أفؤلاء السادة فيما ترى أصحاب فقههم يفسرون القرآن ويرون فيه رأى على خلاف ما يرى أولئك الذين قضوا حياتهم الجادة فى البحث والدرس والاستقراء والاستنباط أنا لا ألغى حرية الناس كما تقول ومنها حرية الجهل ، بيد أنى أرجو إلى الأحرار الجاهلين ألا يلزموني فقههم ، ولهم حريتهم كاملة غير منقوصة أن يجملوا فقهى .

قلت : وهل من فقههم أن يرتبط المسلمون بأحكام دائمة ثابتة أبدية لا تتغير ولا تتطور والدنيا متغيرة متطورة ، ومتى صح أن الشريعة الإسلامية شريعة كل زمان ومكان ، فهل فى الامكان أن تكون كذلك مع أبدية تلك الأحكام ؟

قال : إن فى الحنيفية السمحة ، لثوابت ، أو إن شئت أحكاماً أبدية إن نزول أو نزول البشرية نفسها ، إنها أحكام تستمد وجودها وعللها من الطبيعة الانسانية ذاتها . فالانسانية تتغير وتتطور دون شك ، ولكنها على تغيرها وتطورها هى الانسانية بطابعها الدائم المميز . وبجانب الثوابت متحركات ، أعنى أحكاماً متحركة متطورة متغيرة مع الانسان فى الزمان والمكان ، هذا لإجمال يتطلب تفصيله مجلداً ضخماً وهو مع هذا واضح بين .

اقرأ القرآن تجد العقوبة على العمل بعينه تتدرج من مجرد الإيذاء - وقد يكون قولا لا يتعداه - إلى القتل أو الاعدام . والحرية التعاقدية أو قاعدة العقد شريعة

المتعاقدين ، لا تجدهما أوفى مما هي في شرع الاسلام ، والقاضى ، اقطع ولا تبال بأن سيادته القضائية لا تتحقق مطلقة مقدسة تحققها له قاضياً مسلماً بين المسلمين ، لأنه ، القاضى الشارع ، بأدق وأوسع ما تحمل العبارة . تأمل الحدود وكيف تدرأ بالشبهات ، والتعزير وكيف يتسع لما يضيق به كل شرع غير شرع الاسلام .

قلت : واضح وضوح الصبح لذى عينين ، فماذا من الثوابت البواقى على كر الغداة ومر العشى ؟ .

قال : منها وفي صدارتها حكم الوحدة وحدة المسلمين ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأما ربكم فاعبدون ، لتدل الدول والنظم لتقوم نقائصها وليشمل التغيير والتبديل ماشئت من مرافق العيش وشئون الحياة العامة والخاصة ، ولكن الأمة الاسلامية تظل أمة واحدة بحكم افة الدائم الذى لا يجوز بحال أن يمسّه تغيير أو تبديل ... أمة واحدة تعبدّه وتتيقّه ، أما ربكم فاعبدون ، ود أما ربكم فاتقون :

قلت : تعدلون أن نظم الحكم مختلفة ، فثم الملكية الفردية والملكية البرلمانية ، والجمهورية الرئاسية والجمهورية البرلمانية ، والأمة الاسلامية تنقسمها دول كثيرة متباينة النظم ، فكيف تتأقن الوحدة وكل دولة تحرص على نظامها ولا ترضى أن تستقبل به بديلاً ؟ .

قال : جاء أقبال النبي أى ملوكها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسلمين نافرين ليتفقوا في الدين ، فخطبهم الرسول الامين بخطاب الملك ، لم ينكر عليهم ولا على غيرهم سلطاناً أو إمارة ، فإن شيوخ القبائل قد استمرت رياستهم بعد الاسلام كما كانت قبله ، كان اسكل قبيلة كيانها الخاص ، أو كما تقولون اليوم بشخصيتها المعنوية والقانونية ، والقرآن الكريم نفسه لم يمنع بل افترض أن تكون الأمة الاسلامية دولاً أو مجموعات مستقلة كل عن الاخرى ، حتى لم يكن أن يحارب بعضها بعضاً .

د وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنهى إلى أمر الله .

فهذه الآية الكريمة نص مثالى لما تسمونه القانون الدولى ، فالمسلمون دول يرتبطها الإسلام ، فإذا بغت إحداها على الأخرى التزمت الدول الإسلامية بالإصلاح بينهما وقتال الباغية أو ترجع عن بغيا . فاللدول الإسلامية فى عصرنا هذا وعلى اختلاف نظمها ليست إلا الأمة الإسلامية أمة واحدة ، ولا تنافى بين استقلال كل منها استقلالاً تاماً وبين الوحدة الإسلامية ، إنك لتظلم تعدد الدول الإسلامية إذا أنت حملته وذرشت عصا الجماعة ، ولكنها الطائفية أو المذهبية تعدت حدودها أو فروعها إلى الأصول التى تربط الجميع ويرضاها الجميع لأمرية فيها ولا خلاف ولا شبه خلاف .

قلت : هذه مسلمات أو بديهيات يعرفها رؤساء الطوائف وشيوخ المذاهب أجمع ، فليس منهم من ينكر الوحدة الإسلامية أو يتنكر لها ، وكيف وهى القاعدة الكبرى التى قام عليها الإسلام الذى لا تفرق فيه بنهر كتابه المبين ، أفليس أعجب العجب إذاً أن تفرق كلمة المسلمين ، ثم تمر القرون تلو القرون ولا تجتمع ؟

قال : الواقع أنه أعجب العجب ، ولعلها عقوبة فرضها الله على المسلمين بما اكتسبت أيديهم ، فلا ريب أنه سبحانه وتعالى أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته واستخلفهم فى الأرض ، أفقرام رعوا الخلافة حق رعايتها ؟ لست أدرى على يقينى بأن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وأنه سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ؟

الشرق والغرب قبل الإسلام وبعده

لمحاضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المتعال الصعبدى

الأستاذ بكلية اللغة العربية

يبتدىء الخلاف بين الشرق والغرب بالحروب التى قامت بين الفرس واليونان أولاً ، فلما ظهر الرومان فى الغرب بعد اليونان ورثوا عنهم هذا الخلاف ، وقامت به الحروب بينهم وبين الفرس إلى ظهور الإسلام ، فليس الخلاف بين الشرق والغرب وليد هذا العصر الحديث ، وإنما هو خلاف قديم بدأ من ذلك الحين . واستمر بين أهل الشرق وأهل الغرب بعوامل سياسية صرفة ، ترجع إلى طمع كل من الفريقين فى السيادة والسلطان على الآخر ، وقد تأصل هذا الخلاف بينهما بقدم الزمن ، حتى ذهب بعض فلاسفة السياسة فى العصر الحديث إلى أن الشرق شرق والغرب غرب ولا يجتمعان ، فذهبت كلمته مثلاً بين أهل الغرب ، حتى لأنهم لا ينظرون إلى أهل الشرق الآن إلا بعين الاستعمار ، فلا يرون لأهل الشرق حقاً فى استغلال خيرات بلادهم ، وإنما هم أصحاب هذا الحق وحدهم ؛ ولأهل الشرق من هذه الخيرات فضلات موافدهم .

وقد ظهرت المسيحية فى الشرق قبل الإسلام ، والرومان متحكمون فى كثير من بلاد الشرق ، وكانت بلاد اليهودية التى ظهر المسيح عليه السلام فيها واقعة تحت حكمهم ، ولكنها كانت شريعة زهد لا تتطلع إلى أمر الدنيا ، ولا تهمها أطماع السياسة بين الشرق والغرب ، لأنها لا تعنى بالسياسة الدنيوية ، ولا تلتفت إلى تلك الخلافات السياسية بين دول الأرض ، وإنما يهتمها أمر الآخرة لا غير ،

فلما سئل المسيح عليه السلام من أتباعه عما يفعلونه مع قيصر الرومان : أئخضعون لحكمه أم يثرون عليه ؟ قال كلمته المشهورة : اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وقيصر في ذلك الوقت من حماة الوثنية ، والمسيح واليهود يدينون بالتوحيد ، ومع هذا قدم حقوق قيصر على حقوق الله حتى لا تغربهم نفوسهم بالتقصير فيها ، أو يؤثر فيهم أصحاب السياسة فلا يؤدوها له .

فلما ظهر الاسلام لم يشأ أن يفضى عن هذا الخلاف بين الشرق والغرب ، لأن طبيعته تخالف طبيعة المسيحية في ذلك الزهد الذى تغالت فيه ، فقد جاء بالزهد في الدنيا أيضاً ، ولكنه زهد معتدل لا يؤدي إلى إهمالها في حسابها ، ولا يعصير إلى نسيانها في تشريعها ، وإنما يراد منه الوقوف عند حد الاعتدال في أمرها وأمر الآخرة ، حتى لا يطفئ في أمر الآخرة على الدنيا ، ولا أمر الدنيا على الآخرة ، ليستقيم أمرهما معاً ، ويحسن حال المسلمين فيهما جميعاً .

ولكن الاسلام حينما نظر عند ظهوره إلى هذا الخلاف بين الشرق والغرب لم ينظر إليه من ناحية العصبية التي تجعل لإصلاحه متعذراً ، وتقضى بأن الشرق وشرق والغرب غرب ولا يجتمعان ، كما ذهب إليه بعض فلاسفة السياسة في العصر الحديث ، بل نظر إليه من ناحية يمكن بها الجمع بين الشرق والغرب ، وإزالة ما بينهما من هذا الخلاف السياسى الذى باعد بين أهلها ، وأقام بينهما ما أقام من الحروب التى تتصل ولا تنقطع ، بل تزيد شدة على توالى الزمن ، وتؤجج نار العداوة والإحـن ، وهو دين رحمة للعالمين كافة ، ولا يهـمه إيمان الناس به بقدر ما يهـمه نشر راية السلام بينهم ، حتى لا يكون هناك عداوات ولا إـحن ، بل يكون هناك سلام بينهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .

وكانت الحرب بين الفرس والرومان عند ظهور الاسلام قد وصلت الى أشد حالاتها ، فلم ينظر الإسلام في هذه الحرب كما ينظر الناس قديماً وحديثاً إلى المنتصر والمهزوم ، يهللون للنتصر ويكبرون ، ويخلعون عليه من ألقاب البطولة ما يخلعون ، وينظرون إلى المهزوم بعين الاحتقار ، ويكيلون له من أوصاف الجبن ما يكيلون ، وهى عادة متأصلة فيهم كما قال الشاعر العربى :

والناس من يلقى خيراً فائلون له ما يشتهى ولا مَّ المخطئ. المبل

ولم ينظر الإسلام أيضاً في هذه الحرب بين الفرس والروم إلى أن الفرس من أهل الشرق مثل العرب الذين ظهر بينهم ، والروم من أهل الغرب الذين يعادون أهل الشرق عصبية منهم ، فيقابل عصبيتهم لأهل الغرب بعصبية لأهل الشرق ، عصبية آئمة بعصبية آئمة ، وسياسة جاهلية بسياسة جاهلية ، فينتصر بهذا للفرس الشرقيين ولو كانوا غير أهل لانتصاره لهم ، ويتعصب على الروم الغربيين ولو كان من مصلحة الإنسانية في ذلك الوقت الوقوف بجانبهم

كلا ثم كلا ، لم ينظر الإسلام إلى شيء من هذا أو ذاك ، لأن رسالته أولاً رسالة أخلاق فاضلة يريد نشرها بين الناس ، فلا يمكنها إلا أن تقف عند حد المروءة والإنصاف فيما يكون بين المنتصر والمهزوم ، فتزن كلا من النصر والهزيمة وتنتظر إلى ما يترتب عليهما من المصلحة أو المفسدة ، فإذا كان النصر يؤدي إلى مفسدة لم تقف بجانب المنتصر ، وإن كان نصره ينير الإعجاب في النفوس ، ويدل على ما يمتاز به المنتصر من القوة والحزم ، بل تقف في جانب المهزوم توازره وتواسيه ، وتتمنى له النصر على عدوه ، وتثبت في نفسه الأمل والرجاء ، حتى لا يستسلم ولا يستيئس ، ولا تقطع الأمل في النصر بعد الهزيمة .

ولأن رسالته ثانياً رسالة إنسانية عامة ، ليست للشرق وحده ، وإيست للغرب وحده ، وليست لجنس من البشر دون جنس ، فلا يمكنها أن تنظر لما بين الشرق والغرب بعين أهل الشرق أو بعين أهل الغرب ، لأنها إذا نظرت إليه بعين أحدهما تعصبت على الآخر ، وأعماما التعصب عن غايتها السامية من كونها الإنسانية عامة ، لا لأهل الشرق وحدهم ، ولا لأهل الغرب وحدهم ، ولا لجنس من البشرية دون جنس .

ثم نظر الإسلام إلى أهل الغرب فوجد أنهم يدينون بالمسيحية ، وهي لا تجعل من ملوكها آلهة يعبدون ، ووجد أن قيصر الروم لا يدعى أنه أعظم الآلهة كما يدعى كسرى الفرس .

فلم يجد الإسلام بداً من أن يكون في جانب الروم على الفرس ، وكان هذا في بدء ظهوره وهو لا يزال ضعيفاً بمكة ، وقريش تضطهده وتحاول أن تقضى عليه قبل أن ينتشر بين الناس ، فتمجيز عن القضاء عليه بعد انتشاره بينهم ، فلم يكن له قوة يستطيع أن يؤيد بها الروم في محنتهم ، وإنما كان يملك الأسى لما أصابهم في تلك الحرب ، ولا يجد إلا أن يتحنن لهم النصر بعد تلك الهزيمة ، وكانت قريش قد أظهرت الفرح لنصر الفرس عليهم ، مع أنها لم يكن لها في هذه الحرب ناقة ولا جمل ، وإنما هو شأن الجاهلية الجهلاء دائماً ، تفرح للغالب ولو لم يكن لها شأن بما ناله من نصر ، وتشمت بالمغلوب ولو لم يكن لها شأن بما ناله من هزيمة ، وقد زادت هذه الشبهة من قريش بهزيمة الروم في ألم المسلمين ، وضاعفت من حزنهم لانتصار الفرس على الروم ، حتى أنزل الله تعالى في ذلك قرآناً يسليهم ويهدم بأن هذه الهزيمة للروم سيكون بعدها نصر لهم ، وأن هذا لا يتأخر كثيراً بل يكون بعد بضعة سنين ، ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضعة سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصراهم ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعدون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، ي ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ - س ٣٠

وكان أن قام بعد هذا هرقل قيصر الروم بست حملات بين سنتي : ٦٢٢ - ٦٢٧ م ، أخرج فيها الفرس أولاً من آسيا الصغرى ، ثم هاجم كسرى في بلاده ، وقد انقضَّ بقرب مدينة نينوى على الجيش الفارسي وأزل به هزيمة ساحقة ، ولم يستطع كسرى أن ينشئ بعده جيشاً جديداً ، فسار هرقل حتى استولى على دستجرد ، وكان فيها قصر عظيم لكسرى فاستولى على جميع ما فيه ، وغنم غنائم لم ير أحد مثلاً منذ استولى الاسكندر المقدوني على مدينة سوسة .

ثم جاءت لحظة الانتقام من كسرى على طغيانه وجبروته وادعائه أنه أعظم الآلهة وسيد العالم كله ، فقد تراجع بعد سقوط دستجرد إلى المدائن قاعدة مملكته ،

فنبهه هرقل بجيشه إليها ، ففر منها عند اقتراب هرقل بجيشه منها ، وهنا قبض عليه ابنه شيرويه وكبار رجال دولته ، ووضعوه في الأصفاد ، وقد مات بعد القبض عليه بعدة أيام من الغضب واليأس ، وقيل لأنهم تركوه من غير طعام حتى مات من الجوع .

وقد أرسل شيرويه إلى هرقل أدل الرسائل ، وناداه فيها بقوله : يا والدى - واعتذر عن كل ما فعله والده بيسلاد الروم ، فاستقبل هرقل رسله بالعطف ، ورضى بما طلبه من الصلح ، على شرط أن يترك كل شبر من الأرض الرومية ، ويفك جميع أسرى الروم ، ويرد جميع ما أخذوه من بيت المقدس ، ويدفع غرامة حربية قدرها له ، فرضى شيرويه بجميع ما شرطه هرقل ، وتم الصلح بينهما سنة ٦٢٨ م ، فختمت بها الحروب التي مكثت قائمة بين الفريقين ستاً وعشرين سنة .

وقد بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم خبر نصر الروم على الفرس في يوم الحديبية ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بد بعد هذا أن يؤدي رسالته إلى كسرى وقيصر ، لأنه كلف من ربه بتبليغها إلى الناس كافة ، ومن حقه أن يبلغها إلى هذين الملكين في حدود التبليغ فقط ، لأنه لا يملك إلزامهما بها ، وعليهما أن يستمعا هذا التبليغ منه ، حتى يمكنهما أن يحكما له أو عليه أو يسكتا عنه ، ولا يصح أن يقل هذا شأنهما عما يجب عليهما من سماع شكوى صغيرة من أحد رعاياهما .

وقد بلغهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه الرسالة بكتابين منه تلطف بهما في التبليغ ما تلطف ، ولم يجاوز حدود رسالته الدينية في هذا التبليغ ، فلم يطلب منهما أرضاً ولا ملكاً ولا غيرهما من أمور الدنيا ، وإنما طلب منهما أن يؤثما بما جاء به من الهداية ، ليسلما من عذاب الآخرة .

فأما كسرى فزق كتابه حين وصل إليه عتواً واستكباراً ، ثم أرسل إلى عامله باليمن أن يوجه إلى من أرسله إليه فيأتى به إليه ليعاقبه عليه ، وبهذا ساءت

العلاقة بين المسلمين والفرس ، فقامت بين الفريقين حروب انتهت بزوال ملك كسرى ، ولم يلبث الفرس أن دخلوا في الإسلام ، فخلصوا به من العبودية لجبابرة ملوكهم ، ودخلوا في الحرية التي يستوى فيها المسلمون جميعا ، لأنهم لا يدينون بالآلوهية إلا لله تعالى ، ولا يوجد عندهم ملوك آلهة مثل الآكاسرة .

وأما هرقل ؛ فكان عليه أن يفهم الغرض من كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حقيقته ، لأنه لم يكن يريد إلا أن يبلغه رسالة ربه إليه ، فإن شاء آمن بها ، وإن شاء لم يؤمن ، لأنه لا إكراه في الإسلام على الإيمان به ، ولكنه كان يريد أن تدخل العلاقة بين الشرق والغرب في طور جديد ، يقوم على أساس ما يسمى الآن بالتعايش السلمي ، فلا يفرق بينهما خلاف ديني ولا خلاف عنصري وإنما الشرق أخ الغرب ، والغرب أخ الشرق في الإنسانية ، وقد خلقنا الله شعوباً وقبائل لتعارف لا لئلا يكره ، وقد مهد لهذا بما أبداه من ميل حسن نحو الروم في حربهم مع الفرس ، فقد أثر فيه جانب الحق والعدل ، ولم يتعصب للفرس لأنهم مثله في الشرق ، فلم يفهم هرقل هذا التجديد في العلاقة بين الشرق والغرب ، وأبى إلا أن يمسى في آثام السياسة التي فرقت بين الشعوب الشرقية والغربية ، وبهذا جدد الروم على سياستهم القديمة نحو الشرق ، ثم ورثت أوروبا الحديثة عنهم هذا الجود ، والإسلام يرى منه لأنه دين تجديد ٢

في التاريخ والأدب

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوي الأستاذ في كلية اللغة العربية

— ٥ —

يزيد بن المهلب :

كانت ولاية يزيد بن المهلب العراق حدثاً كبيراً ، إذ أنه أول يمان اضطلع بهذه الولاية ذات الشأن حينذاك ، وما عهد الشعب الإسلامي بها منذ عهد لواءها معاوية لزياد إلا أن يحمل لواءها مضرى مهوب من : عبيد الله بن زياد ثم الحجاج ثم قتيبة بن مسلم ، فساورت النفوس أن استوى يزيد على العراق هو اجس ترددت في جنباتها ، أن يلى شؤونهم من ليس مضرباً ؟ لكنهم كظموا غيظهم وكنتموا ما في نفوسهم ذعراً من سلطان القوة وسوط الحكم ، وترصوا بيزيد الدوائر حتى يبدوا ما في دخالهم وينفتوا ما في صدورهم ، فلا مرية أن ولاية يزيد هي التي لغت المضربين إلى الاستصراخ بالخلفاء في إقصاء اليمانيين وإدناء المضربين : قيسيين وخندفين ، حتى ملأت الخندفية الأفواه ، وتحركت بها ألسن العامة والخاصة ، وما كان لها كثير ذكر من قبل ، فسترى بعد قتل يزيد ودولان دولته كثرة المناداة بهذه العصية التي صارحوا بها بعد كتبهم أمداً بعيداً .

على أنه من الإنصاف أن يزيد لم يسند إليه الخليفة سليمان بن عبد الملك هذه الولاية عفواً ، بل منحه إياها بعد بلاء حسن في الدولة مروانية قدمه المهلب وبزوه فشارك يزيد في مظامرتها مشاركة تستوجب المجازاة بهذه الولاية الجدير بها مثله .

وإنه ليجمل أن تذكر كلمة مجملة عن المهلب وبنيه تتعرف منها كفاية المهالبة وأنهم خليقون أن تضاف إليهم المهام من الشئون ، وأن يزيد جدير بالعراق .

المهلب وبنوه :

وهب الله المهلب بنين كثيرة ، نشأهم على عرفان المكارم ، وأخذهم بالحزم إلى ارتيادها ، وصرفهم عما يشين الرجولة أيا كان : صغراً أم كبر ، وله في هذا التوجيه السديد نواذر ماثورة ، نجتزئ بواحدة منها تطلعك على شدته في دفع أبنائه للمعالي ، وعلى تقدير رعايته لما دق من الأمور كما جل ، في وقت مزاح أو شهر سلاح ، وعلى بعد نظره للنتائج والحرص على حسن الاحدثة وطيب الذكر .

وما من شك أن من يعنى بتعويد أبنائه يافعين على كريم الشيم ، فإنهم سوف يشبون عليها ويشيرون .

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وتلك النادرة نروها عن أبي الفرج الاصبهاني ، قال في الأغاني .

(كان المهلب بن أبي صفرة بخراسان نخرج إليه زياد الاجم فدهه ، فأمر له بجائزة ، فأقام عنده أياماً ، قال : فينبأ هو يشرب مع حبيب بن المهلب في دار له فيها دالية عليها حمامة إذ سمعت الحمامة فقال زياد :

تغسني أنت في ذمي وعهدي وذمة والدي من أن تضاري
وبيتك فاصلحي ولا تخافي على صغر مزغبة صغار
فإنك كلما غنيت صوتنا ذكرت أحبي وذكرت داري
ولأما يقتلوك طلبت ثاراً يباء به لأنك في جوارى

فقال حبيب : يا غلام هات القوس ، فقال زياد : وما تصنع بها ؟ قال : أرى جارتك ، قال : والله لئن رميتها لاستعدين الأمير عليك ، فأق بالقس فنزع له سهماً فقتلها ، فدخل زياد على المهلب لحديث الحديث ، فقال المهلب : على بأبي بسطام فأق بحبيب ، فقال له : أعط أبا أمامة دية جارتك ألف دينار ، فقال : أطال الله بقاء الأمير إنما كنت ألعب ، قال : أعطه كما أمرك ، فأنشأ زياد يقول :

فله عينا من رأى كقضية قضى لي بها قَرمُ العراق المهلب
ربماها حبيب بن المهلب رمية فأثبتها بالسهم والسهم يقرب

فألزمه عقل القتيل ابن حرة وقال حبيب إنما كنت ألعب
فقال زياد لا يُروّع جاره وجارة جارى مثل جارى وأقرب
قال : فحمل حبيب إليه ألف دينار على كره منه ، وشرب معه ثمانية فمر به
عليه حبيب وقد كان مضطغنا عليه فنشق قباء ديباج كان عليه ، فقال :
لعمرك ما الديباج خرقت وحده ولكنما خرقت جلد المهب
فأحضر المهب حبيباً وقال : صدق زياد ما خرقت إلا جلدى ، تبعث على
هذا فيمجنى ، وأمر لزياد بمال وصرفه (١) .

فأكاد بنو المهب يلفنون مبلغ الرجال حتى ملثوا العيون وتكونت منهم قومية ،
عنت لها جباه البغاة ، وخمدت لها نيران الفتن ، وفاضت عطايهم في ظلال
الاستقرار والأمن ، فازدهرت بلاد المشرق بمآثرهم ، إذ كانوا في الدولة المروانية
كما كان بعدهم البرامكة في الدولة العباسية ، قال ابن خلكان : « وأجمع علماء
التاريخ على أنه لم يكن في دولة بنى أمية أكرم من بنى المهب ، كما لم يكن
في دولة بنى العباس أكرم من البرامكة والله أعلم » ، وكان لهم في الشجاعة أيضاً
مواقف مشهورة ، (٢) .

ولذلك يقول بعض السادحين من شعراء الحماسة :

نزلت على آل المهب شاتياً بعيداً عن الأوطان في الزمن المحل
فما زال بن معروفهم واقتفاؤهم وإطافهم حتى حسبتهمو أهلى
والشئء العجاف أن يفوز في هاتين الدولتين العظيمتين في الإسلام بالذكر
الحسن والثناء المستطاب المهابة والبرامكة ، والأولى غير عدنانية والثانية غير
هربية ، ورجالات الدولتين على كثرة عديدهم وقوة البأس فيهم ووفرة النعيم
لديهم في قبائلهم المنتشرة لا يسجل لهم ما للوافدين عليهم من خوالد المحاسن التي
طار بها أولئك .

على أننا بعدئذ إذا ما عدلنا بين المهابة والبرامكة فإننا نرى بعد هذا التوافق

(١) الأغاني ترجمة زياد ، ١٤ ص ١٠٠ « ساسى » .

(٢) وفيات الأعيان ترجمة يزيد بن المهب ج ٥ ص ٣٢٦ مطبعة السعادة .

في المجادة ورفعته الشأن التوافق بينهما في التسهيل بهما من الخلفاء ومحاولة استئصال شأفتيهما من الوجود ، لكنهما بعد التكتبتين النازلتين بهما اختلف مآلهما ، فإن المهالبة بعد ما حل القضاء بهم كاد نسلهم يختفي من الدنيا وإن لم تنس مآثرهم ، والبرامكة استعادت ذريتهم ماضيهم وولى من حقدتهم بعض الأمصار والوزارات في الدولة العباسية . ومنعرض لهذه المعادلة قريباً عند المناسبة .

فإننا الآن بصدد الحديث عن المهالبة والتنويه بقدرهم ، ولهذا أرى لزوماً أن نذكر قصة تلتبس بها الأسباب التي هيأت للمهالبة هذه المسكاة المرموقة حتى نبوأ يزيد عرش العراق ، ونقف منها على مدى قوة المهالبة في البأس والنجدة والحزم عند اشتداد الهول واحمرار الخطب وتشمير الحرب عن ساقها ، فما يعترف به التاريخ الصادق أن المهالبة صدوا سيل الخوارج العرم الذي تزلزل منه بناء الدولة الأموية ، ولولا هم لا تنقض بناؤها ، وبعد الانتهاء من هذه القصة نفرغ للحديث عن يزيد المقصود لنا بالذات إذ هو منار تألب المضريين : عوام ، وخواص : شعراء وأدباء على التبيين .

المهالبة :

في غمرات الهيجاء بين جيش الجماعة بقيادة المهلب والقوى المتكاثفة من الخوارج بزعامة قطرى بن الفجاءة المازني ثم عبد ربه الكبير ، أرسل المهلب كعب بن معدان الأشقري إلى الحجاج الثقفي وإلى العراقيين يوقفه على جلية الأمر ويعرض عليه صورة الأحداث والغارات المتتابة ، فتوالت الأسئلة من الحجاج عن المهلب وبنيه وعن جيش المسلمين وعن عامتهم ، وتلنها الإجابات من كعب بما يملأ النفوس إعجاباً بمواقف البطولة من المهالبة مع كمال شيمهم في مناحي الحياة العامة والخاصة بين ظهري المتصلين بهم عن قرب وعن بعد ، وهذه للقصة رويت بروايات يختلف بعضها عن بعض لكنها تتلاقى في نهايتها على وصف المهالبة بالمحامد والمكارم ، وسنعمد إلى رواية المبرد روما للاختصار وجنوحاً منا إلى رجحانها على ما عداها مع إردافها بالتنبيه إجمالاً إلى المصادر الأخرى الموافقة لها في رسول الحجاج والخالفة لها فيه .

قال المبرد... فقال الحجاج له : أخبرني عن بني المهلب ، قال المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفي يزيد فارساً شجاعاً ، وجوادهم وسخيم قبضة ، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدركه ، وعبد الملك سم نافع ، وحبيب موت دُعا ف ، ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة ، قال : فكيف خلفت جماعة الناس ، قال خلفتهم بخير ، قد أدركوا ما أتملوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟ قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا ألبوا ففرسان الليث ، قال : فأيمهم كان أنجد ، قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إذا أخذنا عفونا ، وإذا أخذوا بثنا منهم ، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، كيف أفلتكم قطرى ، قال : كدناه ببعض ما كادنا به فصرنا منه إلى الذي تحب ، قال : فهلا اتبعتموه ، قال : كان الحدُّ عندنا آثر من الفلِّ ، قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ، قال : كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد ، قال : فكيف اغتباط الناس ؟ قال : نشأ فيهم الأمن وشملهم النفل ، قال : أكنيت أعددت لي هذا الجواب ، قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : فقال هكذا تكون واقه الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك (١) .

وقد اختلفت الروايات في رسول المهلب إلى الحجاج ، فتقدمت رواية المبرد التي تعين أن رسول المهلب هو كعب بن معدان الأشقري ، وتبع المبرد في هذه الرواية أبو علي القالي في الأمالى (٢) ، وقفاهما الزويرى في نهاية الأرب ، مع زيادة بيان في مجادة بني المهلب ، وذلك في مقام : ذكر ما قيل في الشجاعة والصبر والإقدام (٣) . وقد خالف كل هؤلاء ابن عبد ربه في العقد الفريد (الجملة في الوفود)

(١) الكامل شرح الرغبة ج ٨ ص ١١٤ ، ١١٥ ، الشرح : المال : السائم من الأنعام والبيات : الهجوم على العدو ليلاً ، أثراً الحد على الفل : الحد في اللغة النفاذ في النجدة ، والمراد به المجاهدة لعبد ربه الكبير ، وذلك أن الخوارج لما خلعوا قطريا وبايعوا عبدا ربه نهض بالجهاد ، وذهب قطرى إلى طبرستان ، فنهض المهلب إلى خوارج عبد ربه ولم يتبع قطريا ، فالحد عبد ربه ، والفل قطرى ، وهذا بيان المبرد في الكامل ج ٤ ص ٢٨

(٢) الأمالى ج ١ ص ٢٦٥ طبع الدار . (٣) نهاية الأرب ج ٣ ص ٢٢١ طبع الدار

إذ ذكر أن وافد المهلب للحجاج هو : مالك بن بشير ، وأن الحجاج تفاعل باسمه واسم أبيه ، وفرح لأول نظرة عند المقابلة ، والحديث بينهما يمنع طويل لو نقلناه (١) ، وكذا ابن خلكان في وفيات الأعيان ترجمة (المهلب بن أبي صفرة الأزدي) (٢) .

والخلاف في الرسول لا طائل تحته كما يقولون على أنه سواء أكان الرسول كعباً أم مالكاً فإن القصة نفسها صحيحة لا ريب فيها . وهي المسوقة لإعظام بني المهلب . في أسلوب جزل : يستهوى الألباب ، ويستلج المشاعر . وفيها هذا التشبيه : هم كالحلقة المفرغة ، الذي ينم عن المعية منشئه ومبدئه ، ولحسن وقعه واختصار لفظه تداوله الأدباء وضربوه فيما يشبه موارده إذ صار مثلاً (٣) .

هم كالحلقة المفرغة :

ولقد استجد هذا التشبيه سلف البلاغيين وخلفهم ، لما فيه من عمق المعنى ، وقوة التصوير ، واكتمال الصلة بين الطرفين كما ينبغي القائل ، وهنا يحسن الإلماع إليه ملحة بيانية .

قال الشيخ عبد القاهر في مبحث (التشبيه والتمثيل) بعد أن قسم التمثيل إلى ثلاثة : ما يقرب مأخذه ، وما يحتاج إلى قدر من التأمل والتلطف ، وما يدق ويفحص حتى يحتاج إلى فضل روية ولطف فكر ، شارحاً القسم الثالث بشيء من البسط إذ يقول فيه :

(وأما ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، فنحو قول كعب الأشقرى - وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيته ، وذكر مكانهم من الفضل والبأس فسأله في آخر القصة قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ، قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فإذا ألبوا ففرسان الليات ، قال : فأيهم كان أن نجد ، قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ؟

(١) العقد ج ٢ ص ٨٢ طبع لجنة التأليف والترجمة .

(٢) الوفيات ج ٤ ص ٤٤٠ طبع مطبعة السعادة .

(٣) راجع مجمع الأمثال أو آخره الهاء .

فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ...

فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله : هم كالحلقة ، فلا تراه إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة (١) .

وقد قلد الشيخ عبد القاهر في نسبة التشبيه لكعب الأشقرى المبرد ومن معه ولكن الخطيب القزويني لا يتابعه في هذه النسبة ، بل ينسبه - كالزحشرى - إلى (الأنمارية) وهاك حديث الخطيب في الإيضاح :

ذكر الخطيب في مبحث التشبيه أيضاً بعد أن قسم وجه التشبيه المجمل إلى ظاهر وخفي - القسم الثاني قائلاً : د ومنه خفي لا يدركه إلا من له ذهن يرتفع به عن طبقة العامة ، كقول من وصف بنى المهلب للحجاج لما سأله عنهم ، وأن أيهم أنجد ؟ كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ؟ أى لتناسب أصولهم وفروعهم في الشرف يتمتع تعيين بعضهم فاضلاً وبعضهم أفضل منه ؟ كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزائها يتمتع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً . هكذا نسبته الشيخ عبد القاهر إلى من وصف بنى المهلب ، ونسبه الشيخ جارا لله العلامة إلى الأنمارية ، قيل هى فاطمة بنت الخرشب ، سئلت عن بنى أيهم أفضل ؟ فقالت عمارة ، لا بل فلان لا ، بل فلان ، ثم قالت تكلمتم إن كنت أعلم أيهم أفضل ؟ هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ؟ .

تلك الدقة من القزويني لا تعود إلا بالإرشاد إلى الصواب في معرفة المبسك لهذا التشبيه ، ولا أثر لها من جهة الحكم على نوع التشبيه ، فإنه متفق مع الجرجاني فيه .

ولئن ذكره الجرجاني في أقسام التمثيل إنه يعده من حيث وجه الشبه بمجمل كما قال القزويني ، ولئن حسبه القزويني من أضرب المجمل إنه ليجعله تمثيلاً ، فهما ملتقيان في الأمرين : كونه تمثيلاً وكونه مجملًا إذ لا تنافي بينهما ، فالتمثيل منظور فيه إلى معنى وجه الشبه ، والإجمال مرعى فيه ذكر الوجه وعدم ذكره ، فلا أثر

لهذا الاختلاف من الناحية الاصطلاحية البتة ، وإنما الأثر من جهة التحرى
في قائل هذا التشبيه أولاً ، فلنعد إليه .

قائل هذا التشبيه الأنمارية :

بالتأمل في كلام الخطيب يستفاد : أن هذا التشبيه التمثيلي قيل في الجاهلية ، فهو
على سبيل اليقين منشأ في الجاهلية محكى في الدولة المروانية ، وأن قائله الأنمارية ،
وأنها فاطمة بنت الحرشب إحدى المنجبات في الجاهلية يروى أنه سأها أبو سفيان
حين قدمت عليه مكة حاجة في الجاهلية : أى بنيك أفضل ؟ فقالت الخ ، وأن
وافد المهلب ناقل له متحمل به فقط ، وأن ذلك الوافد ليس الأشقرى على وجه
اليقين كما قال عبد القاهر .

ويعضد ذلك ما نقله البغدادي في خزانة الأدب عن الرخشرى في مستقصى
الأمثال (أنجب من بنت الحرشب) (١) وما ذكره ثانياً للنسابة في الخزانة
أيضاً (٢) وفاطمة حرة أن تقول ما قالت ، فكانت امرأة برزة ، لها ضيافة
وسودد بين الناس ، ولقد ذكرنى هذا بمثل آخر لها قالت في وقت عصيب . وهو :
حسبك من شر سماعة :

وذلك أنه نشأت شحناه بين ابنا الربيع بن زياد البسى وبين قيس بن زهير
البنى في شأن درع ساومه فيها ، فلما نظر إليها وهو على ظهر فرسه وضعها على
القربوس ثم ركض بها فلم يردما عليه ، فاعترض قيس فاطمة أمه في ظعائن من
بنى هبس ، فاقتراد جملها يريد أن يرتنها بدرعه ، فقالت له : ما رأيت كالיום قط
قعل رجل ، أين حلك يا قيس أترجو أن تصطلم أنت وبنو زياد أبداً ، وقد
أخذت أمهم فذهبت بها يميناً وشمالاً ، فقال الناس في ذلك ما شاءوا أن يقولوا ،
وحسبك من شر سماعة ، فعرف قيس ما قالت فغلى سبيلها ، فقالت - وحق ما قالت -
تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتنى صولة المستأسد الضارى (٣)

[١] الخزانة الشاهد الثامن والأربعين بعد المائتين .

[٢] الخزانة الشاهد السادس والثلاثين بعد الستائة .

[٣] المثل في مجمع الأمثال « الحاء » ونهاية الأرب > ٣ < ٣٦ طبع الدار .

ولإذا كان الحديث يجر بعضه بعضاً ، فبعد أن عرفت أن البيايين استشهدوا
لبديع التمثيل بقول الأنمارية كذلك استشهد النحاة بقول بعض العرب عنها فيمن
أنجبت معلناً أنفرادهم عزاً وسؤدداً .

شاهد نحوى :

من شواهد النحاة على زيادة (كان) قال الزمخشري في المفصل (قسم الأفعال)
مبحث أوجه (كان) : ومن كلام العرب : ولدت فاطمة بنت الخرشب السكلة من
بنى عيس لم يوجد كان مثلهم ، وقد علق شارحه ابن يعيش على هذا الشاهد
بتفصيل علمياً وتاريخياً [١] .

إن الحديث عن الأنمارية لا يمل منه وإن امتد ، إذ ليس يخلو من شذرة علمية
أو تاريخية أو أدبية ، بيد أن سيرتها إنما عرضت تبعاً للمقال في وصف المهالبة ،
وما يذكر للناسبة ينبغي أن يقلل فيه ما أمكن التقليل ، على أن المهالبة أنفسهم
لم يقتض الإلمام عنهم بكلمة إجمالية تشير إلى ما بلغوا من نخار في المحارم إلا التهديد
لأحدهم : يزيد بن المهلب ، لترى أنه من الفروع البواسق التي حوتها الدوحة
العالية ، فكان حرياً أن يقوم بعظام الأمور ، وليس عجيباً أن يولى العراقيين ،
فيغدو مناط الآمال ، ومحط الرحال ، ومنتجع العافين ، وعمدوح الشعراء مضربين
وغير مضربين ، خندين وغير خندين ، والناس مجبولون على مصانعة المجدود ،
والاحتفاء به دون رطابة للجنسية أيا كانت :

والناس من يلقى خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطيء المهبل

وما فتى شأنه متزايداً حتى قلبت الأيام ليزيد ظهر المجن ، وقتله بنو مروان
فانقلب المداحون له ذامين فيه ، وتألّب الشعراء المضربون على ثلب آل المهلب
جميعاً ، وربطت بينهم علائق الكراهة لليمنيين ، فهبوا يستغيثون بنو مروان
الخندين ألا يمكنوا لهم في التحكم في المضربين ثانياً .

وشأن يزيد هذا في جملة يحتاج إلى التفصيل في مقال آخر لأنه المقصود بالذات
من أول الأمر ، لأنه الذي أرث نار الخندفية واليمينية .

أسباب الاختلاف بين أئمة المذاهب الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى - كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

- ٣ -

أسباب الاختلاف التي تخص بها السنة

بلوغ الحديث أو عدم بلوغه - قبول الحديث أو عدم قبوله - أمثلة من نقد الحديث : نقد ابن حزم لحديث في زكاة الفطر - نقد الحنفية لحديث الصراة - تحقيق في أساس القبول : لا ينبغي أن ترفض الرواية لمجرد صدورها من مخالف في المذهب - القول عليه هو كون الراوى صادقا - رأى الراوى - رأى ابن حزم - هل يجب بيان سبب التعديل والتجريح - السنة تأخذ برواية الشيعة والشيعة تأخذ برواية السنة والعبرة عند الجميع بصدق الراوى .

* * *

من أهم أسباب الاختلاف في السنة :

- ١ - بلوغ الحديث أو عدم بلوغه : ٢ - قبول الحديث أو عدم قبوله :
- (١) من جهة النظر في السند : (ب) ومن جهة النظر في المتن :
- أولا : بلوغ الحديث أو عدم بلوغه :

(١) كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين أخذوا منه

وروا عنه ، وكانوا متفاوتين في حفظهم من الأخذ ، وفي إقبالهم على الرواية ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسأل عن المسألة ، ويحكم بالحكم ، ويأمر بالشئ أو ينهى عنه ، ويفعل الشئ أو يعرض عنه ، فيبى ذلك من يحضره ، ويغيب عن غاب عنه .

فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تفرق أصحابه في البلاد ، فأخذ أهل كل بلد عن لديهم من الأصحاب ، وفي ذلك يقول ابن حزم : « فقد حضر المدني ما لم يحضر البصري ، وحضر البصري ما لم يحضر الشامي ، وحضر الشامي ما لم يحضر البصري ، وحضر البصري ما لم يحضر الكوفي ، وحضر الكوفي ما لم يحضر المدني ، كل هذا موجود في الآثار ، وفي ضرورة العلم بما قدمنا من مغيب بعضهم عن مجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الاوقات ، وحضور غيره ، ثم مغيب الذي حضر أمس وحضور الذي غاب ، فيدرى كل واحد منهم ما حضر ، وبفوته ما غاب عنه ، هذا معلوم ببديهة للعقل ، وقد كان علم التيعم عند عمار وغيره ، وجهله عمر وابن مسعود فقالا : لا يتيعم الجنب ولو لم يجد الماء شهريين ، وكان حكم المسح عند علي وحذيفة رضي الله عنهما وغيرهم ، وجهلته عائشة وابن عمر وأبو هريرة وهم مدنيون ، وكان توريث بنت الابن مع البنت عند ابن مسعود وجهله أبو موسى . . . (١) » .

(١) فن أمثلة ذلك ما أخرجه مسلم من أن ابن عمر كان يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن ردوسهن ، فسمعت عائشة بذلك فقالت : يا عجبا لابن عمر هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن ردوسهن ، أفلا يأمرهن أن يحلقن ردوسهن . لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من إناء واحد ، وما أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات .

(٢) ومنها ما ذكره الزهري من أن هنداً لم تبلغها رخصة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المستحاضة - وهي التي ينزل عليها الدم بعد أقصى مدة الحيض - فكانت تبكي لأنها لا تصل .

(٣) ومنها ما روى عن رفاع بن رافع قال : بينا أنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذ دخل عليه رجل فقال يأمر المؤمنين ، هذا زيد بن ثابت يفتي الناس في المسجد برأيه في الغسل من الجنابة ، فقال عمر : على به ، فجاء زيد ، فلما رآه عمر قال : أيّ عدوّ نفسه ! قد بلغت أن تُفتي الناس برأيك ؟ فقال : يأمر المؤمنين ، والله ما فعلت ، ولكن سمعت من أعمامى حديثاً فحدثت به من أبي أيوب ، ومن أبي بن كعب ، ومن رفاع بن رافع ، فقال عمر : على برفاعة ابن رافع فقال : قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدكم المرأة فأكسَل أن يغتسل ؟ فقال : قد كننا نفعل ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . لم يأتنا فيه عن الله تحريم ، ولم يكن فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيء ، فقال عمر : ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلم ذلك ؟ قال : ما أدري . فأمر عمر بجمع المهاجرين والانصار ، لجمعوا وشاورهم ، فشار الناس أن لا يغسل ، إلا ما كان من معاذ وعلى ، فإنهما قالا : إذا جاوز الختان الختان وجب الغسل ، فقال عمر : هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم ، فمن بعدكم أشدّ اختلافاً ؟ فقال على : يأمر المؤمنين إنه ليس أحد أعلم بهذا - من شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - من أزواجه ، فأرسل إلى حفصة ، فقالت : لا علم لي ، فأرسل إلى عائشة ، فقالت : إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل فقال : لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضرباً - يريد عدم الاغتسال من الإكسال - (١) .

٢ — ثم جاء بعد ذلك عصر التابعين فأخذ كلٌّ بما علم من رواية عن الصحابة ، وغاب عن بعضهم كذلك ما علمه غيرهم ، ثم أتى بعد التابعين فقهاء الأمصار ، كأبي حنيفة ، وسفيان ، وابن أبي ليلى ، وابن جريج ، ومالك ، وابن الماجشون ، وعثمان البتي ، وسوار ، والأوزاعي ، والليث ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وغيرهم ، فمنهم من كان في السكوفة ، ومنهم من كان بككة ، ومنهم

من كان بالبصرة ، ومنهم من كان بالمدينة ، ومنهم من كان بالشام ، ومنهم من كان بمصر... الخ .

فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم ، واجتهادهم فيما لم يجدوه عندهم وهو موجود عند غيرهم (١) .

ثانياً : قبول الحديث أو عدم قبوله :

قد يقبل بعض المجتهدين حديثاً لنوافر شروط القبول في نظره ، ويردّه آخر لعدم توافر شروط القبول عنده ، ويقع ذلك على وجوه منها ما يرجع إلى السند ، ومنها ما يرجع إلى المتن .

١ — فما يرجع إلى السند :

(١) ما استدل به الشافعية من حديث مروى عن عبادة بن الصامت حيث قال : د صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبح فنقلت عليه القراءة فلما انصرف قال : إني أراكم تفرمون وراء إمامكم ، قال قلنا يا رسول الله إى والله . قال : لا تفعلوا إلا بأمر القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها ، رواه أبو داود والترمذى .

وقد استدل الشافعية بهذا الحديث فيما استدلوا به على وجوب قراءة الفاتحة على المأموم ، وفي هذا الحديث يقول ابن قدامة المقدسى صاحب المغنى : حديث عبادة لم يروه غير ابن إسحق ونافع بن محمود بن ربيع ، وابن إسحق مدلس ، ونافع أدنى حالاً منه .

وهذا النوع كثير ، وهو أساس هام من أسس الخلاف ، ولا سيما بين السنة والإمامية والزيدية ، فكل فريق منهم يرى أحاديث ثبتت عنده لا يراها الآخر ، بسبب تجريحهم من رواها ، أو عدم الأخذ عنه لآمر آخر قام لديهم (٢) .

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٢٦ ج ٢

(٢) لنا في هذا الشأن تعقيب سيمر بك قريباً .

(٢) ومن ذلك اختلافهم في العمل بالحديث المرسل - وهو قول غير الصحابي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فبعضهم يرى العمل به ، وبعضهم لا يرى ذلك . قال ابن الصلاح : الاحتجاج به مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابهما في طائفة ، والشيعية يأخذون بالمرسل إذا علم من حال مرسله أنه لا يرسل عن غير الثقة فينظّمونه في سلك الصحاح ، كمراسيل محمد بن عمير (١) .

ويقول ابن كثير : إن الاحتجاج به محكى عن الإمام أحمد بن حنبل في رواية ، وأما الشافعي فنص على أن مراسلات سعيد بن المسيب ، حسان ، قالوا : لأنه تتبعها فوجدناها مسندة ، والذي عول عليه كلامه في الرسالة ، أن مراسيل كبار التابعين حجة إن جاءت من وجه آخر ولو مرسل ، أو اعتضدت بقول صحابي أو أكثر العلماء ، أو كان المرسل لو سمي لا يسمى إلا ثقة ، فحينئذ يكون مرسله حجة ولا ينتهي إلى رتبة المتصل (٢) .

(٣) وقد يقع في نفس من بلغه الحديث أن رواه قد وهم ولم يحفظ .

وقد نقل مثل هذا عن الصحابة وعن بعدهم :

ومن أمثلة ذلك على عهد الصحابة : ما فعلته عائشة في الخبر الذي رواه ابن عمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، من أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقضت عائشة عليه بأنه لم يأخذ الحديث على وجهه : مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على يهودية يبكي عليها أهلها فقال : دإنهم يبكون عليها وإنها تعذب في قبرها ، فظن العذاب معلولا للبكاء فجعل الحكم عاما على كل ميت .

وشبهه بهذا فيما بعد الصحابة ما رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن محمد الطلحي عن ثابت بن موسى العابد الزاهد عن شريك الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعا : د من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، قال الحكم : د دخل ثابت على شريك وهو يلى ويقول : حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال ،

(١) الرسالة « الوجيزة » للشيخ بهاء الدين العاملي ص ٣ طبع إيران .

(٢) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٣٨ - ٣٩ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، - وسكت ليكتب المستمل - فلما نظر إلى ثابت قال : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقصد بذلك ثابتاً لزهده وورعه ، فظن ثابت أنه من ذلك الإسناد فكان يحدث به ، وقال ابن حبان : « إنما هو قول شريك قاله عقب حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً » يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ، فأدرجه ثابت في الخبر (١) .

٢ - وما يرجع إلى المتن :

(١) فقد ابن حزم للحديث قيل إن الحسن رواه عن ابن عباس جاء فيه أنه خطب في آخر رمضان على منبر البصرة فقال : أخرجوا صدقة صومكم ، فكان الناس لم يعلموا فقال : مَنْ ههنا من أهل المدينة ؟ فقوموا إلى إخوانكم فقلوهم فإنهم لا يعلمون : فرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الصدقة صاعاً من تمر أو شعير أو نصف صاع من قمح على كل حر أو مملوك ، ذكر أو أنثى ، صغير أو كبير ، فلما قدم على رأى رخص الشعير . قال قد أوسع الله عليكم فلو جعلتموه صاعاً من كل شيء .

قال ابن حزم : وهذا الحديث قبل كل شيء لا يصح لوجوه ظاهرة .

أولها : أن الكذب والتوليد والوضع فيه ظاهر كالشمس ، لأنه لا خلاف بين أحد من أهل العلم بالأخبار أن يوم الجمل كان لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين تم أقام على بالبصرة في جمادى الآخرة ، وخرج راجعاً إلى الكوفة في صدر رجب ، وترك ابن عباس بالبصرة أميراً عليها ، ولم يرجع على بعدها إلى البصرة ، هذا ما لا خلاف فيه من أحد له علم بالأخبار ، وفي الخبر المذكور ذكر تعليم ابن عباس أهل البصرة صدقة الفطر ، ثم قدم على بعد ذلك ، وهذا هو الكذب البحت الذي لا خفاء به ، ووجه ثان أن الحسن لم يسمع من ابن عباس أيام ولايته البصرة شيئاً ، ولا كان الحسن حينئذ بالبصرة ، وإنما كان بالمدينة - هذا مما لا خلاف فيه بين أحد من نقلة الحديث ، وأيضاً وجه ثالث

فإنه حديث مفتعل لا يصح ، لأن البصرة فتحها وبنائها - سنة أربع عشرة من الهجرة - عتبة بن غزوان المازني - بدرى مدني - ووليها بعده المغيرة بن شعبه ، وأبو موسى ، وعبد الله بن عامر ، وكلهم مدنيون ، ونزلها من الصحابة أزيد من ثلاثمائة رجل ، منهم عمران بن الحصين ، وأنس بن مالك ، وهشام بن عامر ، والحكم بن عمرو ، وغيرهم ، وفتحت أيام عمر بن الخطاب ، وتداولها ولاته ، إلى أن وليها ابن عباس بعد صدر كبير من سنة ست وثلاثين من الهجرة فلم يكن في هؤلاء من يخبرهم بزكاة الفطر ، بل ضيعوا ذلك وأهملوه ، واستخفوا به أو جهلوه مدة أزيد من اثنين وعشرين عاما : مدة خلافة عمر بن الخطاب ، وعثمان رضوان الله عنهما ، حتى وليهم ابن عباس بعد يوم الجمل ؟ أنرى عمر وعثمان ضيعا لإعلام رعيتهما هذه الفريضة ؟ أنرى أهل البصرة لم يحجوا أيام عمر وعثمان ، ولا دخلوا المدينة فغابت عنهم زكاة الفطر إلى بعد يوم الجمل ؟ إن هذا هو الضلال المبين ، والكذب المفترى ، ونسبة البلاء إلى الصحابة رضوان الله عليهم ، إن هذا الخبر ما يدخل تصحيحه في عقل سليم ، وما حدث الحسن - والله أعلم - بهذا الحديث إلا على وجه التكذيب له ، لا يجوز غير ذلك (١) .

ولا شك أن هذا نقد جيد يدل على تعمق في البحث ، وطول باع .

ومن ذلك موقف الحنفية من الحديث المعروف بحديث «المصراة» (٢) ، وهو ما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا تُصَرُّوا الإبل والغنم ، فمن ابتاعها بعد فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها : إن شاء أمسك ، وإن شاء ردها وصاعا (٣) من تمر .

(١) الإحكام لابن حزم ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) المصراة : هي الدابة التي ربط ضرعها ليجمع اللبن فيه ، من قولك : صريت الماء في الحوض - بتخفيف الراء المفتوحة وتشديدها إذا جمعتها - والبائع يفعل ذلك ليؤم المصترى أن لبنها كثير ، غشا له .

(٣) الصاع مكيال قديم قدر بقدرين وثلاث قدح .

فقتضى هذا الحديث أن للشترى أن يرد ، وعليه في هذه الحالة أن يدفع للبائع صاعاً من تمر ، سواء أكان اللبن قليلاً أم كثيراً ، وأن اللبن لا يرد للبائع كأن التمر بدل منه .

وثبت الخيار بالتصيرية بين الرد والإمسك هو مذهب الجمهور ، وبه قال عبد الله بن مسعود ، وابن عمر ، وأبو هريرة ، وأنس ، والشافعي ، ومالك ، والليث ، وابن أبي ليلى ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو يوسف ، وزفر ، أخذاً بهذا الحديث .

وقال أبو حنيفة : لا يثبت بذلك خيار ، لأن نقصان اللبن ليس بعيب ، ولهذا لو وجدها ناقصة اللبن عن أمثالها لم يثبت له الخيار .

ولذلك يرد كثير من الحنفية هذا الحديث ، ولا يثبتون الرد بالتصيرية ، ولا يوجبون رد الصاع من التمر ، لأن هذا يخالف الأصول الفقهية في نظرهم ، من جهات :

من جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر - والتمر ليس مثلياً ولا قيمياً للبن ، والقاعدة أن ضمان المثليات يكون بمثلها ، والقيميات بقيمتها .

ومن جهة أنه قد حدد قدر الضمان بالصاع ولم ينظر إلى كمية اللبن ، والقاعدة عندهم أن الضمان إنما يكون بقدر التالف .

ومن جهة أن اللبن ضمن فيه بالتمر مع بقائه ، والقاعدة أن الأعيان إنما تضمن عند هلاكها (١) .

والشيعة الإمامية يرون التصيرية من قبيل التدليس ، وإن لم تكن عيباً ، ويقولون : إذا ردها رد معها اللبن الذي احتلبه منها ، ولو فقد دفع مثله ، ويعتمدون في ذلك على خبر آخر رواه أبو داود في سننه ، كتاب البيوع ، الباب ٤٦ ، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من ابتاع محفلة (٢) فهو بالخيار ثلاثة أيام فإن

[١] راجع نبيل الأوطار للشوكاني ص ٢١٦ ج ٥ طبع المطبعة العثمانية ، وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ص ٢٥٠ ج ٢ ، ثم تذكرة الفقهاء للحلي الإمامي ص ٣٦٦ ج ٧ وفيها رأى الإمامية .
[٢] هي المصرة ، وسميت محفلة لأنه جمع فيها اللبن ، ولهذا سمي اجتماع الناس محافل .

ردھا ردّ معها مثل أو مثليّ لئھا قبحا ، وعلى هذا فقد یزید الواجب على الصاع من الثمر وقد ینقص ، وهذا الحديث الآخر هو الذى یوافق قاعدتهم فى اعتبار التصرية تدلیساً یوجب الرد ، وفى رد اللبن أو مثله لانه ملك البائع ، وحملوا الحديث الآخر - لو ثبت - على صورة ما إذا تعذر اللبن ومثله مع مساواة الصاع لقیمته . فتحصل أن فريقا یعدھا عییا ویثبت بها الخيار ، على ما جاء فى الخبر الاول ، وأولئك هم الجمهور ، وفريقا یعدھا تدلیساً ولیست بعیب ، ویثبتون بها الخيار ، واللبن أو قیمته إن لم یسكن ، وهم الإمامية ، وفريقا لا یعدھا عییا ولا تدلیساً ، وذلك قول أبی حنیفة ومن تبعه .

(٤) وبعضهم یرى عدم العمل بالحديث الذى تركه أهل الفقه والفتوى مع عدم الطعن فى روايته .

ومن یرون ذلك : أبو حنیفة ومالك والشیعة الإمامية ، لأن إهمال الفقهاء له وعدم عملهم به مع أنه منهم على مرأى ومسمع یكشف عن وجود قرينة تستدعى الإعراض عن ذلك الحديث بالخصوص ، وإن كان الراوى له صادقا (١) ، أما الشافعى فإنه یرى العمل به لقوته .

ومثال ذلك حديث الثلمتين ، فإنه حديث صحیح روى بطرق كثيرة ، ولكنه لم یظهر فى عهد سعید بن المسیب ، والزهري ، ولم یمش علیه المالكية ولا الحنفية وعمل به الشافعية (٢) .

هذه أمثلة أردنا أن نبین بها الاختلاف الراجع إلى العمل ببعض الأحادیث من جانب وتركها من جانب آخر ، ولم نرد الاستقصاء فى الأنواع ولا فى الأمثلة .

تحقیق فى أساس القبول والرد من حیث السند :

ونود أن نقول هنا كلمة عن رأینا فى الخلاف الذى سببه استمساک كل فريق

(١) كتاب « مع الشيعة الإمامية » لفضيلة الأستاذ الشیخ محمد جواد مغنیه رئیس المحكمة

العليا بیروت ص ٧٣

(٢) « حجة الله البالغة » للدهلوی ص ١٤٧ ج ١

بما جاء عن طريق روايته ، ورفضه الأخذ بما جاء عن طريق رواة مخالفه ، فنقول : إن هذا النوع من الخلاف لا مبرر له ، ولا ينبغي أن يعتد به في الفقه ، ونستطيع - نحن معاصر المتأخرين من مختلف المذاهب الإسلامية - أن نتخلص منه ونسير على أساس آخر هو أن ننظر من حيث السند إلى صدق الراوى وضبطه ، أو كذبه وغفلته ، ولا شأن لنا بكونه يرى كذا في المعارف الكلامية أو في الأمور التي لا تتعلق بأصول الدين ، ما دام لا يعتقد جواز الكذب لتأييد مذهبه ، ونؤيد هذا الرأي بما يأتي :

أولا : انه لا ارتباط بين ما يعتقد الإنسان وما يتصف به من الصدق أو الكذب أو الضبط أو السهو ، فكم من صادق ضابط في روايته ، وهو مع ذلك يعتقد شيئا هو مخطئ فيه ، وكم من مصيب فيما يعتقد ولكنه مع ذلك معروف بالكذب أو بالغفلة ، ونحن مكلفون بالعمل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أى طريق صحيح منضبط ، لا من طريق معين دون سواه .

نعم إن العلماء يردون رواية الكافر ، وهذا ليس سببه أنهم لا يتصورون الصدق منه ، أو يتصورون غلبة الكذب عليه ، ولكن يتصورون فيه أن عداوته للمسلمين تحمله على محاولة تضليلهم ، وإفساد دينهم ، أما المخالف من أهل القبلة ما دام لا يرى الكذب لنصرة مذهبه جائزا ، فإن المحققين من العلماء لا يرون رد روايته لمجرد خلافه ، وهذا هو الإنصاف ، لأن كلا من المتخالفين متأول في أمر ليس من الأصول التي لا مناص من الإيمان بها ، فأحدهما لا يكفر الآخر بمخالفته ، فلا يكون منصفاً إلا إذا عذره واحترم حقه في الاجتهاد والنظر ، فله أن يقول لصاحبه : أنت مخطئ في رأيك ، وليس له أن يقول له : أنت كاذب في روايتك لأنك مخطئ في رأيك .

قال الإمام غفر الدين الرازى : « أجمعت الأمة على أنه لا تقبل رواية كافر ، من يهودى أو نصرانى - إجماعا - سواء علم من دينه الاحتراز عن الكذب أو لم يعلم - أى لأن مخالفته في الدين تجعله عدواً للمسلم ، وتجعل الشأن فيه عدم النصيحة

وعدم تحرى الصدق - قال : والمخالف من أهل القبلة - إذا كفرناه كالجسم وغيره - هل تقبل روايته أم لا ؟ والحق أنه إن كان مذهبه جواز الكذب لا تقبل روايته وإلا قبلناها وهو قول أبي الحسين البصرى (١) .

هذا كلام الإمام الرازى ، ولا شك أنه رأى منصف بل إننا نستطيع أن نصفه بالتسامح ، لأنه جعل الجسم ممن تقبل روايته فما بالك بمن لا يصل مذهبه إلى القول بالتجسيم ؟

ولابن حزم فى ذلك كلام جيد قال :

« هل تقبل نقل أهل الأهواء وروايتهم ؟ فقولنا فى هذا - وبالله تعالى التوفيق - أن من يشهد بقلبه ولسانه أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وأن كل ما جاء به حق ، وأنه يرى من كل دين غير دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو المؤمن المسلم ، ونقله واجب قبوله إذا حفظ ما ينقل ، ما لم يمل عن إيمانه إلى كفر أو فسق ، وأهل الأهواء ، وأهل كل مقالة خالفت الحق ، وأهل كل عمل خالف الحق ، مسلدون أخطأوا ما لم تقم عليهم الحجة ، فلا يكدر شئ من هذا فى إيمانهم ولا فى عدالتهم ، بل هم ماجورون على ما دانوا به من ذلك وعملوه أجراً واحداً ، إذا قصدوا به الخير ، ولا إثم عليهم فى الخطأ ، لأن الله تعالى يقول : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم » ، ونقلهم واجب قبوله كما كانوا ، وكذلك شهادتهم ، حتى إذا قامت على أحد منهم الحجة فى ذلك من نص قرآن أو سنة ، ما لم تخصص ولا نسخت ، فأبى تهادى على التدين بخلاف الله عز وجل ، أو خلاف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو نطق بذلك : فهو كافر مرتد ، لقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، الآية » - وإن لم يدن لذلك بقلبه ، ولا نطق به لسانه . لكن تهادى على العمل بخلاف

(١) راجع حاشية روضة الناظر المسماه (نزهة الخاطر العاطر) للشيخ عبد القادر أحمد بن مصطفى بدران الرومى ثم الدمشقى - ص ٢٨١ ج ١ وما بعدها - طبعة المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٢ .

القرآن والسنة ، فهو فاسق بعمله ، مؤمن بعقده وقوله ، ولا يجوز قبول نقل كافر ولا فاسق ولا شهادتهما ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ، الآية » ، وقد فرق بعض السلف بين الداعية وغير الداعية - يرد الداعية لمذهبه - وهذا خطأ فاحش ، وقول بلا برهان ، ولا يخلو المخالف للحق من أن يكون معذوراً ، بأنه لم تقم عليه الحجة ، أو غير معذور لأنه قامت عليه الحجة ، فإن كان معذوراً ، فالداعية وغير الداعية سواء ، كلاهما معذور مأجور ، وإن كان غير معذور لأنه قد قامت عليه الحجة ، فالداعية وغير الداعية سواء وكلاهما إما كافر كما قدمنا ، وإما فاسق كما وصفنا وبالله تعالى التوفيق (١) .

ويقول الطوفي الحنبلي : إن المحدث إذا كان ناقداً بصيراً في فنه جاز له أن يروى عن جماعة من المبتدعة الذين يفسقون بيدعتهم كعباد بن يعقوب - وكان غالباً في التشبيع - وحرير بن عثمان - وكان يبخض علياً رضي الله عنه (٢) .

وبما يتصل بهذا أن أهل الأصول قد تكلموا في قبول التعديل والتجريح ، إذا لم يبين سببهما ، فالتعديل لا يشترط بيان سببه استصحاباً لحال العدالة ، وعن يقول بذلك الإمامان : أحمد بن حنبل والشافعي ، وفي ذلك دليل على أن حال المسلم محمول على العدالة الإسلامية ، ومذهب أبي حنيفة أن محمول الحال من المسلمين يعتبر عدلاً وتقبل روايته من حيث العدالة ، واستشهدوا لذلك بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل شهادة الأعرابي برؤية الهلال ولم يعرف منه إلا الإسلام ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني رأيت الهلال - يعني رمضان - فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ فقال نعم - رواه أبو داود وغيره وروى أيضاً عن عكرمة مرسلًا بمعناه وقال : فأمر بلال فنادى في الناس أن يصوموا وأن يقوموا ، وفي رواية النسائي قال : « يا بلال أذن في الناس فليصوموا غداً » .

(١) الإحكام لابن حزم ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ج ٢ .

(٢) راجع « نزهة الخاطر » في الموضع الذي سبق ذكره .

وأما سبب الجرح فيشترط بيانه ، وعن يقول بذلك الشافعي وأحد في أحد قوايه ، وذلك لاختلاف الناس في سبب الجرح ، واعتقاد بعضهم مالا يصلح أن يكون سبباً للجرح جارحاً ، كشرب النبيذ متأولاً ، فإنه يقدح في العدالة عند مالك مثلاً ، ولا يقدح عند الحنفية ، وكمن يرى إنساناً يبول قائماً فيبادر بحجره لذلك ، ولا ينظر في أنه متأول مخطيء أو معذور ، لما في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بال قائماً لعذر كان به ، فينبغي بيان سبب الجرح ليكون على ثقة واحتراز من الخطأ والغلو فيه ، قال الطوفي رحمه الله تعالى . . . ولقد رأيت بعض العامة وهو يضرب يداً على يد ويشير إلى رجل ويقول : ما هذا إلا زنديق ، ليتنى قدرت عليه فأفعل به وأفعل ، فقلتُ ما رأيت منه ؟ فقال رأيت أنه وهو يحجر بالبسمة في الصلاة (١) .

ثانياً : أنه ليس في المذاهب الستة (المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة والإمامية والزيدية) من يرى جواز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد صح عنه أنه قال : . . . من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، وقد جاء هذا الحديث بلفظه أو بمعناه في روايات صحيحة في هذه المذاهب ، وقد بلغ من تشديد الشيعة الإمامية في ذلك أنهم يجعلون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفسداً للصوم ، وأنه إذا وقع عمداً من صائم في رمضان ، وجب عليه القضاء والكفارة كما يجبان على من تعمد سائر المفطرات (٢) .

ثالثاً : قد بينا من قبل أن خلاف هؤلاء جميعاً بعضهم وبعض : ليس من قبيل الخلاف على الأصول التي يكون بها المسلم مسلماً ، وبوجودها أو جحود شيء منها يخرج من رتبة الإسلام ، وإذن فينبغي ألا ينظر في التجريح لمجرد أن الراوي يرى مذهبا من هذه المذاهب ، فبما لا يجوز أن يقول ذلك أحد من الشيعة

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٥ .

(٢) المراجعات للشيخ شرف الدين الموسوي ص ٥٠ مطبعة العرفان سنة ١٣٧٣

بالمراجعة رقم ١٤ .

عن مخالفه من شافعي أو مالكي الخ ، لا يجوز كذلك أن يقوله السني عن الإمامي أو الزيدي ولا العكس ، ولكن الممول عليه هو كون الراوي كاذباً أو ليس بكاذب .

وهذا عند التحقيق ما يعمل به السنة والإمامية والزيدية ، وإن تراءى من النظرة العاجلة أن كلا من الفريقين يرفض ما عند الآخر :

فالشيعية الإمامية مثلاً يشترطون في الحديث الذي يسمونه « الصحيح » ، أن يكون الراوي إمامياً ثبتت عدالته بالطريق الصحيح وفي الحديث الذي يطلقون عليه لفظ « الحسن » ، أن يكون الراوي إمامياً ممدوحاً ، ولم ينص أحد على ذمه أو عدالته ، وهذا إنما هو اصطلاح لم فيما يسمى « الصحيح » ، وفيما يسمى « الحسن » ، وليس كون الراوي إمامياً شرطاً في الصحة أو الحسن بالمعنى المفهوم لغة ، ويدل على ذلك - أي على أن الأمر أمر اصطلاح وتسمية - أنهم يذكرون إلى جانب هذين النوعين حديثاً يسمونه « الموثق » ، وهو ما رواه مسلم غير شيعي ولكنه ثقة أمين في النقل ، ويعملون به كما يعملون بالوعين الأولين (١) وقال أحد محققهم : « الموثق هو ما رواه العدل غير الإمامي الموثوق بنقله ، المعلوم من حاله التحرز عن الكذب والمواظبة على الحديث على ما هو عليه » ، ثم ذكر المحقق بعضاً من عملت الإمامية بروايته وليس بشيعي فقال : « ومن عملت الطائفة بروايته من أهل السنة حفص بن غياث ، وغيث بن كلوب ، ونوح بن دراج السكوني . الخ . وقال الشيخ محمد حسن الصدر في تعليقه على ذلك بكتابه « الشيعة » (٢) « فأنت ترى أن الشيعة كانت - ولا تزال - تأخذ عن السني إذا عرفت منه الصدق وعملت منه التحفظ ، ومن المعلوم أن الشيعة لا تفحص عن الحديث عند ما يرويه

[١] « مع الشيعة الإمامية » للأستاذ محمد جواد مغنية رئيس المحكمة الجعفرية العليا

بيروت ص ٧٢ وراجع في ذلك أيضاً « الرسالة الوجيزة » للشيخ بهاء الدين العامل ص ٣ .

[٢] ص ١٣٤ .

المخالف لأنه صادر من غير شيعي ، لأن طريقة الفحص تسير عليها الشيعة مع السني والشيعي من غير أى خصوصية .

وقد قبل البخارى وغيره من أصحاب كتب الصحاح التى يعتمدونها أهل السنة كثيراً من الرواة المعروفين بالتشيع ، وفى ذلك يقول الشيخ شرف الدين الموسوى الشيعي الإمامي فى كتابه (المراجعات) (١) : تشهد بهذا - يريد احتجاج أهل السنة برواية الشيعة - أسانيد أهل السنة وطرقهم المشحونة بالمشاهير من رجال الشيعة ، وتلك مصاحبهم الستة وغيرها ، تحتج برجال من الشيعة وصهم الواصفون بالتشيع والانحراف ، ونبذوهم بالرفض والخلاف والتكسب عن الصراط ، وفى شيوخ البخارى رجال من الشيعة نبذوا بالرفض ، ووصفوا بالبغيض ، فلم يقدح ذلك فى عدالتهم عند البخارى وغيره ، حتى احتجوا بهم فى الصحاح ، بكل ارتياح .

تم ذكر الشيخ الموسوى مائة من الرواة الذين أخذ بهم أهل السنة وهم من الشيعة ، ونحن نورد بعض ذلك ليتبين للقارى منهج البحث . قال : (*)

أبان بن تغلب بن رباح القارى السكوفى :

ترجمه الذهبى فى ميزانه فقال : أبان بن تغلب (م ع) السكوفى شيعى جلد لكنه صدوق ، قلنا له صدقه وعليه بدعته ، قال : وقد وثقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو حاتم ، وأورده ابن عدى وقال : كان غالباً فى التشيع ، وقال السعدى : زائع مجاهر إلى آخر ما حكاه الذهبى عنهم فى أحواله ، وعده من احتج بهم مسلم وأصحاب السنن الأربعة أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه - حيث وضع على اسمه رموزهم ، ودونك حديثه فى صحيح مسلم والسنن الأربعة عن الحكم ، والأعمش ، وفصيل بن عمرو ، وروى عنه عند مسلم ، سفيان بن عيينة وشعبة وإدريس الأودى - مات رحمه الله سنة إحدى وأربعين ومائة .

[١] ص ٤٩ .

[*] أنظر ص ٥٢ وما بعدها من « المراجعات » .

إسماعيل بن زكريا الأسدي الخلفائي الكوفي :

ترجمه الذهبي في الميزان قال : إسماعيل بن زكريا - ع - الخلفائي الكوفي صدوق شيعي ، وعده عن احتج بهم أصحاب الصحاح الستة ودونك حديثه في صحيح البخاري عن محمد بن سوقة ، وعبيد الله بن عمر ، وحديثه في صحيح مسلم عن سهيل ، ومالك بن مقول ، وغير واحد ، أما حديثه عن عاصم الأحول فوجوده في الصحيحين جميعا ، وروى عنه محمد بن الصباح ، وأبو الربيع عندهما ، ومحمد ابن بكار ، عند مسلم ، ومات سنة أربع وسبعين ومائة ببغداد ، وأمره في التشيع ظاهر معروف ... الخ .

جابر بن يزيد بن الحارث الجمعي الكوفي :

ترجمه الذهبي في ميزانية فذكر أنه أحد علماء الشيعة ، ونقل عن سفيان القول بأنه سمع جابراً يقول : انتقل العلم الذي كان في النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي ، ثم انتقل من علي إلى الحسن ، ثم لم يزل حتى بلغ جعفر (الصادق) وكان في عصره - ... وكان جابر إذا حدث عن الباقر يقول - كما في ترجمته من ميزان الذهبي - حدثني وصي الأوصياء ، وقال ابن عدي - كما في ترجمة جابر من الميزان - عامة ما قذفوه به أنه كان يؤمن بالرجعة ، وأخرج الذهبي في ترجمته من الميزان بالإسناد إلى زائدة ، قال : جابر الجمعي رافضى يشتم ... ووضع الذهبي على اسمه رمزي أبي داود والترمذي ، إشارة إلى كونه من رجال أسانيدهما ونقل عن سفيان القول بكون جابر الجمعي ورعا في الحديث ، وأنه قال ما رأيت أروع منه ، وأن شعبة قال : جابر صدوق وأنه قال أيضاً : كان جابر إذا قال أنبأنا وحدثنا وسمعت ، فهو أوثق الناس ، وأن وكيعاً قال : ما شككتكم في شيء فلا تشكولوا أن جابراً الجمعي ثقة ، وأن ابن عبد الحكم سمع الشافعي يقول : قال سفيان الثوري لشعبة لئن تكلمت في جابر الجمعي لاتكلمن فيك . اهـ كلام الشيخ شرف الدين .

والخلاصة أن المسألة في رأي المحققين ، وفيما يجب أن نأخذ به ، إنما هي

مسألة صدق أو كذب ، وضبط أو عدم ضبط . والحق أحق أن يتبع .

في النقد الأدبي :

مُسْتَقْبَلُ الشِّعْرِ

محاضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ علي العمري

المدرس بالأزهر

— ٣ —

عرضت في الحديثين السابقين لبعض الظواهر التي تشيع في شعرنا المعاصر ، وبعض الأسباب التي أدت إلى ضعف هذا الشعر وتخلفه ، وعبت على طلاب القهرة من الشعاعين وأشباعهم كسلهم العقلي ، وعزوفهم عن دراسة الآداب القديمة ، ثم نعت عليهم اندفاعهم وراء مذاهب الأدب في الغرب دون أن يفهموا حقيقة هذه المذاهب ، وفي هذا المقال نتابع الحديث عن الجريخ ، ولكم كنت آتمنى أن يكون سلبيا معافى .
ولكن لعلنا نستطيع أن نقيم بناء شائعا على أطلال متداعية .

وإذا كنا ننمى على شعرائنا التقيد بهذه المذاهب ، ونؤيد تلك المدرسة الحديثة التي تطلق الشاعر حراً يشايع إحساسه الخاص ، ويعبر عن وجداناته الذاتية ، ونراه شاعراً سواء أحس بما يخالج الجماهير ويعيش في دنياهم ، أو بقي في صومعته يغرد لنفسه ويردد مشاعرها كأنما يحيا وحده في هذا الكون الرحيب وسواء هتف بأمال قومه وآلامهم أم غنى للكواكب والنجوم والزجاج والأعاصير ، أقول إذا كنا نؤيد هذا الاتجاه فإننا نعجب أن يتجاهل الشعراء آمال قومهم ، كأنهم يعيشون في دنيا غير هذه الدنيا التي يعيش فيها الناس ، حقيقة إن الشاعر كالطير يغرد على الغصن الذي يروق له ، ولكن بجانب ذلك حقيقة أخرى ، وهي أن الشاعر رجل ذو إحساس مرهف ، وهو يحيا بين الجماعة لا في صومعة ولا في

دير ، وإذا كان يعيش بين الناس ، والدنيا من حوله تنموج بالأحداث ، وتضطرب فيها أعاصير الشر ، ثم لا تراه يغنى بآمال قومه وآلامهم ، فإننا نشك في إحساسه وشعوره ، وكيف يستطيع شاعر - مهما حاول أن يعيش في برج عاجي - أن يرى وطنه يمر بفترة حاسمة في تاريخه والدنيا كلها تغل من حوله غليان المرجل ، والدول تبرص بعضها الدوائر ببعض ، ويرى البؤس والحرمان وكوارث الأيام تحمل بقومه ، ثم يظل هائماً في العيون الدافج ، والحواجب الزجج ، والصحارى والقفار ، والنجوم والكواكب ، ألا يكون طبعياً أن يتغنى - بجانب هذه التحليلات في عوالم الخيال البعيد - بأحلام قومه ، ويعالج مشاكلهم الأساسية الملحة ؟

لست بذلك أدعو الشعراء إلى الأدب (الملتزم) ولا أريد أن يهدفوا في أشعارهم إلى غاية من الغايات التي يقتل النقاد حولها ، وإنما أدعو إلى أن يُترك الشاعر حراً ، وإذا كان حقاً صادق الشاعرية ، فسيحس بالآلام الآخرين ، وسيسهم في بناء المجتمع ، وسيبذل جهده من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السياسي والاجتماعي والفكري .

وعندي أن دعاة الأدب الملتزم - وإن أسرفوا في الدعوة إلى حمل الشعراء على غايتهم التي يرون أن الأدب يجب أن يهدف إليها - إلا أنهم معذورون في هذا الإسراف ، إذ يرون الشعراء أطلقوا لأنفسهم العنان ، وراحوا يحلقون في سماءات التجريد ، ويستثيرون الفرائز الدنيا بما ينتجون من شعر مائع رخيص ، ثم لا ينظمون بجانب ذلك في الموضوعات الكبرى إلا إذا دعوا إليها ، وإلا إذا أقيمت لهم المباريات والمسابقات في حين أنهم يتطوعون للناسبات النافذة فينظمون فيها من القصائد والمطاولات ما يعتبر عاراً على دولة الشعر .

وما بال شعراء الشباب يحرون في دائرة ضيقة من عواطفهم الطارئة ، وأخيلتهم المسفة ، فترام يهيمون في الحب ، ويُبدِثون ويعيدون في النسيب ، وإن أسرم في ذلك لعجيب ، فكل واحد منهم له (ليلي) يهيم بها ، وكل ليلي صادة هاجرة ، فليس في (الليليات) واحدة مخلصة لصاحبها ، موأية له ، وليس فيهن واحدة دون

الشمس والقمر، والكواكب الآخر، إلى لاشك كثير في صدق هذه العواطف ويبدو لي أن هذا الاتجاه في شعراء الشباب عامة ليس مرجعه إلى صدق الشعور عند الجميع، وإنما مرجعه التقليد، فهم يرون الروائع من الشعر العربي القديم، والروائع من الشعر الغربي، وكثير منها يتصل بهذه العواطف، فيظنون أن الشاعر لن يكون شاعراً حتى يرثد هذه المعاني، وحتى يقول في التشبيب وإن لم يكن محباً وأن يصور هجر صاحبه وصددها، وما خلفت على كبده من لاذع الجهر، وصاحبه بين يديه غير هاجرة ولا مُدلة، وإنما هي طوع بنانه، ومن هنا يظهر التزوير في الشعور فيظهر التزوير في الشعر، فيجىء متكلفاً بارداً .

ولقد اشتهر بيننا أمر صديق أحب وأوشك - كما فهمنا - أن يوفى به حبه على الهلاك، فكتبت إليه مرة أهون عليه الأمر، وأدعوه إلى أن يوفر جهده على درسه وعلى مستقبله، فكتب إلى يقول: « كتبت إلى تسألني هل من دلائل على أن هاتيك تحبك؟ وما كنت أحسب أنك إلى اليوم تحتاج لأن تُفهم أنها ذات رغبة في عقلية، وأنتى ذو رغبة فيها عاطفية، وأنها حاولت أن تفهمنى أن رغبتي وحى القلب، وحاولت أن أفهمها أن رغبتي وحى الحب، وكان كل منا كاذباً . »

وليست كثرة الشعر الغزلى شاهداً على أن صاحبه صادق الشعور، فن المعروف أن كثير عزّة صاحب التائية الرائعة، والأشعار الغزلية الأخرى الرقيقة لم يكن محباً مخلاً، ولكنّ راوياً كبيراً من رواة الكوفيين ثبت أنه كان صادق العاطفة بينتين قالمها، وينفى ذلك عن جميل بن معمر العُذرى الصادق الصبابة، روى أن المفضل الضبي خرج حاجاً فأناه أهل المدينة فأجمعوا على أن جميلاً أشعر من كثير قال المفضل فسلمت، علماً بأن جميلاً شاعر أهل الحجاز، ثم أجمعوا على أن جميلاً أعشق من كثير، وكنت أميل إلى كثير فقلت فأنا أذكر لكم أن كثيراً أعشق من جميل قالوا فباسم الله - إذن - قلت: ألسنم تعلون أن بثينة شمت جميلاً فبلغه ذلك فقال:

رى الله في عيني بثينة بالقذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح

قالوا : اللهم ، نعم ، قلت : وصنعتُ عزة بكثير مثل صنيع بثينة فقال كثير :
 هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلحت
 فما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت إن نفل عزة زلت
 قالوا : صدقت .

قلت : وليس في هذا الشعر إلا جودة الصنعة ، ومناسبة المعنى للغرض ،
 وبذلك نخر به كثير على جميل ، ولكن لم يقل له ، إننى أصدق منك هوى ، بل قال :
 إننى أغزل منك ؟ وشتان بينهما ، وطالما فضل جميل كثيراً بما هو أدل على الحب
 الدفين ، وألصق بالهوى العذرى .

فليس شيئاً ما يراه بعض النقاد من أن كثرة الشعر من الشاعر في غرض من
 الأغراض مع التجويد دليل صدق العاطفة ، فإني لأظن إن بعض شعرائنا مرن
 على أن يجود في غرض خاص ، فإذا تجاوزه أسف ، وهذا وإن دَلَّ على ضيق
 الأفق لكنه لا يدل على ضعف الشاعرية ، وقد كان من الشعراء الفحول في القديم
 من اقتصر في حياته على غرض واحد ، كالعباس بن الأحنف ، ولكن شعره كان
 - عن طبع - ولم يكن عن صنعة .

ومن أدلة التقليد في شعر ناشئتنا ، هذا الشعر الدينى ، فنحن نخالطهم ونتعرف
 سلوكهم ، فنجد ابتعاداً عُرْفاً عن الأخلاق ، وعن الدين وفضائله ، ثم نفاجاً في
 بعض المناسبات بقصائد دينية ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أنهم يدعون إلى
 القول في المناسبات الدينية كذكرى الهجرة ، وغزوة بدر ، والمولد النبوى ، فهم
 لا يظلمون فيها عن رغبة صادقة ، فليس بمعجيب - حينئذ - أن نعلم أن شاعراً
 نظم قصيدة من هذه القصائد ، وهو ثمل يترنخ من الخمر ، وكذلك ألقاها ، ولكن
 المعجيب أن يؤكد كاتب (إن الشعر العربى سيكون صيحة الميدان المبشرة بارتفاع
 للإسلام لا نظير له) ذلك أننا نجد شعراءنا أقرب إلى التخلل من الدين وأميل
 إلى الاستهانة بمقدساته ، ولقد قرأت كثيراً من هذا الشعر الذى يتفر الرجل الجاد عن
 سماه ، بله الرجل المتدين ، وإن روايته وحدها جرم كبير ، ولكن لا بأس أن

نثبت هنا ما دون ذلك الشعر بدرجات ، وإن كان فيه ما يعد عبثا لا يليق ، فن ذلك قول أحدهم : (دعيني أصارع الأقدار) وقول آخر وهو شاعر ظل يعمل حيناً في هيئة إسلامية - (تمنيت ما أعيا المقادر) وهكذا حتى بلغ الأمر بشيخ أزهري أن يخاطب مدوحه قائلاً (تخذوك بعد إلههم معبوداً) قال شاعرنا - وقد جرحته قوارص التقريع واللوم - ولكن للعبادة معنى آخر ، فأنا أقصده ، قلت له : كان يلزم أن تضع شرحاً وحاشية على البيت حتى لا تذهب به اللظنون ، على أنك كنت تحتاج بعد ذلك إلى تقرير ، فإن قولك (بعد إلههم) مما يضيغ معه كل دفاع ! على إنى أقرر أمراً هو أشد غرابة من كل ما سبق ، فإن شعراءنا لم يقتصر تقليدهم لغيرهم على شعر الغزل ، وعلى الشعر الديني ، وإنما قلدوا في عاطفة أخرى أخطر من هذه العواطف ، قلد شعراؤنا ، في شعر (الألم) فنذ قال شوقي في إحدى روياته (وأنبغ ما في الحياة الألم) وهم يضجون بالشكوى ، فما من شاعر أو شاعر إلا له في وصف ما يعانيه أو ما يوهنا لأنه يعانيه من آلام مبرحة أشعار ، وأشعار ، لماذا ؟ أكلهم معمود مهجور ؟ أكلهم اجتمعت عليه الموم والاحزان ؟ نعم . إن الشباب يمر الآن ، وقبل الآن ، في هذا العصر النائر البائر بما أرق نفسية واجتماعية قاصمة ، ولكن هنا حقيقة أخرى لا ينبغي أن نغفلها ، وهي أن من الشباب من يتقلب في مطارف النعيم ، ومن يحب من مباحج الحياة ومسراتها ، وهم شباب ، والشباب - وحده - نعمة كبيرة ، فلماذا لا نجد في أشعارهم غير النواح والعيول والشكوى ؟ ومن هنا كثرت في هذه الأشعار ألفاظ الزمن والدهر ، والأيام ، والاحداث ، والأشجان ، والآلام ، وما إليها ؟

القرآن والترجمة

رسالة صغيرة الحجم ، عظيمة الفائدة ، ألفها العلامة الاستاذ عبد الرحيم محمد على من النجف الأشرف تحدث فيها عن (القرآن والترجمة) مستعرضاً الخلاف في إباحتها ، معدداً تراجمه باللغات العالمية المختلفة مع بيان تاريخها ومن قام بها ، وفيها غير ذلك فوائد جمة .

عَنَا صِرَافُوهٌ فِي مَجْمَعِنَا

للمهندس الدكتور محمد محمود غالى

مدير عام مصلحة النقل السابق

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

ليسانس العلوم التعليمية - ليسانس العلوم الحرة - دبلوم المهندسخانة

العالم الإسلامى قوة باقية على الزمن - المجتمع العربى قلب.
هذا العالم الإسلامى - ما هى البلاد العربية - امكانياتنا
الزراعية عظيمة والصناعية أعظم - من الفرات ودجلة إلى
حوض النيل العظيم - السودان ووطن عربى - البصرة نهاية
الوطن العربى ولكنها بداية لعالم إسلامى أعظم - مواردنا
وسواعدا نتحم أن المستقبل لنا - نحن الأغنياء وهم الفقراء .

كثيراً ما نتساءل نحن سكان أودية النيل والفرات ودجلة وما حول هذه
الأودية : إلى أى المجتمعات ننتمى فى هذا العالم الفسيح الذى يتسابق الناس فيه
للرزق ، ويتنافس الخلق فيه لبلوغ قمة العيش ، وتضافر الأمم فيه تارة ،
وتنقسم على نفسها تارة أخرى .

ونجد الجواب على ذلك فى أننا بحكم العقيدة ننتمى إلى مجتمع إسلامى كبير
يبلغ حوالى ٤٠٠ مليون من البشر ، ينتشر من الصين شرقاً ، ويشمل جزءاً هاماً
من الهند هى الباكستان ، كما يشمل الأفغان وإيران والبلاد العربية فيمتد به إلى
المحيط الأطلسى ، وله رواسب فى روسيا وتركيا ويوغسلافيا بل الأمريكتين ،
وكان لهذا المجتمع مجد تالده وقوة جبارة لا تحتاج إلى تبيان هذا المجد وذلك القوة ،
وكلنا نعلم أنهما استندا على خلق عظيم وتسامح كريم .

وإننا لنجد جواباً آخر : أننا بحكم اللغة قوم ننتمى إلى مجتمع عربي يبلغ حوالى ٨٠ مليون نسمة ، يمتد من نهري الفرات ودجلة شرقاً ويشمل حوض النيل ، ثم يمتد إلى المحيط الاطلسى غرباً ، مجتمع يشمل العراق العربي الفسيح . ويضم سوريا ولبنان ، ويشمل شرق الاردن وفلسطين ، كما يشمل الكويت وأراضى الحجاز واليمن ، ويمتد إلى حوض النيل الخصيب ، ثم ينتمى للمجتمع ذاته إخوان في برقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهذا المجتمع 'يكون' في العالم الإسلامى الكبير نواته ، فهو قلب هذا العالم ، كما أن النواة هي قلب الذرة .

وإذا تأملنا المجتمع العربى وجدنا الإسلام قد نشأ فيه وانتشر وحكم العالم ، ووجدنا أنه مجتمع كانت له قوة ومجد ، أنصف أهله بالخلق الكريم والصراحة والإقدام والصدق في القول ، الشيء الذى يعرفه كل من طالع سيرة هذا المجتمع ووقف على صفاته ، وهو ما لمستة خلال تجوالى في شبه الجزيرة العربية ، لمست هذه الصراحة في العمل وهذا الصدق في القول ، وآمنت بما جبل عليه القوم من صفات الشجاعة والإقدام ، ولست هذا بين هؤلاء الإخوان الذين يعيشون على الفرات ودجلة وما بينهما ، لمستها في بغداد عاصمة الرشيد ، وفي الحلة وكربلاء والنجف والكوفة والبصرة وغيرها ، لمستها في الطلبة والموظفين ورجل الشارع ، ولو أردت أن أفصل بعض الأحداث التى شاهدتها بنفسى خلال عملى هناك كأستاذ للطبيعة في دار المعلمين العالية ببغداد لما وسعنى كتاب طويل للتويزه بفضل هذا المجتمع ، وما اكتمل له من صفات حميدة ، كتاب قد يكون له من الأهمية ما لرسائلى الأخرى العلمية سواء عن طمى النيل ، أو حركة السكرات ، أو رسائلى في الذرة في الأشعة الكونية أو غيرها من الرسائل والنشرات العلمية المنشورة في الخارج أو في مصر ، وقد تبذرت لى هذه الصفات العظيمة ، ومن جديد خلال مؤتمر الخريجين الذى انعقد في القدس في شهر سبتمبر من العام الماضى ، لمسنا خلقاً رفيعاً في القدس في شباب فلسطين ، وفي عمان في شباب الاردن ، وفي دمشق وبيروت في شباب سوريا ولبنان ، بل في شباب العرب عموماً .

ترى ما الذى أصابنا ، ترى كيف دارت بنا عجلة الزمن فأصبحنا على الحال الذى نحن عليه وفى الوضع الذى ألفينا أنفسنا فيه والذى يعرفه كل مسلم ولا يخفى على فطنة كل عربي ؟ ، ترى ما الذى أصابنا ونحن ننتمى إلى مجتمعين لهما هذه العظمة وهذه الخطورة ، بل لهما هذا المجد التالذ وهذا الميراث العظيم ؟ ما الذى أصاب بلاداً كانت أم المدنيات قاطبة ومهبط الأديان جميعها ، ونحن لاندعى ذلك باطلاً فأمام ناظرنا المدنية المصرية ومدنية أهل بابل وأشور ومدنية الفرس .

ترى ما الذى أصاب المجتمع العربي الذى هو قلب العالم الإسلامى الذى يعيش فيه بين ظهرانينا أقلية من إخواننا المسيحيين هم من صميم مجتمعتنا الإسلامى العربى ، فقد عاشوا وسيعيشون معنا - مدى ما أروتنا أنهارنا وغدتنا أرضنا واشتغلت سواعدا - لإخوة لنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

لنقصر كلامنا اليوم لا على الوحدة الإسلامية الشاملة وهى أقوى بكثير من الوحدة العربية إنما على المجتمع الأصغر المجتمع العربى لنصفه وترى أسباب نكبته وتلدس مواضع نكسته ، وأعتقد أن دراسة هذا المجتمع العربى لا تختلف كثيراً عن دراسة العالم الإسلامى ، فإن نكبة المجتمعين واحدة ونكستهما متشابهة ، وأساس الداء فيهما واحد ، ولنسكن فى بحثنا واقعيين ننظر للحقائق حتى يفيد الباحث مما نكتب ويفيد شباب هذه البلاد مما يطالع .

ترى ما هى موارد هذه البلاد العزيزة علينا ؟ ما ذا جعل منها فى الماضى المجد والعزة والقوة ؟ ماذا كان حالهم حتى إنهم تفوقوا على غيرهم من الأمم واكتسحت مدنيتهم ما حولهم من المدنيات ؟ ما ذا كان بأرضهم ثم بأخلاقهم ثم بدينهم حتى حكموا العالم من بحر الصين إلى المحيط الأطلسى وحتى عاشوا فى الاندلس ستة قرون كاملة ؟ أكانت لهم موارد مادية زالت اليوم ؟ أو انضبت عندهم أبواب الرزق فاضطروا أن ينكحشوا فى بلادهم يعيشون عيشة الكفاف ؟ أم أن هذه الموارد - أنهاراً كانت أو أراضى أو معادن - ما زالت موجودة دون تلف ودون تغيير ؟

كلنا يعرف أن الأرض هي الأرض لم يتبدل فيها شيء ، بل على العكس لقد اكتشف الأجانب في الوطن العربي موارد النفط الذي هو سر التقدم والصناعة في هذا العصر الذي نعيش فيه ، موارد لم يكن ليعرفها سلفنا ولم يكونوا يستخدمونها ، فهي تعتبر عاملاً جديداً - كان يجب أن يكون - لتقدمنا على غيرنا من الأمم لا لتخلفنا عن غالبية الشعوب ، موارد كان يجب أن نكون لنا لا علينا .

ولو أننا عرفنا بلادنا وما تتسع له من موارد وما تضم أراضيها من خيرات ، لأمكننا أن نثق في مستقبلنا وأن نضع إصبعنا على علة تأخرنا فنضع الحلول السريعة فنخرج من ورطتنا ونتقدم بخطى سريعة إلى الإنتاج ونصعد سلم الرقي ، ولتبدلت حياتنا فعمشنا فوق هذا السكوكب كما يعيش غيرنا من أرقى الأمم .

ولنبداً بهذا التساؤل الذي يحول في خاطر كل مفكر - ما هي البلاد العربية ؟ أو بالأحرى ما هو هذا الجزء من العالم الإسلامي الذي يعتبر الوطن العربي الأصل فيه ؟ والذي أفدر أن تعداده يبلغ حوالي ٧٥ أو ٨٠ مليوناً من البشر ، يسكن وادي النيل فيه حوالي ٣٠ مليوناً ، ويسكن غرب هذا الوادي ٢٥ ، ويسكن شرقه ٢٥ مليوناً أخرى - وأقصد بتعريف هذه النواة للعالم الإسلامي ما هي موارده ؟ وهل هي كقافلة أن يعيش أهلها في رخاء وهناك كما يعيش العالم الغربي ؟ وأين تذهب هذه الموارد وكيف تستغل وهل هذه الموارد لأهلها أو هي لغيرهم ؟

ونظرة إلى البلاد العربية ، نظرة إلى الفرات ودجلة والنيل العظيم ، نظرة إلى حقول البترول في العراق والكويت والمملكة السعودية العربية ، نظرة إلى جبال لبنان ، إلى الارز وضمهور الشوير وجبال سوريا الشقيقة إلى اليقين وبلودان ، مواضع السياحة النادرة والمناظر الخلابة ، نظرة إلى شمال أفريقيا الممتدة على البحر الأبيض المتوسط ببحر المدينيات ؛ تعرفنا أننا - كمجموعه وبالنسبة لعدد السكان الذي ذكرناه - نعتبر من أغنى بلاد العالم ، وإني أكتب هذا ليطالعه شباب العرب ذوو البأس والقوة وذوو العزة والمنعة ، ليطالعه رجال الفن مهندسين وغير مهندسين ، ليطالع عليه رجال الاقتصاد ومن بينهم من بنى جلدتنا الفطاحل في هذه

العلوم ، ليتأمل فيه رجال الإحصاء بل جميع الرجال والشباب إيا كانت العلوم والفنون والآداب التي درسوها في بلادهم أو اكتسبوها في الخارج ، وليتأملوا الصورة التي نصفها من الذاكرة للبلاد العربية التي جئنا الكثير من أراضيها ليعرفوا أننا كوحدة على هذا الكوكب الدوار من أغنى الوحدات وأن بلادنا بخير وأرضنا غنية ، وأن بلادنا من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي تتسع لأكثر من الذين يسكنونها من الأهل والإخوان ، وإذا تخيل أحد أنى مبالغ فيها أذكره ، أو أنى تحولت عن جادة الحق ، فإني أرحب بمن يردني إلى جادة الصواب .

ففي الكويت والبحرين وفي كركوك بالعراق يوجد النفط ، وهناك يتدفق البترول أنهاراً ، وفي المملكة العربية السعودية التي نتمنى لأهلها كل خير لم تصبح بلاداً غير ذى ذرع ، ولم تصبح تلك البلاد الفقيرة التي تعتمد على من يزورها سنوياً من الحجاج هنوداً ومصريين وأندونيسيين وغيرهم ، وبصرف النظر عما عند جارتنا العزيزة إيران من موارد الزيت فإن آبار الزيت في العراق والكويت والمملكة السعودية من الغنى بحيث إنها تغذى اليوم كل سيارة تجرى في إنجلترا وفرنسا وغرب أوروبا ، بل تغذى أغلبية المصانع التي تدور هناك .

وفي العراق وبين النهرين الفرات ودجلة ، تقع أخصب بلاد في العالم : ثلاثون مليوناً من الأفدنة صالحة للزراعة ، هي التبر بعينه لا ستة ملايين كالتي في مصر ، والتي يمكن بمجهود شاق أن تزداد إلى ثمانية ، وقد تدهش أن من بين هذه الثلاثين مليوناً من الأفدنة في العراق حوالي ١٥ مليوناً فداناً يمكن أن تروى رياً صيفياً ، أى رياً مستديماً بمعنى أنه من الممكن بالاعتماد على مياه النهرين أن نزرع مرتين أو ثلاثاً في السنة كما هي الحال في غالبية الأراضي المصرية .

صحيح إن المساحة المزروعة من هذه الأراضي الفسيحة التي تصل في مجموعها إلى ٣٠ مليوناً لا تتجاوز المليونين من الأفدنة وقد تقل عن هذا القدر ، ولكن كل مهندس يفهم في سهولة أن هذا الوضع لا بد أن يتغير مع الزمن ، وذلك بالقيام بالمشروعات الهندسية التي أعتقد إنها درست من قبل المسئولين العراقيين والتي

لابد أن يصلوا بها إلى الاستفادة من هذه المساحات الخصبة الشاسعة في القريب - وإن أنس لا أنس شط العرب وهو يدخل بين هذه المساحة ، تصور نهري يلتقيان ثم يسيران نهراً واحداً إلى أن يصل هذا المجرى الموحد إلى مدينة البصرة وعلى ضفاف هذا النهر وبعرض ٤ كيلو متر وبهذا الطول العظيم الذي يبلغ ٨٠ كيلو متراً توجد أغنى بقعة في النخيل - شط العرب - كلة يجب أن تهز أسماع كل عربي ليذكر أن في العراق ٦٠ ٪ من نخيل العالم .

هذه البصرة ، هذه النهاية بشط العرب ، هذه البصرة التي أنشأها عمر ابن الخطاب وإن كانت نهاية البلاد العربية فإنها بداية بلاد إسلاميه أغنى وأقوى ، إيران بحقولها البترولية الغنية وشعبها الإسلامي الصديق ثم أفغانستان فالبالكستان ، هذه هي البصرة على الخليج الفارسي تذكرنا بعمر بن الخطاب وتنادينا أبناء العروبة أنه إذا كان هنا آخر البلاد العربية فهي ليست آخر بلاد المسلمين .

وفي مصر من الممكن أن تزداد مساحة الأراضي الزراعية بمقدار الربع أو أكثر دون أن يؤثر ذلك على احتياجات السودان الشقيق الذي يمكن أن يعتمد على الأمطار الغزيرة التي تغمر كل واديه ، والذي لا ينقصه إلا الخبرة والسواعد التي يمكن أن تأتي من هنا ومن هناك طالما نحن بلاد عربية موحدة ، بل إن من الممكن أن تزداد الأراضي التي تروى من الترع كما في مصر دون أن ينقطع عنا ذلك الرزق من المياه التي تتدفق والتي لم تنقطع عنا من قبل نشأة المدينة المصرية القديمة بأكثر من أربعين ألفاً من الأعوام .

وفي السودان منابع للثروة لا تفتني فأراضيه خصبة وأمطاره غزيرة ، وهو غنى في الأخشاب بغاباته الفسيحة وأصماغه ، وهو غنى أيضاً بمعادنه ، بحيث إنه مع البلاد العربية يكون ولايات متحدة جديدة في العالم .

وفي شمال أفريقيا أراض خصبة ، ولقد هزنى ماسمته من تلك المناطق الشاسعة التي تسمى الجبل الأخضر ، وهي التي أنفق عليها الإيطاليون مائتي مليون من الجنيهات ، ثم تركوها تحت ضغط الاستعمار الإنجليزي تارة ، والأمريكي

تارة أخرى ، بل إن دهشتي كانت أعظم عند ما رأيت في ميناء روان في شمال فرنسا البواخر لا تأتي بالزيت لحسب بل أيضاً بالنييد الذي صنع في الجزائر ومراكش ، وقد كنت أعتقد أن غالبية هذه الكروم من بلادهم ، فلما نزلت في ميناء روان تحت الأرض ورأيت هذه البحور من النبيذ تفرغ من المراكب الضخمة وتنتظر المضخات لترفع بها إلى القطارات والوااري الذاهبة إلى باريس ، أدركت أنها من نتاج هذا الفلاح المسكين من إخواننا سكان شمال أفريقيا : يزرع العنب ويحوله لهم في بلاده إلى نبيذ فينقل إلى روان وغير روان بحوراً في الميناء ، يحوله لهؤلاء الأقوام التي تسكن أوربا - هؤلاء الذين يعيشون على كد غيرهم من الشعوب .

وفي مصر توجد المعادن وأهمها الحديد يتمركز في أسوان قريباً من الخزان ، وفي الواحات في الصحراء الغربية ، وفي القصير وفي سيناء في الصحراء الشرقية ، وهو لا ينتظر إلا أسواعد المصريين حيث يُصيره حديداً مصنوعاً كما يصيره الأمريكان والأوروبيون .

وفي وادي النيل الفسيح في مصر والسودان توجد المعادن الأخرى اللازمة للصناعات المختلفة حتى الفحم ، بل ويوجد اليورانيوم والتوريوم ، تلك المواد المشعة الطبيعية توجد في مصر في الفوسفات قريباً من سفاجة وفي الرمال السوداء عند مصب النيل ، ولا أشك أنها موجودة في غيرها من الأماكن الكثيرة في البلاد العربية ، وما على المهندسين والعلماء إلا أن يلتمسوا ذلك فوراً بطائرات الهيلوكبتر وجهاز عداد جيجر وميلر التي يستخدمها الآن في البلاد الأخرى شباب أقل من الكثير منا علماً ودراسة .

حتى الطبيعة حبتنا بمناخ صالح وَسَخَّرَتْ لنا رياحاً مناسبة ، فالشمس لا تنقطع عن ودياننا ، وفي الطاقة الشمسية المنفعة والخير ، ومن الممكن في المستقبل القريب أن نَسَخِّرَهَا لإدارة آلات الرفع الصغيرة ، بل وأفران الطبخ التي نرجو أن تنتشر في كل منزل وكوخ وفي كل قرية ، وإذا تأملنا نهر النيل ونظرنا إلى هذا العدد العديد من المراكب الشراعية التي تجوبه في مصر ، وهو يربى على الاتنى

عشر ألفاً، نجد أنها تناسب مع اتجاه المياه التي تندفق دائماً من جنوب الوادى إلى شماله دون أن تستخدم قلاعها ، فإذا استخدمت هذه القلاع انسابت في اتجاه الرياح من الشمال إلى الجنوب ، هذا التنظيم من الطبيعة دائم لا يتبدل ولا يتغير ، وهو يدل على أن العيش في هذا الوادى سهل غير عسير .

* * *

تلك هى البلاد العربية نراها بطبيعة أرضها أغنى مما كانت في ماضى الزمان ، وأروع ما تكون في كل مكان ، ومع ذلك فإن أكثر من نصفها واقع تحت حكم الأجنبي أو سيطرته الاقتصادية ، وكلما تخلص قطر من حكم دولة أجنبية أو سيطرتها الاقتصادية ، حاولت الدولة المتسلطة بقوتها وبمعونة غيرها من الدول الاستعمارية إرجاع هذا القطر أو غيره إلى دائرتها المرننة وحلقها الاستعمارية بشتى الوسائل التي لاتخفى اليوم على أحد ، ولهم في ذلك أساليب عديدة منها تلك الاتفاقات الثقافية وتلك البعثات التي يطلقون عليها المساعدات الفنية ، ومنها الاتفاقات الاقتصادية والشؤون الجديد الإشراف أو الهيمنة الدولية .

استمعت في شتاء هذا العام لمحاضرة قيمة للأستاذ أوسكار لانج البولندى مدير معهد التخطيط في بولاندا ، ألقاها في قاعة جمعية الحشرات بالقاهرة ، لخص فيها قوة الشعوب والأمم ، فذكر أنها تستند على عناصر ثلاثة :

أولها : أن يكون لديها موارد طبيعية سواء في ناحية الاراضى الزراعية أو مساقط المياه أو البترول أو المعادن ، ولا أشك أننا في هذه الناحية أغنى من أهل السين أو التاميز ، فهم في هذا فقراء ونحن الأغنياء ، وغنى عن البيان أن أزمة قناة السويس قد بينت بجلاء أن الثروة الطبيعية هى في الواقع ثروتنا وأنها تستغل في غير بلادنا .

وثانيها : أن يكون لها من السكان الوفرة للقيام بالأعمال المختلفة ، وأن توزع هذه السكان من ناحية العمل وإجاداته أحسن توزيع ، وأعتقد أنه إذا افتقرنا إلى حسن التوزيع فإننا لا نفتقر إلى السكان .

وثالثها : أن نستخدم في استغلال أراضيها أو معادنها أو في عمليات التصنيع أحدث الوسائل الفنية وأن تربي جيلا من الفنيين حتى يكون استخدام مواردها على أكمل وجه ، وأعتقد أننا قريبا سنصبح في هذه الناحية أيضا أغنياء ، فهذا الموضوع يتعلق بنا وبمجهوداتنا ، ولا يرتبط في شيء بأى عامل خارجى عن أرضنا أو مواردها أو إرادتنا .

تلك هي العناصر الثلاثة التي تقوم عليها الأمم ، ولأنى أضيف على ما ذكره الأستاذ الكبير أن أهم شروط النهوض بالأمم أن تتحرر بجميع الوسائل من التدخل الأجنبي عسكريا كان أو سياسيا أو اقتصاديا .

ولعلنى قصدت من هذا العرض في وصفى للوطن العربى أننى نظرت إليه كبلة واحد ، وعندما أذكر أننا أغنياء وهم الفقراء إنما قصدت أننا جميعا وكمجموعة من بلاد مترابطة أغنياء ، ولا يمكن اعتبار كل قطر بمفرده غنياً في ذاته ، فصر بمفردها ودون السودان ، أو دون العراق غير مصر متحدة مع السودان ومع العراق وما يقال عن مصر يقال عن العراق وسوريا وأى بلد آخر .

على اننى أعتقد أننا حالياً في طريق استكمال كل عناصر التقدم ، ولا ينقصنا إلا أن نتعاون ونتحدا لا تعاوناً في الخطب ولا اتحاداً على الورق وفي اللجان التي تعددت والمؤتمرات التي ملتها جبهة الشعوب ولكن تعاوناً فعلياً واتحاداً واقعياً ، وأن تقوم الأدلة المحسوسة على ذلك ، وألا يكون أى طرف من هذا الوطن العربى الشاسع لقمة سائغة للغير ، ولقد ذكرنا أن أول علامات تقدمنا هو أن نتخلص جميعاً من هؤلاء الذين نكبوننا في الماضى وتحكموا في مصائرنا من البلاد الأجنبية ، ومن كل من يعاونهم اليوم من الأمم في هذا السبيل ، لأننى أعتقد أنه لا يوجد بيننا في الداخل من يكره أن نكون وطناً عربياً قوياً موحداً . أما كيف ننهض بشئوننا كدولة عربية موحدة وجزء من العالم الإسلامى الأكبر ، أما كيف نفيد من توزيع الفلاحين البكادحين في هذه السهول الواسعة مع كثرة في السكان في جهة وقلة في جهة أخرى وانعدام في كثير من البقاع

الصالحه للسكنى والعمل والتعمير - كيف يفيد مصر السودان ويفيد السودان مصر - كيف يستفيد العراقي من المصري والمصري من العراقي - كيف يصبح لسوريا ولبنان والأردن وفلسطين واليمن مكانة مرموقة في الوطن العربي - كيف تنهض ياخواننا وأولاد عمومتنا في شمال أفريقيا - كيف تندمج كلنا في وحدة اقتصادية وثقافية كبرى فليس المجال في دراسة كل هذه المواضيع لمقال واحد ، وإنما نحن نفتح الباب على مصراعيه للعلماء والباحثين .

* * *

وهكذا وبعد هذا الوصف للبلاد العربية يجب ألا ينتهي بنا الأمر كما هو اليوم حيث انتهى بنا إلى الجهل والجوع والمرض والعري والحفاء وإلى محاولة بقاء كثرة من مواطنينا على الاستجداء وطلب المعونة والإحسان ، ولا سبيل للخروج من كبوتنا إلا أن يكون الاتحاد ديدننا والنظام رائدنا والعمل سيجتنا والإخلاص مبدأنا ، وعلينا أن نتذكر دائماً أننا أغنياء ، ولا نقصنا إلا الذهن يفكر فينتج والعقل ينظم ويُدبر والسواعد تُشد وتعمل ، والناس تُطيع والإخوة تتعاون والشعوب بمالك وجمهوريات تتحد ، وعلينا إذا طلبنا معونة فنية إلا نطلبها من هؤلاء الذين استعمرونا وقضوا على وحدتنا وفرقونا شيعاً وأحزاباً وعملوا لمصالحهم دون أن يعملوا لمستقبلنا .

عندئذ ستكون بلادنا من الفرات ودجلة والنيل العظيم إلى المحيط الأطلسي أعظم مما كانت عليه في ماضى الزمان وأخطر ما كانت على عمر الأيام ، وعندئذ تعود لنا الأيام الخالية ، عند ما كان ينتقل الطائر من بغداد إلى البصرة من شجرة إلى شجرة يتقل في حقل واحد وحديقة واحدة غير منقطعة ، لا يصادف أرضاً بوراً أو مكاناً مهجوراً ، وإذا كانت النشرات الأخيرة أشارت أنهم في روسيا وصلوا في بعض المعامل إلى حرارة تبلغ بضع ملايين من الدرجات أى قدر درجة الحرارة على السطح الشمسى ألف مرة وقد ذكرنا ذلك في مقالنا المعنون : الهندسة والطاقة الذرية ، الذى نشرته أخيراً رسالة الإسلام ، وإذا كانت النشرات التى طالعناها بعد ذلك أنه يوجد في روسيا عامل واحد لكل مسافة قدرها

٢٠٠ كيلو متر من السكك الحديدية ، وإذا كانت الصين الشعبية أخرجت هذا الشهر أول نفاثات من صنع بلادها يعد برنامج لم يطل سبع سنوات ، فلندرس نحن معشر العرب ما أصابنا من ضعف وما حل بنا من وهن ، فالأنهار موجودة لدينا ، والبترول متوفر في حقولنا ، والسواعد تسعى للعمل في كل مكان فلا تجده ، بل إن البترول يخرج من جديد في أماكن مختلفة من الوطن العربي والإسلامي ، فبالأمس في قرة شوك في سوريا الشقيقة وعلى حدود العراق اكتشفت حقول جديدة للبترول يبلغ طولها ٣٠ كيلومتراً وعرضها عشرة ، وفي هذا الشهر وفي قم ، في إيران اكتشفت آبار جديدة للبترول أيضاً وحاول فريق من خبراء العالم منع خروجه إلى سطح الأرض حتى تستعد الشركات لاستخراجه فكان من القوة أن غطى في فترة وجيزة مساحة قدرها ٣٠ كيلو متراً مربعاً - إن هذا الزيت يخرج إلينا ، إنه يسمى إلينا من أراضي الوطن العربي من سوريا العربية ، ومن أراضي الممالك الإسلامية من إيران الصديقة ، فليكن هذا البترول لنا ، ليسكن للعرب والمسلمين ، ليسكن لتعمير بلادنا ، ولينزل به الحفاء والجوع والجهل والمرض ، ليسكن لنا لا علينا .

• • •

علينا أن نعتقد أننا أغنياء في أوطاننا وسادة في بلادنا ، وأنه لا ينقصنا إلا الاتحاد والتنظيم ، ولا يعوزنا إلا أن نخلق جيلاً من المتعلمين ، وملايين من العمال المهرة والفنيين ، وأن نضع كل مواطن في المسكان الذي يجب أن يوضع فيه - إن السواعد عندنا قوية ، وتحتاج إلى من يعمل على تنظيمها واستخدامها لخير الوطن ، وإنني على يقين من أن مصرنا في القريب حياة أفضل ، منشؤها النظام ، ودينتها العمل ورائدتها الإخلاص والإيمان .

أما أن نكون تابعين لغيرنا فسوف لا يكون ذلك أبداً ، ولنذكر دائماً وليذكر غيرنا أننا أصل المدنيات ومبسط الأديان - لنذكر وليذكروا أننا في هذه الإنسانية جمعاء منحة عريقة من الماضي البعيد ، وهدية تدل عليها آثارنا ومجدنا التليد .
إننا الأغنياء وهم الفقراء | إننا الأقوياء وهم الضعفاء .

من محوت مجمع اللغة العربية^(١)

مبعم ألفاظ القرآن الكريم

— ٢١ —

تذكر يتذكر تذكرًا : ذكر مطاوع ذكر . ومنه : « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » ، ٢٧ / فاطر ، « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » ، ١٥٢ / الأنعام ، « إنما يتذكر أولو الألباب » ، ٩ / الزمر .

اذكر : تذكر بعد الإبدال والإدغام . ومنه : « وما يذكر إلا أولو الألباب » ، ٢٦٩ / البقرة ، « قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » ، ١٢٦ / الأنعام .

ادكر يدكر ادكاراً فهو مدكر : تذكر . على إبدال تاء الافتعال دالا وإبدال الذال دالا ثم إدغامهما ومنه : « وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة » ، ٤٥ / يوسف : أى تذكر بعد نسيان ، « ولفد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ، ١٥ / القمر . أى متذكر .

الذكر : ضد الانثى : ويبدو أنه إما مأخوذ من الذكرة وهي القطعة من الفولاذ تزداد في رأس الفأس وغيره . ولعلمهم أطلقوا على الرجل (الذكر) لأنه أقوى وأصلب من الانثى . وإما مأخوذ من الذكر بمعنى الحفظ على ما تقدم ، لأن الذكر يذكر به أبوه ويحفظ اسمه ونسبه . أو من الذكر بمعنى الرجل القوى الشجاع . جمعه ذكور وذكران .

(١) بإذن خاص من حضرة الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

ذکور ومنه : « وليس الذكر كالأنثى ، ٣٦ / آل عمران ، « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، ١٣ / الحجرات .

ذکران « قل آلذکرین حرم أم الاثنین ، ٤٣ / الانعام ، « ويهب لمن يشاء الذکور ، ٤٩ / الشورى ، « أو يزوجهم ذکراً وإناثاً ويمهل لمن يشاء عقبا ، ٥٠ / الشورى .

ذ ك و

ذکی بذکی تذکية : ذبیح والذکاة ایضاً الذبیح . مأخوذ من ذکت النار تذکرو ذکروا وذکاة : اشتد لهبها وتوقدها . وذکاهما وأذکاهما أوقدها . والذکوة : الحجرة الملتبئة .

وحقیقة التذکية بمعنى الذبیح : إخراج الحرارة الغریزية فی جسم الحيوان الذبیح کإخراجها من خشب الشجر والمواد القابلة للالتهاب . لكن خصت التذکية فی الشرع بإبطال الحياة علی وجه معین . وبدل علی ذلك قولهم فی الميت : خامد وهامد وفی النار الهامدة : ميتة . وقد ورد الفعل فی موضع واحد : « وما أكل السبع إلا ما ذکیتم وما ذبیح علی النصب ، ٣ / المائدة .

ذ ل ل

(أ) ذلّ بذلّ ذُلاّ وذلاّ وذلة وذلة وذلاّ ومذلة : هان عن قهر فهو ذلیل وذُلان ، وجمعه ذلال وأذلاء وأذلة .

(ب) وذلّ بذلّ ذُلاّ وذلاّ : لان وانقاد بعد تصعب وشماس من غیر قهر . فهو ذلول جمعه ذلل وأذلة .

نذل فن الأول قوله تعالى : « فنتبع آیاتك من قبل أن نذل ونخزى ، ١٣٤ / طه ، « ولم يكن له ولی من الذل ، ١١١ / الإسراء أى لم يتخذ ولياً يحافه لذلة به علی الذلة عادة العرب ، « ضربت عليهم الذلة والمسکة ، ٦١ / البقرة .

أذلة « واند نصرکم الله بیدر وأنتم أذلة ، ١٢٣ / آل عمران وهكذا فی ٦١ / البقرة ، ١١٢ / آل عمران ، ١٥٢ / الاعراف ، ٢٦ / يوسف ، ٢٧ / یونس ، ٤٥ / الشورى

٤٣ / القلم ، ٤٤ / المعارج ، ٣٤ / النمل ، ٣٧ / النمل ، ٨ / المناقون ، ٢٠ / المجادلة .

ومن الثاني قوله تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، ٢٤ / الإسراء ، أى جناح اللين والانتقياد والخضوع ، « أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، ٥٤ / المائدة ، « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين » ، ٢٠ / المجادلة .

ذلول « إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض » ، ٧١ / البقرة ، أى غير مذلة لحث الأرض وسقيها ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا » ، ١٥ / الملك : أى مهيأة يسهل السلوك فيها وركوب متنها .

ذلا « فاسلكى سبيل ربك ذللا » ، ٦٩ / النحل : أى متقادة سهلة مهيأة .

ذلل يذلل تذليلا : مهد وسوى وسهل . ومنه : « وذلك قطوفها تذليلا » ، ١٤ / الإنسان : أى دليت وسهلت .

أذل يذل إذلالا : قهر وأهان وأخضع ، ومنه : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » ، ٢٦ / آل عمران .

ذ م م

ذمة يذمه ذمّا ومذمة : عابه أو مدحه - ضد - غير أنه شاع فى العيب . فهو مذموم وذميم .

ذمة والذمة والذمام : ما يذم الرجل على إضاعته من عهد وكفالة ، ومنه : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » ، ٨ / التوبة ، « لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » ، ١٠ / التوبة أى قرابة وحلفاء وعهداً حقاً يعاب على إغفاله .

« لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » ، ٤٩ / القلم أى معيب قد لحقه الذم وكذلك فى ١٨ و ٢٢ / الإسراء .

ذ ن ب

ذَنَبَ يَذْنِبُ يَذْنِبُهُ ذَنْباً : تلاه فلم يفارق أثره . وذنب الدابة وغيرها ذنبه

معروف ، ويعبر به عن المتأخر والرذل . يقال : هم أذئاب القوم ، وأذنب : ارتكب ذنباً .

والذنب : الإثم وهو في الإصل : الأخذ بِذَنْبِ الشيء ، ثم يستعمل في كل فعل تستوخم عقابه ويسترذل اعتباراً بذنب الشيء ، ولهذا يسمى الذنب : د تبعة ، اعتباراً لما يحصل من عاقبته ، وجمعه ذنوب .

ومنه : د ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، ١٤ / الشعراء ، أى تبعة .
د فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ١٣٥ / آل عمران .
وهكذا في سائر الآيات .

والذنوب : الفرس الطويل الذنب ، والدلو التى لها ذنب أو التى فيها ماء أو الملائى ، ثم استعملت في الحظ والنصيب ، جمعها : أذنبه وذنايب وذناب .
ومنه : د فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ، ٥٩ / الذاريات .
أى نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم .

التحرير والتنوير

أهدى إلينا كتاب (التحرير والتنوير) وهو مقدمات نافعة ، يتلوها تفسير أسورة د الفاتحة ، وجزء عم ، من تأليف الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الجامع الأعظم وفروعه بتونس ، وقد نشرته دار الكتب الشرقية بتونس ، وهو يتضمن بحثاً جيداً ومقدمات مفيدة للمشتغلين بالتفسير ، وينبئ عن جهد عظيم بذله مؤلفه في تفسير سور الجزء الأخير من كتاب الله الكريم .

أَنْبَاءٌ وَأَرْاءُ

معهد الدراسات الإسلامية :

ابتدأ معهد الدراسات الإسلامية في منتصف هذا الشهر عامه الدراسي الثاني ، وأصبح يدرس به فرقتان : الفرقة الثانية وهي التي انتسبت إليه في العام الدراسي الماضي ، وفرقة جديدة هي الفرقة الأولى التي انتسبت إليه هذا العام ، وبذلك تم تكوينه الدراسي ، وقد نشط الأساتذة والطلاب إلى دروسهم وحلقات بحوثهم نشاطاً عظيماً مقبلين على هذا اللون من الدراسة والبحث الرفيع ، قادرين رسالتهم القادمة حق قدرها ، كحملة للفكر ، ودعاة للنهضة الإسلامية ، باذلين همهم وأوقاتهم لتلك الفكرة لا شيء سواها ، طالبين من الله التوفيق والهداية تحت راية الإسلام ، فإن التوفيق من عند الله ، والهدى هدى الله .

إننا لنغتنب إذ نرى هذا المعهد يسير في خطواته إلى الامام قوياً بغزائم أساتذته وطلابه ، مرموقاً بعين الرضا من مختلف البيئات العلمية التي أصبح له في دوائرها - على قرب العهد به - مكانة ومقام كريم ، ويزيد في اغتباطنا إن هذا العام الثاني قد افترن بإسناد منصب العمادة في المعهد إلى شخصية لها مكانتها ولها أفقها الإسلامي الواسع ، ولها تاريخها الناصع الحافل ، كما افترن بانتخاب مجلس إدارته الأول من خيرة أعلام الشريعة والقانون ، وكبار رجال العالم الإسلامي . وإننا لنعرجو بعد ذلك مظهراً إن شاء الله .

عبد الله بن سبأ :

هذا عنوان بحث جيد كتبه فضيلة العلامة السيد مرتضى العسكري بالكاظمية في العراق ، وقد درس فيه هذه الشخصية التي تعرف باسم : د عبد الله بن سبأ ،

ومحس القصة التي تروى في شأن هذه الشخصية منذ عشرة قرون ، وتنبع من مرضوا لها من المؤلفين قديماً وحديثاً ، وانتهى إلى أن القصة ترجع إلى مصدر واحد هو تاريخ الطبرى ، فإن جميع الذين ذكروها إما مستندون إليه أو إلى من أخذ منه ، ثم بين أن الطبرى أورد قصة السبئيين في كتابه « تاريخ الأمم والملوك » ، منحصرأ عن طريق « سيف بن عمر التميمى البرجمى الكوفى المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، ثم تنبع أمر سيف هذا في كتب الرجال فوجد العلماء يصفونه بأنه (يروى عن خلق كثير من المجهولين ، ضعيف الحديث ، ليس بشيء ، متروك يضع الحديث ، وهو فى الرواية ساقط ، يروى الموضوعات عن الثقة ، عامة حديثه منكروه ، منهم بالوضع والزندقة) .

وهذه الأوصاف التي وصفه العلماء بها ثابتة فى « الإصابة » و « الاستيعاب » ، و « ميزان الاعتدال للذهبي » ، و « فهرست ابن النديم » ، نقلاً عن جماعة من علماء الرجال : كابن معين ، وأبى حاتم ، وأبى داود ، والنسائى ، والدارقطنى ، وابن عدى ، وابن حبان ، وعباس بن يحيى ، وغيرهم .

ثم تنبع المؤلف أحاديث (سيف) هذا ومروياته ، ناقداً إياها نقداً موضوعياً يتبين منه ما فى كثير منها من الخلط وأمارات الوضع ، ومن البواعث التي بعثته إلى ذلك .

إننا لا نذكر هذا لنعرض الكتاب أو لنشيد به ، وإنما نذكره لأنه تضمن فكرة جديدة هى جديرة بالبحث ، فإن شخصية يشتهر خبرها ، وقصة تتوارد وقائعها ويترتب عليها أحكام تاريخية هامة ، ويتناقلها المؤلفون قديماً وحديثاً من إسلاميين ومشتشرقين ، من أمثال الطبرى ، وابن عساكر ، وابن الأثير ، وابن كثير ، ورشيد رضا ، وفريد وجدى ، وأحمد أمين ، وحسن إبراهيم حسن ، وفلوتن ، ونيكلسن ، ودوتلدسن ، وغيرهم - إن شخصية يتناقلها أمثال هؤلاء ، ويروون أخبارها ، ويبنون عليها ، ثم لا يكون لها سند إلا راو ضعيف مشهور بالوضع

والاختلاق ؛ ليعد دخولها في التاريخ أعجوبة بل أكذوبة كبرى ، ويترتب على ثبوت هذه الحقيقة انقلاب في كل ما بنى عليها .

وقد يكون لنا على هذا البحث بعض المآخذ من ناحية ذكر بعض التفاصيل التي كان من الممكن الاستغناء عنها ، رغبة عما فيها من إثارة وتحريك أضغان وتغذية عصبية ، تلك النواحي التي تنافي التقريب وما يعمل له من تأليف القلوب وجمع الكلمة ، غير أن هذا لا يفض من قيمة هذا البحث الجيد ، ولا من خطورة شأنه .

١ — الكتاب الذي هو الهند :

٢ — حقيقة الباكستان :

في حدود ما أخذنا به أنفسنا من النصيحة للمسلمين دون تفرقة بين شعب وشعب ، ولا طائفة وطائفة .

ورغبة منا في رعاية مبدأ هام أساسه إثبات الحقيقة ، والاستقامة على الطريقة .
نكتب هاتين الكلمتين :

١ — اطلعنا على فصلة من « رسالة الباكستان » في شكل كتيب مطبوع بعنوان « الكتاب الذي هو الهند » قدمت له هذه المجلة بمقدمة جاء فيها ما نصه :

« نزولا على رغبة قرائنا في الشرق الأوسط ، يسرنا أن نضع بين أيديهم ترجمة صادقة لذلك الفصل من كتاب « تراجم الزعماء الدينيين » الذي كثر حوله الحديث في الآونة الأخيرة ، لما احتوى عليه من تعريض بالرسول الكريم ، ولما تسبب عنه في الأيام القليلة الماضية من حوادث كثيرة . . . وقد قامت بنشر هذا الكتاب دار هندية للنشر . . . وما كاد يعرض في أسواق الهند حتى احتج عليه المسلمون في سائر أنحاء الهند ، وعددهم زهاء أربعين مليوناً . »

وعما جاء في هذه المقدمة أيضا : « وكل ما نفعله هنا هو تقديم ترجمة للفصل الذي عقد في هذا الكتاب حول الرسول الكريم ، . . . واقصد صرح زعيم هندي

في المملكة العربية السعودية أخيراً بقوله : « إن الهند تكن كل حب واحترام المسلمين ، ولعل هذه هي الصورة التي يتجلى فيها هذا الحب والاحترام في الهند » . هذا ما بينت به « رسالة الباكستان » غرضها من نشر هذا الفصل في أحد أعدادها بعد ترجمته إلى اللغة العربية ، ثم من إعادة طبعه منفصلاً في كتيب غمريه المشتغلون بالعلم والدراسات الإسلامية وغيرها ، ولعل نسخة التي وزعت قد بلغت عشرات الألوف عدا ، وقد قرأنا الفصل المشار إليه الذي تعرض للرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، فوجدناه يمثل لونا من ألوان الانحراف والتعصب الذي لا يعرف الإنصاف على هذا المقام الأقدس ، شأن هؤلاء المستشرقين وأبناء جلدتهم ممن أولعوا بتشويه الإسلام ، ورسول الإسلام .

بَسَدَ أننا لم نستحسن ما فعلته المجلة من ترجمة هذا الفصل الزاخر بالطعن على الرسول الكريم إلى اللغة العربية ، ثم من نشره ، ثم من تكرار هذا النشر مرة أخرى ، فإن من الواضح إنها قدمت بذلك خدمة كبرى لمؤلف هذا الفصل ولأصحاب المصلحة في بث فكرته بين المسلمين وغيرهم ، فهل كان يتيأ لهم بهذه السهولة ما هيأته « رسالة الباكستان » ، أولا وثانياً - ولعلها تعزم أن تهينه أيضاً ثالثاً ورابعاً - من هذا النشر الواسع المنظم الذي استدعى كثيراً من الجهود ، وكثيراً من النفقات ؟

إن الفائدة التي تعود على الباكستان من إشاعة خطأ وقعت فيه دار هندية للنشر ، لا تساوى عشر معشار الضرر الذي أصاب المسلمين بتعريض عقول أبنائهم وجمهور مثقفهم إلى هذا اللون من الطعن والتلبيس ونشر قالة السوء عن رسولهم الكريم بأيدي إسلامية ، وأموال إسلامية ! . وإن من الأكرم المسلمين أن يرفعوا بمقدساتهم عن الزج بها في معترك الأمور السياسية .

وإذا لم يكن بد من التعرض لمثل هذا الفصل ، وفضح الأغراض السيئة المتصلة به ، أفما كان من الواجب أن يدرس ما جاء فيه علمياً وينقد ويرد عليه رداً قوياً وينشر هذا الرد معه ؟

٢ - وبهذه المناسبة نذكر لنا اطلعنا أيضا على رسالة بعنوان (حقيقة باكستان يجب أن يعرفها العالم الحر) فوجدناها - مع أعضائها كثير من الحقائق التي يجب أن يفتن لها المسلمون عن الاستعمار وأساليبه - تتحدث عن باكستان حديثا فيه كثير من الإساءة وكثير من التظن ، ولا شك أن أعداء المسلمين يسرهم أن يروا كتابهم يضرب بعضهم بعضا ، ويثير بعضهم الشكوك والريب عن بعض ، لأنهم وحدهم هم الذين يفيدون من ذلك ، حيث يعينهم على ما يبتغون من تفريق كلبة المسلمين ، وتشقيت أمتهم .

إن الباكستان - ويجب أن لا ننسى هذه الحقيقة - دولة من الدول الإسلامية ناشئة ، وبها يزداد المسلمون قوة وانبعاثا ، وإذا كان لها أخطاء أو اتجاهات قد يعترض عليها بعض المعترضين ، فإن من الحفاظ على رحم الإسلام ، ومن الوفاء لإخوة الإسلام ، أن يترفق المعترضون ، ولا يثيروا اعتراضاتهم علنا في شكل رسائل مطبوعة منشورة يقرؤها العدو والصادق .

فالذي أخذناه على (رسالة الباكستان) في اهتمامها بنشر الطعن في المقام الأقدس بعد ترجمته إلى اللغة العربية ؛ نأخذه على مؤلف رسالة (حقيقة باكستان) ونسأل الله أن يهب المسلمين من لدنه رحمة ، وأن يوجه قادتهم وأصحاب الأفسكار والأقلام فيهم إلى طريق الائتلاف والمحبة والتواصى بالحق والتواصى بالخير في هدوء وإخلاص وحسن تقدير للروابط التي ألف الله بها بينهم .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدنى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، وألا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الاخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالنى هى أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للوادة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فافسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .

وعلى الجملة ، نرجو ألا يأخذ أحد القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : -

ا - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية و الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٣٣٩	كلية التحرير
٣٤١	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت	تفسير القرآن الكريم
٣٥٣	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه	حق الله وحق العبد
٣٥٧	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره	المجتمع القرآنى
٣٦٦	لفضيلة الأستاذ ابن الدين	أيها أصلح لحالتنا الدينية والاجتماعية
٣٧٠	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عرفه	كيف يستعيد المسلمون وحدتهم وتناصرهم
٣٧٤	للككتور على عبد الواحد وافي	نظام البناء وصمة في تاريخ بنى الإنسان
٣٨٠	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بربرى	قال شيخى
٣٩٠	لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد التعال الصعیدى	الفرق والغرب قبل الإسلام وبعده
٣٩٦	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوى	في التاريخ والأدب
٤٠٥	لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد الدنى	أسباب الاختلاف [بين أئمة المذاهب الإسلامية]
٤٢١	لفضيلة الأستاذ الشيخ على الهامى	مستقبل الشعر
٤٢٦	للمهندس الدكتور محمد محمود غالى	عناصر القوة في مجتمعنا
٤٣٧		معجم ألفاظ القرآن الكريم
٤٤١		أبناء وآراء

معهد الدراسات الإسلامية - عبد الله بن سبأ -
الكتاب الذى هز الهند - حقيقة الباكستان

٤٤٦	رجاء من التقريب
٤٤٧	من القانون الأساسى لجامعة التقريب

رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مجلة إسلامية عالمية
تصدر من دار النشر بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

صاحب الامتياز : محمد النقي القمى

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون : ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك في السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها